

منير شفيق

الاستراتيجية والتكتيك في

فَن عِلْمُ الحَربْ



من السيف والدروع.. إلى الصاروخ والأنفاق

مع ملحق:

«بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى»

منير شفيق

الاستراتيجية والتكتيك في

فَن عِلمُ الحَربْ

من السيف والدروع.. إلى الصاروخ والأنفاق

منير شفيق



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-494-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

فهرست

الفصل الأول

الاستراتيجية

- 1 -

- 2 -

- 3 -

الفصل الثاني

الاستراتيجية النووية 1949 – 2008

القواعد الأساسية في علم الحرب

- القسم الأول -

الاستراتيجية في العصر النووي

- القسم الثاني-

القواعد الأساسية في علم الحرب

الفصل الثالث

التكتيك

- 1 -

- 2 -

- 3 -

- 4 -

الفصل الرابع

القسم الأول: مرحلة الحرب الباردة

القسم الثاني: مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

- 2 -

- 3 -

تذكير علم

الفصل الخامس

بين حروب نابليون

وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى

- 1 -

- 2 -

- 3 -

تنويه

لقد أسقطت هوامش الاستشهادات من هذا الكتاب، بسبب كثرتها من ناحية، ومن أجل تسهيل قراءته بالنسبة إلى القارئ العادي من ناحية ثانية. أما المراجع الأساسية التي أخذت منها تلك الاستشهادات، والتي اعتمد عليها في طرح موضوعات هذا الكتاب ولا سيما ما له علاقة بتأريخ تطور الحرب (ليدل هارت وآخرون)، فقد أثبتت المراجع في نهايته. أما السبب فيرجع إلى كونه موجهاً في الأساس إلى قوى المقاومة لتعرف كيف يفكر قادة جيوش الاحتلال، وربما أفادت منه القيادات الاستراتيجية العربية والاسلامية.

هذا وثمة هدف آخر وهو أهمية دراسة علم الحرب للتفكير السياسي الاستراتيجي ولفهم السياسة الدولية وللتحليل السياسي وتقدير الموقف. فكل من يهتم بالسياسة والاستراتيجيات الدولية لا بد له من معرفة أساسية أو أولية في الاستراتيجية والتكتيك في علم الحرب.

الفصل الخامس من هذا الكتاب قام بمقارنة بين حروب الفتوحات العربية الاسلامية الأولى وحروب نابليون. وذلك من جهة تصحيحه لتجاهل العلم العسكري الغربي للتطويرات التي أحدثتها الحروب العربية الاسلامية في علم العرب. أما من الجهة الثانية فقد أريد من هذا الفصل أن يكون برهاناً يعزز الإشارات التي وردت في متن هذا الكتاب حول الإنجازات العربية في هذا المجال.

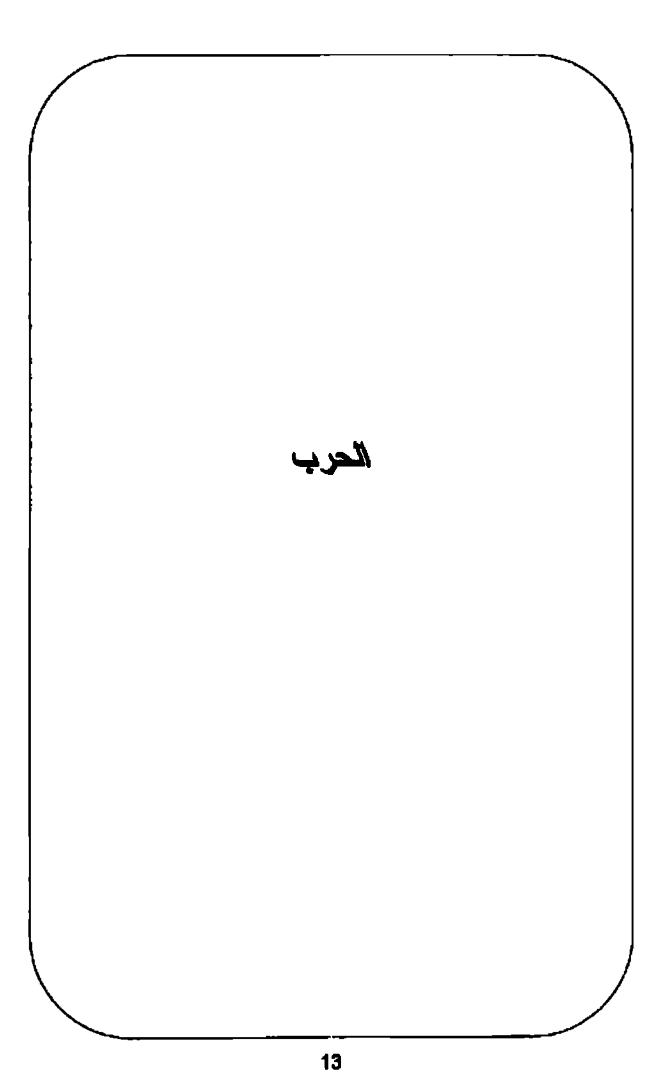
يمكن اعتبار هذه النسخة معدلة ومنقّحة ومطوّرة عن النسخة الأولى التي صدر فيها كتاب علم الحرب عام 1971. فمن جهة جرت بعض التصحيحات للأخطاء المطبعية أو اللغوية، وأحدث من جهة أخرى تصحيح لبعض المصطلحات والمفاهيم وقد أُشير إلى أهمها في الهوامش ولماذا؟ ولكن التعديل والتطوير في هذه النسخة فقد تناول التطورات التي حدثت في مجالات الاستراتيجية والعمليات والتكتيك ونظريات الحرب الحديثة ما بين 1971 و2008 ليكون هذا الكتاب

مواكـــباً لآخر التطورات وليس إعادة طبع لكتاب قديم. فكانت المحافظة على البنية الأساســية ضرورية ومفيدة للبناء عليها في فهم فن علم الحرب لا سيما من زاوية الحروب النظامية التقليدية أو الحروب النظامية المعاصرة في مواجهة "الحرب وسط الـــشعب" كما يسمّيها الجنرال روبرت سميث (سيأتي ذكره مع آخرين). أو بعبارة أخـــرى الحرب النظامية المضادة للمقاومة والانتفاضات والحرب الشعبية والحرب الغوارية.

بيروت: 26 جمادى الثانية 1429 هـــ

30 حزيران/يونيو 2008 م

المؤلف



الحرب

الحرب

مدخل عام

الحرب عملية صدام وحشي يقتتل فيها البشر محطمين بعضهم بعضاً جسدياً - إنها عملية قتل جماعي - بقصد تحقيق أهداف محددة. ولكن الحرب ظاهرة لها أسبابها. وقد رافقت المجتمعات البشرية منذ فجر الحضارة الإنسانية حتى اليوم، وستبقى إلى زمن طويل قادم إلى أن تلغى الأسباب التي تولد الحروب ولا مؤشر إلى ذلك.

إذا كانت الحرب تشنّ لتحقيق أهداف محددة - لا أحد يقاتل من أجل القتال - فلا بدّ من أن ترى ضمن نطاق أهدافها وضمن طبيعة القوى التي تشنها. إن رؤية الحرب ضمن هذا الإطار يقسم الحروب إلى قسمين رئيسيين: **حروب عادلة، وحروب غير عادلة**. أما معيار العدالة أو اللاعدالة في الحرب فينطلق من زاوية عدالة، أو عدم عدالة، الأهداف التي تشنّ الحروب بقصد تحقيقها. إنه ينطلق من طبيعة القوى[1] التي تشنّ الحرب، ولماذا تشنّها، وما هو الدور التاريخي الذي تلعبه كل من القوى المتحاربة، هل هو دور أخلاقي عادل يدفع التطور الإنساني إلى أمام؟ أم هو دور لا أخلاقي يعطل الحياة الإنسانية[2]؟ وهنا نجد أنفسنا أمام طراز من الحروب شنتها قوى دولية بقصد النهب والاضطهاد والاستعمار، أي بقصد إخضاع الجماهير والشعوب والأمم للاستغلال بمختلف

---

(1) في الأصل من طبيعة الطبقة أو الطبقات"، لكن استخدام طبيعة "القوى" أشمل.

(2) في الأصل "دور تقدمي" ولكن هذه خرجت الآن من التداول وتفسيرها في الأصل مسألة خلافية. وكذلك أسقط تعبير دور رجعي للأسباب نفسها. ذلك لأن المعيار لدى الماركسية مرتبط بتطور قوى الانتاج وعلاقات الانتاج أو ما يسمى بمراحل التطور التاريخية (المشاعية، العبودية، الاقطاع، الرأسمالية، الاشتراكية، الشيوعية) فيما المعيار الأدق هو المتعلق بالقيم والعدالة والحق، أو في الأقل الجمع بين الجانبين بدقة وتوازن.

أشـــكاله. هـــذا الطـــراز من الحروب شنّ، ويشنّ، منطلقاً من طبيعة عدوانية اســـتغلالية موجه ضد الجماهير العريضة من البشر، ومن ثم فإن هذا الطراز من الحـــروب، يتسم باللاعدالة، ويمكن رؤية أمثلة عليه في الحروب التي وقعت بين الأباطرة والملوك والغزاة في الماضي، أو بين الدول الإمبريالية في العصر الحديث، مـــثلاً، الحرب العالمية الأولى إلى جانب حروب الاستعمار القديم والجديد ضد شعوب آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. ولهذا فإن الحروب اللاعادلة ذات ثلاثة أشكال:

1. حروب بين الدول الإمبريالية فيما بينها، أو بين الغزاة العدوانيين في ما بينهم، مثلاً الحروب بين الإمبراطوريات القديمة أو الحرب العالمية الأولى والثانية.
2. حـــروب مـــن جانب دول الاستعمار القديم، أو الاستعمار الجديد، ضد الـــشعوب المستـــضعفة، مثلاً العدوان الأميركي على فيانتام سابقاً وعلى العراق حالياً.
3. حروب أهلية تشنّها قوى اجتماعية ضد أخرى في بلادها، وهذه قد تكون عادلة أو غير عادلة وفقاً لكل حالة.

وفي المقابـــل كانت هنالك حروب عادلة شنّت على مدى التاريخ، وتشنّ في الوقت الحاضر، وستشنّ في المستقبل ضد الحروب اللاعادلة، وبقصد تحقيق أهداف هـــي لمصلحة الجماهير العريضة من البشر وفي اتجاه العدالة بين البشر مثل حروب التحـــرر الوطني ضد الاحتلال الاستعماري، أو الحروب الأهلية لإسقاط الطبقات الاستغلالية المستبدة الفاسدة أو العميلة، ومن أجل بناء مستقبل عادل بين الشعوب خالـــو من الاستغلال والاضطهاد، وآمن من وحشية الحروب وبربريتها، وهذا ما يعطي هذا الطراز من الحروب صفة العدالة والدفاعية. ولهذه الحروب ثلاثة أشكال رئيسية أيضاً:

1. حـــروب وثـــورات الـــشعوب المضطهَدة ضد الغزو الأجنبي والاستعمار والاحـــتلال. مثلاً حرب التحرير الفيانتامية والثورة الفلسطينية والجزائرية، والمقاومة المسلحة اللبنانية والعراقية والأفغانية أو المقاومة ضد دول المحور في الحرب العالمية الثانية.

2. حروب من جانب الدول المتحررة ضد الدول الإمبريالية أو التي تدافع ضد عدوان خارجي. مثلاً حرب الاتحاد السوفياتي ضد الغزو النازي في الحرب العالمية الثانية، ومن أمثلة القسم الأول حرب مصر ضد الكيان الصهيوني عام 1967، أو ضد الغزو الثلاثي 1956.
3. حروب أهلية تشنّها الطبقات المضطهَدة المستغلّة ضد الطبقات الحاكمة في بلادها. مثلاً الحرب الأهلية في الصين، والثورة المسلحة في لاوس، وثورات اليونان والفيليبين والملايو في النصف الثاني من الأربعينيات.

إن كلا من الأشكال الثلاثة الخاصة بالحرب اللاعادلة، والأشكال الثلاثة الخاصة بالحرب العادلة، عبارة عن الأشكال الرئيسية فقط، إذ هنالك عدة أشكال أخرى هي جماع شكلين أو أكثر من الأشكال، مثلاً حروب أهلية تشنّها قوى متواطئة مع الخارج مصحوبة بحرب غزو إمبريالي، أو في المقابل حروب تشنّها الدول المستقلة مصحوبة بالمقاومة وحروب الشعوب المضطهدة ضد عدوان خارجي. وهنالك أيضاً طراز من الحروب العادلة يعقد فيها تقاطع بين بعض الأشكال الثلاثة للحروب العادلة مع إحدى دول المجموعة الأولى، ضد غزو إمبريالي واحتلال وهو ما عليه أكثر من مثال في مرحلة الحرب الباردة.

كان كارل فون كلاوزفيتز CLAUSEWITZ (ألماني 1780 – 1831) قد عرّف الحرب بأنها استمرار السياسة بوسائل أخرى – عنيفة. وقبلت الماركسية اللينينية هذه الموضوعة، ولكنها ركّزت على كشف طبيعة السياسة التي تشكل الحرب استمراراً وانعكاساً لها، وذلك من أجل الكشف عن المحتوى الطبقي للحرب، يقول لينين "إن الطبيعة الطبقية للحرب يجب البحث عنها ليس في التاريخ الدبلوماسي للحروب، وإنما بتحليل الواقع الموضوعي للطبقات الحاكمة في كل البلدان المتحاربة". أو كما يقول، بعبارة أشمل، "من هي الطبقة التي تشنّ الحرب وتستمر في شنّها، هذا هو السؤال الهام جدا!"[1] وذلك لتحديد الموقف من الحرب، أي عدالتها، وعدم عدالتها. ويستخلص لينين حتمية الحروب ليس بين

(1) استخدام طبقة محدود إذ الأشمل استخدام "القوة السياسية والاجتماعية" مع اعتبار ما تحمله من أيديولوجية وأهداف. فتحديد الطبقة ليس ممكناً في كل الحالات.

الدول الإمبريالية فيما بينها فحسب، وإنما أيضاً، إمكانية وحتمية الحروب العادلة من جانب المضطهدين، ما دام هنالك أمم مقهورة وطبقات مستغلّة. ويصنف الحروب الثانية - الحروب العادلة - إلى ثلاثة أصناف: "أولاً الحروب والثورات الوطنية الثورية، وثانياً الحروب والثورات البروليتارية ضد البرجوازية. وثالثاً حروب وثورات يجتمع فيها الطرازان السابقان".

أما ماوتسي تونغ فينطلق من موضوعة كلاوزيفتز وموضوعات لينين، وأخيراً يعطي تعريفاً للحرب أكثر تكاملاً من تعريف كلاوزيفتز فيقول: "الحرب هي أعلى أشكال الصراع لحلّ التناقضات بين الطبقات أو الأمم أو الدول أو المجموعات السياسية، عندما تتطور تلك التناقضات إلى مرحلة معنية. وقد وجدت هذه الظاهرة منذ بزوغ الملكية الفردية وتكّون الطبقات"[1]. "وإذا لم تفهم الظروف الواقعية للحرب وطبيعتها وعلاقتها بالأشياء الأخرى فلن تعرف قوانين الحرب، أو تعرف كيف توجهها، أو تكون قادراً على إحراز النصر".

وهنا نصل إلى النتائج التالية:

1. لا يكفي أن نصف الحرب بالوحشية ونشجبها لتنتهي الحروب، وإنما يجب رؤيتها كظاهرة تشكل أعلى أشكال الصراع لحلّ التناقضات عندما تبلغ مرحلة عدائية. وبالتالي علينا أن "نعارض الحرب بالحرب" نعارض "الحرب الإمبريالية العدواني بالمقاومة أو بالحرب الثورية الوطنية" ونعارض "الحرب المضادة المتواطئة مع الإمبريالية بالحرب الثورية أو المقاومة باختلاف تسمياتها وصفاتها وسماتها" أو بكلمات أخرى، علينا أن نعارض الحرب غير العادلة بالحرب العادلة. هذا هو الطريق للقضاء على وحشية الحروب وبربريتها. أو في الأقل الطريق لردع العدوان وحصره في أضيق الحدود وإلاّ استشرى واستفحل.

(1) استخدام ماوتسي تونغ لحل التناقضات بإجمال الأمم والدول والمجموعات السياسية أشمل من الاقتصار على "الطبقة". ولكن يعود فيقع في أسر المقولة الماركسية في استخدامه "منذ بزوغ الملكية الفردية وتكوّن الطبقات". وذلك لمحدودية انطباقها على بعض المجتمعات لا كلها، كالحروب بين القبائل التي لم تعرف الملكية الفردية وتكوّن الطبقات وفقاً لها.

2. الحرب هي استمرار للسياسة بأساليب أخرى، أو قل هي شكل صراع - أعلى أشكال الصراع - لحل التناقضات، أي أن الحرب ميدان خاص مستقل تحكمه ظروف خاصة به، وبالتالي له قواعده وقوانينه الخاصة. فالحرب استمرار للسياسة ولكنها ليست السياسة، والحرب صراع لحلّ التناقضات ولكنها شكل خاص من الصراع. وبكلمات أخرى يجب أن تعامل الحرب باعتبارها حرباً لها ميدانها الخاص وسماتها المحدّدة. ومن ثم يجب أن تدرس وتعالج كونها مجالاً مستقلاً قائماً بذاته من ناحية، وباعتبارها مجالاً متولداً ومتأثراً بمختلف المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية الإيديولوجية من ناحية ثانية.

لكي لا تبدو تلك الموضوعات نظرية تجريدية فلنلقِ نظرة سريعة على الوضع العالمي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى اليوم، لنلاحظ:

1. أصبحت الحرب في العصر الذري عملية مستمرة حتى في ظلّ ما يسمى بوقت "السلم"؛ فالعالم أو على الأصح الدول الكبرى، في حالة حرب دائمة غير معلنة، وما السباق النووي والصاروخي والتقاني (التكنولوجي) والفضائي إلاّ حالة حرب - وسنعالج هذه القضية تفصيلاً في فصل لاحق مستقل.
2. شهد العالم سلسلة من حروب الغزو الإمبريالية نذكر منها العدوان الأميركي على كوريا وفياتنام، والعدوان الثلاثي على مصر، والعدوان الصهيوني 1967 على مصر وسوريا والأردن.
3. شهد العالم سلسلة من الانقلابات العسكرية التي صمّمتها الـ سي. آي. إيه الأميركية وأبرزها تشيلي ضد ألليندي وإندونيسيا ضد سوكارنو.
4. سلسلة من الثورات والمقاومات التحررية والثورية - الجزائر، فياتنام، كمبوديا، لاوس فلسطين، لبنان.

وإذا ألقينا نظرة على وضع بلادنا العربية فسنجد أن الحرب بكل أشكالها تعيش بين ظهرانينا دائماً:

1. الحرب الصهيونية لاحتلال القسم الأكبر من فلسطين 1948 - 1949.

2. حرب العدوان الثلاثي على مصر 1956.
3. التدخل الأميركي العسكري في لبنان، والإنـــزال البريطاني في الأردن عام 1958.
4. حـــرب الغـــزو الـــصهيوني حزيران/يونيو 1967 - احتلال كل فلسطين وسيناء ومرتفعات الجولان السورية وتعطيل قناة السويس.
5. حـــرب اشتباكات مستمرة (حرب الاستنـــزاف) على قناة السويس لمدة ســـنتين 1968 - 1970 بـــين الجمهـــورية العـــربية المتحدة وبين الجيش الصهيوني. كما حرب استنـــزاف سورية على الجولان بعد حرب تشرين 1973.
6. الحرب في اليمن 1962.

هذه فقط الحروب ذات الطابع النظامي أو الحرب التقليدية، فضلاً عن سلسلة طـــويلة مـــن الـــثورات المسلحة والاشتباكات الغوارية وغير الغوارية مع القوى الاســـتعمارية أو الـــتهديدات الإمبريالية بالتدخل المباشر، إلى جانب امتلاك العدو الصهيوني في فلسطين حوالي مائتي قنبلة نووية[1].

إن كـــل هذه الوقائع تجعل مـــسألة دراسة الحرب وفهمها مسألة حيوية ليس بالنـــسبة إلى المختـــصين فحـــسب، وإنمـــا أيضاً بالنسبة إلى المثقفين والصحفيين والـــسياسيين والفنـــيين والعلماء والمناضلين والجماهير. بل إن ظاهرة تحول الثقافة العـــسكرية إلى ثقافـــة عامة للشعب، أصبحت ظاهرة عالمية في كل البلدان. لأن الحرب ومسائلها أصبحت تعتمد اليوم أكثر من أي يوم مضى على الجهد الجماعي للأمـــة كلـــها سواء أكان في عمليات الموعرة أم الميدان[2]. إذ لم تعد عملية قيادة الحـــرب ووضـــع اســـتراتيجيتها من اختصاص الجنرالات وحدهم فقد أصبحت

---

(1) هـــذه الأمثلة أبرزت عام 1970 في أثناء كتابة "علم الحرب"، والقارئ يستطيع الآن أن يعدّ كم من حروب الغزو تعرّضت لها بلادنا ولم تزل منذ ذلك التاريخ إلى اليوم وكذلك أن يعدّ حالات المقاومة والممانعة في مواجهتها وأبرزها في فلسطين والعراق ولبنان وأفغانستان في الخمس سنوات الماضية 2001 - 2007.

(2) تـــشكل سويسرا المحايدة المسالمة نموذجاً للتعبئة الشعبية العسكرية الجماعية للأمة في حالة تعرضها لغزو خارجي.

الاستراتيجية - حتى في الدول الغربية الرأسمالية - ترسم على طاولة مستديرة يلتف حولها القادة السياسيون والجنرالات وأصحاب الاختصاصات المختلفة. أما في الصين الشعبية، فإن دراسة الحرب وقواعدها جزء أساسي من برامج التعليم في المدارس والجامعات، ومن الثقافة العامة للشعب كله. وعندما نتحدث عن الثقافة العسكرية أو دراسة قواعد فنّ الحرب لا نقصد التدريبات أو التمرينات العسكرية على فكّ السلاح وإطلاق النار والصف بالطابور فهذه تحصيل حاصل، وإنما نقصد دراسة الموضوع على أعلى مستوى الاستراتيجية والعملانية والتكتيك.

إن بلادنا العربية تواجه خطراً يتهدّدها إلى أجيال قادمة، وهذا الخطر مدجج بالسلاح ويلجأ للحرب لتحقيق أهدافه وغاياته العدوانية التوسعية والاستعمارية. إنه خطر الكيان الصهيوني والجيوش الإمبريالية. وليس لنا من سبيل إلاّ الدفاع عن بلادنا وجماهيرنا ومستقبلنا، وستكون الحرب جزءاً هاماً في هذا الدفاع، وعلينا أن ندركها ونعرف كيف نعدّ لها ونواجهها ونخوضها بنجاح. وإذا كانت الحرب عملية صدام وحشي يحمل الكوارث والدمار والويلات، إلاّ أنها مفروضة علينا وتعيش بين ظهرانينا، وعلينا أن نواجه هذه الحقيقة المرّة ونحوّل مرارتها إلى حلاوة انعتاق إنساني. إن الذين يدركون قواعد علم الحرب ويعرفون كيف يعالجون مسائلها ويعرفون كيف يقودونها، هم وحدهم الذين يخففون من ويلاتها ويستطيعون إزالة أخطارها.

أما استمرار الجهل في هذا المجال، أو محاولة دفن الرؤوس في الرمال، فلن يدفعا الحرب عنا، ولن يخففا من وحشيتها وويلاتها، وسيلدان دائماً نكسات عسكرية من طراز ما حدث في عام 1948/1949، وعام 1967[1].

هل الحرب علم أم فنّ؟

ثمة عسكريون ومثقفون يتشدّدون بتسمية الحرب بعلم الحرب، وثمة آخرون - وهؤلاء الأغلبية - يسمونها بفنّ الحرب. وكثيراً ما دارت مناقشات حول هذه

(1) استخدام وصف هزيمة عسكرية "بالمعنى الذي يعرفه فون كلاوزفيتز غير منطبق لأن الاستسلام العسكري أو التجريد من السلاح لم يحدثا. ولهذا استخدم نكسة أدق وأكثر مطابقة عدا لمن يريد تحويلها إلى هزيمة سياسية واستسلام".

التسمية لأنها هنا ليست مجرد خلع اسم ما على موضوع، وإنما لأنها تحمل في طيّاتها موقفاً من موضوع الحرب، هل ينظر إلى مجال الحرب كمجال خاضع للدراسة العلمية والخروج بالقوانين العلمية التي تحكمه؟ أم ينظر إليه كمجال لا يستطيع العلم معرفته وضبط قوانينه، وبالتالي فهو ضمن مجال الفنّ لا العلم؟

في الواقع، ثمة صراع، منذ أمد طويل، في المجال الفلسفي والثقافي حول مسألة الظواهر الاجتماعية هل هي محكومة بقوانين في حركتها يمكن اكتشافها ومن ثم التحكم فيها، أي هل تدخل ضمن مجال العلوم، أم هي مجرد تراكم عرضي للأحداث لا تخضع للدراسة العلمية لأنها غير محكومة بقوانين في نشوئها وتطورها وآليات حركتها وزوالها؟ وصل الاتجاه الثاني قمة التعبير عن نفسه على يد سورين كيركغارد (soren kierkegaard 1855-1813) الذي أكد أن الضرورة أو القانون ينطبقان على الذرات أو على المادة اللاواعية، أو حسب تعبير كيركغارد "على الجثث". أما البشر والمجتمع فلا ضرورة ولا قوانين تحكم حركتهما. أما الاتجاه الثاني - بيكون، ديكارت، سبينوزا، كانط، هيجل، ماركس - فقد اعتبر التاريخ الإنساني والنشاط الاجتماعي والظواهر الاجتماعية ليست مجرد تراكم عرضي للأحداث، وليست مجالات لا يمكن فهمها واكتشاف القوانين التي تحكم حركتها. أو بكلمة أخرى إن حركة المجتمع ومختلف ظواهره تقع ضمن مجال العلم، وبذلت المحاولات لجعل التاريخ علماً وكذلك الاقتصاد والسياسة ومختلف المجالات الاجتماعية والسيكولوجية.

ولكن كان من الواضح لأكثر الذين عالجوا هذه المجالات باعتبارها علوماً أن مفهوم العلم هنا أو على الأصح القوانين التي تعمل في المجال الاجتماعي هي قوانين ذات اتجاه وهي تقريبية نسبية تقع ضمن الإرادة الواعية للبشر وفعلها. فهي تؤثر على صوغ تلك الإرادة، ولكنها تتمّ من خلال تلك الإرادة ووعيها. ولهذا حين تستخدم كلمة علم في دراسة آية ظاهرة اجتماعية واكتشاف قوانينها، يجب ألاّ تفهم بالمعنى الضيق للعلم الذي ينطبق على المجالات المادية الطبيعية، لأن قصر العلم على المجالات التي يمكن ضبطها بقوانين تنطبق على كل حالة جزئيّة من حالات الظاهرة الواحدة - بمعنى تكرار الظاهرة - يستبعد العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع

وعلـم الـنفس والـتاريخ والاقتصاد كما يستبعد مجال الحرب، بل يستبعد أيضاً مجـالات مـن العلوم الفيزيقية والرياضية مثل السبرنطيقا وعلم الاحتمالات ورؤية الاتجاهـات في حـركة أدق الأجزاء المادية. أما إذا حمل العلم تعريفاً أوسع ليكون بمقدوره دراسة الظواهر الأكثر تعقيداً، خاصة، دراسة الظواهر التي لا تكرّر نفسها علـى صـورة واحدة في عملية حركتها وتطورها، عندئذ يكون بمقدوره إخضاع مخـتلف الظواهـر الاجتماعـية - بما فيها الحرب - إلى منهج علمي في الدراسة واسـتنباط اتجـاه كـل ظاهرة ونسبيتها في حركتها الحاضرة والمستقبلية. ومن ثم معالجتها بالرغم من انعدام صفة التكرار.

ولكي نكون أكثر وضوحاً فلنتناول ظاهرة الماء في المجال الطبيعي وظاهرة الحـرب في المجال الاجتماعي، فسنجد أن الفرق الأساسي بين الظاهرتين يكمن في كـون جزيئات الماء هي نفسها في كل حالة - أي صفة التكرار - وبالتالي يـصبح بالمقـدور القول إن الماء يغلي على درجة مائة تحت ضغط جوي 76. وسـنجد الماء يغلي في كل الحالات التي تتوفر فيها درجة حرارة مائة وضغط جـوي 76. أمـا الحرب فنحن لا نستطيع أن نقول إذا تقابل طرفان، وكان أحدهما يمتلك سلاحاً متفوقاً سينتصر في المعركة، لأن ظاهرة الحرب عبارة عن تـداخل وتشابك وترابط بين مجموعة كبيرة من العناصر. وتأثير هذه العناصر على بعضها البعض ومدى أهمية كل عنصر ليست مقادير ثابتة - متكررة - في كـل حرب أو في كل معركة. ولهذا فإن القوانين التي تحكم كل حرب وكل عملـية وكـل معركة تختلف في كل حالة. وهذا ما جعل ضبط كل الحالات بقوانين تضمها كما لو كانت قوالب حديدية أمراً محالاً وخاطئاً. وهذا ما جعل الاتجاه الذي لا يعتبر الحرب علماً يسميه فناً. وهذا ما جعل الاتجاه الذي يعتبر الحرب علماً يعطي لمفهوم العلم في هذا المجال معنى أوسع من مفهومه في العلوم الفيزيقية، فيجعله جمعاً بين علم وفن.

الذين يقولون أن الحرب فنّ لا ينكرون وجود قواعد عامة لهذا الفنّ، كما لا يعتـبرون الحرب شيئاً مبهماً، أو أنها ظاهرة تتألف من عناصر غير موضوعيّة. فهم يـرون كـل حرب، وكل حالة جزئيّة في الحرب تخضع لظروف الزمان والمكان

والأرض والتقنية وتوازن القوى إلخ. ولكن عملية الحرب نفسها أي قيادتها وتوجيهها فهي خاضعة أيضاً لفن القائد في المعركة.

ولكن إذا سألنا ما هو فنّ القائد في المعركة؟ فسنجده عبارة عن مقدرة القائد على التقويم الصحيح لكل العناصر التي تشكل الحالة التي أمامه، ومن ثم مقدرته على تحديد أفضل خطّ للعمل - للتنفيذ - بناء على هذا التقويم. أو بعبارة أخرى مقدرته على اكتشاف قوانين الظاهرة التي أمامه بالاستناد إلى الوقائع الملموسة المعطاة. ومن ثم اكتشاف قوانين التطبيق ضمن المعطيات الملموسة التي بين يديه، أو التي يمكن أن يوفرها، مقابل تلك التي في الجبهة المقابلة.

الآن، هل نسمّي هذه العملية فناً، ولكن بماذا تختلف عن الدور الذي يقوم به العالم في المختبر وهو يدرس ظاهرة جديدة ويحاول اكتشاف قوانينها، فإذا كانت عملية الاكتشاف والمقدرة العقلية على الاكتشاف تسمّى في بعض الحالات فناً. فعندئذ يجب أن تفهم كلمة فنّ حين تطلق على الحرب ضمن هذا الإطار. كما يجب أن تفهم كلمة علم حين تطلق على الحرب ضمن هذا الإطار. ولنتذكر أن عبارة "فن القائد" اصطلاح قديم كان يعني الاستراتيجية.

هنا نجد أنفسنا مضطرين إلى بحث هذه المسألة من زاويتين:

الأولى: دراسة الحرب باعتبارها مجالاً عاماً، وهنا نستطيع أن نطلق على هذه الدراسة علم الحرب، إذ يمكن دراسة تاريخ الحروب دراسة علمية والخروج بالقوانين الأعمّ التي حكمت هذه الظاهرة الاجتماعية. إن هذه الإمكانية هي التي دفعت كلاوزفيتز وجوميني (أنطوان هنري - جنرال فرنسي 1779 - 1869) إلى دراسة الحروب السابقة، وخاصة، حروب نابليون، دراسة منهاجية علمية، واستنتاج أعمّ قواعد الحرب وقوانينها، وتحديد علاقة هذه الظاهرة الاجتماعية بالظواهر الأخرى. وقد تتالت الدراسات العلمية للموضوع بعد ذلك، وأخذ علم الحرب يزداد تحديداً ودقة، شأنه شأن مختلف العلوم.

إن علم الحرب لا يقتصر على دراسة أساليب الحرب وأشكالها أو كل ما يتعلق بالاستراتيجية بشكل عام فحسب، ولا يقتصر على دراسة المسائل المتعلقة بخوض الأعمال القتالية المرتبطة بفن العمليات والتكتيك فحسب وإنما يشمل أيضاً

المـــسائل النظرية المتعلقة بالاستراتيجية والعمليات والتكتيك، أو على الأصح، إنه يـــشمل اكتـــشاف القـــوانين الموضوعية لهذه المسائل. وهذه القوانين لا تتصف بالقالبية، ولا تشتق وفقاً للرغبات الذاتية. ولكنها تنبع من شروط موضوعية كثيرة يقف على رأسها تطور التقنية وقوى الإنتاج، والنظام السائد والشروط الاجتماعية والسياسية في كل فترة تاريخية، إذ يكفي أن ينـــزل إلى الميدان سلاح جديد نتيجة تطور أدوات الإنتاج والتقنية، أو يحدث تغيير جذري في النظام السياسي والعلاقات الاجتماعية – تغيير في القوى المسيطرة – حتى تنشأ قوانين جديدة في الحرب. وهذا بـــدوره، أو علـــى التحديد اكتشاف هذه القوانين الجديدة، هو الذي يعطي أهمية كـــبرى للنشاط العقلاني – أو على الأصح للعامل الذاتي – في الحرب. ويجعل من الحرب فناً ماهراً يحتاج إلى الإبداع والابتكار، أو إلى ما يسمّى بشعلة العبقرية. لهذا فـــإن التأكيد على القوانين الموضوعية التي تحكم الحرب لا يلغي دور العامل الذاتي بل يؤكده، كما أن التأكيد على دور العامل الذاتي أو فنّ القائد والكوادر والجنود في الحرب لا يلغي تلك القوانين الموضوعية بل يؤكدها ويرتبط بها.

الثانية: دراسة منهجية[1] تطبيق تلك القواعد على الحالات المستجدة، تشديداً علـــى بعضها أو تجاوزاً لبعضها. أو حسب التعبير العام الدارج دراسة فنّ التطبيق. إن استخدام كلمة منهجية هنا أو فنّ تستهدفان التأكيد على أن تطبيق قواعد علم الحـــرب تختلف عن تطبيق قواعد – أو قوانين – العلوم في المجال الطبيعي. لأن علم الحـــرب لا يـــواجه ظاهرة متكررة، وإنما يواجه في كل مرة، وفي كل حالة ظاهرة متجددة ذات فرادة خاصة، لذلك فإن عمل القواعد العامة لهذا العلم تأخذ، في كل مـــرة، وفي كل حالة، طابعاً شديد الخصوصية، تحكمه قوانين خاصة. ولكن هذه القـــوانين الخاصة تقع ضمن إطار ومفعولية القوانين العامة غير أنها ليست القوانين العامـــة. ولهذا فإن التطبيق في الحرب له شروطه الخاصة به، لأنه يعالج واقعاً معطى مـــرتبطاً بحركته المستقبلية وبالشروط المادية القائمة، وبالإرادة والوعي بما في ذلك

(1) في الطبعة الأولى استخدمت كلمة 'ديالكتيك تطبيق تلك القواعد'، وقد تبيّن أنها غامضة وغير محـــددة التعريف من قبل كثيرين ممن يستخدمونها ومن دون أن يقصدوا المعنى نفسه. ولهذا فكلمة منهجية أوسع وأشمل وأكثر انطباعاً.

الخيار بين عدة احتمالات. ومن ثم عليه أن يعالج الواقع المادي، ويعالج حركة العامل الذاتي، ويحدد العلاقة بينهما، لأن العامل الذاتي ليس مستقلاً عن الواقع الملموس، أو غير محكوم به، ونكن فعله، من خلال الواقع المعطى يتضمن مجموعة من الخيارات التي يتيحها، ويفرضها ذلك الواقع، في كل مرة، وفي كل حالة.

هذه عملية مركبة معقدة، ولكنها تحوي جانبين: الواقع الموضوعي والحكم الذاتي. وهذا الحكم الذاتي على هذا الواقع الموضوعي هو الذي يسميه العسكريون حسّ المعركة، أو شعلة العبقرية أو فنّ الحرب. ولكن هذا ما يواجه كل عملية بحث علمي في مجال الطبيعة أيضاً. أما الفرق الجوهري فيرجع إلى كون واقع الحرب أشدّ تعقيداً. ومن ثم يحتاج إلى مستوى من الذكاء والتجربة أعلى من تلك التي يحتاجها البحث العلمي المختبري. لأن إصدار حكم وأخذ إجراء في المعركة لا يتيح إعادة التجربة.

ففي المجال العسكري لا تعاد التجربة في المعركة الواحدة بعد أن يكون المحظور قد وقع وتغيرت نسب كل العناصر التي كانت معطاة. وإذا أضفنا دور العامل النفسي والمعنوي والإنساني الذي يدخل في كثير من الأحيان قوانين علم الحرب على اعتبار أن الأداة الأساسية في القتال هي الإنسان ووعيه وعواطفه وشجاعته وخوفه ولمحات عبقريته والقضية التي يقاتل من أجلها. وهذه كلها ليست مقادير يمكن تعدادها كمياً أو ضبطها بقوالب جامدة. ومن ثم هي التي دفعت الكثيرين إلى اعتبار علم الحرب أقرب إلى الفنّ. وذلك بالرغم من أن هذه أيضاً لم تعد بعيدة من تناول علم الاجتماع وعلم الثورة والسياسة، خاصة، بعد توفر الحصيلة النظرية العلمية المتولدة عن تجارب الحروب الثورية في الاتحاد السوفياتي والصين وفياتنام وكوريا وفلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان وغيرها.

لذا فإن مجال الحرب يزود بقوانين عامة، تشكل دليلاً للعمل، بينما المجال الواقعي للحرب يولّد، باستمرار، حالات تحتاج إلى اكتشاف قوانينها الخاصة، بما في ذلك قوانين المعالجة.

ومن هنا لا بدّ من دراسة الحرب كعلم، ومعالجة التطبيق في الحرب بمنهج علمي يستند إلى الحصيلة العلمية المتوفرة، وإلى اكتشاف قوانين الحالة المعطاة، شريطة توفر المقدرة على عملية التقويم والحكم والتنفيذ، بصورة صحيحة.

وبكلمة، إن العمل في مجال الحرب شبيه بالعمل في مجال مركز أبحاث علمي، حيث لا بدّ للعالم الباحث من أن يكون متمكناً من كل الحصيلة العلمية المتوفرة في مجال بحثه، ولكنه يواجه ظاهرة جديدة ضمن ذلك المجال، وعليه أن يستخدم تلك الحصيلة العلمية مقرونة بواقع الظاهرة الجديدة، مطبقاً منهجاً علمياً في بحث مختلف جوانب الظاهرة، وفي تقويم المعلومات المتوفرة والخروج بالقانون أو القوانين التي تحكمها. ولكن عمل العلم في مسائل الحرب يختلف عن عمله في المصنع من حيث تطبيق القوانين العلمية فهاهنا لا يمكن إعادة إنتاج الظاهرة نفسها. فالتشبيه مجرد بداية لندخل في مجال الحرب الأكثر تعقيداً بعشرات المرات.

لعل أقرب تصوير للعلاقة بين العلم والفنّ في مجال الحرب قول كارل ماركس (1818 – 1883): "إن الثورة المسلّحة اليوم فنّ بالقدر نفسه الذي أصبح فيه علم الحرب، أو أي فرع آخر، فناً قائماً بذاته" أي أنه علم من ناحية، وفنّ من ناحية أخرى. إنه علم في دراسته ومنهجه، وفنّ في التطبيق. لذلك لا بدّ من دراسة الحرب باعتبارها علماً مع ضرورة امتلاك منهج صحيح في التطبيق أو في فنّ التطبيق. وإذا قبلت هذه الموضوعة فربما كانت أفضل تسمية هي فنّ علم الحرب. وذلك لرؤية الحرب باعتبارها ظاهرة متحركة لها قوانينها العامة، ولكن حركتها ليست حركة تكرارية، ومن ثم، إن كل لحظة من لحظات تلك الحركة بحاجة إلى اكتشاف جديد وفنّ تطبيق جديد.

إن فنّ الحرب يقوم على الوحدة العضوية والعلاقة الإبداعية بين النظرية والتطبيق.

ومن هنا فإن هذه الدراسة لتستهدف تقديم موضوع الحرب باعتباره علماً بقصد الكشف عن قوانين الاستراتيجية والعمليات والتكتيك، بصورة عامة، في الحرب، كما تستهدف كشف فنّ الاستراتيجية والعمليات والتكتيك، عموماً، في التطبيق.

الفصل الأول

الاستراتيجية

الاستراتيجية

- 1 -

مدخل

يدرس علم الحرب عادة من ثلاثة أوجه رئيسة:

1. الاستراتيجية والتخطيط الاستراتيجي.
2. العمليات الاستراتيجية والتخطيط للعمليات الاستراتيجية ويشمل دراسة قواعد علم الحرب.
3. التكتيك والتخطيط التكتيكي.

يقسّم العسكريون السوفيات منذ زمن بعيد هذه الفروع إلى (1) الاستراتيجية (2) فنّ العمليات (3) التكتيك. والفرق هو فنّ العمليات وهنا علينا أن نلاحظ اختلاط فنّ العمليات منذ القدم في الاستراتيجية والتكتيك، ولم يصبح فرعاً قائماً بذاته إلاّ بعد تكون الفكر العسكري السوفياتي. وقد عرفه الجنرال ستروكوف: "إن أساليب وأشكال إعداد العمليات وخوضها من أجل تحقيق الأهداف الاستراتيجية للحرب تشكل موضوع فنّ العمليات. ومن أهم واجبات هذا الفنّ ما يلي: تحديد فكرة العملية، تخطيط استخدام القوى والوسائط، انتقاء الأساليب والأشكال المرتبطة باستخدام وقيادة التشكيلات الكبرى (الجيوش والجبهات)، تنظيم التعاون العملاني للقوى والوسائط المختلفة المشتركة في العملية".

وهنالك من يضع هذه الفروع الثلاثة تحت عنوانين رئيسين:

(أ) التخطيط (ب) التنفيذ. ولكن ثمة فرع آخر متضمن فيهما، وقد أصبح يحظى بأهمية متزايدة، خاصة، منذ عهد نابليون، وأكثر خصوصية منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن، وهو اللوجستيقا.

اللوجستيقا: LOGISTICS

كانت اللوجستيقا (تأمين كل ما تحتاجه الجبهة) في الماضي أيام الفراعنة واليونان والرومان والفرس والعرب وإلى أواخر عصر الإقطاع في أوروبا أو على الأصح حتى غوستاف أدولف، تتركز أساساً في حلّ مسألة إطعام الجنود وصيانة العربات القليلة وإصلاح الدروع ومعالجة الجرحى وتأمين عسكرة الجنود. ولهذا كانت أكثر الجيوش القديمة تجرّ وراءها ذيلاً من المدنيين للقيام بالخدمات، ولكن الاعتماد الأساسي كان على المناطق التي يفتحها الجيش من أجل تأمين المتطلبات المادية للجنود، بل كثيراً ما كانت هذه المسألة تحكم استراتيجية المعارك حيث توجه الحرب إلى المناطق التي يمكن أن تؤمن تلك المتطلبات.

أدرك غوستاف أدولف (1594 – 1632) ملك السويد، أن الحركة التكتيكية ترتكز على الانضباط الجيد، فيما يقوم الانضباط الجيد على أساس وجود إدارة كفوءة تثق بها القوات. فأقام نظاماً دائماً للصيانة، وأمن للجيش الثياب والأحذية والخيام، وزود الضباط والجنود بمخصصات وطعام على أسس ثابتة منتظمة، أما في زمن الحرب فعمد إلى إقامة المستودعات والمخازن التي لم تكن معروفة قبله، وحسن الأسلحة والمعدات والأدوات الهندسية والخدمات الطبية. وبهذا أخذت اللوجستيقا معنى جديداً يتناول مسائل التزويد والحركة للجيوش. إن هذا التطور جاء وليداً للتطور الصناعي والتقني (التكنولوجي) الذي حمل معه إنتاج المدافع والأسلحة النارية وتطوير العربات والطرقات والنقل، وما يتبعها من مسائل الإدارة والصيانة والتزويد.

زادت أهمية اللوجستيقا في زمن نابليون الذي جاءت جيوشه تعبيراً عن تجنيد أمة بأسرها تجسيداً للتطور البرجوازي بعد انتصار الثورة الفرنسية الكبرى عام 1789. وقد أدت تنظيمات نابليون لهذا الجيش الضخم، وتقسيمه إلى فرق شبه مستقلة، تضمّ مختلف أصناف الأسلحة ولها هيئة أركانها، كما لها عملياتها المستقلة إلى جعل مسائل اللوجستيقا ذات أهمية خاصة، ومن ثم ضرورة حسابها سلفاً قبل تحريك تلك الجيوش باتجاهات مختلفة وعلى طرقات مختلفة. وقد أصبح من الضروري تأمين كل ما تحتاج إليه تلك الفرق من معدات ولباس وطعام وعربات

وأدويـــة واسعافات، وتأمين طرقاتها واستمرار تزويدها بالذخائر والحاجات المادية الأخـــرى إلى جانـــب الصيانة. وهنا أصبحت وظيفة اللوجستيقا: (1) النقل (2) الـــصيانة (3) دعـــم الجيش والعمليات (توفير حاجات الجيش). وهذا يعني الإدارة والخدمات.

كـــان القـــرن التاسع عشر عصر التجنيد العام الإجباري ونمو كثافة النيران وزيـــادة قوة الحركة. وجاءت الخطوط الحديدية لتصبح في منتصفه الثاني في خدمة نقـــل الجـــيش. وقد أدت إلى تطوير السرعة، وقوة المناورة الاستراتيجية، وزيادة أحجـــام الجيوش في الميدان، إذ جعلت من الممكن نقل أعداد كبيرة من الرجال إلى المـــيدان بسرعة وتزويدهم بالمؤن والمعدات والذخائر بالطريقة نفسها. مما أكسب اللوجستيقا أهمية حاسمة. بل أصبح هدف العمليات محاولة تعطيل نظام اللوجستيقا في الجيش المقابل، كما أصبح أي تحرك في العمليات الاستراتيجية، يتطلب المحافظة علـــى خطـــوط المواصلات، والذي يعني أساساً المحافظة على الشريان اللوجستيقي للجـــيش. ولهذا أثبتت تجربة الحرب الأهلية الأميركية (1861 - 1865) أن تخريب الخطـــوط الحديديـــة وقطـــع طرق التموين والتزويد، لهما أثر حاسم على مصير المعركة، وكذلك تجربة الحرب الروسية - اليابانية (1905).

كـــشفت الحـــرب العالمـــية الأولى (1914 - 1917) عندما ركدت الجبهة، وتحـــولت إلى حرب استنـــزاف طويلة الأمد، أهمية المقدرة اللوجستيقية لدى الأمة والجيش في تقرير مصير الحرب في نهاية المطاف. فقد ازداد الاعتماد على المؤخرة، وهنا أصبحت مسألة النقل والتزويد المستمر للجبهة والصيانة. تلعب دوراً أساسياً حاسمـــاً. وقد جاء هذا تأكيداً لصحة موضوعة كلاوزيفتز حول العلاقة بين الوضع الاقتصادي والمدني للأمة ومصير الحرب.

أمـــا في الحـــرب العالمـــية الثانية (1939 - 1945) مع نمو سلاحي الطيران والدبابات، ثم التطورات التقنية التي عرفتها آلة الحرب بعد الحرب العالمية الثانية إلى الـــيوم، فقد أصبح الجانب الإداري والنقل والصيانة والتزويد المستمر أحد الجوانب فقـــط في مجال اللوجستيقا، إذ أصبحت اللوجستيقا تشمل تنظيم الاقتصاد القومي وتعبـــئة كل المصادر - الصناعة، والزراعة، والطاقة، والخدمات الطبية، والأبحاث

العلمـية، والآلـيات، والتقانة (التكنولوجيا)، والإنتاج المدني والعسكري. ولهذا أصبحت اللوجستيقا تحتل مساحة واسعة في التخطيط الاستراتيجي - التحضير - كما تغطي ساحة واسعة في عملية التنفيذ العسكرية نفسها[1].

إن تعقـد مسألة النقل - خاصة الطيران - والصيانة وتأمين أكوام المخزونات واستمرار التزويد بالبترول والمعدات والذخائر إلى جانب الحاجات المادية للمعيشة جعـل من الضروري وجود هيئة أركان خاصة في الجيوش الحديثة لهذا الغرض. كما أن ازدياد الدور الذي أصبح يلعبه التحضير في تقرير مصير الحرب أوجب تشكيل لجنة قومية على أعلى مستوى في الدول الحديثة لحلّ مسائل اللوجستيقا وتأمينها ليس للجبهة فحسب، وإنما أيضاً، للمؤخرة، وهذا يعني أن اللوجستيقا أصـبحت تغطـي مجالاً يمتد من الوضع المدني حتى فوهة البندقية في خطّ النار، وبـالعكس، وغـدا جزءاً رئيسياً في الاستراتيجية العليا التي تقع بين السياسة والاستراتيجية العسكرية.

نلحـظ ممـا تقدم أن اللوجستيقا تعالج جانباً مادياً ملموساً يخضع للتخطيط والتنفـيذ العلميين مباشرة. ولذلك فإن حلّ مسائلها مرتبط بالوضع المادي والتقني (التكنولوجي) للجهات المتحاربة. الأمر الذي يجعل قوانين عمله تختلف من حرب إلى حـرب وتختلف من أمة إلى أخرى. فمثلاً إن حلّ مسائل اللوجستيقا في حرب تخوضها دولة كبيرة متطورة علمياً وتكنولوجياً وإنتاجياً كالولايات المتحدة وأوروبا وألمانيا واليابان وروسيا تختلف عن الحلول التي تقدمها الشعوب الأقل تطوراً، وهي بالتالي تلعب دوراً أكثر حسماً في تقرير مصير تلك الدول في الحرب مما تلعبه لدى الشعوب النامية أو الأقل تطوراً.

ولهـذا فهـي تـدخل باعتبارها فرعاً ذا استقلال ذاتي ضمن الاستراتيجية والتخطـيط الاستراتيجي والتنفيذ، ومن هنا سنركز في دراستنا على الفروع الثلاثة

---

(1) مـن هـنا يلحـظ لماذا استخدمت كلمة LOGISTICS باللفظ المعرب: لوجستيقا، من دون تعـريبها الدارج "الشؤون الإدارية" لأن معناها ومجال مهامها يتعديان الشؤون الإدارية التي بقيت جزءاً من اللوجستيقا. وإذا استخدمت عبارة "الشؤون الإدارية" ترجمة لكلمة اللوجستيقا، فيجب فهمها بمعنى شامل تتعدى المفهوم التقليدي لعبارة شؤون إدارية.

الرئيسة واعتبار اللوجستيقا مرتبطة عضوياً بمسائل الاستراتيجية، والتخطيط الاستراتيجي، والعمليات الاستراتيجية، والتخطيط للعمليات الاستراتيجية، والتكتيك والتخطيط التكتيكي، أو بعبارة أبسط بنوع كل تخطيط وكل تنفيذ.

الاستراتيجية عبر العصور

أصبح استخدام كل من كلمتي استراتيجية وتكتيك فضفاضاً، وكثيراً ما استخدمتا، وتستخدمان، في غير محلهما، فيخلط بين الهدف والاستراتيجية أو بين الاستراتيجية والتكتيك، أو بين مفهوم الاستراتيجية ودورها من مجال لآخر. والبعض استخدمها بمعنى الهدف البعيد غير الوارد الآن. بل إن أكثر الذين حاولوا تعريف الاستراتيجية والتكتيك قدموا تعريفات، إما ناقصة أو غير منطبقة إلاّ على مجال محدد.

يرجع أصل كلمة استراتيجية إلى جذر يوناني استراتيجوس STRATEGOS ويعني العام GENERAL. ونقل روبرت غرين (أميركي معاصر في كتابه "استراتيجيات الحرب" 2006) ترجمة لها بمعنى قائد الجيش. أي هي قيادة. أما أصل كلمة تكتيك فيرجع إلى جذر يوناني أيضاً: تاسو TASSO ويعني يعالج أو يدبر. ولكن سرعان ما أصبحت كلمة استراتيجية تحمل مضموناً أكثر شمولاً من معناها الأصلي العام، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى كلمة تكتيك.

وانتقل التعبيران إلى ميدان الحرب، وأخذا محتويات مختلفة عبر العصور تبعاً للمرحلة التاريخية والاجتماعية، ولقوانين الحرب وأشكالها بالنسبة إلى كل مرحلة. ثم أخذا يستخدمان في منتصف القرن التاسع عشر والقرن العشرين في ميادين أخرى إلى جانب استخدامهما في مجال الحرب، وخاصة في مجال الصراع السياسي. ثم إذا أضفنا إلى كل ذلك تعدد أشكال الاستراتيجية ومحتوياتها، وظروف طرحها وتطبيقها في كل حالة، فسوف ندرك سبب تعدد التعريفات وكثرة الخلط الذي اكتنف، ويكتنف، استخدام عبارتي الاستراتيجية والتكتيك.

ويلاحظ روبر غرين أن الاستراتيجية عرفت واستخدمت من كل الشعوب وإن لم تستخدم كلمة استراتيجية. ذلك لأنها تتعلق بكيفية التعامل مع الحرب وكيف تواجه مفاجآتها، وكيف تصمّم الخطة الكلية، وكيف تنظِّم جيشك على أفضل وجه. وهذه كلها تجدها في أقوال القدماء وممارساتهم.

قبل أن ندخل في مناقشة مختلف التعريفات ودراسة مسائل الاستراتيجية وأشكالها يحسن أن نستعرض، بسرعة، تطور محتوى، أو مفهوم كلمة استراتيجية تاريخياً، آخذين بعين الاعتبار أن المحتوى أو المفهوم ينبعان من الدور الذي تلعبه الاستراتيجية في كل مرحلة تاريخية وفي كل حالة استخدام الكلمة أو عدم استخدامها.

لقد مرت الاستراتيجية بثلاث مراحل رئيسة حتى نابليون بونابرت.

المرحلة الأولى: كان الملوك والأباطرة، في عصر الإمبراطوريات والممالك القديمة، يجمعون السلطتين العسكرية والسياسية بأيديهم، وكانت الجيوش تتألف أساساً من ملاك العبيد، ومن "المواطنين". وكانت وظيفة الاستراتيجية العسكرية تتركز في حشد القوات المسلحة وتنظيمها والإعداد للحرب، وتقرير ضد من توجه الحرب، إلى جانب تحديد مكان الحملة وزمانها، وكيف يقاد الجيش من أجل تأمين تفوق على العدو مقدماً. أما الأهداف الاستراتيجية العسكرية فكانت القضاء على جيش العدو أو الاستيلاء على مدنه.

أما فيما يتعلق باستراتيجية العمليات أي مرحلة الانتقال إلى ساحة المعركة فقد تركّزت أساساً على الانتقال من نقطة في المكان إلى نقطة في المكان بكل الجيش ككتلة واحدة بقصد الالتقاء في ساحة المعركة مع الجيش المقابل. و لم تخلُ هذه الحركة من مناورات بسيطة. ولكن كان الشيء الحاسم متوقفاً على عملية الاشتباك نفسها. وكثيراً ما كانت تحكم الاستراتيجية في تحديدها لاتجاه الحرب بمسألة الدخول إلى مناطق تؤمن جرايات الجيش وحاجاته، فضلاً عن خدمتها للهدف السياسي – الاقتصادي الذي هو فتح الممالك والأمصار لتصبّ الخيرات في

أهــراء عاصـــمة الإمبراطورية أو المملكة[1]، وجلب الخيرات، وبعضها العبيد من الشعوب المقهورة.

المـــرحلة الثانـــية: هـــبط مستوى الاستراتيجية في العصور الوسطى - عهد الإقطاع في أوروبا - وهو عهد الفروسية والفرسان المدرعين. إذ بعد أن كانت في المـــرحلة الأولى، تعالج قضايا الحشد والتعبئة على مستوى البلاد بأسرها، أصبحت الآن مقتصرة على نطاق ضيق جداً.

كان الملك أو الأمير في التجربة الأوروبية الإقطاعية عندما يقرر الحرب يشكل الجـــيش مـــن الفرسان NIGHTS مقابل الأراضي التي منحهم إياها. فيعينهم على رأس تابعـــية الجنود، ولم تعد الاستراتيجية أكثر من تكليف كل أمير أو إقطاعي أو فـــارس بحشد القوات في تابعيته، وقد غابت المناورة الاستراتيجية قبل المعركة غياباً تامـــاً وغـــدت الحرب عبارة عن تطبيق أصول محددة، وقد تبدأ بملك ضد ملك، فارس ضد فارس وهكذا. وكان الملوك والفرسان يقاتلون كالجنود. بل لقد سميت الحـــرب في هذه المرحلة "المعركة بالاتفاق" وهكذا لم تتجاوز الاستراتيجية مسائل تحـــضير القـــوات المسلحة، وتحديد وسائط النقل مع تحديد هدف الحملة، واختيار أساليب وأشكال الصراع المسلح.

المـــرحلة الثالثة: تمتد هذه المرحلة من القرن الرابع عشر حتى الثورة الفرنسية الكبرى، أو على الأصح حتى عصر نابليون.

لقـــد دخل البارود إلى أوروبا عن طريق العرب في القرن الرابع عشر. ورافق ذلك، مع نهاية القرن الخامس عشر، حدوث تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية هامة، أو بعبارة أخرى بدأت الطبقة البرجوازية بالنمو والظهور على المسرح حاملة معها التطور الصناعي والتقني والعلمي مقروناً بتباشير عصر النهضة الأوروبية. وقد أدى ذلـــك إلى تطـــور المدفعية - كان الأتراك في القرن السادس عشر قد طوروا

---

(1) في النسخة الأصلية استخدم "عصر العبودية" فاستبدل مكانه "عصر الإمبراطوريات والممالك القديمـــة"، لأن الإمبـــراطوريات والممالك أشمل. وعصر العبودية في تعريفه محصور في التجـــربة الأوروبـــية علـــى الخصوص وربما بعض البلدان الأخرى. وكذلك وللسبب نفسه، استخدمت عاصمة الإمبراطورية أو المملكة بدلاً من عاصمة دولة الأسياد.

مدفعيـــة الحـــصار – وادخلوا إصلاحات في تنظيم الجيوش وأساليب الحرب. ومع ذلك لم يحصل تقدم في الفكر الاستراتيجي بما يتناسب مع التطورات الجديدة، لأن الحروب بقيت تقاد بالملوك والأمراء والقيادات والإنكشارية. وكان القتال مقصوراً على الجيوش المحترفة أما مجتمعاتها فظلت عموماً بعيدة من المشاركة الفعلية.

كان نيكولو مكيا فيلي (إيطالي 1469 – 1527) أول من عكس التقدم الذي حدث في أحشاء المجتمع الإقطاعي، وجاءت أفكاره حول الحرب تعبيراً عن التطور الـــبرجوازي المبكـــر الـــذي مـــا زال في مراحله الجنينية، وجاءت فاتحة للتفكير الاســـتراتيجي المعاصر فيما يتعلق بمسائل الحرب الحديثة. وقد ألف كتاباً أسماه "فنّ الحرب" انطلق فيه من مفهوم خاطئ في النظر إلى الحرب إذ اعتبرها ضرورة وشيئاً طبيعـــياً أبـــدياً لأنها تعبر عن تنازع البقاء بين الأحياء. ولكن المهم في الكتاب أنه نـــــزع الحـــرب مـــن المفاهيم الأخلاقية والدينية والإقطاعية، وفسرها بأسباب اقتـــصادية وسياســـية وقومية ودستورية. وطرح مفهوماً يقضي بجعل الدولة كلها تنخـــرط في الحرب وضرورة استمرار الحرب حتى الحصول على نتيجة في مصلحة الأمـــة كلـــها. ولـــيس لإرضاء رأس الدولة، وحاول اشتقاق القواعد الأساسية للاستراتيجية السياسية وشملت دراسته العسكرية عقد رابطة بين تفصيلات الحرب وهدف الحرب. وأقام رابطة أيضاً بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية، وقال يجـــب أن تـــشنّ الحرب من قبل كل الأمة، وبالمقابل يجب أن يكون هدف النصر لأجل مصلحة الأمة كلها[1].

وبكلمة، أصبح مفهوم الاستراتيجية يعني الحرب الكلية، من قبل الأمة أجمع. ومـــن ثم ضرورة تعبئة الأمة وتنظيم مصادرها من أجل خوض حرب تستهدف خدمـــة مـــصالح الأمـــة ككـــل. وكانت هذه الموضوعة أول محاولة لإعطاء الاستراتيجية مفهوماً شاملاً، ولكنها بقيت شيئاً نظرياً و لم تتحول إلى واقع لأنها تعـــبر عـــن نظرة البرجوازية للحرب بينما كانت أوروبا لم تزل تحت سيطرة الإقطاعية.

---

(1) لـــم يحظ كتاب "فن الحرب" لميكافيلي ما حظي عليه كتابه "الأمير" من شهرة، علماً أنه أهم منه، أو ربما لا يقل عنه أهمية.

كان الملك غوستاف أدولف (سويدي 1594 – 1632) قد شكّل القمة الثانية بعـــد مكيا فيلي، في التعبير عن التطور الصناعي الجديد الذي أصبح يفرض إعلان الطلاق مع التقاليد الإقطاعية في الحرب، فحاول إحياء الفنّ العسكري وتخليصه من الفوضـــى. ولكـــن ظلـــت إصـــلاحاته في حدود تطوير التكتيك أكثر من إنقاذ الاستراتيجية المتدهورة. فأعاد تنظيم كل سلاح تنظيماً كاملاً ثم جعل تكتيك كل الأســـلحة يقـــوم على شكل جماعي أساسه النيران والحركة. وكان أول من أنشأ الجيش النظامي مكان الجيوش المرتزقة الأوروبية الإقطاعية، وأخضعه لتدريب منتظم دقيق وطور أسلحة الجيش، ولا سيما مدفعية الميدان الخفيفة، كما أعاد الاعتبار إلى دور المشاة باعتبارها القوة الحاسمة. ثم أخذت باقي جيوش أوروبا تقتفي خطواته.

أدّت هـــذه الإصـــلاحات في تكوين الجيوش النظامية إلى زيادة أهمية المشاة ونسبتها في كامل هيئة الجيش. حقاً إن تأثير هذه الإصلاحات تناول مسائل تكتيك الحرب إلاّ أن من الممكن اعتبارها تطويراً للاستراتيجية أيضاً من زاوية تنظيم الجيش ككل، ونظرية تعاون مختلف الأسلحة – النيران والحركة – وهي قضايا من صلب مـــسائل الاستراتيجية في توجيه التكتيك كما سنرى فيما بعد. هذا فضلاً عن أنها مهـــدت لتكوين جيوش غالبيتها من المشاة مما أدى إلى الاهتمام بالموقع الطوبغرافي، وضرورة احتلال المواقع الاستراتيجية باعتبارها شيئاً حاسماً في المعركة، وأصبح هذا جوهـــر العمليات الاستراتيجية تحضيراً للاشتباك. وقد بلغت هذه النظرية – توزيع القـــوات لـــتلائم الأرض واحـــتلال المواقع الاستراتيجية – أوجها على يد جون مارلـــبورو MARLBOROUGH (إنكليـــزي 1650 – 1722). وهـــنا يجب أن يـــضاف إلى تطويـــر مارلبورو تطويراً آخر كان هنري تورين TURENNE (قائد فرنسي 1611 – 1675) قد أحدثه بالنسبة إلى الحركة التكتيكية قبل الاشتباك؛ فغير نظام الخطوط المتوازية بتشكيلات أقل جموداً، وهو ما أتاح له إحداث تطور في فن المناورة في أثناء الزحف.

علـــى أن القمة الثالثة بعد مكيافيلي وغوستاف أدولف يقف عليها فريدريك الكـــبير البروســـي (1712 – 1786) الـــذي نظم مشاة الجيش على ثلاثة خطوط LINES لتتخذ شكل مربع أجوف أضلاعه الثلاثة متساوية الطول تقريباً، وتتحرك

جميعها مثل كتلة واحدة وفقاً لنظام التحرك العسكري في المعركة. الأمر الذي أتاح عمقـاً بالنسبة إلى الخطوط المتوازية وأتاح للجناحين بعض الحركة سواء أكان بالتقدم إلى أمام قليلا، أم التراجع إلى الوراء قليلاً. ولكن هذا التشكيل ظلّ ثقيل الحركة، وليس له من قيمة إلاّ على الأرض المنبسطة.

نلاحظ مما تقدم أن الفكر الاستراتيجي في أوروبا، والذي بدأ مكيا فيلي في طرحه لم يصب تقدماً خلال المائتي سنة التالية إلاّ في مجال تنظيم الجيش وتكوين نظريات تكتيكية جديدة على يد كل من غوستاف أدولف ومارلبورو وتورين وفريدريك الكبير. ولكن هذه الخطوات كانت الجنين للقفزة الكبرى التي سيحدثها نابليون في مجالي الاستراتيجية والتكتيك، جنباً إلى جنب مع تطور قوى الإنتاج واندلاع الثورة الفرنسية وسقوط الإقطاع في فرنسا.

لعل مارشال دي ساكس MARSHAL DE SAXE (مارشال فرنسي 1696 – 1750) خير من عبر عن استراتيجية العمليات في هذه المرحلة: "أنا لست من أنصار المعركة، وأنا مقتنع بأن الجنرال القدير يستطيع أن يشنّ حرباً لمدى الحياة من دون أن يُجبر على القتال. ولكن يجب أن يكون هنالك عدد من الاشتباكات المحلية لإنهاك العدو تدريجيا، وأخذه قطعة قطعة. إن هذا هو الأسلوب الأمثل لتركيع العدو وتحقيق هدفنا. لا أريد القول إن المرء يجب ألاّ يهاجم إذا سنحت فرصة لسحق العدو، ولكنني أريد القول إن من الممكن شنّ حرب من دون اتخاذ المخاطرة التي تتضمنها المعركة. وإذا ما استطاع الجنرال أن يفعل ذلك وصل قمة الكمال والمقدرة".

يجب أن يذكر بهذه المناسبة بأن سون تسو (الصيني) كتب في مؤلفه "فن الحرب" في القرن السادس قبل الميلاد: "تتلخص الاستراتيجية في إيصال العدو إلى الهزيمة بلا معركة أو بأقل الخسائر. وذلك من خلال المناورات والحرب النفسية والتخريب داخل صفوفه".

كانت مسألة تجنب المعارك إحدى سمات الاستراتيجية الأوروبية في هذه المرحلة، وذلك بسبب عظم التكاليف التي يقتضيها تكوين الجيش في ظلّ عصر الملوك الذي ما زال في براثن العلاقات الإقطاعية، ولكن ضمن تطور صناعي

تقوده البرجوازية الناشئة. وبكلمة، كانت استراتيجية حرب مواقع وتحصينات ودفـــاع بينما كانت الأوضاع تتمخض عن ولادة استراتيجية جديدة عبر عنها نابليـــون حيث أصبحت الحرب على يده حرب حركة ومناورات استراتيجية. وحـــلّ مفهوم فرض قرار استراتيجي – نصر في معركة فاصلة – مكان مفهوم كسب الأرض.

الاستراتيجية في عصر نابليون

إذا كانـــت اســـتراتيجية العـــصر الـــسابق، بالـــرغم من التقدم التقني (التكنولوجـــي)، وعلـــى الرغم من المفاهيم الاستراتيجية الجديدة التي طرحها ميكيافيلـــي، وإصـــلاحات غوســـتاف أدولف، والمناورات التكتيكية البارعة لفـــريدريك الكبير، تعمل ضمن حدود دفاعية وجيوش صغيرة نسبياً، وتجنب المعـــارك الكـــبيرة، وعدم السعي إلى فرضها، وذلك بسبب السلطات الملكية المحافظة التي راحت تئن تحت وطأة المصاريف التي أخذ يتطلبها التطور الجديد. مما جعلها تفضل التهديد، والمناورات التكتيكية، والقتال الدفاعي عموماً. وهنا جاءت الثورة الفرنـــسية الكبرى لتطلق عنان القوى الاجتماعية الجديدة، وتجعل الـــتطور التقني يعمل بأقصى طاقته مؤذنة بتحطيم معاقل الملكية والإقطاعية في أوروبا.

كانت حرب الاستقلال الأمريكية (1776 – 1783)قد افتتحت عهداً جديداً في استراتيجية الحرب وتكتيكها وذلك بإلغاء نظام تشكيلة الخطوط LINES ثقيلة الحركة، فراح الثوار يقاتلون بزمر موزعة، وقوات سريعة الحركة من القناصة تحت غطاء الغابات وصخور الجبال، فلم يُتح لتشكيلة الخطوط الإنكليزية فرصة ملاقاتهم علـــى أرض منبـــسطة مكشوفة. مما جعل تشكيلة الخطوط ملغاة، تحت مثل هذه الظـــروف، ونـــــزلت بها الهزائم. وبهذا أعيد اكتشاف فنّ المناوشة، وهو أسلوب جديد في الحرب، كما يقول فريدريك إنجلز (بروسي 1820 – 1895) جاء نتيجة لـــتغير المـــادة الإنـــسانية في الحرب، أي إحلال المقاتلين الذين يقاتلون في سبيل مصالحهم مكان الجنود المرتزقة.

"أكملت الثورة الفرنسية، في المجال العسكري أيضاً، ما قد بدأته الثورة الأميركية، فقد كان عليها مثل الثورة الأميركية أن تواجه جيوشاً مرتزقة حسنة التدريب تابعة للتحالف، وكان جنود الثورة الفرنسية عبارة عن جماهير عريضة قليلة التدريب تمثل تجنيد أمة بأسرها، ولكن كان على هذه الجماهير أن تدافع عن باريس، أي كان عليها أن تحمي منطقة محددة. ولهذا السبب كان تحقيق الانتصار في معركة مكشوفة وعلى نطاق جماهيري ضخم أمراً بديهياً. إذ لم يعد أسلوب المناوشات الصرف كافياً، ولهذا كان لا بدّ من اكتشاف شكل جديد يستخدم من قبل كتل كبيرة من الجنود، وقد وجد هذا الشكل التعبير عن نفسه بتشكيلة الرتل COLUMN، مما أتاح لقوات، حتى قليلة التدريب، أن تتحرك بدرجة جيدة من النظام والتحرك بسرعة" (فريدريك إنجلز).

وإذا أضفنا إلى تحليل إنجلز أعلاه مسألة زيادة كثافة النيران لوحدة صغيرة، وانطلاق القوى الاجتماعية المنتصرة للإفادة من التقنية والتطور مصحوباً بحماسة ثورية عالية، فضلاً عن تراث المرحلة السابقة، فسوف نجد الأرضية التي جعلت بالإمكان دخول الاستراتيجية مرحلة جديدة أرقى، بصورة نوعية، من أية مرحلة سابقة. وذلك بإعطاء الحرب صفة متحركة، وذات مناورات استراتيجية حاسمة، ومتابعة الحرب حتى نهايتها لتحقيق نصر استراتيجي. كل ذلك ضمن استراتيجية سياسية – عسكرية كلية.

جاء نابليون ضمن هذه الظروف الجديدة ليعبر عسكرياً عن كل سمات التطور الجديد:

1. استراتيجية التجنيد العام وتعبئة الأمة كلها للحرب، وهنا بدأت الاستراتيجية تلعب دوراً حاسماً قبل الدخول في الحرب.
2. زاد تطور الطرق والمواصلات من قوة المناورة الاستراتيجية، وولد استراتيجية العمليات أو "التكتيك الكبير"، وولد مفاهيم جديدة مثل "خطوط العمليات" و"الخطوط الداخلية"و"الخطوط الخارجية".

كانت أولى الخطوات التي جسد فيها نابليون ملامح العصر الجديد، أنه قسّم جيوشه الضخمة إلى فرق شبه مستقلة، تشكيلتها الرتل COLUMN. وجعل كل

فرقة تتألف من مختلف صنوف الأسلحة، وتحت قيادة هيئة أركان مستقلة قادرة على القيام بعمليات منفردة ودخول معارك لوحدها. وقد فتحت هذه العملية إمكانات استراتيجية وتكتيكية كبيرة.

إن تقسيم الجيش إلى فرق بتشكيلات الرتل COLUMN أعطى نابليون فرصة للقيام بمناورات استراتيجية مقرونة بالمرونة والسرعة، بينما بقيت جيوش خصومه تتحرك بنظام الخطوط LINES ككتلة واحدة، أي كانت تفتقر إلى السرعة والمرونة وإمكانات المناورة الاستراتيجية.

استخدم نابليون في معاركه مرحلتين تبدأ أولهما بمناورة استراتيجية قبل المعركة أو الاشتباك وكان يسميها التكتيك الكبير GRAND TACTICS أو "العمليات والمناورات الواسعة" بينما تتبعها المرحلة الثانية وهي المعركة نفسها.

كان نابليون في تكتيكه الكبير - المناورة الاستراتيجية - يحرك جيوشه من نقاط مختلفة بعد سلسلة من العمليات في النقطة التي حددها للمعركة الفاصلة. وكانت هذه المناورات تأخذ إما شكل تطويق للعدو بالتفاف حول أجنحته ومؤخرته، بحركة فائقة السرعة، كما حدث في أولم ULM (ألمانيا 1805). وإما قطع خطوط مواصلاته كما حدث في جينا JENA (ألمانيا 1806). وأخيراً عندما يصبح العدو في وضع غير ملائم تماماً، تدخل مرحلة التدمير بتشكيلات هجومية. وهنا لا بدّ من ملاحظة شدة الشبه بين تقسيمات نابليون للجيش وعملياته الاستراتيجية، وبين تقسيمات العرب المسلمين لجيوشهم وعملياتهم الاستراتيجية. ولكن الذي حدث أن تطويرات العرب للفنّ العسكري، خاصة من ناحية العمليات الاستراتيجية، لم تتابع في أوروبا. وبقيت شيئاً منفصلاً لوحده[1] وقد تمّ

---

(1) جاء العرب في عهد الإسلام ليقفزوا بفنّ الحرب قفزة علت على أية قمة سبقتها، وبقيت أرقى من أية قمة بعدها حتى جاء نابليون، ولن يكون من الصعب رؤية شدة الشبه بين فنّ نابليون العسكري والفنّ العسكري العربي – طبعاً فنّ نابليون في محتوى جديد وهو وجود الأسلحة النارية.
قسم العرب المسلمون جيوشهم، بتوجيه الخليفتين الراشدين الأول والثاني وبمشاورة الصحابة رضي الله عنهم، إلى فرق، وكل فرقة مؤلفة من مختلف الأسلحة، وذات اكتفاء ذاتي. وتقوم بخطط عمليات استراتيجية تحت قيادة مستقلة، وبين مختلف الفرق اتصال دائم بحيث تنضم لبعضها البعض عند النقاط الحاسمة. وتصبح كلها تحت قيادة موحدة. كما حدث مثلاً في معركتي اليرموك وأجنادين أو معركة القادسية.

تجاهلها في كل تأريخ لتطور الاستراتيجية والتكتيك في علم الحرب.

جاءت استراتيجية العمليات هذه فراقاً مع استراتيجية العمليات في المرحلة السابقة. إذ كانت العمليات والمعركة شيئين مختلفين. وذلك لأن المعدات العسكرية والأسلحة كانت لا تسمح لوحدات صغيرة أن تقاوم أمداً طويلاً، أي إذا كان عليك التحرك فيجب أن يكون جيشك كتلة واحدة متراصة. ولما كان الجيش المقاتل، في الماضي، صغيراً نسبياً فحركته كانت عبارة عن انتقال من نقطة في المكان إلى نقطة المعركة لمواجهة العدو. ولم يكن من الممكن استخدام الجيش إلاّ بعد أن يأخذ تشكيلة القتال، لذلك كان من الممكن لأحد الطرفين المتحاربين، أو كلاهما، أن يرفض القتال عن طريق الانسحاب من نقطة التماس مع العدو. ولهذا كانت الوسيلة الوحيدة لإجبار العدو على دخول المعركة في ظروف غير مؤاتية هي غزو بلاده.

وهنا أخذ الدفاع شكل نقاط قوية على الطرق التي يمكن أن يمرّ بها الجيش. وهنا اضطر المهاجم أن يلجأ إلى حصار المدن الهامة والتهديد باحتلالها من أجل

لقد طبق العرب المسلمون استراتيجية الحرب المتحركة مستخدمين الصحراء كقاعدة آمنة، في بادئ الأمر، ومن أطرافها راحوا يشنّون عمليات مناوشة. ثم انتقلوا إلى الحرب المتحركة، بكل ما تحمل الكلمة من معنى عندما دخلوا برّ الشام، وهي حرب اعتمدت على سرعة الحركة والمناورة الاستراتيجية وعلى تكتيك المناوشات والحركة التكتيكية ذات الزخم في الهجوم والدفاع – الكرّ والفرّ على مستوى جيوش – كما استخدموا طوبغرافية الأرض جيداً، وقد جمعوا بين توزيع الفرق للعمليات الاستراتيجية – خصوصاً الالتفاف على الأجنحة ومحاصرة العدو وقطع طرق مواصلاته وتشتيت تركيزه من جهة وبين التركيز اللازم للمعارك الحاسمة من جهة أخرى.

في الواقع إن هذا الشكل من العمليات الاستراتيجية والحركة التكتيكية في الحرب والمعركة لم يعرف، على هذا الشكل والمستوى، من قبلهم أو من بعدهم حتى لنابليون الذي لم تختلف عملياته ومناوشاته في المعركة، في جوهرها، عما طبّقه العرب، خاصة، تحت قيادة خالد بن الوليد. وكان هذا التطوير أحد العوامل الحاسمة التي جعلت العرب المسلمين يحطمون الجيوش البيزنطية والساسانية التي كانت أرقى سلاحاً، ومتفوقة في مجال التنظيم والإدارة واللوجستيكا، ولقد عوض العرب عن كل ذلك باستراتيجية وتكتيك الحرب المتحركة من ناحية، وبالتقشف ومستوى الشجاعة والروح الإيمانية لدى المقاتل إلى جانب المستوى المرتفع جداً للمراتب القيادية الصغيرة والمتوسطة وارتفاع مستوى المبادرة على النطاقين الجماعي والفردي من ناحية ثانية. (راجع الدراسة المرفقة حول الموضوع في الفصل الخامس).

إجبار العدو المدافع على دخول المعركة. وكانت النتيجة، لا سيما في القرن السابع عشر، حملات طويلة غير حاسمة ومحددة بالحصار.

إن تطـور البندقـية، ومدفع الميدان، إلى جانب التجنيد العام الذي أتاح تحـشيد قوات كثيفة، جعل من الممكن لنابليون تقسيم الجيش إلى فرق لتسهيل حركته ومناورته، والجمع بين نظام التشكيلات الموزعة للعمليات الاستراتيجية وبـين التركيـز المطلوب للمعركة. وأدى توزيع نابليون لقواته وتوسيع الفرق الاسـتراتيجية إلى جعل أعدائه في حيرة من أمرهم غير قادرين على تحديد أين سيكون تركيز نابليون، وهذا أعماهم وشلّهم. وهذا أصبح بمقدور نابليون أن يكـسب حرية الحركة والمفاجأة والمبادرة بحيث يقرر نقطة المعركة كما يريد، ويـضع عـدوه في ظرف غير مؤاتٍ من دون أن يترك له حرية الخيار في قبول المعـركة، أو عدم قبولها. ولقد أصبح يفرض عليه معركة فاصلة. وهنا كانت العمليات - الحركة الاستراتيجية - هي العامل الحاسم في تقرير مصير المعركة، بيـنما كـان تحقيق نصر استراتيجي في المعركة يمضي إلى نهايته القصوى بحيث أصـبح الهـدف من المعركة ليس هزيمة العدو فحسب وإنما أيضاً، إحراز نصر اسـتراتيجي ينهـي أمره دون أن تُتاح له فرصة إعادة تجميع قواه والقتال من جديد.

قـام جوهـر العمليات الاستراتيجية لدى نابليون على سلسلة من الحركات المحسوبة:

1. الـتوزيع المركـز نـسبياً، والتحرك من عدة خطوط باتجاه نقطة المعركة الحاسمة.
2. جعـل اللوجستيقا محسوبة سلفاً مما أدى إلى إمكان القيام بتلك المناورات الاستراتيجية.
3. التركيز الشديد في المعركة الفاصلة.
4. مفاجـأة العدو ومحاصرته، أو الالتفاف حوله، أو قطع خطوط مواصلاته وإمداده.
5. ضبط مختلف الحركات الاستراتيجية ضمن خطة متماسكة متناغمة.

لقد أتاح هذا كله لنابليون أن يجعل قواته سريعة مرنة، تستطيع فرض المعركة علـى العـدو حسب اختيارها، أو الانسحاب بسرعة. ولهذا أصبحت استراتيجية العمليـات تشمل ساحة حرب واسعة، وذات طبيعة متحركة لم يسبق لها مثيل إلاّ في حروب الفتوحات الإسلامية.

انكـب اثنان من كبار المنظرين العسكريين وهما كلاوزيفتز وجوميني، على دراسـة حروب نابليون، واستخلصا من استراتيجيته، واستراتيجية عملياته، ومن تكتيكه، أعمّ القواعد الأساسية لعلم الحرب، وقد أصبحت تحليلاتهما ونظرياتهما الأسـاس الـذي قـام عليه علم الحرب الحديث طوال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، بل إن كثيراً من نظرياتهما ما زالت تحمل قيمة معاصرة حتى في ظـروف العصر النووي والصواريخ عابرة القارات. وقد أخطأ كل من تجاهلـها بعـد انـتهاء الحـرب الباردة تحت تأثير موضوعة "الثورة في الشؤون العسكرية" (M.R.A.). وهو ما سنأتي مناقشته لاحقاً.

انـصب اهـتمام جومـيني (1779 – 1869)، أساساً، على النواحي الفنية الـصرف في دراسـته لاسـتراتيجية نابليون، والقضايا العملية في الحرب، وعلى الـتحديد، في مجـال المناورة الاستراتيجية. لذلك فقد اهتم العسكريون في القرن التاسـع عشر بدراساته اهتماماً بالغاً. أما كلاوزيفتز (1780 – 1831) فقد تناول موضـوع الاستراتيجية الكلية ومسائل الحرب بروح فلسفية عميقة متأثراً بفلسفة عمانويل كانط وديالكتيك ويلهلم فردريك هيجل (ألمانيان 1724 – 1804 و1770 – 1831 بالتـالي). وقـد ركز، بصورة خاصة، على التأثير السياسي الضخم في الاستراتيجية العسكرية. وعرف الاستراتيجية العسكرية بأنها نظرية استخدام المعارك لتحقـيق الهدف السياسي. ومن هنا اعتبر الحرب استمراراً للسياسة بوسائل عنيفة. ولكـن الأهم من ذلك رؤيته للعلاقة بين الحرب وكل من الاقتصاد والوضع المدني في الأمـة، وتـناول موضوعات مثل "طبيعة الحرب" و"الاستراتيجية والتكتيك"، والهجوم والدفاع وتنظيم القوات وخطة الحرب، وركز على أهمية العامل المعنوي.

علـى الرغم من أن كلاوزيفتز تناول الموضوع بصورة أشدّ عمقاً من جوميني إلاّ أن جوهـر نظـرياته ظـلّ بعيداً من فهم العسكريين الذين أخذوا منه المسائل

المتعلقة بالحرب المباشرة، مثل التجنيد العام وتحويل الوضع المدني إلى عسكري، ولكن دون أن يروا العلاقة الوثيقة التي أقامها بين الوضع المدني والاقتصاد والسياسة في الأمة من جهة وبين الحرب من جهة أخرى. فمثلاً اعتمد العسكريون الألمان على نظريات كلاوزيفتز، ابتداء من هيلموت مولتكي (1800 – 1891) ومروراً بقادة الحرب العالمية الأولى وانتهاء بأدولف هتلر (1889 – 1945) وهيئة أركانه في الحرب العالمية الثانية.

إلاّ أنهم تكشفوا عن جهل لجوهر نظرياته فيما يتعلق بأهمية الوضع الاقتصادي والمدني للأمة التي تخوض الحرب على مصير الحرب نفسها. فقد أخذوا منه مسألة الاستراتيجية الكلية وبناء آلة حرب شاملة، وعسكرة البلاد، والاقتصاد، والتجنيد العام، والمناورة خلف خطوط العدو والعمل على أساس أخذ قرار حاسم في المعركة عن طريق إنزال الهزيمة بالقوات الرئيسية المقابلة. ولهذا خاضوا عدة حروب على أساس تقديرات عسكرية صرف، واستراتيجية عسكرية صرف، دون أن يروا الإمكانات الاقتصادية للتطور التقني وأهمية الوضع المدني والسياسي والتحالفات السياسية لدى خصومهم. وكان ذلك حاسماً في خسارة الحرب العالمية الثانية.

أما ما هو أغرب من ذلك فتقويم فريدريك إنجلز لكل من جوميني وكلاوزيفتز، في رسالته إلى ويدماير WEYDEMEYER في نيسان/أبريل 1853 حيث يقول: "إن حملات نابليون بسيطة إلى حدّ يصعب معه أن يضل المرء في فهمها. في الواقع إن كل ما ذكر حولها يجعل جوميني أفضل مؤرخ حقاً لتلك الحملات، بينما كلاوزيفتز هذا العبقري الفطري لا يروق لي تماماً بالرغم من المقطوعات الكثيرة الرائعة التي كتبها". وقد نتج عن اهتمام إنجلز بجوميني أكثر من اهتمامه بكلاوزيفتز أن أخطأ في تقويم الحرب الأهلية الأميركية حيث لم يرَ إمكانات الشمال الاقتصادية إلى جانب وضعه المدني (كلاوزيفتز)، وحصر تقويمه بالجوانب العسكرية الصرف (جوميني)، في حين فعل ماركس العكس وجاء تقديره أصح فيما يتعلق بنتائج تلك الحرب.

لم يحصر كلاوزيفتز تقويمه للحرب على القوات العسكرية المتوفرة فحسب، وإنما اهتمّ أيضاً برؤية إمكانات كل دولة على التعبئة والتنظيم والإنتاج وإمداد

الحـــرب قبل اندلاعها وفي أثنائها. ولهذا كان يصعب على العسكريين الذين يرون الحرب من جوانبها العسكرية الصرف أن يدركوا جوهر نظريات كلاوزيفتز، ومن ثم مالوا أكثر إلى جوميني.

انشغل جوميني في تنظيم المبادئ الأساسية لاستراتيجية العمليات:

1. "جلـــب غالبـــية الجـــيش، بإجراءات استراتيجية تباعاً، لأخذ أدوارها في المـــناطق الحاسمة في مسرح الحرب، وبقدر الإمكان على طرق مواصلات العدو، ولكن دون تعريض طرق مواصلاتك للخطر".
2. ("الـــتفوق في المعـــركة" عن طريق مناورات تكتيكية، أي وضع قواتك الرئيســة في المنطقة الحاسمة من أرض المعركة، أو ضد ذلك الجزء من قوات العدو الذي يؤدي التغلب عليه إلى تغيير توازن القوى في مصلحتك).
3. "بالإضـــافة إلى جلـــب هذه الكتل لتأخذ المواقع الحاسمة في المعركة، يجب تنظـــيم ســـير الأمور بشكل يجعل هذه الكتل من الرجال تعمل، بسرعة، وجماعياً، بشكل يجعل الكل عبارة عن جهد موحد في وقت واحد".

أعطـــى جومـــيني هـــذه المـــبادئ العامة أسماء: "خطّ العمليات". "الخطوط الداخلـــية"، "المـــبادرة الاستراتيجية". وعرف خطّ العمليات بأنه ذلك الجزء من مـــنطقة الحملـــة التي يختارها الجنرال لمناورته، سواء أكانت طريقاً واحداً، أم عدة طـــرق من طرق المواصلات. ويضرب مثالاً على أخذ خطّين مزدوجين للعمليات حيث يمكن للجيش تجنب الخطر الكامن في فصله إلى جيشين عن طريق إيجاد قيادة مـــوحدة للخطّـــين، وجمعهما بسرعة قبل الدخول في أية معركة حاسمة. وقد حبذ اتـــباع الخطّـــين في المناورة الاستراتيجية شريطة أن تؤمن "الخطوط الداخلية"، أو عندما يتوفر تفوق عددي كبير على قوات العدو.

ولهذا يشدّد جوميني على أهمية "الخطوط الداخلية". ولكن هذه المناورة تغدو عديمـــة الجدوى إذا استطاع العدو أن يقدر نقطة الضرب. لذلك فهو يضع الأهمية الكبرى على مسألة كسب المبادرة الاستراتيجية التي يعرّفها بأنها جمع بين المعلومات (معـــرفة نقـــاط ضعف العدو، بينما تخفي نقاط ضعفك) وبين التركيز (من خلال الاستخدام الصحيح لخطوط العمليات) والملاحقة حتى النهاية بعد معركة ظافرة.

الاستراتيجية في القرن التاسع عشر

كــان القــرن التاسع عشر عصر الدول القومية في أوروبا مصحوباً بنهوض صـــناعي وتقـــني وعلمـــي شمـــل كل المجالات، فقد ترسّخت سلطة البرجوازية، وتطـــورت صناعة الأسلحة كما تطورت الأسلحة نفسها خاصة المدافع - مدافع المـــيدان - والبندقـــية الـــسريعة التي تعبأ من المخزن، إلى جانب تطور الطرقات ووسائط النقل، خصوصاً، القطارات.

وإذا تـــرجمنا هـــذا إلى اللغة العسكرية فسيتحول إلى تجنيد عام في كل الدول الـــصناعية مـــع زيادة كثافة النيران وتطور الحركة وتضخم حجم القوات. وهذا بدوره حوّل تشكيلات المناورة النابليونية - شبكة واسعة من الأرتال - إلى جبهة متماســكة ســواء أوزعـــت للحركة الاستراتيجية أم للمعركة، إذ أصبح الجنود متراصين لتشكيل كتلة قتالية متأهبة دائماً، وهذا بدوره زاد إمكانات الدفاع لجبهة واســعة مـــستمرة، ولم تعـــد عملية الاختراق أسرع من عملية جلب الاحتياط الدفاعـــي. مما أدى إلى جعل استراتيجية نابليون بالية بالرغم من أن الجنرالات ظلّوا أســـرى اســـتراتيجية العمليات النابليونية، ولم يستطيعوا أن يروا مغزى التطورات الجديدة، والتكافؤ النسبي بين مختلف الدول الصناعية الكبرى الأوروبية. وبالتالي لم يستطيعوا أن يجددوا بما يتفق والوضع الجديد.

إن الـــتطور الاستراتيجي الذي حدث في هذا القرن يتركز في مسألة التجنيد العـــام مصحوباً بإنتاج ضخم للأسلحة ضمن مخطط لعسكرة البلاد. أما العمليات الاستراتيجية فقد ظلّت ضمن النابليونية. وأدت إلى نجاحات في حالات محددة مثل حرب سكليزويغ - هولشتاين 1864، والحرب البروسية - النمساوية 1866.

أما الحروب التي تمثل المرحلة التي تلت العصر النابليوني فهي الحرب الفرنسية - البروســـية (1870 - 1871) والحـــرب الأهلـــية الأميركية (1861 - 1865)، والحـــرب الروســـية - اليابانية (1904 - 1905) حيث حدث توازن بين الحركة وحجـــم القـــوات وكثافة النيران. الأمر الذي أدى إلى ركود الجبهة أمام الخنادق والتحـــصينات وتفوق الدفاع وسرعة انتقال الاحتياط الدفاعي، بما يوازي سرعة المهـــاجمين. وهنا لم تعد العمليات الاستراتيجية تلعب الدور الذي كانت تلعبه في

العهد النابليوني. وقد ضعفت أهمية الضربة المركزة على إحدى نقاط جبهة العدو. وأصبح التركيز على عمليات الالتفاف والهجوم على عدة اتجاهات إلى حدّ سميت معه باستراتيجية الخطوط الخارجية التي تستهدف ضرب طوق على العدو.

إلى هنا، سنترك، عند هذا الحدّ متابعة التطورات التي حدثت مع الحرب العالمية الأولى ثم الحرب العالمية الثانية لنناقشها جنباً إلى جنب مع تطور التكتيك أما استراتيجية العصر النووي فسنبحثها تحت فصل خاص بها.

أما الآن فلنلاحظ ما يلي:

أولاً: إن اللمحة التاريخية أعلاه تعطي صورة للأسباب التي جعلت كلمة الاستراتيجية تأخذ محتويات مختلفة من مرحلة تاريخية لأخرى، بل في قلب المرحلة التاريخية الواحدة.

ثانياً: إن الحرب المطلقة، أو الحرب الكلية، جاءت نتاج تطور القوى الإنتاجية والتغييرات السياسية (الثورات). وبهذا نقل مركز الثقل في الاستراتيجية إلى الجبهة المدنية، لتحقيق التعبئة الشاملة والكاملة، لكل المصادر المادية، والبشرية، والروحية للبلاد.

ثالثاً: ارتبطت استراتيجية العمليات بمسألة حجم القوات والحركة وكثافة النيران وساحة الحرب و"ذان مركز الثقل يتنقل من الواحدة للأخرى، وأحياناً وجود نوع من التوازن المتغير، ولكن كان لكل منها دوره بدرجات متفاوتة من حيث الأهمية حسب مرحلة التطور التقني والمكان والوضع المدني.

- 2 -

الاستراتيجية وتعريفها

ثمة تعريفات كثيرة للاستراتيجية لا بدّ من استعراض أغلبها وتحليلها من أجل الخروج بالجواب عن السؤال ما هي الاستراتيجية. ولنبدأ بالاستراتيجية العسكرية.

تعريف كلاوزفيتز: "التكتيك هو استخدام القوات العسكرية في المعركة. أما الاستراتيجية فهي نظرية استخدام هذه المعارك لتحقيق هدف الحرب".

يحصر كلاوزيفتز التكتيك بمسألة استخدام القوات العسكرية في المعركة. بينما يجعل مهمة الاستراتيجية هي تحقيق الهدف السياسي للحرب من خلال استخدام المعارك. ومن هنا نخرج بالنقطة الرئيسة وهي التفريق بين الهدف السياسي والاستراتيجية حيث يقف الهدف السياسي في المقدمة، وتأتي الاستراتيجية لتقوم بمهمة تحقيقه. فالاستراتيجية ليست الهدف السياسي، وإنما هي نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف السياسي، فعلاقتها بالهدف هي علاقة الوسيلة بالغاية. ولكن سنرى فيما بعد أن الاستراتيجية ليست نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف فحسب، وإنما أيضاً، تشمل مجالات أخرى. كما أن مفهوم كلاوزيفتز للاستراتيجية محصور باستراتيجية القرار الحاسم أو "الدفع حتى الحدّ الأقصى"، فالحرب "عمل عنيف صعّد حتى الحدّ الأقصى" ويجب أن ينتهي دائماً بسحق العدو، والإطاحة به، أي "الحرب المطلقة". ومن هنا حصر الاستراتيجية بمفهوم تحقيق الهدف النهائي للحرب – سحق قوات العدو أو تجريده من السلاح – ولكن هذا الشكل من الاستراتيجية لا يغطي كل الحالات، فمثلاً استراتيجية أغلب حروب التحرير لا تستهدف سحق القوات الرئيسة للعدو في المعركة وتجريده من السلاح، وإنما استخدام المعارك والنضال السياسي والرأي العام العالمي والأزمة الداخلية للعدو لإجباره على الانسحاب.

تعريف جوميني: لم يخرج تعريف جوميني عن تعريف كلاوزيفتز عموماً، ولكنه ركّز على الاستراتيجية في المجال العسكري – استراتيجية العمليات والمناورة الاستراتيجية. وهذه لم تعد مطابقة لكل الحالات كما حدّدها. فمثلاً أصبح الاشتباك في الحرب العالمية الثانية مقدمة للعمليات الاستراتيجية، كما سنرى فيما بعد.

تعريف كراسة التدريب المشترك COMBINED TRAINING البريطاني 1902:

"التكتيك هو فنّ قيادة القوات في المعركة، أما الاستراتيجية فهي فنّ التخطيط والإشراف على الحملة. فالاستراتيجية هي الأسلوب الذي يحاول القائد عن طريقه جلب عدوه إلى المعركة، بينما التكتيك هو الوسائل التي يُسعى من خلالها إلى إنزال الهزيمة بالعدو في المعركة".

يـتفق هـذا التعريف مع تعريف كلاوزيفتز حول التكتيك، أما بالنسبة إلى الاسـتراتيجية فهـو يسقط الهدف - وهذا نقص أساسي - ولكنه يوسع مفهوم الاسـتراتيجية إلى "فـن التخطيط والإشراف على الحملة". فهي لا تقتصر على نظـرية اسـتخدام المعـارك لتحقيق الهدف وإنما تتناول مسائل التخطيط للحملة والإشراف عليها.

تعريف هاملي HAMLEY: "إن مسرح الحرب هو مجال الاستراتيجية، أما ساحة المعركة فمجال التكتيك".

يقوم هذا التعريف على تحديد نطاق عمل الاستراتيجية ونطاق عمل التكتيك ولكنه لا يحدد ما هي الاستراتيجية وما هو عملها.

فوندرغولتـز VONDER GOLTZ: "تشغل الاستراتيجية نفسها، عموماً، بالإجـراءات ذات النطاق العام التي تخدم دفع القوات إلى العمل في الجبهة الحاسمة تحـت أفضل الظروف الملائمة الممكنة، بينما يتناول التكتيك ما يجري في الاشتباك بالـنات. ولهـذا يمكن أن تسمى الاستراتيجية علم الجنرالية بينما يمكن أن يسمى التكتيك علم قيادة القوات".

يتناول هذا التعريف الاستراتيجية من شقين:

1. الاستراتيجية تعني باتخاذ الإجراءات ذات الطبيعة العامة بالنسبة إلى مسرح الحرب ككل.
2. واجب الإجراءات الاستراتيجية وضع القوات في الجبهة الحاسمة في أفضل الظروف الملائمة الممكنة (جزء من تعريف جوميني).

ولكـن يظـلّ هذا التعريف محصوراً في مرحلة ما قبل المعركة، بينما يشدد كلاوزيفتز على دور الاستراتيجية بعد المعركة - نظرية استخدام المعارك.

تعريف ليدل هارت (مؤرخ عسكري بريطاني 1895 - 1970): "الاستراتيجية فنّ استخدام القوات العسكرية لتحقيق الغايات التي وضعتها القيادة السياسية".

يرتكـز هذا التعريف في جوهره على تعريف كلاوزيفتز، بجعل الاستراتيجية قائمـة على أساس تحقيق الهدف السياسي، ولكن الفرق هنا أن ليدل هارت وسّع مفهوم كلاوزيفتز للهدف العسكري في الحرب بحيث جعل الهدف مرناً غير محصور

بمفهوم "الحرب المطلقة"، وربط الاستراتيجية بتحقيق مختلف الغايات التي تضعها القيادة السياسية بما في ذلك تلك التي ذات الطابع المحدود. ولكنه حصرها بفنّ استخدام القوات العسكرية، وبهذا أسقط عملية دورها في التحضير، أو على الأصح حصرها في مرحلة استخدام القوات العسكرية.

تعريف فيرديناند فوش F. FOCH (فرنسي 1851 – 1929): "الاستراتيجية عملية تنبع من اشتباك بين إرادتين متنازعتين".

يحاول هذا التعريف التشديد على الجانب السيكولوجي في الحرب ودور الاستراتيجية في هذا المجال.

تعريف أندريه بوفر A. BEAUFRE (فرنسي 1902 – 1975): "الاستراتيجية هي فنّ استخدام القوة لتقوم بأكبر إسهام في اتجاه تحقيق الغايات التي وضعتها السياسة"، أما التكتيك فهو "فنّ استخدام السلاح في المعركة بطريقة تجعله يمارس أكبر تأثير".

يعتمد هذا التعريف على الجمع بين تعريف ليدل هارت وتعريف فوش وذلك بإسقاطه كلمة عسكرية من تعريف ليدل هارت واستبدالها بمفهوم كلمة قوة في تعريف فوش لجعل الاستراتيجية تشمل الجانب العسكري والنفسي والسيكولوجي، مضافاً ضرورة استخدام تلك القوة بصورة تجعلها تمارس أكبر تأثير لتحقيق الغايات التي وضعتها السياسة.

تعريف مولتكي VON MOLTKE: إن الاستراتيجية تقوم من خلال قيادتها للجيوش وتركيز القوات في ميدان المعركة بتأمين فرصة الضرب للتكتيك، والضرب بنجاح. ولكن الاستراتيجية، في المقابل، تتقبل أيضاً نتائج كل اشتباك (تكتيك)".

الشيء الجديد في هذا التعريف هو إقامته للعلاقة الراجعة لنتائج التكتيك على الاستراتيجية.

تعريف كنت روبرتس غرينفيلد K.R. GREENFIELD (أميركي 1893 – 1967): "تتضمن الاستراتيجية مفاهيم – مفاهيم استراتيجية – وخطط القوى أو التحالف لفرض إرادتك على العدو، وتتضمن استخدام الأساليب التي ثبتت صحتها وتجنب تلك التي ثبت عدم صحتها، من أجل تحقيق هذا الغرض".

تشمل هذه التعاريف للاستراتيجية: (1) مفاهيم استراتيجية (2) خطط استراتيجية (3) إجراءات استراتيجية بقصد فرض إرادة إحدى القوتين المتحاربتين على الأخرى.

تعريف ليون تروتسكي (أوكراني 1879 – 1940): "الاستراتيجية والتكتيك غير مشتقين من مفهوم للبروليتارية حول العالم، وإنما من شروط التكنولوجيا العسكرية المحدّدة ومن وسائل التزويد والتموين والمواصلات والوضع الجغرافي".

ينزع تروتسكي هنا من الاستراتيجية والتكتيك عنصر المفاهيم ويربطهما كلياً بالجانب المادي واللوجستيقا والوضع الجغرافي، وهذه محاولة لرؤية الاستراتيجية بصورة أحادية الجانب فقط.

تعريف الجنرال ستروكوف (جنرال سوفياتي في الحرب العالمية الثانية): تهتم الاستراتيجية العسكرية بدراسة "أساليب وأشكال خوض الصراع المسلح، وإعداد القوات المسلحة واستخدامها في الحرب، وهي تهتم بخوض الحرب بالكامل وبالحملات العسكرية". وإن أهم واجبات الاستراتيجية هي: "تحديد القوى والوسائط الضرورية لخوض الحرب بنجاح، وكذلك القوى والوسائط والأساليب المعادية، وانتقاء اتجاه الضربة الرئيسية، وإعداد القوات المسلحة ومسارح العمليات للحرب، واختيار أساليب وأشكال الصراع المسلح ثم استخدامها وربطها بشكل حاذق". ويدخل في مهام الاستراتيجية العسكرية: "وضع خطة الحرب، تحديد دور بعض أنواع القوات المسلحة والصنوف المختلفة. ثم تنظيم التعاون في ما بينها خلال الحرب، تموضع القوات المسلحة، تخصيص الاحتياطات، واستخدامها بشكل صحيح، تنسيق أعمال القوات المسلحة في بعض مسارح العمليات مع الأعمال الحربية للقوات المسلحة للدول الحليفة، التأمين المادي والفني للقوات المسلحة وغير ذلك من المسائل المرتبطة بإعداد وخوض الحملات العسكرية والحرب بالكامل". وتستند الاستراتيجية العسكرية "على الاستخدام الصحيح للعوامل الاقتصادية والسياسية والمعنوية التي تقرر مصير الحرب المعاصرة". وهي ترتبط مع السياسة وتوجد في تبعية مباشرة لها.

يتناول تعريف الجنرال ستروكوف الاستراتيجية العسكرية من حيث مهامها وواجباتها ونطاق عملها مؤكداً على خضوعها للاستراتيجية السياسية وتبعيتها لها.

تعريف فلاديمير لينين (روسي 1870 – 1924): يقول في إحدى تعليقاته على كلاوزيفتز: "إن أصح استراتيجية في الحرب هي التي تؤجل العمليات حتى يصل الانحلال المعنوي لدى العدو إلى حدّ يجعل الضربة القاضية ممكنة وسهلة".

إن هذا التعريف لا يعطي صورة كاملة لكل أبعاد مفهوم لينين حول الاستراتيجية، ولكن يلقي ضوءاً على ضرورة عدم حصر **الاستراتيجية العسكرية** بفنّ استخدام القوات المسلحة، ويركز على أهمية اختيار اللحظة الحاسمة لإنزال الضربة القاضية بالعدو، بصورة سهلة وشبه مضمونة، أو بكلمات أخرى يركز على أهمية العمل السياسي التحضيري قبل المعركة الفاصلة. وعندما تحدث عن الاستراتيجية السوفياتية قال: يجب أن تكون مشبعة بأكبر قدر من الحسم وينبغي لها أن تسحق العدو سحقاً كاملاً "لا يكفي ضرب العدو، بل يجب سحقه عن بكرة أبيه" (هنا يبرز تأثير استراتيجية كلاوزيفتز).

تعريف جوزيف ستالين (جورجي): "الاستراتيجية تستهدف كسب الحرب ككل".

يقتصر هذا التعريف على تحديد مهمة الاستراتيجية.

تعريف ماوتسي تونغ (صيني 1893 – 1976): "قوانين الحرب محكومة بالزمان والمكان وطبيعة كل حرب"، و"محكومة بالتطورات التكتيكية والاستراتيجية في جانب جبهة العدو وفي جانبنا، إذ إن الظروف تختلف من مرحلة إلى أخرى حتى ضمن الحرب الواحدة". لذا: فإن "الاستراتيجية هي دراسة قوانين الحرب ككل".

"إن مهمة الاستراتيجية هي دراسة تلك القوانين التي تحكم الحرب في وضع حرب ككل. إن مهمة علم العمليات وعلم التكتيك هي دراسة القوانين الخاصة بقيادة الحرب في وضع جزئي".

تعريف سون تسو (صيني – القرن السادس قبل الميلاد): "إن المهمة الأسمى في الحرب هي مهاجمة استراتيجية العدو. ويأتي بعدها من حيث الأهمية مهمة تمزيق تحالفاته ثم تأتي ثالثاً مهاجمة جيشه" ("فن الحرب").

نظرة سريعة إلى كل هذه التعريفات، وهي قليل من كثير، تجعلنا نلاحظ ما يلي:

أولاً: بعـــد تحديد الهدف السياسي تأتي الاستراتيجية لتعالج المسائل المختلفة الـــتي تـــؤدي إلى تحقيق الهدف السياسي. أي هي الجسر الذي يمتد من الهدف إلى تحقـــيقه، مـــروراً بالتطبيق، تاركة للتكتيك معالجة مسائل الجزئيات. ومن هنا فإن مجال الاستراتيجية هو الحرب ككل.

ثانـــياً: تتضمن المسائل المختلفة التي تؤدي إلى تحقيق الهدف ومن بينها تحديد جملة من القضايا التي تعالجها الاستراتيجية نذكر منها دون حصرها كلها:

1. نظرية استخدام المعارك لتحقيق الهدف.
2. نظرية العمليات والتكتيك.
3. نظـــرية بـــناء القـــوات المسلحة وتنظيمها وتسليحها وتدريبها وتركيزها وتوزيعها.
4. التخطيط والإشراف على الحملة.
5. الإجراءات العسكرية والمعنوية والإعداد السياسي التي تضع القوات ككل في أفضل الظروف الملائمة والممكنة.
6. قـــيادة القـــوات المسلحة بالصورة التي تجعلها تمارس أكبر تأثير على العدو (فنّ استخدام القوات العسكرية).
7. اختـــيار الأهـــداف الحاسمة، أو الهدف الحاسم، واختيار اللحظة الحاسمة لإنـــزال الضربة القاضية.
8. اتخاذ الإجراءات المضادة لاستراتيجية العدو وإحباطها والمساهمة في إضعاف جـــبهة العـــدو مادياً ومعنوياً. ولا سيما تمزيق تحالفاته إلى جانب توسيع تحالفاتك.
9. مـــسائل اللوجـــستيقا ودور المؤخـــرة، والحالة المدنية والاقتصادية لطرفي الجبهة.
10. التركيـــز علـــى مـــا يمـــسّ الحرب ككل، والاهتمام بالعلاقة بين مختلف العملـــيات، وبالعلاقـــة بين مختلف مراحل العمليات، وبالعلاقة بين نشاط جبهتنا ككل، ونشاط جبهة العدو ككل.

وهنا نأتي إلى تعريف ماوتسي تونغ الذي يحدد الأساس الذي تقوم عليه الاستراتيجية لكي تستطيع أن تحلّ كل تلك المسائل حلاً صحيحاً في كل حالة معطاة، أي أنه يدلنا على كيفية وضع نظرية استخدام المعارك لتحقيق هدف الحرب، وكيف توضع نظرية العمليات والتكتيك، ونظرية بناء القوات المسلحة وقيادتها. فما دامت قوانين الحرب محكومة بالزمان والمكان وطبيعة الحرب ومحكومة بالتطورات التكتيكية والتقنية والاستراتيجية في كل جانب من الجانبين المتحاربين، وما دامت الظروف في داخل الحرب الواحدة تختلف من مرحلة للأخرى، فإن الاستراتيجية بالتالي، تصاغ من خلال دراسة قوانين الحرب المحدّدة المعطاة ككل. إن اكتشاف هذه القوانين هو المفتاح لحلّ مسائل الاستراتيجية في كل حرب وفي كل مرحلة وفي كل حالة.

ثالثاً: لا توجد هنالك استراتيجية جاهزة تصلح لكل زمان ومكان وحرب. لأن الاستراتيجية تتأثر بطبيعة الحرب التي تخوضها، وتعمل ضمن الإمكانات المادية والتقنية والبشرية والسياسية المتوفرة أو التي يمكن توفيرها مستقبلاً كما تتأثر بموازين القوى الإقليمية والعالمية كما التحالفات والرأي العام على مختلف المستويات. وهو ما يحدّده أيضاً المكان والزمان ومستوى استراتيجية وتكتيك العدو.

رابعاً: مهمة الاستراتيجية تحقيق الهدف السياسي، بغضّ النظر عن الإمكانات المتوفرة، والشروط المستكملة، إذ عليها، خصوصاً، عند مواجهة عدو متفوق ببعض المجالات الهامة، أن تعمد إلى توفير الإمكانات، وتعمل على استكمال الشروط، واختيار العمليات الأنسب، والتكتيك الأنسب، من أجل التعويض عن تفوق العدو، ومن ثم تأمين أسباب تحقيق النصر عليه. ولكن هذه العملية لا تقرر تجريدياً وإنما وفقاً للوضع الملموس المحدّد.

خامساً: يلاحظ من جميع النقاط أعلاه أنها تعتمد على إجهاد التفكير لأن أغلب المسائل الهامة التي تواجهها الاستراتيجية، مثلاً تقويم الوضع ككل وتحديد أنسب طرق العمل ضمنه قضايا لا ترى بالعين وإنما تفهم بالتفكير المنهجي العلمي العميق بعد جمع المعلومات والتفكير بها وتنسيقها واستبعاد غير المهم وإبقاء المهم كما يقول ماوتسي تونغ، ثم يؤخذ الوضع من كل جوانبه، وتأثير كل جانب على

الآخـــر، وهـــذا يحكم على الوضع وترسم الاستراتيجية وتعمل الخطة أو الخطط الاستراتيجية[1].

علـــى أنـــنا عـــند هذا الحدّ نكون قد حصرنا، قدر الإمكان، الاستراتيجية العـــسكرية ولكن ثمة الاستراتيجية الكلية ويعرفها باليت[2] بأنها "فنّ تعبئة وتوجيه مصادر الأمة أو مجموعة الأمم، بما في ذلك القوات المسلحة، من أجل تحقيق الهدف الـــسياسي"، ويقـــول إن للاستراتيجية مستويات مختلفة: الاستراتيجية السياسية، والاســـتراتيجية العـــسكرية، واستراتيجية العمليات، ولكنها كلها تتناول مختلف المـــستويات للاســـتراتيجية ضمن وحدة مفهوم عام. أما بوفر (جنرال فرنسي مرّ ذكره) فيقسم الاستراتيجية أيضاً إلى مستويات، ويعرف الاستراتيجية الكلية: "هي الـــتي تقود الصراع سواء أكان عنيفاً مباشراً، أم غير عنيف، سواء أدار في الميادين الـــسياسية، أم الاقتـــصادية، أم الدبلوماسية، أم العسكرية، أو شملها فيها كلها في وقـــت واحـــد لأن المسألة في الواقع كلية. ومن ثم لا يمكن رؤية الاستراتيجية من وجهة نظر عسكرية صرف، لأن ذلك سيغفل مجموعة من العوامل".

من هنا، نخرج بالنتائج التالية حول الاستراتيجية عموماً:

1. الاستراتيجية ليست محصورة بمجال من المجالات دون آخر إذ إن كل مجال يوضع له هدف يتوجب الوصول إليه ترسم له استراتيجية لتحقيقه. وتقوم الاستراتيجية عموماً بـــ:

أ. تقـــويم الوضـــع في المجـــال المعطى واكتشاف القوانين الأساسية التي تحكمه.

ب. وضـــع خطة استراتيجية تتضمن تلك القوانين – أو القواعد والمفاهيم الأساسية – وتعين الإجراءات الاستراتيجية الواجب اتخاذها، وأنسب أساليب العمل والممارسة لتحقيق الهدف.

---

(1) أهمـــية تنظيـــر ماوتسي تونغ كونه عالج موضوعي الاستراتيجية وتكتيك في ظروف توازن للقـــوى مخـــتل بـــصورة صارخة في مصلحة العدو، كما أوجد توازناً أسماه بشبه التوازن الاستراتيجي، وآخر التحضير للهجوم العام. فتجربته مرت بتنوع شديد في ظروف الحرب.

(2) باليـــت D.K. PALIT جنـــرال بريطاني كتب عام 1953 "مبادئ المعرفة العسكرية"، وفي 1997 "الحرب في عصر الردع".

ج. تحـــدد نظـــرية التطبيق (أو التكتيك في المجال العسكري أو السياسي) وخطوطه العامة العريضة لتشرف عليه وتقوده ككل.

2. عندما نتحدث عن الاستراتيجية يجب:

أ. تحديد المجال أو المجالات التي تتناولها الاستراتيجية.

ب. تحديـــد الـــسمات الرئيـــسية للاستراتيجية التي نتحدث عنها إذ أن اســـتراتيجية حـــزب ثـــوري تختلف من بلد لبلد، كما تختلف عن اســـتراتيجية القوى المضادة، وتختلف من مرحلة إلى أخرى، كما أن الاستراتيجية الكلية لحرب ثورية أو مقاومة شعبية تختلف من بلد لبلد كمـــا تختلف عن الاستراتيجية الكلية لدولة إمبريالية أو دولة صناعية كبرى.

3. نظراً للترابط الكلي بين مختلف المجالات:

أ. يحدد الهدف العام الكلي، أو الأهداف العامة الكلية، عن طريق أعلى سلطة سياسية في الدولة أو الحزب. ثم،

ب. تحـــدد الاستراتيجية الكلية من أجل تحقيق الهدف العام الكلي، أو الأهـــداف العامـــة الكلية، وتكون مهمة هذه الاستراتيجية تعبئة وتنظـــيم كل المصادر المادية والمعنوية في مختلف المجالات، وجعلها تعمـــل بصورة منسجمة موحدة وبأقصى طاقتها وإمكاناتها. وهذا يقتضي:

- وضع القوانين أو المبادئ أو المفاهيم الأساسية للتخطيط والممارسة على نطاق عام.
- وضع الخطة الاستراتيجية الكلية.
- توزيع الأهداف المطلوب تحقيقها من كل مجال.
- التنسيق بين استراتيجيات كل مجال بحيث يحدد المجال الأكثر أهمية في كل مرحلة.
- قـــيادة الوضـــع ككل والإشراف على التنفيذ وحلّ كل المسائل المـــتعلقة بالوضع ككل. إذ إن مهمة الاستراتيجية لا تقتصر على

وضع الخطوط الاستراتيجية فحسب، وإنما أيضاً، اختيار التكتيك المناسب، ليس هذا فحسب، وإنما أيضاً، قيادة العمل التكتيكي ككل، والإشراف عليه من أجل أن يلعب دوره المناسب في إنجاح الاستراتيجية في مجاله، والاستراتيجية الكلية من أجل تحقيق الهدف أو الأهداف، الذي، أو التي، وضعتها أعلى سلطة سياسية (قد تكون البرلمان أو مؤتمر حزب أو المجلس الأعلى قومي).

ج. عندما يتسلم كل مجال أهدافه من الاستراتيجية الكلية يعمد إلى رسم استراتيجيته وتحديد تكتيكه (أو سياساته وممارسته)، وبكلمة إعادة العملية، أي وضع المبادئ أو المفاهيم أو القوانين الأساسية للتخطيط والممارسة. وذلك في إطار الخطة الاستراتيجية الكلية.

4. لما كان العمل في كل مجال، أو في الوضع ككل يحمل دائماً فرادة خاصة، وبالتالي تحكمه قوانين خاصة في المرحلة المحددة وفي الزمان والمكان وطبيعة كل من القوى في الصراع، فإن المحور الذي تحلّ بوساطته كل قضايا الاستراتيجية يتطلب وجود منهج علمي إبداعي في التفكير وفي الاستقصاء وجمع المعلومات، ثم في التقويم وتقدير الموقف وفي القرار، ثم في التخطيط والممارسة، فإن كل العملية الاستراتيجية تتوقف على دعامتين أساسيتين:

أ. الواقع الموضوعي المعطى من كل جوانبه - المادية والتقنية والبشرية والوعي والتنظيم ومن ثم ضرورة فهمه فهماً دقيقاً، وتقديره تقديراً صحيحاً.

ب. التفكير العميق الصحيح الذي يقوّم ذلك الواقع الموضوعي، ويحدد نوع الاستراتيجية التي هي أنسب ما تكون في مصلحتك، وضد مصلحة العدو. وعلى التفكير السليم أن يظلّ دائماً في مستوى كل ما يحدث من تغيرات في الواقع الموضوعي مع تلقي نتائج الممارسة، بل يكون أبعد نظراً حيث يرى اتجاهات التغير والتطور سلفاً بقدر الإمكان. أي يجب أن تسبق عدوك بخطوة دائماً.

نأتي الآن لنبحث إشكالات الاستراتيجية[1] في المجال العسكري.

تحديد الاستراتيجية العسكرية:

بعد أن تكون قد وضعت استراتيجيتك وفقاً للخطوط العريضة السابقة، واخترت تبعاً لتقويمك للوضع المعطى من كل جوانبه طراز استراتيجيتك العسكرية مثلاً:

أ. هل من الأنسب لك خوض حرب هجومية خاطفة سريعة القرار عن طريق التركيز لسحق القوات الرئيسية في جيش العدو؟ (كلاوزيفتز وجوميني).

ب. هل ستخوض حرباً نظامية تعتمد الأسلوب غير المباشر؟ (ليدل هارت).

ج. هل ستخوض حرب غوار أو مقاومة شعبية تستهدف استنزاف العدو وتعبئة الرأي العام العالمي ضده، وبالتالي شلّ إرادته على القتال؟ (ثورة التحرير الجزائرية مثلاً).

د. هل ستخوض حرب شعب طويلة الأمد تبدأ بالدفاع الاستراتيجي، وتنتقل إلى شبه التوازن الاستراتيجي ثم الهجوم الاستراتيجي؟ (ماوتسي تونغ، وهوتشي منه)

هـ. هل ستخوض مختلف أشكال النضال حتى يتوفر وضع ثوري، فتختار اللحظة الحاسمة فيه لاندلاع ثورة مسلحة عامة تحقق نصراً استراتيجياً سريعاً؟ (لينين).

و. هل ستختار استراتيجية مواجهة لاعنفية (المهاتما غاندي وقد وصفها: "اللاعنف طريقة أخرى لشن الحرب").

ز. هل ستختار استراتيجية الانتفاضة الشعبية العامة اللاعنفية. (الخميني)

---

(1) في النسخة الأولى استخدم "ديالكتيك الاستراتيجية" وهو تعبير يتوقف من جهة على فهم المعنى للديالكتيك وهو متعدد وغير محدد. ثم ما الذي يقصده المعني بالضبط من جهة أخرى، ولهذا فإن استخدام "إشكالات الاستراتيجية" أدق في فهم المقصود.

وبالمناسبة كتب روبرت غرين ROBERT GREEN كتاباً بعنوان "الثلاث والثلاثون استراتيجية في الحرب (أو للحرب)". علماً أن ما حاول حصره من الاستراتيجيات العسكرية لا يغطيها لأن الحياة ستظل أكثر تنوعاً وغنى، ولكنه من جهة أخرى كان فضفاضاً في استخدام كلمة استراتيجية فسمى استراتيجية ما هو أقرب للتكتيك.

إن مسألة تحديد استراتيجيتك لا ترتبط بتفضيل استراتيجية ما، بصورة تجريدية. إذ إن اختيار استراتيجيتك (أو على الأصح تحديدها) يرتبط بمجموعة من العوامل هي التي تقرر طراز الاستراتيجية المثلى بالنسبة إليك. فمثلاً إن استراتيجية خوض حرب هجومية خاطفة سريعة القرار عن طريق التركيز لسحق القوات الرئيسية في جيش العدو، تتوقف، أساساً، – وإن لم يكن هذا هو العامل الوحيد – على توفر تفوق مادي – سلاح، عدد، حركة، تقنية – على العدو. أو إذا كان هنالك نوع من التوازن في القوى المادية ولكن جبهة العدو مخلخلة من الناحية المعنوية، والتنظيمية والسياسية. أما إذا كان العدو متفوقاً نسبياً، ولم تكن قد أكملت استعداداتك، ولديك ساحة حرب واسعة تستطيع المناورة فيها بحيث تنهك العدو وتشتت قواه، بينما تجمع قواتك وحلفاءك، فإن خوض حرب نظامية تعتمد الأسلوب غير المباشر (استراتيجية بريطانيا التقليدية في الحربين العالميتين الأولى والثانية) تكون الأنسب في مثل هذه المعطيات. كما أن تبني استراتيجية حرب شعب طويلة الأمد، على اختلاف استراتيجياتها – الطراز الجزائري، أو الفياتنامي أو الصيني، أو ألوان مقاومة (التجارب اللبنانية والفلسطينية والعراقية والأفغانية والصومالية)، محكومة بتوفر تفوق مادي كاسح في جبهة العدو، في حين لا تستطيع أنت ألاّ تتبنى استراتيجية تعتمد على الدفاع الاستراتيجي بسبب ضعفك المادي وضرورة الإعداد الطويل في أثناء الصراع، وبالاعتماد أساساً على العناصر الإنسانية – المعنويات، الوعي، التنظيم، الجماهير، وعدالة القضية وخلخلة جبهة العدو – من أجل الانتقال إلى شبه التوازن الاستراتيجي ثم الهجوم الاستراتيجي السياسي وإنزال الهزيمة بالعدو، وحتى شكل استراتيجيتك في مرحلتي شبه التوازن الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي السياسي تقررها موازين القوى – كل القوى

(المادية والمعنوية، والسياسية، والإقليمية، والدولية). فعلى سبيل المثال في التجربتين الصينية والفياتنامية اتخذ شبه التوازن الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي شكلاً عسكرياً. أما في التجربة الجزائرية والقبرصية (مكاريوس وغريفوس) فقد اتخذ سمة سياسية وليس عسكرية ميدانية.

إن العلاقة المحدّدة بين موازين القوى - كل موازين القوى هي التي تقرر طراز الاستراتيجية الأنسب في كل وضع، مع الأخذ بعين الاعتبار حجم ساحة الحرب والطوبغرافية والكثافة السكانية والوضع المدني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي كما الاقليمي والعالمي، وكذلك ضرورة الأخذ بعين الاعتبار مسألة الزمن، أي هل إطالة أمد الحرب في مصلحتك أم في مصلحة العدو.

والآن، بعد أن تحدد استراتيجيتك وتكتيكك فإن العدو سيفعل كذلك في المقابل، أي سيختار نوع استراتيجيته وتكتيكه، وهنا تبدأ عملية صراع منذ الوهلة الأولى حتى نهاية الحرب. وسيتخذ الصراع طريقه على عدة جبهات في المؤخرة وفي الجبهة، في المجالات السياسية والاقتصادية والنفسية والمعنوية وفي المجالات التنظيمية والإيديولوجية، وعلى مستوى التحالفات والرأي العام العالمي والمحلي. هذا إلى جانب الصراع في العمليات الاستراتيجية والمعارك التكتيكية. وسيكون هنالك دائماً نقاط ضعف ونقاط قوة في جبهتك وكذلك الحال في جبهة العدو.

ولو أخذنا مسألة نقاط الضعف ونقاط القوة كمثل على إشكالات الصراع الاستراتيجي، لوجدنا أن الجوهر في كل عملك سيتركز على حماية نقاط ضعفك. ومنع العدو من استغلالها حتى الحدّ الأقصى، وتصعيد نقاط قوتك لتعمل بأقصى فعالية. ولكن العدو سيحاول منعك من الإفادة من نقاط قوتك وجعل فعاليتها تهبط إلى الحدّ الأدنى. وفي المقابل، ستدور معركة مشابهة من جانبك على جبهة العدو بحيث تحاول أن تضرب في نقاط ضعفه وتفيد منها حتى الحدّ الأقصى بينما سيحاول العدو حمايتها، ومنعك من استغلالها، فيما ستحاول منعه من الإفادة من نقاط قوته حتى الحدّ الأقصى، وجعل فعاليتها تهبط حتى الحدّ الأدنى. فالمسألة لا تقتصر على الصراع مع الطرف الآخر فحسب،

وإنما أيضاً، تتطلب عقد تحالفات وإقامة توازنات في حل التناقضات داخل جبهتك[1].

إن هذه العملية كما يلاحظ تتخذ شكل سلسلة مترابطة ومتفاعلة ومتوازنة من المواقف الدفاعية والهجومية، وتمتاز بمحاولات فرض وإحباط، ودفاع وهجوم، في وقت واحد. وستتخذ في الجوهر شكل صراع على كسب حرية الحركة وحجبها عن العدو، أو عرقلة حرية حركة العدو واستعادة حرية الحركة من جانبك، في أثناء عرقلة حرية حركته، وكما قلنا، سيفعل هو الأمر نفسه. وهذا بدوره يجعل ساحة الحرب في حالة حركة وتغير مستمرين، ويجعل توازن القوى في حالة تقلب، ويجعل خططك الاستراتيجية في حالة صدام دائم مع مقابلاتها في جانب العدو، وفي علاقة حية دائمة مع التطبيق ونتائجه، الأمر الذي يتطلب إعادة تقويم الوضع ككل باستمرار، وكذلك إحداث تغييرات وتعديلات بالخطط الاستراتيجية وبالعمليات والتكتيك من أجل امتلاك زمام المبادرة أو استعادته، وامتلاك حرية الحركة أو استعادتها، وهذا يتطلب باستمرار انطباق الحكم الذاتي والممارسة على معطيات الواقع الموضوعي والذاتي في الصراع.

من هنا يمكن رؤية طبيعة الصراع في الحرب، ومدى أهمية دور العامل الذاتي، خصوصاً، عبقرية القيادة في معالجة إشكالات الصراع في الحرب. ولكن، بالطبع، يعبر دور العامل الذاتي من خلال موازين القوى ومجموعة العوامل الموضوعية.

لا يمكن إدراك أبعاد الاستراتيجية إلاّ بأخذ أمثلة ملموسة بحيث نضع أمامنا مجموعة من الأشكال والمحتويات التي أخذتها الاستراتيجيات العسكرية المختلفة، وعندما نتأمل تلك الأشكال نستطيع إدراك ما هي الاستراتيجية، بصورة أكثر وضوحاً من التعريف.

وكتب ماوتسي تونغ: "ثمة قوانين مختلفة لقيادة الحروب المختلفة، تولدها الظروف المختلفة لتلك الحروب.. مختلفة طبيعة وزماناً ومكاناً". ويعرف طبيعة الحرب بأنها تتولد من طبيعة القوى والأهداف التي تمثل كل جانب في الحرب،

---

(1) لاحظ كل هذه الاشكالات لا تلخصها عبارة "ديالكتيك الصراع".

فمثلاً طبيعة الحرب المضادة للثورة، ومن ثم قوانينها تختلف عن طبيعة الحرب الثورية، وقوانينها. أما الزمان فهو مرتبط بالمرحلة التاريخية وسماتها الخاصة، ولهذا فإن قوانين الحرب لها سمات خاصة في كل مرحلة تاريخية - مستوى تطور الأسلحة والتقنية والصناعة. ولهذا لا يمكن تطبيق تلك القوانين على حرب في مرحلة تاريخية أخرى. أما المكان فمرتبط بوضع كل بلد وأمة إذ إن لقوانين الحرب سمات خاصة في كل بلد وأمة، وما ينطبق على إحداها لا ينطبق، تلقائياً، على الأخرى.

لذلك فإن القوانين التي تحكم الاستراتيجية كثيرة بعدد اختلاف الحروب المختلفة طبيعة وزماناً ومكاناً.

ثمة جانب في الحرب هام وخطير يتعلق بالطريقة التي تعالج فيها التناقضات والصراعات والخلافيات داخل جبهتك. وهنا يلعب الخط السياسي الصحيح وروح المرونة وعقلية المساومة الداخلية والابتعاد عن الاستئثار بالسلطة و التفرد بالقرار والنظرة الحزبية الضيقة دوراً مهماً في توسيع جبهتك وحرمان العدو من استغلال التناقضات الداخلية.

كما يجب أن يلاحظ أن نسب تأثير عوامل طبيعة الحرب والزمان والمكان لا تقوم على أساس مقادير ثابتة، إذ أحياناً تلعب طبيعة الحرب دوراً أكثر حسماً، في تحديد الاستراتيجية بينما يلعب الزمان - التطور التقني والإنتاجي ونمط النظام الدولي - دوراً أكثر حسماً في حالات أخرى وهكذا، ولكن يظلّ هنالك مكان للعوامل الأخرى. والآن لنأخذ بعض أشكال الاستراتيجية.

- 3 -

الاستراتيجية في الحرب العالمية الأولى

كانت طبيعة الحرب العالمية الأولى ذات طابع استعماري عدواني من جانب كل الدول المتحاربة. وكان التطور التقني (التكنولوجي) العسكري متقارباً بين الأطراف في الميدان، وإن كان الوضع المدني والاقتصادي في جبهة الحلفاء أكثر تطوراً، وإمكانات، بالمقارنة مع الجانب الألماني.

دخلت كل الأطراف المتحاربة الحرب تحت استراتيجية واحدة وهي استراتيجية كلاوزيفتز. وذلك بالرغم من أن بريطانيا تبنت استراتيجية الحرب غير المباشرة في بعض الجبهات (القتال في المضائق التركية، حملة فلسطين مثلاً). إلاّ أن استراتيجيتها العسكرية الأوروبية اعتمدت أساساً الاستراتيجية المباشرة كباقي الأطراف. وفي الواقع، لقد سادت استراتيجية الهجوم الكثيف الكاسح لسحق القوات الرئيسية للعدو، على عقول جنرالات الحرب العالمية الأولى. إنها استراتيجية القرار الحاسم في المعركة عن طريق تركيز قوات متفوقة على قوات العدو الرئيسة والعمل على سحقها من خلال الالتفاف حول الأجنحة أو شقّ الجبهة بهجمات جماعية مباشرة. ولكن سرعان ما تحطمت هجمات الطرفين أمام الخنادق والأسلاك الشائكة ومن ورائها المدافع الرشاشة، وأمام سرعة انتقال الاحتياط الدفاعي بسرعة لا تقل عن سرعة الهجوم نفسها. الأمر الذي راح يرجّح قوة الدفاع على قوة الهجوم، بل يربط اطلاق الهجوم بعد كسر الدفاع لهجوم العدو. وهذا ما حول الحرب العالمية الأولى إلى خطوط جبهة طويلة راكدة، وأخذت الاستراتيجية بعد هذه المرحلة تتحول إلى استراتيجية استنزاف طويل الأمد مع الاعتماد كلياً على كثافة النيران وزيادتها. وأخيراً جاء الهجوم الألماني في ربيع 1918 نتيجة فشل هجمات الحلفاء 1915 - 1917، ولكنه تحطم أمام الدفاع. مما أتاح للحلفاء شنّ الهجوم المضادّ في أوائل خريف 1918 الذي انتهى باستسلام ألمانيا، وعلى كل حال سنبحث هذه القضية تفصيلاً في بحث التكتيك.

الاستراتيجية في الحرب العالمية الثانية

اعتمدت استراتيجية هتلر في جوهرها على استراتيجية كلاوزيفتز. فهو من ناحية وضع البلاد كلها تحت التعبئة العسكرية الكاملة، ورسم استراتيجية شنّ حرب عدوانية تعتمد على سحق القوات الرئيسة للعدو عن طريق التركيز في المعركة، ولكن بعد القيام بعملية اختراق من نقطتين أو ثلاث نقاط لخطّ الدفاع، والقيام بعمليات مناورة استراتيجية في قلب الخطوط الداخلية للعدو بحيث تتمّ فيها السيطرة على طرق المواصلات، وقطع الإمدادات عن القوات الرئيسة للعدو، ثم

فرض معركة حاسمة عليها بعد أن يكون قد أمّن تفوقاً من نواحٍ كثيرة تضمن تحقيق نصر حاسم.

لقـــد ســـاعد التطور التقني في الدبابات والطيران وقوات المشاة المحمولة على إنجـــاح هذه الاستراتيجية التي حملت طابع الحرب المتحركة التي تنتهي بقرار حاسم في المعركة وبانتصار استراتيجي.

كان انتصار هذه الاستراتيجية محتوما على استراتيجية خطوط الدفاع الجامدة - خطّ ماجينو - (وهي أسيرة تجربة الحرب العالمية الأولى). أما السبب فيرجع إلى زيادة سرعة الهجوم على سرعة جلب الاحتياط ولأسباب أخرى طبعاً - سنبحثها تفصيلاً في موضـوع التكتيك.

ولكـــن استراتيجية هتلر تلك اصطدمت باستراتيجية الاتحاد السوفياتي التي لا تعتمد على خطّ الدفاع الثابت، وإنما على الدفاع العميق المتحرك الذي يرتكز إلى العمق، والضخامة البشرية، وسعة المساحة، فضلاً عن الطبيعة الشعبية الثورية العادلة للحرب من جانب الاتحاد السوفياتي المعتدى عليه، فضلاً عن قوة التنظيم ورسوخ الوضع المدني. لهذا قامت الاستراتيجية العسكرية السوفياتية في الحرب العالمية الثانية على أساس استيعاب رأس رمح العدوان بدلاً من مواجهته بخطّ دفاع ثابت، وبعد إنهاكـــه حين يصطدم بالنقاط الدفاعية الرئيسة - سفاستبول، ستالينغراد موسكو، لينينغـــراد إلخ - يـــصار إلى اتـــباع استراتيجية الهجوم الشامل الذي يعتمد على الضخامة والزخم بدل الاختراق من نقاط على نمط تكتيك بليتزغريغ الألماني.

وبالمناسبة لقد تبيّن لاحقاً أن الاتحاد السوفياتي لم يكن مستعداً لمواجهة هجوم نـــازي علـــيه (تقريـــر نيكيتا خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي). فالـــدفاع العمـــيق تشكل إثر مجموعة من الهزائم بما في ذلك استسلام بعض فرق الجـــيش بعـــد تطـــويقها والعمـــل من خلفها وقطع إمداداتها. هنا طرح ستالين استراتيجية الدفاع المستميت حتى بالنسبة إلى قطاعات الجيش التي تقع تحت الحصار الخانق، كما بالنسبة إلى المدن والقرى.

أما بريطانيا فجزيرة محدودة الإمكانات بشرياً ومساحة ومصادر، ولكنها دولة إمبريالية عالمية لا تغيب الشمس عن مستعمراتها. لذلك قامت استراتيجيتها

العسكرية على الأسطول البحري في إطار عالمي، ومن هنا لجأت إلى توزيع قواتها بدقة واقتصاد على الكرة الأرضية، تاركة أمامها أهدافاً مرنة قابلة للتغيير والتعديل حسب الظروف. ولقد عبرت هذه الاستراتيجية عن نفسها في الحرب العالمية الثانية باتباع الاستراتيجية غير المباشرة عن طريق إيقاف توسع هتلر من خلال حسن توزيع القوات: في بريطانيا وشمالي أفريقيا، وجبهة العراق – إيران، إلى جانب تحالفات دولية واسعة، والانتظار لبينما تستكمل الولايات المتحدة استعداداتها، وتكون ألمانيا قد أُنهكت لا سيما في الجبهة السوفياتية جنباً إلى جنب مع تصعيد القصف الاستراتيجي على المواقع الصناعية والإنتاجية في ألمانيا.

أما الولايات المتحدة الأميركية فقد بنت استراتيجيتها في الحرب العالمية الثانية على مرحلتين. المرحلة الأولى عملية استكمال استعداداتها العسكرية وبناء قواتها المسلحة، خاصة سلاح الطيران، مع مساندة بريطانيا على الصمود، وهذه المرحلة امتدت من 1941 حتى 1943 وقد وضعت أسس هذه الاستراتيجية في اجتماع ممثلي أركان الجيشين البريطاني والأميركي، سرّاً، في واشنطن وقد اتخذوا قرارين استراتيجيين:

1. إذا اضطرت أميركا دخول الحرب فسيكون هدف البلدين هزيمة دول المحور بما في ذلك اليابان.
2. إذا دخلت اليابان الحرب فإن الحلفاء يركزون على هزيمة المحور الأوروبي أولاً، ويبقون في الدفاع في المحيط الهادي حتى يقضى على ألمانيا – العدو رقم 1.

واعتبر هذان القراران حجر الزاوية في الاستراتيجية العسكرية الغربية ويجب أن يتحولا إلى خطط استراتيجية. وكان تقدير الأميركيين بعد مسح إمكاناتهم المادية والبشرية والإنتاجية أن بمقدور الحلفاء التحول إلى الهجوم العام في 1943 وقدم روزفلت خطة النصر VICTORY PROGRAM. وهي تقضي بوضع ثلاثين فرقة أميركية في بريطانيا و3250 طائرة حربية مع اللوجستيقا اللازمة بهدف شنّ هجوم على فرنسا من القناة البريطانية. بل إن الأميركيين

طالبوا بتنفيذ هذه الخطة في أيلول/سبتمبر 1942 وذلك لتحقيق هدفين:

1. إذا انتصر هتلر على الاتحاد السوفياتي يمنع من جني ثمار النصر.
2. إذا انتصر الاتحاد السوفياتي يكون الغرب في قلب الاختراق وبالتالي يجني أكثر ما يمكن من المكاسب لئلا تخلو الميدان للسوفيات.

وهنا دار صراع حادّ بين الاستراتيجيتين البريطانية والأميركية لأن بريطانيا أصرت على تقوية الجبهات المفتوحة في شمال أفريقيا، والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط. ووافق روزفلت على إرسال قوات إلى شمالي أفريقيا ضد رأي هيئة أركان الجيش الأميركي التي اعتبرت أن أي جهد خارج الجبهة الأوروبية إضاعة للوقت والطاقات.

هذا الصراع كان يعكس الخلاف بين الاستراتيجية المباشرة (كلاوزيفتز) وبين الاستراتيجية غير المباشرة (ليدل هارت) التي تعتمد المناورة، وطول النفس واقتناص المناسبات، دون التقيد بخطة محددة تنفذ بصرامة.

إن استراتيجية أميركا هي انعكاس لقوة مصادرها المادية والبشرية وارتفاع مستوى طاقاتها الإنتاجية والتقنية (التكنولوجية) مقرونة بزخم الدولة الإمبريالية الطامحة لإعادة اقتسام العالم.

أما الاستراتيجية السوفياتية، فقد فرض عليها الهجوم النازي الصاعق استراتيجية الدفاع الإيجابي العميق الذي يتأهب إلى الانتقال للاستراتيجية المباشرة في أكثر أشكالها حسماً. ولهذا فقد اتصف الدفاع الاستراتيجي للقوات المسلحة السوفياتية والشعب والحزب والدولة السوفياتية، بالصلابة والفعالية الكبيرة والهجمات المحدودة المستمرة مع التحضير الحثيث (الإنتاج الكمي الضخم للدبابات والطائرات) للحظة الانتقال إلى الهجوم المضادّ العام الاستراتيجي، خصوصاً، بعد كسر شوكة هجوم العدو. وعندما تمّ الانتقال إلى الهجوم الاستراتيجي أصبحت الاستراتيجية المباشرة الشيء الأساسي والحاسم، فكان اختيار الضربة الرئيسة يعتمد على توجيه العمليات الهجومية نحو الاحتشادات الأساسية للعدو التي يؤدي تدميرها إلى فتح الطريق نحو الزحف الشامل للإجهاز كلياً على جيش العدو وصولاً إلى برلين.

استراتيجية الحرب الشعبية طويلة الأمد

ولنأخذ الآن مثالاً آخر لاستراتيجية عسكرية تعتمد استراتيجية حرب الشعب طويلة الأمد كما وصفها ماوتسي تونغ.

حدّد ماوتسي تونغ أربع سمات رئيسية للحرب الثورية في الصين:

1. بلاد واسعة شبه مستعمرة، متفاوتة التطور اقتصادياً وسياسياً، ومرت بتجربة ثورة عظيمة.
2. عدو كبير وقوي.
3. جيش أحمر صغير وضعيف.
4. ثورة زراعية.

ويقول ماوتسي تونغ إن هذه السمات تحكم خطّ الحرب الثورية في الصين، والكثير من استراتيجيتها وتكتيكها. إذ يشير البندان الأول والرابع إلى أن من الممكن للجيش الأحمر أن ينمو ويقضي على العدو. أما البندان الثاني والثالث فيشيران إلى أن من المحال للجيش الأحمر أن ينمو بسرعة ويقضي على عدوه بسرعة، ولهذا لا بدّ من أن تكون الحرب طويلة الأمد، ولكن من الممكن فقدالها إذا لم تقد بدقة وبخط سياسي صحيح.

بعد تحديد تلك القوانين أو السمات الرئيسة للحرب تشتق منها عدة قوانين:

1. استراتيجية حرب طويلة الأمد.
2. حملات ومعارك ذات قرار سريع.
3. جبهة متحركة وحرب متحركة وتجنب خطّ الجبهة الثابت، وحرب المواقع.
4. تبنّي استراتيجية عمليات تقضي بالضرب بقبضة واحدة، في اتجاه واحد. وتجنب استراتيجية الضرب بقبضتين في آن واحد.
5. نسبة توازن القوى: استراتيجياً العدو عشرة والجيش الأحمر واحد، أما تكتيكياً (في المعارك المتفرقة) فالجيش الأحمر عشرة والعدو واحد.

6. النمو أثناء القتال، ووضع العمل السياسي بين الجماهير في المقدمة، بل إن الجـــيش الأحمر نفسه يلعب دور المنظم السياسي وناشر الوعي السياسي، لأن هذا يعني إذا نجح تجنيداً عسكرياً واسعاً.

طـــبعاً هـــذه القوانين لا تغطي كل قوانين حرب الشعب في مرحلة الدفاع الاســـتراتيجي كمـــا أن المـــراحل الأخرى في شبه التوازن الاستراتيجي والهجوم الاستراتيجي تشتق منها ولها قوانين أخرى.

الاستراتيجيتان المباشرة وغير المباشرة

كان كلاوزيفتز قد وضع ثلاثة قوانين للاستراتيجية المباشرة:

1. تركيز الجهد.
2. العمل بقوة ضد القوات الرئيسة للعدو، وتحقيق نصر في المعركة في مسرح العمليات الرئيسي.
3. يمكن أن يكون التكتيك: دفاعي/هجومي.

أمـــا لـــيدل هارت فقد اشتق ثمانية قوانين للاستراتيجية التي تتبع الطريق غير المباشـــر كمـــا أسماها، عندما تطبق من قبل دولة قوية نسبياً مثل بريطانيا، ويمكن تلخيص تلك القوانين:

- تعظيم القدرات العسكرية من خلال التحالفات ولا سيما مع أميركا.
- إجبار العدو على تفريق قواته عن طريق إجراءات غير مباشرة.
- تحقيق المفاجأة باختيار أساليب غير متوقعة من قبل العدو.
- العمل بقوة ضد نقاط الضعف لدى العدو.
- تحقيق قرار عن طريق العمل في مسرح ثانوي إن أمكن.

الأشكال الرئيسة للاستراتيجية العسكرية

ما تقدّم يمثل نماذج فقط لا يُغطي مختلف الاستراتيجيات، ولكن يمكن تلخيص الأشكال الرئيسة التي طبقتها الاستراتيجية:

أولاً: استراتيجية الهجوم الاستراتيجي - الطريق المباشر.

إذا كانـــت المصادر المادية أقوى، وثمة قوات عسكرية ضاربة كافية، فستشنّ

الحملة هجومياً، ويكون الهدف أخذ قرار سريع في المعركة الحاسمة - قوانينها الرئيسة تلك التي وضعها كلاوزيفتز.

ثانياً: استراتيجية دفاعية/هجومية - طريق مباشر.

إذا لم يكن التفوق واضحاً، أو إذا كان الهجوم بسبب ظروف تكتيكية، أو جغرافية، أو نقص الاستعدادات غير قادر على تحقيق نتائج، فإن قانونها: إنهاك العدو بعمل دفاعي أو استيعاب زخم الهجوم وشلّه، يتبعه هجوم مضادّ كاسح (وصلت هذه الاستراتيجية قمتها لدى السوفيات في الحرب العالمية الثانية كما طبقت عملياً في الحرب العالمية الأولى بعد فشل الهجوم الاستراتيجي - الطريق المباشر).

ثالثاً: استراتيجية الهجوم المباشر تسبقه عمليات هجومية في نقاط ثانوية أو استراتيجية الطريق غير المباشر.

إذا لم يكن التفوق واضحاً وكان العدو يمتلك قوة متفوقة نسبياً، يلجأ إلى هذه الاستراتيجية لإجبار العدو على تفريق قواته عن طريق هجمات غير مباشرة يتلوها الهجوم المباشر (ليدل هارت).

رابعاً: استراتيجية الدفاع الاستراتيجي من أجل تحقيق شبه التوازن الاستراتيجي ثم الانتقال للهجوم الاستراتيجي.

إذا كان العدو متفوقاً جداً وكان الجيش المقابل صغيراً، ولكنه يمثل إرادة جماهير واسعة وقضية عادلة، ويعمل على أرض تسمح لها، فهو يلجأ إلى استراتيجية الدفاع الاستراتيجي على شكل حرب متحركة طويلة الأمد، لكن معاركها وعملياتها سريعة القرار. وهي تستهدف الانتقال إلى شبه التوازن الاستراتيجي. وهنا تلتقي في بعض الملامح مع استراتيجية الطريق غير المباشر، ثم تلتقي في بعض السمات مع استراتيجية الهجوم المباشر. ولكن هذه الاستراتيجية لا يمكن أن تطبق إلاّ من قبل قوى ثورية تخوض حرباً ذات طبيعة شعبية ثورية. وقد طبقت هذه الاستراتيجية بخطوطها العريضة في الصين وفياتنام.

خامساً: استراتيجية حرب الغوار ضمن استراتيجية سياسية كلية.

إذا كان العدو متفوقاً جداً ولا توجد إمكانات لخوض حرب متحركة ضمن استراتيجية الدفاع الاستراتيجي والانتقال إلى شبه التوازن فالهجوم الاستراتيجي،

إما لصغر حجم البلاد، أو لأسباب جغرافية، أو سكانية، وأحياناً تكنولوجية (تطور الطائرات ولا سيما الطوافات "الهليوكبتر") فيلجأ إلى استراتيجية حرب الغوار طويلة الأمد بقصد إنهاك العدو واستنزافه، ضمن استراتيجية كلية يكون مركز الثقل فيها للعمل السياسي والدبلوماسي على النطاق المحلي والإقليمي والعالمي وفي بلد جيش الاحتلال نفسه. مما يصل في النهاية إلى شلّ إرادة العدو على القتال، وتعميق أزمته الداخلية ومحاصرته عالمياً. وقد طبقت هذه الاستراتيجية في حرب التحرير الجزائرية وفي قبرص وفي أفغانستان ضد الاحتلال السوفياتي، وضد الاحتلال الأميركي، كما في العراق ولبنان (قبل 2000) وفي فلسطين وفي الصومال أي في حالات المقاومة من وسط الشعب أو عبر الحدود بما يختلف عن حرب الغوار في الغابات والجبال.

سادساً: استراتيجية الثورة المسلحة العامة.

يطبقها عادة حزب ثوري، يستهدف الإطاحة بنظام استبدادي عن طريق الانتفاضة المسلحة العامة، وهي استراتيجية ترتكز على فترة تحضير طويلة ضمن إطار استراتيجية كلية تعتمد التحريض السياسي، والتظاهرات، والإضرابات، مع تشديد على تكوين التنظيم الحديدي الطليعي، والمنظمات الجماهيرية إلى جانب مختلف أشكال النضال من أجل الوصول إلى لحظة انفجار الثورة المسلحة العامة. وقد عرفها ستالين في كتابه "أسس اللينينية" بأنها "تحديد اتجاه الضربة الرئيسة في مرحلة معطاة من مراحل الثورة ووضع خطة بموجبها لتوزيع قوات الثورة (القوات الرئيسة والاحتياط الثانوي). والقتال لتنفيذ هذه الخطة خلال المرحلة المعطاة للثورة". ولكن هذه الاستراتيجية إذ تعتمد على فترة طويلة من التحضير إلاّ أنها تعتمد بصورة أساسية على المقدرة في تعيين اللحظة الحاسمة التي وصفها لينين بأنها اللحظة التي تكون فيها قوات الثورة على أعلى درجات النشاط والتماسك، وتكون فيها قوات العدو مفككة ومتفسخة، وتكون الفئات الوسطى شديدة التردد ويمكن تحييدها أو كسبها. أو كما حددها، بمناسبة أخرى، عندما تكون الطبقة الحاكمة غير قادرة على أن تحكم بالطريقة القديمة، ويكون نشاط الجماهير في أعلى درجات حدّته و لم يعد قابلاً بأن يحكم وهنا لا بد من توفر ظرف إقليمي ودولي

مناسب في اللحظة المحددة للهجوم. وقد طبقت هذه الاستراتيجية في روسيا عام 1917 مرتين كما طبقت في فياتنام عام 1945.

سابعاً: استراتيجية الانتفاضة الشعبية العامة.

وهنالك نمط استراتيجية تفكيك سيطرة الطبقة الحاكمة على الجيش والأجهزة الأمنية من خلال انتفاضة شعبية "لاعنفية" شاملة. وقد طبقت هذه في الثورة الإسلامية في إيران 1979 – 1980 بقيادة الخميني في إيران. كما طبقت في عدد من دول أوروبا الشرقية ضد السيطرة السوفياتية في أوائل تسعينيات القرن العشرين. إن هذه الاستراتيجية أصابت نجاحات في عدة بلدان وإن لم تلجأ إلى السلاح. ولكنها شكل من أشكال الحرب، كما يقول المهاتما غاندي (هندي 1869 – 1947) أو في وصفه لاستراتيجيته اللاعنفية: "كنت مؤمناً بسياسة الالتماسات والوفود والمفاوضات الودية، ولكن هذه أُلقيت إلى الكلاب. لقد ادركت أن هذه ليست الطريقة التي تقنع الحكومة البريطانية. وقد أصبح التحريض على العصيان معتقدي. فما نحن عليه هو حرب لاعنفية".

أما شروط نجاح استراتيجية الانتفاضة الشعبية العامة فيمكن أن تلخص بـ: أولاً، بضرورة مشاركة شعبية واسعة متواصلة ومصممة تتحدّى القمع. وثانياً، حالة اختلال في موازين القوى العالمية والإقليمية (يشل إمكان التدخل الخارجي). وثالثاً، تأييد إعلامي عالمي مباشر أو غير مباشر (لا يتعاطف مع الحكم المستهدف). ومن هنا يمكن اعتبارها استراتيجية عنفية" ما دامت مواجهة لتبديد القوة العسكرية للعدو.

هذه الأنماط من الاستراتيجيات تشكل نماذج فقط، إذ ثمة أنماط أخرى قد تكون مزيجاً من نمطين أو أكثر، وهنالك استراتيجيات بدأت باستراتيجية ثم انتقلت إلى أخرى مثلاً استراتيجية الهجوم الاستراتيجي، وقد انتقلت إلى الدفاع الاستراتيجي إلى شبه التوازن الاستراتيجي ثم إلى الهجوم الاستراتيجي – كما حدث في الحرب العالمية الأولى.

إن هذه الأنماط عامة في كل بند، بينما تظلّ تفصيلات تطبيق كل استراتيجية مرتبطة بقوانين خاصة – بسبب اختلاف طبيعة الحرب والزمان والمكان، بالإضافة إلى القانون العام الذي يحكم الاستراتيجية المعنية.

وكما قلنا من الخطأ الظن أن هنالك استراتيجية أفضل من الأخرى، كما هـي المقولة التبسيطية الخاطئة "أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم". وقد أثبتت فـشلها في كـثير مـن الحالات لأن لكل حرب استراتيجيتها الأكثر مناسبة والأفضل.

وأخـيراً ثمـة ظاهرة هامة جداً، وهي أن الاستراتيجية الصحيحة والقيادة الاسـتراتيجية الكفـوءة تلعبان دوراً حاسماً عندما لا يتوفر تفوق حاسم على العدو، إذ أنهما تستطيعان أن تجعلا الأضعف ينتصر على الأقوى. فقد خُسرت حروب كثيرة، بسبب أخطاء استراتيجية، وعجز القيادة الاستراتيجية. كما أن كـثيراً مـن الحـروب كُـسبت بسبب صحة الاستراتيجية وعبقرية القيادة الاسـتراتيجية في ظـروف عـدم توازن في القوى المادية والعددية والتقنية في مصلحة العدو.

التخطيط الاستراتيجي

كـل ما يمكن أن يقال عن الاستراتيجية يمكن أن يقال عن التخطيط لأن الأخـير هو ترجمة لاستراتيجية محددة، يعني إن معالجة مجال تلك الاستراتيجية، فهو يتضمنها من ناحية، وهو يصوغ تفصيلات عملية تحويلها إلى تطبيق عملي مـن ناحـية ثانـية. فإذا كان موضوع التخطيط يتناول الاستراتيجية الكلية؛ فـسيكون مجالـه التخطيط الكلي العام لكل المجالات التي تتناولها الاستراتيجية الكلـية. وإذا كـان التخطيط يتناول الاستراتيجية العسكرية فسيكون هدفه التخطيط للمهمة الموكولة للاستراتيجية العسكرية، أي وضع القوات المسلحة في أقـصى وضـع ملائـم متفوق على العدو قبل بدء العمليات، فهو يتناول مسألة "كيف يتمّ ذلك"؟

وكلمة "كيف" تعني الدخول بالتفاصيل أي وضع برنامج العمل. فمثلاً لو كان الهدف مواجهة القوة المعادية (س) فهو سيبحث كم يلزم من القوات التي يجـب توفرها وكذلك السلاح ومستوى التدريب كما يبحث وسائل تأمينها والمـدة – الوقت اللازم – وما إلى هنالك. ولكن إذ يعين التخطيط العسكري

العـــام الحاجات الواجب توفرها وكيفية توفيرها بالنسبة إلى الحرب ككل يعود لـــيوزع تلك الحاجات على كل سلاح أو فرقة من أجل أن يقوم ذلك السلاح أو تلـــك الفـــرقة مثلاً، بعملية تخطيط جزئية تكتيكية لتحقيق ما هو مطلوب وهكذا.

وإذا كـــان التخطيط يتناول استراتيجية العمليات؛ فسيعين التحركات العامة والتوزيعات العامة للقوات وتشكيلاتها ومجالات حركتها. ولكن تحرك كل فرقة أو ســـلاح لتحقيق المهمة التي وضعها مخطط العمليات، يتمّ، بدوره، من خلال وضع تخطـــيط جزئـــي تكتيكـــي يتعلق في المجال المنوط به وهكذا حتى نصل إلى عملية احتلال مخفر أو تلة.

يتـــضح مما تقدم أن عملية التخطيط تحتاج إلى معرفة تخصصية عالية ومقدرة عالية، إلى جانب ضرورة توفر معلومات، ومنهج تحليلي دقيق.

يتناول التخطيط في المرحلة التحضيرية بالنسبة إلى دولة من الدول مثلاً:

1. صـــوغ سياسة الحرب حيث تُقرر الخطوط الأساسية للسياسة العسكرية والحرب النفسية، والعمل السياسي، والجانب الاقتصادي والتنظيمي، كما تتضمن تشكيل التحالفات والتحركات الدبلوماسية.
2. المرحلة التحضيرية:

أ. المعلـــومات الاســـتراتيجية وتقـــويم الأخطـــار العسكرية والأهداف العسكرية.

ب. إعادة تنظيم القوات المسلحة لتكون في مستوى الحرب المحددة.

ج. الاستعداد للحرب أسلحة، تدريب، لوجستيقا.

د. التنسيق والتدريب المشترك بين مختلف الأسلحة.

3. مرحلة التحرك:

أ. التعبئة.

ب. تحديد وتوزيع المصادر المادية.

ج. التوزيع الأولي للقوات.

هذه صورة للتخطيط على الطريقة البريطانية كما وصفها باليت (مرّ ذكره).

أهم عناصر التخطيط الاستراتيجي

ولكـــن التخطـــيط الاستراتيجي لا يعني بالضرورة اتباع تلك الخطوات بكل حالـــة. ولهـــذا يحسن أن نعرض هنا أهم العناصر التي يجب توفرها في كل تخطيط جيد.

1 – المرونة في الخطة، والقوى الاحتياطية الاستراتيجية:

كـتب فريدريك إنجلز حول الخطط الاستراتيجية: "يجب التذكر، في الوقت نفـــسه، أن هذه الخطط الاستراتيجية لا يمكن الاعتماد عليها كلياً في ما يمكن أن يـــتولد عـــنها، إذ ســـتوجد، دائماً، ثغرة هنا وثغرة هناك. فالفيالق قد لا تصل في الوقت المناسب عندما تستدعى، وقد يقوم العدو بحركات غير متوقعة، أو قد يأخذ احتياطات غير متوقعة..."

هذا يعني أن تؤخذ مجموعة كبيرة من العوامل في الحسبان عند وضع الخطة، ثم تـــرك الخطة مرنة لكي تطبق حسـب تطور الظروف. هذا وتعزز مرونة الخطة من خلال القوى الاحتياطية الاستراتيجية.

2 – بُعد النظر والحيوية والفعالية:

لا بـــدّ من أن تتضمن كل خطة نقاطاً للتنفيذ مباشرة، وأخرى كخطوة تالية بعـــد نجـــاح تنفيذ النقاط الأولى، ولا بدّ من أن يتوفر في التخطيط عنصر الحيوية والفعالـــية في الانتقال من خطط قصيرة المدى إلى خطط بعيدة المدى، وبأسرع ما يمكـــن عند توفر الفرصة. وهذا يقتضي توفر بعد النظر، وكما يقول ماوتسي تونغ إن أسلوب التخطيط لمرة واحدة فقط، ولكل خطوة، هو أسلوب خاطئ ومضرّ إذ أن بعد كل تخطيط وكل خطوة من الضروري تفحص التغييرات القائمة والمحتملة.

3 – استمرار التخطيط والتنفيذ:

إن عملـــية معرفة وضع لا تكون، فقط قبل صوغ الخطة العسكرية وإنما أيضاً بعد ذلك، وإنما يجب أن تبقى مستمرة كما يقول ماوتسي تونغ، أي في أثناء تنفيذ الخطة من أول لحظة حتى نهاية العملية. لأن هنالك عملية أخرى لمعرفة الوضع، تأتي مـــن عملـــية التطبيق. وهنا يجب أن يلاحظ إن كانت الخطة تتجاوب مع الواقع

المعطى، وهذا يقود لتغيير مستمر كلي، أو جزئي، في الخطة لتتجاوب مع الوضع: "إن الخطة تعدل جزئياً في كل عملية تقريباً وأحياناً تغير كلها، أما الشخص الذي يفتقر إلى المرونة ولا يعدل بخطته فيضرب رأسه بالحائط". وينطبق هذا على الخطة الاستراتيجية وإلى أصغر خطة (ماوتسي تونغ).

4 – الخطة والإمكانات المتوفرة:

يجب أن تصمم الخطة على محور الإمكانات المتوفرة، أو التي يمكن توفيرها فعلاً، وعلى أساس الوضع ككل وتوازن القوى واستراتيجية وتكتيك العدو، إذ لا قيمة لخطة توضع تجريدياً من قبل مخططين في جعبتهم "خطط حاضرة". إن الخطة تعالج وضعاً ملموساً، ولا بدّ من أن تعبر بخطوطها العريضة وتفاصيلها عن الوضع الملموس.

5 – الخطة وحساب الاحتمالات:

لا بدّ للخطة من أن تأخذ باعتبارها ردود فعل العدو من خلال تقدير احتمالات فعله، وردود فعله، ووضع المضادات سلفاً بقدر الإمكان.

6 – تماسك الخطة:

إذا كانت المرونة ضرورة لكل خطة عسكرية فلا بدّ من أن يتوفر، في الوقت نفسه، عنصر التماسك في الخطة. فالمرونة لا تعني الهلامية والتفكك، كما أن التماسك لا يعني التحجر والتجمد. إن التماسك في الخطة يجعلها قادرة على مواجهة الانتكاسات الجزئية، كما يؤمن لها سرعة التنفيذ ومنطقيته، ومن يحافظ على الاتجاه نحو الهدف.

7 – التفكير الصحيح:

إذا كانت الخطة تعمل ضمن وضع ملموس، فإن وضعها، وحلّ مسائلها القائمة، والتي يمكن أن تنشأ، بحاجة إلى تفكير صحيح يقود التخطيط والتنفيذ.

8 – حرية الحركة:

القصد الرئيسي من التخطيط الاستراتيجي هو المحافظة على حرية الحركة، والسعي لحرمان خطة العدو منها. لأن كل من الطرفين سيحاول إنجاح خطته

وإفشال خطة الآخر. ولهذا لا بدّ من تأمين الأساليب التي تكفل حرية الحركة لتنفيذ الخطة. وهذا يقتضي التخطيط لكسب المناورة الخارجية قبل بدء العمل العسكري.

9 – رؤية اتجاه التطور العلمي:

إن التخطيط على مستوى الدول، في العصر الراهن، عصر التغيير السريع في العلوم والتقنية يتطلب رؤية اتجاهات التطور على المدى المنظور، لتجنب تخصيص مبالغ ضخمة على سلاح، مثلاً، قد يصبح ملغيً بعد فترة وجيزة. لذا يجب أن توضع خطة التسلح والنظام الدفاعي ضمن حركة التطور السريع نفسه واحتمالاته.

خلاصة عامة حول الاستراتيجية

يلاحظ مما تقدم أن الاستراتيجية هي العملية التي تمتد من الهدف إلى تحقيقه، مروراً بالتطبيق العام ككل، تاركة للتكتيك عملية المعالجة الجزئية في التطبيق، ولكنها تحدد للتكتيك نظريته وتقوده ككل، كما تتلقى فعله الراجع.

إن الحديث عن الاستراتيجية يتطلب:

أ. تحديد الهدف الذي تعمل لتحقيقه، والمجال الذي تعمل ضمنه (الزمان والمكان والظروف وموازين القوى).

ب. تعريف الاستراتيجية في ذلك المجال وتحديد سماتها وقوانينها.

وعندما نتحدث عن الاستراتيجية العسكرية فهذا يتطلب تحديد أية استراتيجية عسكرية نعني. وحتى حين نتحدث مثلاً عن استراتيجية حرب الشعب طويلة الأمد، أو استراتيجية ما لحرب نظامية؛ علينا أن نحدد السمات الخاصة لتلك الاستراتيجية في الوضع المعطى.

إن وضع أية استراتيجية عسكرية يتطلب:

أولاً: تقويم وضع الحرب المعطاة:

أ. تقدير المصادر المادية والمعنوية المتوفرة.

ب. حساب القوات العسكرية المتوفرة مادياً وبشرياً ومعنوياً وتنظيمياً.

ج. تقويم نظيراتها لدى العدو.

د. مراعاة المكان والزمان.

هـ. إمكانات المناورة والحركة لدى كل طرف وكيفية معالجتها.

ثانياً: ينتج عن تقويم الوضع:

أ. تحديد الخطوط العريضة للاستراتيجية الأنسب ضمن وضع الحرب المعطاة (المفاهيم الاستراتيجية، والقوانين الأساسية لتلك الاستراتيجية).

ب. تحديد نظرية التكتيك الأنسب وكذلك العمليات.

ج. تحديد نظرية التنظيم.

د. تحديد أساليب امتلاك حرية الحركة.

هـ. تحديد نسبة أهمية مختلف المجالات الأخرى على الوضع، مثلاً العمل السياسي، التحالفات، الحالة الشعبية، الرأي العام المحلي والعالمي، وفي جبهة العدو.

و. تحديد الأساليب والإجراءات الكفيلة بتأمين التفوق الكافي على العدو، وهنا يدخل عدد القوات المطلوبة، الأسلحة، التدريب، أو تحديد أساليب تأمين هذا التفوق مستقبلاً في حالة البدء من نواة صغيرة.

ثالثاً: وضع خطة استراتيجية عامة بناء على التقويم أعلاه ووضع خطط أدنى لكل بند في ذلك التقويم.

إذا كان كل ما تقدم على غاية كبرى من الأهمية فثمة جانب آخر لا يقلّ أهمية، بل إنه في كثير من الأحيان يحظى بالدرجة الأولى من الأهمية، ألا وهو التنفيذ المباشر. إذ بدون قيادات تنفيذية كفوءة وكوادر كفوءة على المستوى التكتيكي، فمن الصعب الحديث عن إنجاح أية استراتيجية وأي تخطيط، أو كسب أية حرب حتى ولو توفر عنصر التفوق المادي والتقني على العدو. إن مقدرة الكوادر القائدة وموهبتها تعتمدان على الوضع الاجتماعي، وعلى مدى مقدرة القيادة العليا على اجتذاب أفضل عناصر الشعب إلى صفوفها وتبني أهدافها، كما يتوقف على تأييد الشعب للقضية والحرب.

إن التقويم الاستراتيجي يجب ألاّ يقتصر على القوات العسكرية والأسلحة المتوفرة في اللحظة المعطاة فقط، لأن هذه لا تستطيع أن تحقق النصر إلاّ في حرب سريعة، ولكن في حرب طويلة الأمد مثل الحرب الأهلية الأميركية أو الحربين العالميتين الأولى والثانية أو حروب التحرير، فعلى التقويم الاستراتيجي أن يركز على ما يمكن توفيره مستقبلاً، ولهذا لا بدّ من:

أ. أن تراعى في حالة الحرب التقليدية بين دول من الطراز الإمبريالي، مسألة الوضع السياسي والاقتصادي والمدني في كل من الدول المتحاربة، وهذه مسألة أبدع كلاوزيفتز بالإشارة إليها.

إن عدم إدراك هذه النظرية، كما مرّ، أدى بالجنرالات الألمان في حربين عالميتين إلى الخطأ في التقدير الاستراتيجي لمدى إمكانات خصومهم على إطالة الحرب وعلى إعادة إحراز التفوق العسكري، إذ اقتصرت حساباتهم على القوات العسكرية والأسلحة المتوفرة في لحظتها. وبنوا كل آمالهم على حرب سريعة. إنهم أخذوا من كلاوزيفتز نظرية الحرب المطلقة وعسكرة البلاد. ولكنهم لم يفهموا كل أبعاد نظريته، خاصة، فيما يتعلق بعلاقة الوضع العسكري للأمة بوضعها الاقتصادي والمدني، إنهم لم يفهموا فكرته القائلة كما تكون في المدينة أيام السلم تكون في ساحة المعركة. وقد دفعوا الثمن حين فشل الهجوم في تحقيق نصر نهائي سريع، واستقر القتال على جبهة طويلة، فلم يستطيعوا التعويض بقوة اقتصادهم وتقنيتهم، بينما تمكن التقدم الصناعي والمدني لخصومهم من تحمل إمداد مثل تلك الجبهة ولمدى طويل. ويكفي للتدليل على صحة هذه النظرية أن نعرف أن عدد القوات العسكرية للولايات المتحدة كان عام 1940 أربعمائة ألف رجل بينما وصل الرقم إلى ثمانية ملايين عام 1945 كما ثبت أن ضخامة الإنتاج الأميركي أمّن زخماً لا حدود له في إنتاج الأسلحة والذخائر واللوجستيقا والنقل والإدارة، وقد وصل أضعافاً مضاعفة عما كان عليه قبل الحرب (الصناعة المدنية تتحول إلى صناعة عسكرية).

ب. أن تراعـــى، في حالة الحرب الثورية يخوضها حيث شعب صغير ضد عدو مـــتفوق ماديـــاً وتقنـــياً، مسألة أهمية التنظيم الثوري، والعمل السياسي، والقـــضية العادلـــة، وتفجير ذكاء الشعب وحماسته، وصحة الاستراتيجية والتكتـــيك، في كـــسب الحرب طويلة الأمد، في نهاية المطاف، ضد ذلك العـــدو. وقـــد وضع لينين أساسات هذه النظرية وأصبحت نظرية كاملة متماســـكة، على يد ماوتسي تونغ، وطورتها التجربة الفيتنامية، وعدد من تجـــارب حركات التحرر الوطني. وبلغت في حرب تموز/يوليو 2006 على يـــد حزب الله قمة في تغلب الجهد الإنساني والذكاء الإنساني في (الخطة الدفاعـــية، "تمـــويه الأهـــداف") في التغلب على التقانة العالية للطائرات والـــصواريخ الـــتي فشلت في تحديد أهدافها. وهذا كان وجهاً واحداً من أوجه تلك الحرب فقط.

الفصل الثاني

- الاستراتيجية النووية 1949 – 2008
- القواعد الأساسية في علم الحرب

• الاستراتيجية النووية 1949 – 2008
• القواعد الأساسية في علم الحرب

– القسم الأول –
الاستراتيجية في العصر النووي

مدخل عام

لا يمكن مقارنة السلاح النووي وحامله الصاروخ عابر القارات بأي سلاح تقليدي آخر. إذ إن الفرق بين الأسلحة النووية وبين الأسلحة التقليدية كيفي وليس كمياً. فمثلاً إن قنبلة نووية حرارية (ميغاتون واحد فقط) تستطيع أن تدمر مئات الأميال المربعة وتقضي على أي أثر للحياة فيها، وإذا أضيف إلى ذلك توفر الصاروخ عابر القارات الذي يحملها ويضرب من أية نقطة على الكرة الأرضية إلى أية نقطة أخرى في النصف الآخر، وبدقة عالية جداً، نستطيع أن ندرك التغيير الكيفي الذي أحدثه السلاحين النووي والصاروخي.

ثمة فرق حاسم آخر بين السلاح النووي وبين الأسلحة التقليدية، وهو كون السلاح النووي ذا طابع هجومي أساساً، أي عكس السلاح التقليدي الذي هو دفاعي/هجومي حسب مقتضيات الحرب. وهذا يعني أن السلاح النووي مفتقر للمرونة كما أنه أفقد قيمة الدفاع في الحرب إلى حدّ بعيد. ومن هنا اقتضى السلاح النووي تبنّي استراتيجية تصعيد المقدرة الهجومية، وجعل الأولوية للقوة الضاربة النووية، خاصة إن ما بدا من إمكان اتخاذ إجراءات دفاع سلبي زمن القنابل الذرية قد سقط من الحساب مع اختراع القنابل النووية الحرارية، إلى جانب تكاليفه الباهظة الخيالية. وجاءت الصواريخ عابرة القارات ومتعددة الرؤوس النووية لتسقط كل إمكانية دفاعية. وقد جرت محاولات لاكتشاف وسائل لمقاطعة

الصواريخ وحرفها عن مسارها ولكن المقدرة الهجومية - الاختراق - كانت قد خطت في ذلك الحين خطوتين إلى الأمام مع السيطرة على الفضاء، كما مع الصاروخ متعدد الرؤوس النووية.

طبعاً لم يستسلم الاستراتيجيون الأميركيون لهذه المعادلة تماماً. ولهذا سعوا لتطوير الصواريخ المضادة للصواريخ منذ إعلان الرئيس الأميركي رونالد ريغان في ثمانينيات القرن العشرين استراتيجية "حرب النجوم". وقد أعيد إنتاجها في عهد إدارة جورج دبليو بوش في العشرية الأولى من القرن الحادي والعشرين. وسنأتي إلى معالجة هذه الإشكالية لاحقاً.

وإذا كان تطور التحكم بالسلاح النووي قد أدى مؤخراً، إلى تولد ما يسمى بالأسلحة النووية التكتيكية المخصصة لاستخدام القوات البرية الآلية دفاعياً/هجومياً، فإن هذا لا يلغي الطابع الجوهري الأساسي للسلاح النووي أي الهجومية، إذ أن الشكل الرئيسي لهذا السلاح هو القوات الصاروخية الاستراتيجية، أي الصواريخ عابرة القارات ذات الرؤوس النووية، التي لا تستطيع حتى الآن إلاّ أن تكون أسلحة هجومية وعلى المستوى الاستراتيجي وليس التكتيكي.

كانت التغييرات المادية في الماضي تطرأ على التكتيك أولاً، ثم تعود لتؤثر في الاستراتيجية. أما في العصر الراهن فإن الأسلحة النووية، خصوصاً السلاح الصاروخي النووي، خرجت أسلحة استراتيجية فوراً، وأعطت للاستراتيجية طابعاً جديداً يختلف عن الاستراتيجية قبل الأسلحة النووية. فقد كان مدى الاستراتيجية يرتبط بمدى التكتيك والعمليات، أما الاستراتيجية النووية فمداها تعدى حدود العمليات والتكتيك، وأصبحت تصل أية نقطة مهما تكن بعيدة عن خطّ النار، بل أنها ألغت ما يسمى بخطوط النار أو جبهات القتال، أو الجبهة الأمامية والجبهة الثانية، والخلفية، وجعلت كل نقطة، أينما كانت، تحت متناولها. وإذا أضفنا إلى كل ذلك السرعة والضخامة الهائلتين للقوات البرية والقوات المحمولة جواً، فسيعني هذا إلغاء الحدود الجبهية والجبهات وتحويل كل مكان في جبهة العدو إلى جبهة. وذلك على مستوى المواجهة بين الدول الكبرى الصناعية المتكافئة.

ثمة فرق آخر، لقد كانت الاستراتيجية في الماضي تحقق أهدافها من خلال العمليات والتكتيك - أي بالقوات البرية والبحرية والجوية - ولكن الوضع اختلف الآن حيث أصبح تحقيق النتائج الحاسمة يتمّ من خلال الصواريخ ذات الرؤوس النووية: أي الاستراتيجية المباشرة. طبعاً في ما بين الدول المتعادلة في القدرات النووية والصاروخية.

مراحل التوازن النووي العالمي (1945 - 2008):

لقد شهدت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية أربع مراحل بالنسبة إلى وضع التوازن النووي بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية.

مرحلة 1945 - 1949:

كانت الولايات المتحدة الأميركية تحتكر السلاح الذري، ولكن كانت نسبة ما لديها من القنابل الذرية محدودة، وكان الأسلوب الوحيد لنقلها يرتكز على الطيران بينما كان الاتحاد السوفياتي، في المقابل، متفوقاً أو متوازناً بالقوات المسلحة التقليدية بما في ذلك الدفاعات الجوية بالطائرات والمضادات (ولو كمياً)[1] إلى جانب اتساع شاسع لأراضيه، وإرادة لا تفلّ على القتال وعدم الاستسلام حتى لو واجه حرباً ذرية بضربات مثل ضربة هيروشيما وناجازاكي، ومن ثم كانت الحرب ستطول بينما كان حصوله على السلاح الذري أصبح وشيكاً. وإذا أضيف إلى كل ذلك وضع الرأي العام العالمي الذي كان معبأ ضد حرب جديدة، ولم يلملم جراحاته من الحرب العالمية الثانية بعد. مما جعل الاستراتيجية النووية للإمبريالية الأميركية تتميز في هذه المرحلة:

1. الاستعداد لامتلاك قوة نووية كاسحة، وقوة طيران ضخمة من أجل خوض حرب شاملة حتى نهايتها، تحت الاستراتيجية المباشرة - استراتيجية الهجوم المباشر.
2. إثارة حملة ذعر وتهديد وإرهاب في العالم من أجل إحكام السيطرة

(1) ثمة رأي لفلاديمير لينين يقول: "الكمية هي نوعية بحد ذاتها" (في نقاشه مع ستالين حول الدبابات).

الأميركية على ما يسمى بالعالم "الحرّ"، وربطه بالأحلاف العسكرية، خصوصاً أوروبا الغربية وجنوب شرقي آسيا.

3. تعزيز القوات العسكرية التقليدية في أوروبا الغربية، وإحياء العسكرية الألمانية نسبياً.
4. عملية تحضير سريعة عسكرياً وسياسياً، وخلق هستيريا العداء ضد الشيوعية، وتأزيم الوضع الدولي حتى الحدّ الأقصى تحضيراً لحرب عالمية ثالثة عملياً. من هنا يمكن اعتبار الاستراتيجية الأميركية في هذه المرحلة استراتيجية التحضير لحرب نووية ضمن السيطرة على أوروبا الغربية وتطوير قواتها العسكرية التقليدية، وبناء القواعد الذرية فيها كنقاط وسيطة للانطلاق على الاتحاد السوفياتي.

أما استراتيجية الاتحاد السوفياتي فكانت:

أ. الإسراع في امتلاك القنبلة الذرية وتعزيز القوات الجوية.
ب. تحقيق التفوق في القوات العسكرية التقليدية.
ج. تعبئة الرأي العام العالمي ضد الاستراتيجية الأميركية تحت شعار المحافظة على السلم العالمي.
د. استيعاب أي هجوم نووي إذا وقعت الحرب، والانتقال إلى الهجوم بالقوات التقليدية.

مرحلة 1949 - 1953:

فجّر الاتحاد السوفياتي عام 1949 أول قنبلة ذرية، كما انتصرت الثورة في الصين، وبهذا اختلّ توازن القوى بالنسبة إلى الولايات المتحدة من زاويتين:

أ. من ناحية القوة النووية.
ب. من ناحية القوات المسلحة التقليدية خاصة في آسيا مع انتقال سبعمائة مليون إنسان في الصين إلى المعسكر الاشتراكي.

لقد تكشف هذا الاختلال في التوازن في الحرب الكورية (1950 - 1953)، عندما أصرّ الرئيس الأميركي هاري ترومان على استخدام القنبلة الذرية، ولكن حسابات البنتاغون والبيت الأبيض أدركت أن التصعيد النووي في الحرب الكورية

سيرتفع إلى تصعيد على مستوى عالمي قد يهدّد وجود الرأسمالية من الجذور. ولكن التلويح باستخدام القنبلة النووية أدى أكله في وضع سقف للهجمات الصينية لتدور حول خط عرض 38، بعد أن كادت تحرير كورية الجنوبية كلها.

حافظت الولايات المتحدة على خطوط استراتيجيتها السابقة، ولكن، عملياً، مـــع تحفظ أشدّ في ما يتعلق بالوصول إلى نقطة الصفر، وقد أصبحت بحاجة ملحة إلى تعزيز القوات التقليدية في آسيا، لا سيما إحياء العسكرية اليابانية، والعمل على خلق حلف جنوب شرقي آسيا.

أمـــا الاســـتراتيجية النووية في ما يتعلق بالعمليات، فإن تفكير الجنرالات الأميركـــيين قـــد انصب على استراتيجية هجوم شامل على كل المطارات التي يـــسهل تحديدها وتدميرها ما دامت القنابل الذرية تنقل بالطائرات، ولكن هذه الاســـتراتيجية سرعان ما سقطت عندما تبين أن التوزيع الحصيف للمطارات، وقـــوة الرادار جعلا تحديد كل النقاط وضربها محالاً، وحاول العسكريون رسم اســـتراتيجية هجـــوم مفاجئ صاعق على طراز بيرل هاربر، ولكن سرعان ما طـــارت هـــذه الاســـتراتيجية عندما أخذ عنصر المفاجأة يتضاءل أمام تطور الاحتياطات المختلفة.

مرحلة 1953 - 1955:

امـــتلك الاتحـــاد الـــسوفياتي القنبلة الهيدروجينية قبل الولايات المتحدة، فـــوجدت استراتيجية الولايات المتحدة النووية نفسها في حالة تراجع، عملياً، وأصـــبحت مهمـــتها العمل الحثيث للحاق بالاتحاد السوفياتي وامتلاك القنبلة الهيدروجينية، ولكن القيادة الأميركية أعلنت عام 1954 استراتيجية الردّ الشامل MASSIVE RETALIATION أي التهديد بتصعيد الصراع في أية حرب محلية إلى مستوى الحرب الذرية. كان المقصود من هذه الاستراتيجية خلق وضع ذعر في العالم، لإخفاء اختلال التوازن من أجل الحيلولة دون اندلاع حروب التحرير علـــى نطاق شامل، والضغط على الاتحاد السوفياتي، ليحدّ من تأييده لحركات التحـــرر والـــثورة العالمية (مفهومها ارتبط، من جهة النظر الماركسية، بالثورة الاشتراكية في حينه).

مرحلة 1955 - 1960:

لم تكد الولايات المتحدة اللحاق بالاتحاد السوفياتي من خلال امتلاكها للقنبلة الهيدروجينية، حتى كان الاتحاد السوفياتي قد قفز خطوة أخرى حاسمة، إلى أمام، باختراع الصواريخ عابرة القارات، ثم توجه بالنجاح في إطلاق القمر الصناعي سبوتنيك. وهكذا اختلت نسبة التوازن اختلالاً قوياً، وتكشف هذا الاختلال في الموقف السوفياتي من الغزو الثلاثي على مصر، وتراجع بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني أمام تهديد الاتحاد السوفياتي بالتدخل إذا لم يتوقف العدوان. أما من جهة أخرى فقد كانت استراتيجية أميركا التربص بالاستعمار القديم لتحل مكانه في بسط نفوذها الإمبريالي الجديد. وقد ساعد هذا على ذلك التراجع أمام تهديد الصواريخ السوفياتية.

إن إطلاق القمر الصناعي السوفياتي سوتنيك 1957 ثم القمر الصناعي الأميركي إكسبلورر في الشهر الأول من 1958، لم يقلاّ أهمية من حيث الثقل العسكري الاستراتيجي عن تفجير القنبلتين النوويتين الأميركية 1945 ثم الروسية 1949.

عالم الأقمار الصناعية في الفضاء الخارجي أحدث ثورات في أنظمة المراقبة والتحسس والتعقب الأرضي، وتطوير الصواريخ والقنابل الذكية سرعة ودقة، كما إدارة حرب الدبابات وحروب الطائرات والأساطيل البحرية وأجهزة الملاحة الجوية والبحرية، وتصوير ومراقبة التقلبات الجوية وإعطاء توقعات مناخية أدق. ومن ثم تحديد الطرق والأماكن والمواقع أينما كان، وتطوير آلات التقاط الصور، فما نشهده اليوم من تلفاز وإنترنت ما كان ممكناً لولا إطلاق الأقمار الصناعية، وهكذا التطور يبدأ عسكرياً ليعمّ الحياة المدنية بعد ذلك، ويولد ما أخذ يعرف باسم عصر المعلومات.

ولا مبالغة إذا قيل إن الأقمار الصناعية أصبحت قاعدة التكنولوجيا العسكرية والمدنية. ولم يعد من الممكن تصور ماذا يحدث في حالة تدميرها. ولهذا عندما دمّر الصينيون عام 2007 قمراً صناعياً لهم من خلال صاروخ لم تلتقط مساره أجهزة الرادار الغربية أحدثوا زلزالاً في هيئات الأركان العسكرية في الناتو. لأن ذلك يعني

الخطـــر علــى الأقمار الصناعية الغربية مما يترك القوات العسكرية مشلولة وعمياء وغـــير قــادرة علـــى التحرك. ولكن لم يمض عام حتى أطلقت الولايات المتحدة صاروخاً اصطاد قمراً صناعياً أميركياً في الفضاء. ثم أعلن بعد شهر أن روسيا قادرة على اصطياد الأقمار الصناعية.

ومـــن هــــنا، فقــــد أصبح على رأس المهمات كيفية حماية الأقمار الصناعية واستمرارية عملها وإلاّ فإن كل ما يجري على الأرض في المجالين العسكري والمدني ســـيتوقف إن لم يجعـــل يخبط خبط عشواء. فما كان قد صمّم ليكون فعل هجوم أصـــبح بحاجة إلى فعل دفاع عنه لتبدأ جولة أخرى من السباق بين الدفاع والهجوم أو تختلط في الفضاء الخارجي الدفاع والهجوم ببعضهما.

أمـــا مـــن جهة أخرى، وبما يتصل بتطور الأقمار الصناعية فقد أدّى اختراع الصواريخ عابرة القارات إلى هزّ استراتيجية الطيران الأميركي، وكل أحلام الغطاء الجـــوي، واســـتراتيجية بـــيرل هاربر نووية، واستراتيجية الردّ الشامل، ولم تعد الـــولايات المـــتحدة بعيدة من مدى المعركة النووية، وهذا بدوره أفسح المجال أمام حركات التحرر الوطني للنهوض، كما أسهم، ولو بصورة غير مباشرة، في نجاحاتها الـــتي تحققـــت خلال خمسينيات القرن العشرين، وهي مرحلة الاختلال في ميزان القوى العالمي بين قوى كبرى تتراجع وأخرى تتقدّم.

مرحلة 1960 - 1980:

اســـتطاعت الـــولايات المتحدة اللحاق بالاتحاد السوفياتي في مجال الصواريخ عابـــرة القارات، وهنا عاد التوازن النووي والصاروخي. ودخل الوضع استراتيجياً مـــرحلة جديـــدة. وكانـــت النتـــيجة أن أصبح لدى الطرفين شبكة ضخمة من الـــصواريخ محـــددة الأهداف، وبدأ الإمبرياليون الأميركيون يفكرون باستراتيجية الـــضربة الأولى، ولكن تبين أن الاستراتيجية المقابلة: استراتيجية البقاء بعد الضربة الأولى أصـــبحت حقيقة واقعة خصوصاً بعد انتشار الغواصات ذات الصواريخ النووية الـــتي لا يمكن تحديدها كلها، وأن أية ضربة أولى مهما كانت قوية وكثيفة لن تقضي على الطرف المقابل الذي سيُبقي بين يديه إمكان توجيه ضربة ثانية، وبالقوة نفسها علـــى الأقل. وهنا حلّت محلها استراتيجية الردع DETERENCE STRATEGY

الـــتي تعني استراتيجية البقاء بعد الضربة الأولى، وقد اتبعها كينيدي بالاستراتيجية الـــتي عبر عنها ماكسويل تيلور "استراتيجية الردّ المرن والردع المتدرج" أي أن كل إجراء "معاد" يواجه بردّ مناسب عن طريق استخدام قوة كافية لردعه، ولكن ليس أكثـــر مـــن القوة الضرورية لذلك، من أجل الحيلولة دون التصعيد إلى حدّ الاشتباك النووي مع الاتحاد السوفياتي.

مرحلة 1980 - 1990 (استراتيجية "حرب النجوم"):

جـــاءت هـــذه المرحلة بعد انتقال الاتحاد السوفياتي إلى الهجوم على مستوى النفوذ العالمي بعد هزيمة أميركا في فياتنام 1976. فقد راح يتقدّم في أفريقيا وجنوب شـــرقي آســـيا (فياتنام، كمبوديا، لاوس)، وتمادى حتى على المعادلة الدولية التي حكمـــت الوضع في أفغانستان وصولاً إلى احتلالها بقواته العسكرية 1980. ولم يترك موقعاً على خريطة العالم إلا وحاول من نفوذه إليها.

اتّـــسم الوضـــع العالمي مع بداية الثمانينيات بهجوم سياسي عام سوفياتي وتراجع أميركي عام كان في مقدمته خسارة إيران وإن لم يعوّض ذلك خسارة الـــسوفيات لمـــصر، ولا المـــواجهة بـــين السوفيات والصين. الأمر الذي دفع الاســـتراتيجية الأميركية إلى السعي لإحداث خرق في ميزان القوى النووي - الـــصاروخي من خلال طرح استراتيجية "حرب النجوم" عساها تستعيد مكانة متفوقة في ميزان القوى العسكري ومن ثم النفوذ العالمي. وقد صحب ذلك دعم للمعارضـــات حيـــثما انتـــشر الـــنفوذ السوفياتي لا سيما حشد الدعم العربي والاسلامي للمقاومة الأفغانية.

استراتيجية "حرب النجوم" كانت تعني السباق التقني على مستوى الصواريخ المـــضادة للـــصواريخ. هـــذا السباق يحتاج إلى بحوث وتجارب مرهقة جداً لموازنة الدولـــة. وقـــد اندفع الاتحاد السوفياتي بدوره إلى هذا السباق فيما إمكاناته المالية والاقتصادية لا تقارن بما لدى الولايات المتحدة بسبب نفوذها الإمبريالي العالمي وما تـــراكم مـــن ثـــروات وإمكانـــات. وهكذا وقع الاتحاد السوفياتي تحت مطرقتين اســـتنـــزافيتين الأولى حرب النجوم وتكاليفها الباهظة وحرب أفغانستان، وتوسع نفوذه العالمي.

وبالمناسبة، ثمة قضية كانت دائماً، و لم تزل، جديرة بالتفكير وهي ببساطة: كيف يمكن أن تفجّر صواريخ حاملة رؤوس نووية في الجو وفي أية نقطة قبل وصولها إلى أهدافها من دون أن تترك إشعاعاً نووياً هائلاً لا يمكن توقع مداه أو نتائجه. ويكفي أن نأخذ في الاعتبار ما حدث من تسرب إشعاعي عندما تصدّع جزء من الموقع النووي شيرنوبل، فكيف عندما تفجّر عشرات أو مئات الصواريخ حاملة الرؤوس النووية. وبهذا لا يمكن اعتبار ما يسمّى بالدرع الصاروخية يشكل دفاعاً ضد حرب نووية. عادت إدارة جورج دبليو بوش (2001 – 2008) إلى تبنّي الاستراتيجية الخرقاء غير المجدية.

مرحلة 1991 - 2001:

لم ينته العام 1990 ويدخل العام 1991 حتى كان الاتحاد السوفياتي قد أخذ يتفكك ومعه ومن قبله حلف وارسو. طبعاً كانت لهذه النتيجة غير المتوقعة في الأقل من حيث زمانها وطريقة حدوثها، أسباب لا تقتصر على ما عاناه من الاستنزافين المذكورين (حرب النجوم واحتلال أفغانستان) وإن كان لهما دورهما المقدر، من ناحية مباشرة، في تسريع هذا الانهيار الذي قلب التوازن الاستراتيجي العسكري في الحرب الباردة (1949 – 1991) رأساً على عقب في غير مصلحة الاتحاد السوفياتي وحلف وارسو.

بدا للعالم أن أميركا خرجت من الحرب الباردة الدولة الكبرى الوحيدة من حيث قوتها العسكرية التقليدية وفوق التقليدية. وكانت كذلك إلى حد بعيد من حيث الظاهر. ولكن ليس بالقدر الذي يمكن اعتبار ذلك حاسماً ونهائياً. أما السبب فيرجع إلى احتفاظ روسيا وهي تنهار في عهد بوريس يالتسين بكامل ما امتلكه الاتحاد السوفياتي من صواريخ وقوة نووية وتقانة (تكنولوجيا) وأسلحة تقليدية. فمن هذه الزاوية أو من وجهة نظر فون كلاوزيفتز لا تكون أميركا قد حسمت الحرب ما لم تجرد العدو من سلاحه حتى لو هزم في الحرب وأخذ بالتراجع.

أضف إلى ذلك أن القوى النووية الأخرى، ولا سيما الصين، بقيت محتفظة بقدراتها وإمكانات تطورها، وإن انحنت أمام العاصفة من دون أن تستسلم. وحتى أوروبا الغربية ما كان لها أن تكون سعيدة تماماً إذا أسفرت نتيجة الحرب الباردة

عن استفراد أميركا بالقوة العسكرية. وتمكنت من إقامة نظام عالمي أحادي القطبية. ولهذا لم تمر خمس سنوات على الحدث المدوي بانهيار الاتحاد السوفياتي حتى بدأت تتعالى أصوات وبيانات مشتركة من الصين وفرنسا وروسيا وبلدان أخرى تطالب بأن يكون النظام العالمي متعدد القطبية. لأنه كذلك في واقع الحال من حيث القوى النووية والصاروخية والمنافسة الاقتصادية والنفوذ السياسي وإن كانت أميركا رقم (1) فيه. ولكنها ليست القوة المنفردة والحاكم بأمره إذا ما تقاطع الآخرون في معارضتها وسعوا إلى نظام متعدد القطبية.

وخلاصة مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة لم تكن مرحلة تصفية القوى النووية الأخرى على يد المنتصر الأميركي. و لم تكن مرحلة النجاح في إقامة نظام أحادي القطبية وإنما كانت مرحلة محاولة ذلك بتعثر شديد. بل أخذت تظهر شيئاً فشيئاً نقاط الضعف الأميركي. وفي المقدمة عدم قدرتها على ضبط نظام عالمي تتحكم فيه كما في دوله الكبرى العسكرية والاقتصادية والسياسية الأخرى (أوروبا والصين وروسيا وبقية دول العالم). فمال الوضع العام إلى الفوضى "تحت قيادتها" أكثر منه إلى النظام. ووصل الأمر في الحملة الانتخابية الرئاسية (2000) أن صرح جورج دبليو بوش أن أميركا أصبحت مسخرة في العالم في عهد بيل كلنتون.

مرحلة 2001 - 2008 (استراتيجية الحرب على الإرهاب):

فبدلاً من أن تتبنى أميركا، استراتيجية استكمال نصرها على الاتحاد السوفياتي من خلال تجريد روسيا من أسلحتها النووية والصاروخية وقدراتها العلمية (حاولت جزئياً، بلا تركيز، في عهدي بيل كلنتون مثلاً شراء تلك الأسلحة والقدرات). وبدلاً من أن تستمر في احتواء الصين والحيلولة دون تطويرها لأسلحتها النووية والصاروخية ولقدراتها العلمية والتقنية ناهيك عن نموها الاقتصادي السريع، وبدلاً من أن تعيد صوغ علاقاتها التحالفية بأوروبا، تبنت إدارة بوش، وعلى الخصوص بعد 2001/9/11 استراتيجية جعلت أولويتها "الحرب على الإرهاب" أي دحرت إلى الخلف الاستراتيجية النووية لتركز على تنظيم القاعدة وتشعباته. بل راحت تركز على المقاومة في فلسطين ولبنان وعلى عدد من الدول التي اعتبرتها "مارقة":

أفغانستان، العراق، سورية، إيران، فشنت سلسلة من الحروب كانت نتائجها سلسلة من الإخفاقات والأزمات والاستنزاف.

إن الخلل الأساسي في هذه الأولوية كونها راحت توجه الضربة إلى جبهات ثانوية، وتركت القوى المنافسة العسكرية والاقتصادية والعلمية الرئيسة تستعيد أنفاسها وقوتها بلا ضغوط. وبهذا أتاحت الفرصة أولاً، للرئيس الروسي فلاديمير بوتين أن يعيد بناء الدولة الروسية القوية (تطهير مراكز القوى المؤمركة المصهينة) وكذلك الجيش والأجهزة الأمنية ويطور الاقتصاد وينعشه لتصبح روسيا دولة نووية – صاروخية كبرى. كما أتاحت الفرصة ثانياً للصين بتطوير قدراتها النووية والصاروخية والتقنية والاقتصادية حتى أصبحت الآن دولة منافسة في أكثر من مجال، وكذلك أتيح للهند أن تطور نووياً وصاروخياً واقتصادياً. أما أوروبا فعززت وحدتها وقدراتها الاقتصادية حتى أصبح اليورو منافساً عالمياً حقيقياً للدولار.

وخلاصة، يمكن القول إن ميزان القوى العسكري على مستوى الأسلحة الاستراتيجية النووية – الصاروخية استعاد ما يشبه موقعه السابق تقريباً. الأمر الذي رشح العالم لسباق نووي – صاروخي جديد لمرحلة ما بعد 2008.

الاستراتيجية النووية لمرحلة 2009 – 2020:

يمكن بالاستناد إلى الملامح الأولى التي أخذت تطبع الاستراتيجية النووية – الصاروخية بين استراتيجيتي أميركا وروسيا أن يشار إلى سمة رئيسة من سمات الاستراتيجية النووية لمرحلة ما بعد 2009 وربما إلى عشر سنوات قادمة. وذلك إذا افترضنا أن الاتجاه الذي كرّسه فلاديمير بوتين في استعادة دور روسيا باعتبارها دولة نووية – صاروخية كبرى كما كان الاتحاد السوفياتي (مع الفارق بالتأكيد)، سوف يستمر للعشر سنوات القادمة من جهة وإذا افترضنا أن أميركا ستعود إلى إعطاء الأولوية للسباق الاستراتيجي النووي مع الدول الكبرى الأخرى (استراتيجية الإحتواء)، وليس لأولوية "الحرب على الإرهاب" من جهة ثانية. هذا ولا يخفى أن الحرب على الإرهاب، يحمل درجة عالية من الهلامية ولا علاقة له بتوازن القوى الاستراتيجي.

منذ 2007 أو قبيله بدأ التركيز في الاستراتيجية الأميركية على تطوير الصاروخ المضاد للصواريخ أو ما يشبه العودة إلى استراتيجية "حرب النجوم" التي طويت مع

انهيار الاتحاد السوفياتي. ومنذ قرار موضعة الرادار وقاعدة الصواريخ المضادة للصواريخ في بولندا وتشيخيا، تكون المرحلة القادمة قد أخذت تتجه إلى استراتيجية نووية أميركية جديدة بعد خمسة عشر عاماً من انتهاء الحرب الباردة. أي استراتيجية الدفاع الصاروخي ضد استراتيجية الهجوم الصاروخي النووي. الأمر الذي يعني إعادة الاعتبار إلى "الدفاع"، بعد تحقيق إنجازات في هذا المجال، في مواجهة الهجوم النووي الصاروخي الذي كان سائداً في المراحل السابقة منذ تفجير قنبلتي ناجازاكي وهيروشيما، وكان مجرد افتراض نظري في مرحلة الثمانينيات من القرن العشرين.

في المقابل أعلنت الاستراتيجية النووية - الصاروخية الروسية المقابلة بأنها سترد بتطوير، أو بالتوسع في، امتلاك الصواريخ متعددة الرؤوس النووية بحيث تبقى متفوقة عددياً على أعداد الصواريخ المضادة للصواريخ. وبهذا يبقى التفوق للهجوم النووي على الدفاع ضده.

فالاستراتيجية الروسية الجديدة، والتي ستلحقها الصينية، لن تدخل في المنافسة حول التفوق في "حرب النجوم"، كما فعل الاتحاد السوفياتي في ثمانينيات القرن الماضي، وإنما ستنتج عدداً أكثر دائماً من الصواريخ متعددة الرؤوس النووية، التي هي في متناول اليد، وهي أقل تكلفة، ويمكن أن تدخل في الإنتاج الكثيف أو تطور لتصبح أشد مراوغة، أو أكثر إفلاتاً من الصواريخ المضادة لها.

وخلاصة أن تطوير الصاروخ المضاد للصواريخ (الدرع الصاروخية) وتحسين الصاروخ متعدد الرؤوس النووية هما ما سيطبع الاستراتيجية النووية بطابعهما في المرحلة القادمة. مما سيبقي توازن الرعب النووي وتوازن الردع النووي قائمين في المدى المنظور ما لم تحدث "مفاجآت" سياسية تغير موازين القوى السائدة في ما بين الدول الكبرى.

أما السمة الثانية للسباق الاستراتيجي الصاروخي في المرحلة القادمة فقد افتتح بابها الصاروخان الصيني والأميركي اللذان أسقط كل منهما قمراً صناعياً في الفضاء. مما يجعل المرحلة القادمة سباقاً بين تدمير الأقمار الصناعية والدفاع عنها أو عدم السماح بتدميرها كلها من خلال إيجاد بدائل لها. وهذا كله يدخل بطبيعة الحال في إطار الأسلحة ما فوق تقليدية.

ومـــرة أخرى، السؤال: هل سألت استراتيجية الدرع الصاروخية نفسها عن مدى "صدقيتها" الدفاعية حتى لو استطاعت أن تدمر كل الرؤوس النووية الموجهة إلى أهـــدافها، و لم تفقـــدها الاستراتيجية الروسية المقابلة تلك الصدقية أصلاً، أو الســـؤال، بصورة أوضح، ماذا يحدث لأميركا وأوروبا بل معظم الكرة الأرضية لو فجـــرت الصواريخ حاملة الرؤوس النووية في الجو أو حرفت عن مسارها لتنفجر "بعيداً" عن أهدافها. ومرة أخرى، هنا، يكفي تذكر آثار تسرب الإشعاع النووي من محطة شيرنوبل؟

مسائل الحرب النووية:

إذا كانـــت السمة المميزة للأسلحة النووية ككل أنها هجومية، فلا بدّ من أن تبرز ثلاث قضايا استراتيجية أساسية:

1. تصعيد المقدرة الهجومية وجعل الأولوية للقوة الضاربة.
2. إجراءات دفاع سلبي محدودة التأثير كالملاجئ تحت الأرض والأقنعة. وقد ســـقطت مـــن الحـــساب مع القنابل النووية الحرارية والصواريخ عابرة القـــارات، فـــضلاً عـــن تكاليفها الخيالية (بناء كل ما فوق الأرض تحت الأرض وفي الأعماق).
3. محاولـــة اتخاذ إجراءات دفاعية لحرف الصواريخ عن مسارها. ولكن على الرغم من النجاحات المحدودة لهذه الإجراءات إلاّ أن القوة الهجومية ظلّت مـــتفوقة وأصبحت السمة السائدة الآن في التسابق التقني الذي تدور بين قـــوة الاختـــراق وقـــوة المقاطعة التعرضية للصواريخ، وقد تفوقت قوة الاختراق كثيراً مع تطور السيطرة على الفضاء، كما مع تطوير الصواريخ متعددة الرؤوس النووية.

ولقد نشأت أمام هذا الوضع خمسة احتمالات لاستراتيجية نووية.

أولاً – استراتيجية الهجوم المباشر: وتنقسم إلى استراتيجيتين:

أ. اســـتراتيجية تـــدمير أســـلحة العدو النووية (ضرب مواقع القوة النووية الضاربة).

ب. استراتيجية تدمير المدن.

ثانياً – استراتيجية دفاعية/هجومية مباشرة: تقتضي بمقاطعة أسلحة العدو النووية وهي في طريق مسارها إلى الهدف، ثم شنّ هجوم نووي مضادّ.

ثالثاً – استراتيجية الحماية المادية ضد الانفجار النووي. وقد دفعت إلى المؤخرة.

رابعاً – استراتيجية الردع – البقاء بعد الضربة الأولى.

خامساً – استراتيجية التفوق في الصواريخ متعددة الرؤوس النووية في مقابل استراتيجية الصواريخ المضادة للصواريخ.

من الواضح أن هذه الاستراتيجيات ابتعدت عن الحرب النووية الحامية، خصوصاً، الاستراتيجية الرابعة والاستراتيجية الخامسة وقد أصبحتا استراتيجية العصر – عصر التوازن الذري وتجنب التصعيد النووي. ولكنها في الواقع حرب غير معلنة تجري في مضمار سباق تقني، يحاول فيه كل طرف إلغاء سلاح الآخر. وقد سماها بعض منظري الغرب حرب لوجستيقا استراتيجية، تكتيكها – صناعي – تقني – علمي – مالي، أي هي حرب استنزاف بكل معنى الكلمة، ولكن دون إراقة دماء، تستهدف تدمير أسلحة العدو، وتفرض عليه تكاليف باهظة للحاق، فمثلاً طائرات 1945 ألغتها طائرات 1950، وهذه ألغتها طائرات 1955 وهكذا. ومثال آخر، جاء الرادار ضد الطائرات كإجراء دفاعي ثم ألغته الطائرات شاهقة العلو التي تجاوزت الرادار، وألقت المدافع المضادة للطائرات في متحف التاريخ الا بحدود إجبار الطائرات على العمل من علو شاهق جداً مما يضعف من فعاليتها. ثم جاءت الصواريخ أرض أرض التي لا يمكن مقاطعتها فجعلت الطيران يفقد مرابضه ما دام مربوطاً بقواعد ومطارات ثابتة، كما أدى اختراع الصواريخ أرض جو إلى جعل الطيران العالي ملغى، ثم عاد فاستعاد مكانته من خلال الصواريخ جو أرض التي تطلق من الطائرة دون أن تكون في منطقة تهديف صواريخ أرض جو. ثم بدت إمكانات لمقاطعة الصواريخ أرض أرض فبرزت إمكانات الاختراق من المحطات الفضائية والصواريخ متعددة الرؤوس... إنها حرب غير معلنة ولكن نتائجها حاسمة.

لهــذا يمكن القول إن حتمية الحروب في ما بين الدول الإمبريالية لم تعد شيئاً دوريــاً ولا حتمــياً وإنما هي مسألة يومية يعيشها العالم كل يوم وكل ساعة. إذا كانت الدول الرأسمالية العالمية في السابق تعالج أزمتها الخانقة عن طريق الحرب، فها هي ذي الآن تخوض حرباً يومية لتخفيف هذه الأزمة، ولكنها ليست حرب نيران. أمــا مسألة الدافع الآخر لحتمية الحروب الإمبريالية، أي هدف إعادة اقتسام العالم فقــد أفســحت لــه استراتيجية التوازن النووي مكاناً واسعاً في الأجندة، ضمن اســتراتيجية الردّ المرن في مرحلة الحرب الباردة كما حروب التدخل الخارجي التي عرفتها مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة.

إن اســتراتيجية الردع النووي مقرونة باستراتيجية "الردّ المرن" في مرحلة الحــرب الــباردة كانت تعني أن استراتيجية التوازن تقضي بعدم التصعيد بين معــسكري الناتو ووارسو. ولكنها تعني، في الوقت نفسه، إفساح مكان واسع لاســتخدام الحــرب التقلــيدية، أو ما يسمى بلغة استراتيجية التوازن النووي "بالحروب المحدودة" وهو اسم أطلق سابقاً على كل الحروب ما عدا الحرب التي تــشتبك فــيها موسكو مع واشنطن. وهذا اقتضى تطوير الأسلحة التقليدية، والقــوات التقلــيدية، بمــا في ذلك القوات المضادة لحروب الغوار أو حروب المقاومة الشعبية.

ومــن هــنا فــإن الاستراتيجية الكلية للدول الكبرى وفي مقدمها الإمبريالية الأميركية تبدأ من رأس هرم تقف عليه استراتيجية التوازن النووي، والسباق التقني الــصاروخي وتجنب التصعيد إلى حرب نووية. ثم تتدرج تحته استراتيجية الحروب المحدودة. وهذه لها شكلان رئيسان:

أ. في المــناطق الحيوية، حرب محدودة سريعة القرار، وعنيفة جداً أحياناً ولكن قصيرة جداً، هدفها فرض الأمر الواقع يتبعها مفاوضات – مثال الغزو الثلاثي على مصر، وحرب العدوان الأميركي على الدومنيك وما تــلاه مــن خلــق وضع في مصلحة الإمبريالية، أو حروب أميركية أو أطلــسية مــا بعد انتهاء الحرب الباردة مثل الحرب على يوغسلافيا والعراق وأفغانستان.

ب. حـــروب استنـــزاف طويلة الأمد – تقليدية وغوارية – (كوريا، فياتنام، أفغانستان، فلسطين) أو حروب المقاومة بعد انتهاء الحرب الباردة (العراق، أفغانستان، لبنان، فلسطين).

هـــذا ولم نتعـــرض للشكل أو الأشكال الأخرى مثل الانقلابات العسكرية وعملـــيات التخـــريب والاغتـــيال والحرب النفسية، والحروب المضادة عن طريق العملاء المحليين، والتي تسمى بالحروب الخاصة.

التطورات الجديدة في العصر النووي:

لعـــل أبرز السمات من حيث الأهمية في عصر ما بعد انتهاء الحرب الباردة، بعـــد سمـــة الحروب الشعبية والمقاومة وإفشال الاحتلالات. هي سمة التقدم التقني الجبار في المجال العسكري حيث حدثت تطورات هائلة في:

1. الاستمرار في تطوير السلاح الصاروخي النووي الاستراتيجي (الصواريخ عابـــرة القـــارات متعددة الرؤوس، بعيدة المدى والمتوسطة، والصواريخ الـــنووية بعـــيدة المدى والمتوسطة التي تحملها الغواصات والسفن الحربية والطائرات).
2. الصواريخ النووية التكتيكية. فضلاً عن القنابل والصواريخ الذكية والموجهة والمبرمجة.
3. الـــصواريخ أرض – جـــو، جـــو – جو، جو – أرض المضادة للطائرات والدبابات والغواصات والسفن الحربية.
4. التطورات في التقنية الإلكترونية – الرادارات، والأدمغة الإلكترونية.
5. الـــتطورات في بناء الطائرات والطوافات، والدبابات، والغواصات (خصوصاً ذات المحركات النووية) فضلاً عن مختلف صنوف الأسلحة التقليدية.
6. تطويـــر الـــصواريخ المضادة للدبابات والطائرات المحمولة على الكتف أو المتنقلة الخفيفة، أو قريبة المدى ومتوسطته.
7. تطويـــر وســـائط الاتصال والاستماع والتشويش والرؤية البعيدة والليلية والتصوير والرصد وتحديد الأهداف.

8. تطوير حفر الأنفاق وأساليب التمويه والسرية في الدفاع والرد الصاروخي وإعطاب الدبابات وشل حركة الطوافات في الحروب ضد التكنولوجيا والجيوش المتقدمة (تجربة حزب الله في حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان).

لقد أدت هذه التطورات إلى البحث المستمر من قبل جيوش الدول الكبرى لاكتشاف أساليب وأشكال مواجهة حروب المقاومات الشعبية المختلفة بما في ذلك إعادة تسليح القوات بالأسلحة والأعتدة الجديدة، واستحداث التشكيلات المناسبة، وإيجاد طرق وأساليب تدريبها على خوض الحرب، وقد اقتضى كل ذلك إعادة الهيكل التنظيمي للقوات ونشوء أسلحة جديدة، وإحداث تطور كيفي في النظريات العسكرية، خصوصاً، في ما يتعلق بتعاون مختلف صنوف الأسلحة في ظلّ السلاح الصاروخي النووي الاستراتيجي، كما في ظل السلاح الصاروخي بعامه والطيران، كما على مستوى تشكل القيادات الميدانية العسكرية السياسية والاعلامية كوحدة متناسقة أو بكلمات أخرى، لقد أدت تلك التطورات إلى ضرورة اكتشاف القوانين الموضوعية التي تحكم الحروب التي تواجه بمقاومة شعبية مسلحة. وذلك من قبل الطرفين: المعتدي والمعتدى عليه.

على الرغم من كل هذه التطورات فإن التقدير العسكري الآن ما زال يقول إن الأسلحة النووية الاستراتيجية لا تستطيع وحدها تحقيق النصر في ما بين الدول الكبرى وإنما لا بدّ من إكمال التدمير الاستراتيجي الذي تحدثه، بوساطة القوات التكتيكية، أما ما هو أهم من كل ذلك فبقاء الدور الحاسم للإنسان في الحرب. وذلك بالرغم من كل هذه التطورات المادية والتقنية المذهلة. وهنا تجدر استعادة مقولة ستروكوف: "ومهما بلغت درجة كمال العتاد الحديث فإن النصر لا يمكن تحقيقه إلاّ بالمحاربين المصقولين من الناحية الفكرية، والقادرين على التضحية اللامحدودة، والحائزين على مهارة تقنية عالية، وانضباط فولاذي، وقدرة كبيرة على التحمل. وكلما ارتفعت الصفات المعنوية والعسكرية للمحاربين وشجاعتهم وثباتهم كلما أمكن الاستفادة القصوى من الطاقة الجبارة للعتاد الحديث". ولكن هذا لا ينطبق على الجيش النظامي فقط وإنما انطباقه على المقاومة أشد وأولى.

الصدقية والمعقولية CREDIBILITY

تعني المقدرة بالمفهوم التقليدي حجم القوة المادية للقوات المسلحة على أساس عـدد القـوات، وكثافة النيران، والحركة، والدعم اللوجستيقي إلخ. وهذه تعزز بالـتدريب الأفـضل والتنفيذ الماهر والتطبيق الصحيح للقواعد الأساسية في علم الحرب، والعوامل المعنوية والإنسانية الأخرى.

ويقول باليت: "أما المقدرة في العصر النووي فلا تقاس فقط بامتلاك السلاح الـنووي والصاروخي إذ لا بدّ من أن يضاف لها مسألة معقولية استخدامها، وكما تسمى الآن عامل المعقولية CREDIBILITY FACTOR وتعرّف المعقولية بالنسبة إلى قـوة نووية بمدى إمكان استخدام تلك القوة من قبل الذي يملكها إذا نشأت الحاجة". وهذه مسألة محكومة بسلسلة من الاعتبارات مثلاً:

أ. المكان والسكان: إن عنصر المعقولية في استخدام السلاح النووي من قبل بلد صغير مصنع كثيف السكان مثل بريطانيا أضعف جداً من بلد زراعي واسـع أقل عرضة للإبادة. لأن مغامرة بلد مثل بريطانيا في حرب نووية تعـني دماراً كلياً لحضارتها وسكانها. ولكن هذه المعقولية تقوى في حالة تأكـدها بأنهـا تستطيع مسح العدو بأخذ المبادرة الأولى، ولكن مثل هذا الإمكـان يـسقط أمام التوزيع الحصيف والإخفاء الجيد للسلاح النووي ووجود الغواصات النووية والمحطات الفضائية. أو بعبارة أخرى أمام إمكان البقاء بعد الضربة الأولى لدى العدو.

ب. مـدى قوة الضربة المقابلة: إن بلداً كبيراً مثل الولايات المتحدة الأميركية يمـتلك قـوة نووية هائلة تتوقف معقولية استخدامه للسلاح النووي على قضيتين:

1. إذا استطاع اكتشاف مواقع القوة النووية والصاروخية لدى خصمه، بمـستوى مائة بالمائة وليس أقل، وتأكد أن باستطاعته مسحها بأخذ المبادرة الأولى. ولكن هذه مسألة محالة.
2. إذا قـدر أن الضربة الثانية من الجهة المقابلة لن تؤدي إلى دمار كامل يصغر أمامه أي نصر يمكن أن يناله بتدمير خصمه.

ولكن هذه المسألة أصبحت مفروغاً منها، بعد أن غدا من الثابت أن مدى قوة الضربة المقابلة ستلغي قيمة أي نصر يمكن أن تحرزه القوة النووية المبادرة.

لذلك إن معقولية استخدام القنابل النووية في الوقت الراهن وإلى أمد بعيد – ما لم تحدث اكتشافات تقنية (تكنولوجية) غير متوقعة بالنسبة إلى مقاطعة الاختراق لزيادة المعقولية – هي في الواقع قريبة من درجة عدم المعقولية تماماً لا سيما مع الصواريخ متعددة الرؤوس النووية.

إن مسألة المعقولية لعبت دوراً رئيساً في إستراتيجية الولايات المتحدة الأميركية، إذ حاولت باستمرار إقناع الاتحاد السوفياتي وشعوب العالم بمعقولية استخدامها للسلاح النووي، وذلك لكي تفرض تراجعات وتكبت حركات التحرر. وهذا ما يفسر استراتيجية شفير الهاوية التي تبناها دالاس، كما يفسر استراتيجية الردع منذ أيام كندي حتى اليوم، وهنا تلعب الحرب النفسية السيكولوجية دوراً حاسماً في مرحلة الاستراتيجية النووية معززة بعمليات الاستطلاع والتحسس (مثل حادثة طائرة يو2 U2) لإضعاف معقولية الخصم من خلال إقناعه بزيادة المعقولية لدى الطرف الآخر نتيجة تحديد مواقع قواه النووية الضاربة. أو باتخاذ إجراءات تصل الحدود القصوى التي تشرف على التصعيد (مثل حادثة حصار كوبا) لإيهام الطرف الآخر أن درجة المعقولية عالية جداً لدى خصمه. ولكن كل هذه الإجراءات، بما في ذلك قصف فياتنام الشمالية، لم يأت كنتيجة للمقدرة النووية، ولا لتوفر المعقولية فعلاً، وإنما جاء نتيجة معالجة عنصر المعقولية لدى الاتحاد السوفياتي الذي كان يخشى دائماً الدخول في لعبة المعقولية، أو كان يرى ما واجهه من نقاط تحدي لا تستحق المغامرة كوريا، كوبا، فياتنام. ولهذا كان من الممكن أن يحدث الشيء نفسه بصورة عكسية، لو عولجت عناصر المقدرة والمعقولية بصورة مختلفة من قبل الاتحاد السوفياتي أو لو تعلقت التجربة بقضية أشد حيوية بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي من كوريا وكوبا وفياتنام. لأن عنصري المقدرة والمعقولية لدى الولايات المتحدة الأميركية، عملياً وموضوعياً، ليسا متفوقين على الاتحاد السوفياتي، عملياً

وموضوعياً، بل، ربما كان العكس هو الصحيح[1]. وهنا تفوق لدى الأميركيين عنصر الشجاعة والثبات والذكاء والحسابات الدقيقة لفرض حدود على الخصم لا يجوز أن يتعداها. مما لعب دوراً هاماً ضمن التوازن النووي في مرحلة الحرب الباردة.

إن مسألة التراجع عند اقتراب ساعة الصفر لا بدّ واقعة من أحد الطرفين، وإن كان الآخر لا يقلّ استعداداً عن التراجع أيضاً، فالمسألة من الذي يتراجع أولاً؟ ربما كـان هذا الوضع على ضخامته وخطورته يشبه ذلك النوع من المبارزة التي كان فيها كل من البطلين يضع إصبعه بين أسنان الآخر ثم يأخذ كل منهما يعض إصبع الآخـر، والذي يصرخ أولاً هو المهزوم بينما لو انتظر لحظة كان الآخر سيصرخ. ومن الشروط التي تجعل الآخر يصرخ أولاً هو إشعاره أنك لن تصرخ أبداً. ولكن في الحالتين تكون اللعبة خطرة. وما تنبغي المغامرة فيها.

إن قوة المعقولية متوفرة، فعلاً، في حالة التعرض لهجوم نووي... هذه المعقولية متوفرة حتى لدى قوة نووية صغيرة إذ في تلك الحالة لا مفرّ من ردّ المقتول لا محالة. ولكن هذه المعقولية الحاسمة ضمانة ضد الهجوم النووي فقط.

امتحـنت الصدقية والمعقولية، بعد أزمة برلين 1951، كما لم تمتحن من قبل، ولا من بعد، في أزمة الصواريخ السوفياتية النووية في كوبا 1962. فقد وقف العالم معهـا علـى حافة حرب نووية. فوضعت صدقية كل من الرئيس الأميركي جون كيـندي والزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف تحت الاختبار "من يصرخ أولاً؟". وعـندما تأكـد خروتـشوف، بتقدير صحيح أو واهم، بأن كيندي مصمم حتى الـنهاية قرر أن يتراجع، وتم التوصل إلى اتفاق بسحب الصواريخ وفي المقابل تعهد ميركي بعدم غزو كوبا.

---

1) يقـول الجنرال ستروكوف في "تاريخ فن الحرب": "كانت استراتيجية "الانتقام الكثيف" مبنية علـى أساس تفوّق الولايات المتحدة على الاتحاد السوفياتي في الوسائط النووية وذلك حسب تقديـرات القـادة الأميـركيين. ولكن هذه التقديرات كانت باطلة، وقد اعترف بذلك عدد من المسؤولين في الولايات المتحدة، وفي دول حلف الأطلسي، حتى إن لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأميركي عام 1960 اعترفت بتفوق الاتحاد السوفياتي على الولايات المتحدة في مضمار الأسلحة النووية".

مـــا إن انتهت الأزمة، وعادت القلوب من الحناجر إلى مواقعها، حتى أصبح القـــادة أكثر تعقلاً، والعالم أشد خوفاً من المصير الرهيب. فازدادت ضغوط الرأي العام لنـــزع السلاح النووي. وهو ما أدى إلى اتفاق حظر التجارب النووية 1963 ثم اتفاق حظر انتشار أسلحة الدمار الشامل 1969، فتحديد الأسلحة الاستراتيجية 1972، ومثلها 1977، ثم اتفاقية تقليص عدد الصواريخ متوسطة المدى عام 1989 (ريغان – غورباتشوف).

ولكـــن كل هذه الاتفاقات لم تمس الجوهر وهو امتلاك الطرفين لقنابل نووية وهيدروجينـــية وغيرهـــا مع وسائط إيصالها إلى الهدف. و لم تغير من معادله ميزان الرعب النووي، أو تخفف من الخطر وإن كان قد أصبح مستبعداً. فالمتغير الذي بدا حاسمـــاً كان انهيار الاتحاد السوفياتي على يديّ غورباتشوف ويالتسين. ولكن هذا المـــتغير لم يكـــرس من خلال نـــزع السلاح النووي من يد روسيا. ومن ثم، في الواقـــع، بقي ميزان الرعب النووي قائماً، وإن لم يترجم نفسه في السياسة أو إلى صـــراع دولي، إلاّ بعـــد ستة عشر عاماً عندما تذكر المشاركون في مؤتمر ميونيخ للأمـــن الدولي في شباط/فبراير 2007، وهم يستمعون إلى خطاب الرئيس الروسي فلاديمـــير بوتين، بأن هنالك دولة نووية وريثة للاتحاد السوفياتي أخذت تخرج من حالة القوة والكمون إلى حالة الفعل والظهور.

– القسم الثاني –
القواعد الأساسية في علم الحرب

تمهيد:

لكـــي تشتبك القوات المتحاربة لا بدّ من جلبها إلى نطاق تصبح فيه بمتناول بعضها بعضاً. ومن الطبيعي أن يحاول كل طرف المحافظة على قواته وسحق قوات الطـــرف الآخر، وهذا جوهر كل مبدأ عسكري، وهو يقضي بتأمين التفوق على العـــدو، وهذا التفوق قد يتخذ أشكالاً كثيرة. مثلاً، وضع القوات في مواقع أقوى مـــستفيداً مـــن الأرض، أو امتلاك حرية الحركة، أو استخدام المفاجأة أو التركيز.

ويقضي أيضاً بتجنب المعركة التي يكون العدو فيها متفوقاً. إن هذه العمليات أساساً هي جماع المناورة وتوزيع القوات وهي تعرف باسم "العمليات" التي يجب أن تراعي دائماً مسرح القتال، وحجم القوات المستخدمة، وأسلحتها ونوالها وتعاون مختلف الأسلحة وحركتها ونسبة قوتها - العديد، السلاح، التوزيع - إلى مساحة الجبهة، وكذلك نظيراتها لدى العدو.

كانت الحرب قبل نهاية القرن الثامن عشر بسيطة لا تخرج عما تعلمه الضباط والجنود في فترة التدريب، إذ لم يكن مطلوباً من الضباط الذين يحتلون مرتبة أدنى من القائد العام أية مهمات قيادية مستقلة تتجاوز ما تعلموه: أخذ مواقعهم في المعركة، ثم التقدم بكتل ضخمة، والاشتباك مع العدو المباشر. لقد كانت العمليات والاشتباك مرحلتين متمايزتين مستقلتين. لأن الجيوش كانت تتحرك من نقطة محددة إلى نقطة المعركة على شكل كتلة واحدة متراصة. وقد تركز فنّ قيادة الحرب على عملية الاشتباك بالذات أي تكتيك المعركة. ولكن، مرة أخرى، لا بدّ لنا هنا من التشديد على استثناء حروب العرب المسلمين في القرنين السابع والثامن (ميلادي).

أخذت استراتيجية العمليات في زمن المصريين واليونان والفرس والرومان معنى أكثر من عصر الإقطاع في أوروبا، والعصر الذي سبق الثورة الأميركية والثورة الفرنسية، وكذلك تكتيك المعركة نفسها. فقد كانت الاستراتيجية في تلك الحروب تستهدف سحق الجيش المقابل في المعركة وتجريده من السلاح وضمّ بلاده إلى سيطرة الجيش المنتصر. وكثيراً ما أخذت استراتيجية المناورة قبل الاشتباك دراسة وتخطيطاً للطرقات، واتباع الطريق الذي يضع القوات في وضع أفضل، وإن كانت في النهاية تأخذ شكل تقابل الجيشين لبدء الالتحام.

أدى تطور البندقية والمدفع، وتحسن الطرقات، وتطور وسائط النقل، وكبر حجم الجيوش وتحسين تنظيمها إلى ولادة مفاهيم أكثر تعقيداً حول العمليات والتكتيك، مثلاً: ضرورة الاحتياط وتشغيله، والزحف غير المنظور والمناورة قبل المعركة لأخذ المواقع الأنسب. وقد أدى هذا إلى زيادة مسؤولية الضباط ولكن ظلّت المسؤولية، أساساً، بيد القائد العام، واقتصرت مبادرة الضباط الأدنى على

تطبيق الأمر التكتيكي المباشر بعد بدء الاشتباك. وذلك في المرحلة التدميرية من الحرب. أما الأسباب التي جعلت المائة سنة السابقة لنابليون لا تجد من يجسد سمات التطورات الجديدة في المجال العسكري فقد مرّ ذكرها.

عندما جاء نابليون كانت بين يديه حصيلة تجربة الثورة الأمريكية، والثورة الفرنسية، وجماع تجربة تورين، وفريدريك الكبير، ومارلبورو، وغوستاف أدولف، فضلاً عن وجود الجيش الجماهيري، وأحدث تطورات التقنية، وتطور العلوم، وإطلاق القوى الإنتاجية الجديدة فضلاً عن الرسالة التي حملها من الثورة الفرنسية. ولهذا كان يمثل نقطة الطفرة لإحداث تغيير نوعي في قيادة العمليات والتكتيك، فأرسى قواعد "التكتيك الكبير" على أساس الجمع بين نظام التشكيلات الموزعة المرنة السريعة للعمليات وبين التركيز المطلوب للمعركة، بينما ظلّ أعداؤه يتحركون بكتل جامدة وتشكيلات الخطوط أي ظلوا يناورون وفقاً للتركيز المعهود.

عمد نابليون إلى تقسيم جيشه إلى جيوش، أو فرق، لتقوم بالحركات والمناورة ككتل مستقلة تتقدم إلى نقطة المعركة من اتجاهات مختلفة، أي مهد الطريق للجمع بين القيادة المركزية والقيادة اللامركزية في تنفيذ العمليات والتكتيك، وهنا أصبحت مسألة التخطيط لعمليات كل فرقة من مهمة قيادات أدنى من القيادة العامة، وأصبح مصير المعركة متوقفاً على مبادراتهم وقراراتهم. لذلك نشأت الضرورة لوضع قواعد العمليات أو القوانين الأساسية لفنّ علم الحرب من أجل إرشاد القادة، وجعلها دليلاً للعمل.

أدت نجاحات نابليون وبراعة تكتيكه الكبير إلى جعل حروبه النموذج للدراسات النظرية التي حاولت اشتقاق المبادئ الأساسية لفنّ علم الحرب. وعلى الرغم من أن التطورات التي حدثت في القرنين التاسع عشر والعشرين أدت إلى إحداث تغييرات أساسية في استراتيجية العمليات والتكتيك، بالنسبة إلى استراتيجية العمليات والتكتيك في العهد النابليوني إلاّ أن المبادئ الأساسية التي اشتقت من حروب نابليون ظلّت في جوهرها هي المبادئ العامة للحروب الحديثة ما تحت النووية. ولم يتجرأ عملياً على تجاهل تلك القواعد غير عبدة التقنية والتطورات

العلمية في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة وقد دفعوا الثمن غالياً كما سنرى في حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان.

حاول كلاوزيفتز وجوميني استخلاص الدروس الأساسية أو القواعد الأساسية لفنّ الحرب من دراسة حروب نابليون والحروب السابقة، ثم حاول مولتكي البروسي، ودودج الأميركي، ولوال الفرنسي تلخيص جوميني وكلاوزيفتز، وكذلك فعل فوش وليدل هارت وفوللر، وسائر هيئات أركان الجيوش الحديثة. وقد ظلّت تلك القواعد، في الجوهر، تدور في فلك كلاوزيفتز وجوميني، مضافاً إليها التجربة العسكرية التقليدية لكل بلد.

ثمة شيء مشترك بين غالبية الذين تناولوا تحديد وشرح القواعد الأساسية لفنّ علم الحرب يتلخص في النقطتين التاليتين:

أ. لا بدّ لكل من يقود حرباً أو عملية أو معركة أن يمتلك حصيلة نظرية حول الحرب: فنها وآلياتها، وطبيعتها، وقواعدها الأساسية.

ب. لما كانت كل حالة حرب ابتداء من الحرب ككل، ومروراً بالعمليات وانتهاء بالتكتيك، وسواء في عملية التخطيط أو التنفيذ، تحمل فرادتها الخاصة، فسيبقى ثقل أساسي للفكر المبدع والمبادرة الذاتية... وبكلمة أخرى، إن تطبيق تلك القواعد يجب أن يكون مرناً خلاقاً بعيداً من الحرفية والقالبية والبلادة. ذلك لأن دراسة تلك القواعد يجب أن تخدم دليلاً للعمل، وأحياناً لا بدّ من الخروج على بعضها. فضلاً عن مراعاة كل حالة حرب من حيث وضع الأولويات والتشديد بالنسبة إلى كل قاعدة أو مبدأ.

المبادئ العشرة في فنّ علم الحرب

اختصاراً للبحث، فقد تم التعرض لعشرة مبادئ أساسية تدور في فلكها كل "تعليمات الخدمة الميدانية" في كل الجيوش، وكذلك كتابات المنظرين العسكريين، وإن كان من الصعب إيجادها كلها مجتمعة في كراسة واحدة، لأن البعض ركّز على أربعة قواعد منها، واعتبر الأخرى تحصيل حاصل، أو جمع بين قاعدتين أو ثلاث من تلك القواعد، والبعض جمع ست، وآخرون ثماني قواعد، ولكن هذا لا يعني أن

هنالك من ينكر أياً من القواعد العشر الموضوعة هنا حتى ولو لم يذكر بعضها مباشرة. إذ سيظلّ هنالك تركيز على بعضها أكثر من بعضها الآخر نظراً للوضع الخاص والتقليد القتالي لكل جيش.

ولكن يجب أن يلاحظ لدى مراجعة هذه القواعد أن من غير الضروري تواجدها كلها في وقت واحد في كل حرب ومعركة وعملية. بل إن بعضها قد يتناقض في ظروف معينة مع بعضها الآخر. لذلك على كل قيادة، وفي كل حالة، أن تقيم التوازن الصحيح بين هذه القواعد في التطبيق حسب الوضع المعطى بحيث يركز على بعضها، ويوضع بعضها في المقام الثاني، أو يصار إلى تجاهل بعضها كلياً. أما القفز عنها جميعاً فطريق إلى الكارثة!

والآن ما هي هذه القواعد

1 - مبدأ تركيز القوات (التحشيد)

يقضي هذا القانون بضرورة توفير أكبر قوة ممكنة متفوقة على قوة العدو من أجل تحقيق الانتصار عليه.

كان نابليون أول من تحدث عن هذا القانون بقوله: "إن كل فنّ الحرب يمكن تلخيصه بمبدأ واحد، وهو أن تجمع في جبهة واحدة قوة أكبر من قوة عدوك". وقد فسّر جوميني هذا المبدأ على أساس ضرورة "جلب غالبية الجيش، بإجراءات استراتيجية تباعاً، لأخذ دورها في المناطق الحاسمة في مسرح الحرب".

إن المناورة هنا تستهدف تأمين التركيز بحيث تجعل "قواتك الرئيسة ضد أجزاء فقط من قوات العدو"، أما في المعركة نفسها فتقوم من خلال مناورات تكتيكية "بوضع قواتك الرئيسة في المنطقة الحاسمة من أرض المعركة، أو ضد ذلك الجزء من قوات العدو التي من الضروري التغلب عليها". أما كلاوزيفتز فقد سمى هذا المبدأ تحت اسم "تركيز الجهد" على أن يكون هذا التركيز ضد القوة الرئيسة للعدو، وتحقيق النصر في المعركة في مسرح العمليات الرئيس.

إن تركيز القوات يفترض جعل أقصى الإمكانات متوفرة رهن الإشارة، ولكنه لا يعني، بالضرورة، إشراكها كلها في عملية الاشتباك. إذ أن الجوهر في هذا المبدأ هو حشد أقصى قوة لتحقيق الهدف المحدد باعتباره إجراءً أولياً في التخطيط

للعملية، أما القوات التي ستشترك فعلياً في الاشتباك فهي مغطاة بالقوانين الأخرى وليس بمبدأ التركيز فقط. لأنك إذا أشركت كل القوات المتوفرة والمخصصة للمعركة، منذ أول لحظة، فسينتج عن ذلك افتقادك للمرونة في التنفيذ، وذلك لأنه سيصعب عليك، إذا ألقيت كل قواتك دفعة واحدة، مواجهة أي تغيير مفاجئ في الوضع يتطلب تعديلاً في الخطة، أو نقلاً للقوات من جهة إلى أخرى.

إذا كانت الحرب لا تتمّ بصورة تكرر نفسها، أو على الأصح، إذا كانت كل حالة حرب تختلف عن الأخرى، وإذا كانت كل حالة تتضمن عدداً من الخيارات في أساليب التنفيذ، كما تتضمن، عادة، عدداً من المفاجآت والتغييرات في الوضع. ومن ثم، كل هذه تتطلب تخصيص أجزاء من القوات المحدودة المتوفرة. فهذا يقضي أن يأخذ التركيز صفة عامة أولاً، ثم يأخذ ضمن ذلك صفات أكثر خصوصية لمواجهة الحالات التي حددت للتركيز. ولكن القائد ساعة التنفيذ لن يكون بمقدوره فرض نصر من أية نقطة يشاء، وهذه هي الخطورة التي يحذر منها مبدأ التركيز الذي يؤكد ضرورة اختيار الأسلوب الحاسم من بين عدد من الاحتمالات، ومن ثم تركيز القوات لمعالجة تلك الحالة، وهذا يضمن أن ينفذ بأقصى تفوق على العدو في المعركة، وبكلمة، إن قوة أقلّ عدداً حين تركز، بصورة صحيحة، تستطيع أن تهزم قوة متفوقة[1].

---

(1) هذه القاعدة لا تناقض الآية: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (الشعراء: 54). وهذه الآية لا تناقض القاعدة الأساسية للحرب التي تفترض بأن التفوق العددي يغلب. ولكن هذه القاعدة حتى في قواعد علم الحرب ليست مطلقة لأن هنالك قواعد أخرى تؤدي إلى النصر أو الهزيمة. ومن ثم فإنها مقيدة بتوفر شروط أخرى وهذا هو حال كل القواعد الأخرى حين تتوفر إحداها أو بعضها ولا يتوفر ما هو حاسم في حالة الحرب المحددة.

ومن هنا فإن فهم الآية ليست بإطلاق وإنما بتوفر حالات تغلب فيها الفئة القليلة الفئة الكثيرة، ومثلها مثلاً كما ورد في معركة حنين ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ (التوبة: 25). فهذه حالة تنهزم فيها الكثرة أمام القلة. وذلك بسبب الإعجاب بالكثرة فتهمل أسباب النصر الأخرى أو قواعد الحرب الأخرى. فالكثرة هنا إيجابية ولكن ليس إذا أدت إلى غرور وإعجاب مما يبطلان إيجابيتها ويقودان إلى الهزيمة أمام فئة قليلة.

إن مــبدأ التركيــز عامّ لا يخالف فيه اثنان لأنه يعني في جوهره استخدام قوة كبيرة لإنــزال الهزيمة بقوة أصغر منها. ولكن المعضلة هي مسألة التطبيق أي كيفية تطبيق هذا المبدأ في كل حالة، خاصة في حالات التوازن الاستراتيجي بين القوات المتحاربة أو إذا كان العدو متفوقاً استراتيجياً.

يمكــن رؤية هذا المبدأ في كل أشكال الحروب القديمة والحديثة، وابتداء من حــرب غوار، إلى حرب مقاومة شعبية، إلى حرب تقليدية بين دولتين، إلى حرب نووية. لأن الجوهر في أية عملية اشتباك، سواء أكانت احتلال مخفر أم نصب كمين لدورية، أم معركة كبيرة، أم جبهة واسعة، هو أن تنازل عدوك بقوات متفوقة على قــواته. فالتركيــز هــنا قد يكون عددياً، أو في كثافة النيران، أو في حسن توزيع القوات واستخدام الاحتياط أو في المفاجأة.

ولكــن مبدأ التركيز يعمل في كل حرب وفي كل معركة بطريقة تختلف عن الأخــرى تبعاً لاختلاف ظروف كل حرب وكل معركة. إنه يعمل بقوة حتى في حرب الغوار التي تفتقر إلى التركيز الاستراتيجي، وتتبنى تشكيلة المجموعات الصغيرة المتفرقة، كثيرة التحرك، حيث يتمّ تحقيق النصر في معاركها من خلال التركيز على نقطة يمكن تأمين تفوق على العدو فيها. إن الفرق الأساسي في تطبيق هذا المبدأ في حرب غوار أو في حرب بين جيشين نظاميين، أن الأولى تطبقه تكتيكياً على نقاط معزولة بينما لا تلجأ إلى التركيز استراتيجياً، فيما يطبق في الحالة الثانية استراتيجياً وتكتيكياً، طبعاً هنالك حالات أخرى مختلفة في تطبيقه، مثلاً حالة الحرب المتحركة الثورية في ظروف يمتلك فيها العدو تفوقاً استراتيجياً.

لقــد شــدّد ماوتــسي تونغ تشديداً قوياً على مبدأ التركيز إذ عندما صاغ موضــوعاته حول "الهجوم ضمن الدفاع"، و"التفوق ضمن تفوق العدو"، و"القوة ضــمن الــضعف"، و"الوضــع الملائم ضمن الوضع اللاملائم" و"المبادرة ضمن الــسلبية"، كان يعالج مبدأ التركيز معالجة دقيقة ذات شقين: إحباط تركيز العدو، وتأمين التركيز لقوات أضعف. إنه يقول "إن كسب النصر في الدفاع الاستراتيجي يعــتمد أساساً على هذا الإجراء - تركيز القوات". وكتب عام 1928 "لقد دلت تجربتنا على أننا حين كنا نتوزع كنا نتلقى الهزائم دائماً، بينما حين كنا نركز قواتنا

لـــنقاتل قوة أصغر أو متفوقة قليلاً غالباً ما أمنا الانتصار". وقد اشتق من هذا المبدأ عدة قوانين:

أ. لا ينصح بالقتال حين تواجه قوى متفوقة.

ب. لا ينـــصح بالقـــتال حين تواجه قوة غير كبيرة، ولكنها قريبة من قوات موازرة.

ج. لا ينصح بالقتال حين تواجه قوة غير معزولة ومحصنة جيداً.

هـــذه المـــبادئ أثبتت فعاليتها في عدة تجارب لا سيما في الصين وفياتنام ولكن لم تصلح في حاله معركة الكرامة (1968) في الأردن. فحين قررت فَتح القـــتال والصمود في مواجهة قوة متفوقة مهاجمة جاءت بنتائج سياسية هائلة. وكذلك فعل الجيش الأردني في تلك المعركة. وعندما بادر مقاتلو حزب الله في المواقـــع الأمامـــية في حرب تموز/يوليو 2006 عدم الانسحاب ومواجهة قوى مـــتفوقة تحققـــت نتائج عسكرية ميدانية وسياسية أسهمت في إنـــزال هزيمة بالعـــدوان. الأمـــر الذي يؤكد على فرادة كل حالة حرب وعلى الإبداع في التعامل مع القواعد العسكرية.

بـــل إن قاعدة ماوتسي تونغ "لا ينصح بالقتال حين تواجه قوة متفوقة" يجب أن تقـــيد بـــشروط سياسية (تجربة معركة الكرامة وتجربة قطاع غزة في 2008)، وكـــذلك القوة المتفوقة إن كانت في حالة تصميم أو ارتباك أو في حالة معنويات عالية أم هابطة وهكذا. فالتفوق يجب ألا يحسب بالعديد والسلاح فقط.

كمـــا أن المبدأ الغواري الذي يستهدف جعل العدو يبعثر قواته لكي يسهل التركيـــز التكتيكـــي ضـــده هو أيضاً اشتقاق من مبدأ التركيز من ناحية وخلق مضادات لمبدأ التركيز عند العدو من ناحية ثانية، ولكنها مضادات تعتمد على مبدأ التركيز أيضاً. وهو يستفيد في هذه المسألة من خلال جعل العدو في حيرة من أمره بـــين التركيز وبين خسارة الأرض، أو بين كسب الأرض وفقدان التركيز. وهذه المعضلة إحدى المقاتل الرئيسية للجيش الذي يواجه حرب غوار شعبية. وقد أثبتت تجـــربة حـــرب تموز/يوليو 2006 في لبنان أن الصمود في المواقع أو العودة السريعة إليها جعل العدو في حيرة من أمره بين التركيز والتصميم من جهة والخسائر البشرية

من جهة أخرى، أو كسب الأرض وفقدان التركيز. فضلاً عن نشوء إشكال مدى الاستعداد لتحمل خسائر بشرية فوق الحساب والتقدير.

وعـــود إلى مـــبدأ التركيز، فإن هذا المبدأ يتراوح بين التركيز ضد الجسم الـرئيس لقـــوات العدو وبين التركيز على الأجنحة، أو على أجزاء من قوات العدو، أو على المسرح الرئيس للحرب، أو في مسارح ثانوية، أو التركيز على أشـــدّ الـــنقاط ضعفاً. بل هنالك أشكال كثيرة للتركيز: (أ) تركيز استراتيجي لهجوم مباشر، (ب) تركيز استراتيجي غير مباشر، (ج) تركيز تكتيكي وتوزع اســـتراتيجي، (د) تركيز دفاعي - هجومي، (هـــ) التركيز في اللحظة الحاسمة باتجـــاه الضربة الرئيسية (لينين) (و) الصمود الدفاعي العميق في كل أو أغلب المواقع لإفقاد العدو ميزة التركيز.

يجـــب أن يلاحظ هنا أن مبدأ التركيز مع تطور الطيران والصواريخ وفي حالة الـــسيطرة الجوية للعدو تفرض تطبيقه بالنسبة إلى جيش نظامي أو قوات كبيرة بما يـــشبه حالـــة حرب الغوار ضمن شروط مختلفة. فهنا يتوجب على القيادة المعنية اكتشاف قوانينها وهو أمر ممكن إذا صممت على القتال في مثل هذه الظروف التي يسيطر فيها العدو على الجو.

علـــى أن مـــن الـــضروري ملاحظة التغير الذي طرأ أيضاً، على عمل هذه القاعـــدة بالنـــسبة للجـــيوش النووية المعاصرة، حيث أصبح خطر تعرض القوات المركزة للضربات النووية يفرض توزيع وبعثرة التشكيلات القتالية، ولكن في المقابل فـــإن اســـتخدام السلاح النووي من جانب القوات المبعثرة يتطلب إعادة تركيزها وحشدها من أجل تنفيذ الضربة النووية.

لقد أصبح القانون الذي يعمل في ظروف الحرب النووية شبيه بالقانون الذي يعمل في حرب الغوار أي بعثرتها عند التعرض لهجمات العدو، وتجميعها وتركيزها عـــند القـــيام بعملية ضد العدو. ومن هنا فإن القوات النظامية النووية شأنها شأن قـــوات الغوار بحاجة إلى امتلاك قدرة فائقة على سرعة التبعثر، وسرعة التركيز - القانـــون: تبعثر - تركيز - تبعثر - تركيز. أو تركيز - تبعثر - تركيز - تبعثر في حالة المبادأة بالهجوم.

وبالمناسبة لا بد أن تدرس هنا التجربة الفياتنامية الجنوبية الناجحة في تركيز القوات للهجوم في ظروف عدم توفر غطاء جوي أو في الأدق في ظروف السيطرة الجوية للعدو. أما الصينيون فابتدعوا الهجمات الليلية في الحرب الكورية 1950 – 1953.

2 – مبدأ الاقتصاد بالجهد

ويسمى "الاقتصاد بالقوات" أو "القوات الضرورية"، ويستهدف الحصول على أفضل النتائج بأقل حدّ ممكن من الجهد والقوات. إن هذا المبدأ يتناول مسألة توزيع القوات توزيعاً حصيفاً، ولهذا فهو مميز عن مبدأ تركيز القوات وينظر إليه، أحياناً كمناقض له بينما هو، في الواقع، مكمل له أو هو المبدأ الأهم في ظروف معينة.

عندما تركز القوة لتحقيق هدف محدد فإن جزءاً منها يشتبك في كل مرحلة من مراحل العملية، وهو الجزء الذي يعتبر كافياً بينما يبقى الباقي في حالة عدم اشتباك، أي أن جوهر هذا المبدأ يختص بمسألة الاحتياط، كما يختص بمسألة حسن توزيع القوات على نقاط كثيرة، خاصة، في جبهة واسعة، أو في حالة عدم توازن في القوى.

حين تضع خطة فمن النادر أن تكون مُلمّاً بمعلومات كاملة عن العدو لتحدد تقديراتك النهائية، ولكن عليك، مع ذلك، أخذ قرار باتباع أسلوب معين في التنفيذ، ولا بدّ من أن يبقى هنالك، دائماً، مكان للشكّ وعدم التأكد من الوضع. لذلك فإن دخولك المعركة يجب أن يحمل دائماً توقعاً لتطور غير متوقع. ومن هنا يعتبر الاقتصاد بالقوى مكملاً في التخطيط والتنفيذ لمبدأ التركيز – أي حشد أقصى ما يمكن من القوات – ولكن ينبغي لهذا الحشد أن يوزع باقتصاد بحيث تشترك في الاشتباك نسبة تمثل الحدّ الأدنى من القوات اللازمة بينما يظلّ الباقي في الاحتياط بيد القائد لإعطائه مرونة في التنفيذ اللاحق عندما تتضح أكثر كل جوانب الصورة. إنه مبدأ يفعل في الدفاع أكثر من فعله في الهجوم وإن بقي حاضراً في الهجوم كذلك.

ومقارنة بين قاعدتي التركيز والاقتصاد بالجهد فإن مبدأ التركيز يُعتبر في حالة الحروب التي تمتاز بتوازن استراتيجي، أو تفوق استراتيجي من جانبك مبدأ

استراتيجياً أكثر منه تكتيكياً في حين يعتبر مبدأ الاقتصاد بالقوات، في تلك الحالة، تكتيكياً أكثر منه استراتيجياً، في حين يعتبر مبدأ التركيز في الحروب التي يمتاز العدو فيها بتفوق استراتيجي مبدأ تكتيكياً بينما يعتبر مبدأ الاقتصاد بالقوات، في تلك الحالة، مبدأ استراتيجياً أكثر منه تكتيكياً - ولكنه هامّ أيضاً في التنفيذ الجزئي في هذه الحالة أيضاً.

تظهر قيمة مبدأ الاقتصاد بالقوات أيضاً، بصورة أشدّ، حين يكون اتساع الجبهة كبيراً جداً بالمقارنة مع حجم القوات، أو عندما يكون العدو متفوقاً استراتيجياً، أو في حالات شبه التوازن الاستراتيجي. ولكن ديناميكية عمل هذا المبدأ تتوقف على نسبة توازن القوى كما تتوقف على نسبة القوى المتوفرة إلى المساحة. ولهذا فهو شديد الأهمية، وإن كان الاهتمام به يضعف لدى القوى التي تمتلك ضخامة في القوات، وتستطيع أن تؤمن زخماً مستمراً في كل النقاط، خصوصاً، عندما تنتقل إلى حالة الهجوم العام بعد أن أنزلت بالعدو ضربة قاسية في إحباط هجومه.

على أن من الضروري التذكر دائماً، أن مبدأ الاقتصاد بالجهد، أو قل، مبدأ التوزيع العقلاني المناسب للقوات هو حجر الرحى لامتلاك حرية الحركة، وتجنب حشد الجيش كله في تركيز أحمق على خطّ مكثف...!

لقد كان هذا المبدأ حجر الرحى في التطبيق العسكري البريطاني، وفي التوزيع الدفاعي السوفياتي، وقد أصبح الآن حجر الرحى في التطبيق العسكري الأميركي، بل في كل الجيوش الحديثة. إن فكرته تنبع من عدم إمكان توفر قوات كافية لتغطية كل النقاط بالقوة نفسها، وبالمستوى نفسه، خاصة، عندما يكون مسرح الحرب يدور على نطاق عالمي أو بلدان شاسعة جداً. وقد تولدت عنه الآن فكرة تنظيم قوى ضاربة احتياطية متأهبة دائماً للانتقال إلى أية نقطة تتعرض للخطر، أو يقرر العمل في اتجاهها، بدلاً من حماية كل النقاط بقوة عالية. ولقد ساعد التطور الآلي، خصوصاً، النقل الجوي على إعطاء هذا المبدأ حياة جديدة، إذ لم يعد من الحصافة تغطية كل النقاط بقوات كبيرة، على طريقة خطّ ماجينو، وإنما وضع قوات محدودة، تشكل الحدّ الأدنى المطلوب، في النقاط المختلفة مع إبقاء قوات ضاربة

ســريعة الحركة على أهبة الاستعداد للتحرك إلى أية نقطة، وبأسرع ما يمكن. ولقد دلــت التجــربة الســوفياتية في الحــرب العالمية الثانية أن من الضروري تكديس الاحتياطــي الاســتراتيجي وتجمــيعه بــشكل دائــم، وكان لتطوير الاحتياطي الاســتراتيجي وحــشده في الاتجاهــات الرئيسية مع الاقتصاد الشديد في النقاط الدفاعية، دور حاسم في امتلاك المبادرة الاستراتيجية والنجاح في خوض العمليات الهجومية والدفاعية.

مرة أخرى، إن مبدأ الاقتصاد بالقوات يعني عقلانية توزيعها وتركيزها في آن واحد، وستبقى المشكلة هي مشكلة كيف يطبق، بصورة خلاقة في كل حالة..!

في تجــربة حرب العدوان العسكري الأميركي على العراق في 2003 طبقت قاعدة الاقتصاد بالجهد على العديد اللازم لاحتلال العراق إذ اكتفي بـ 140 ألف جندي. ثم انتقد هذا التقدير من قبل قيادات عسكرية أميركية بعد أن تبين أنه غير كــاف، لا سيما مع حل الجيش العراقي، لتثبيت الاحتلال والسيطرة على الوضع فقدر أن الحاجة كانت أكثر من ضعف هذا العدد (بين 300 – 400 ألف جندي). مما تكشف عن مدى البلادة في تطبيق قواعد علم الحرب، كما في تقدير الموقف.

3 – مبدأ الأمن

عندما تحدث جوميني عن المناورة الاستراتيجية ونقلها إلى الخطوط الداخلية في جــبهة العدو لقطع طرق مواصلاته وإمداداته وعزله – أو مثلاً ضرب مطاراته في العــصر الراهن! – اشترط ضرورة تأمين خطوطك الداخلية وتأمين خطوط تحرك مناورتك.

إن مــبدأ الأمن يفترض حماية النقاط الحيوية والضعيفة مثل القواعد وخطوط المواصــلات والمطــارات والأجنحة المكشوفة قبل الاشتباك، وذلك لئلا يؤدي أي تهديــد مفاجــئ لها بعد الاشتباك إلى جعل وضعك في المعركة مزرياً بشكل يتيح للعدو تحقيق نصر استراتيجي ضدك.

يجــب ألاّ يفهــم مبدأ الأمن بشكل جامد وحرفي لئلا يؤدي إلى المبالغة في الحــذر، وبالتالي منع القائد من المغامرة أو المخاطرة في المعركة. في الواقع، إن هذا المــبدأ حاســم وضــروري في مرحلة التخطيط بالدرجة الأولى من أجل أن يمهد

للتنفيذ. ويعطيه حرية حركة أكبر، لأن إزالة الأخطار المحتملة، أو تقليلها إلى الحدّ الأدنى يجعل القائد يتحرك بحرية أكبر في تنفيذ العملية. ولكن، إذا كانت المبالغة في الحذر تمنع القائد من المخاطرة، فإن إهمال مبدأ الأمن يترك الجيش تحت رحمة استراتيجية العدو، ويجعل هزيمته سهلة مضمونة.

كان نابليون وهو من أكثر القادة جرأة ومغامرة يقول: "إنني أحاول أن أكتشف كل الأخطار المحتملة لأرى كل الصعاب..." "إن العلم العسكري يتضمن أن تقدر بكل دقة كل الاحتمالات الممكنة، ومن ثم تزيل بالحساب عامل الصدفة". إن إزالة عامل الصدفة هو شيء نسبي لأن التحرك على المضمون لا يوجد إلاّ إذا كان خصمك متهاوياً أو غبياً شديد الغباء، وهذا ما لا يجوز الركون إليه. ولكن عليك أن تحسب كل الاحتمالات، وتتشدد في تطبيق مبدأ الأمن في مرحلة التخطيط. ولكن في مرحلة التنفيذ يصبح التنفيذ في المقام الأول، ويتراجع مبدأ الأمن إلى المقام الثاني دون إهماله كلياً.

إذا اقترن مبدأ الأمن بالخوف سواء في الهجوم، أو الملاحقة، أو الزحف، أو الانسحاب، فسيتحول إلى أمن سلبي، أي أنه سيجعل العدو يقرر حركتك وقراراتك، ويكون موقفك هو الركض وراء الأمن. لذا يجب أن يفهم مبدأ الأمن إيجابياً بحيث يقوم على أساس الدفاع الإيجابي والحركة الدائبة والدوريات المستمرة، والاستطلاع الدائم، واستخدام الاحتياط.

إن هذا المبدأ يعمل بطرق مختلفة حسب اختلاف الحروب وظروفها. فمثلاً إنه يعمل في حرب الغوار على أساس الحركة الدائمة، والاستطلاع الدائم، وتجنب مصائد العدو وتطويقاته. ويعمل في الحرب الشعبية المتحركة على أساس التركيز، والجبهة المتحركة، ومعرفة اتجاهات تركيز العدو وتحركاته ويعمل في المقاومة وسط الشعب في تأمين السرية وحماية رجال المقاومة ونسائها من الانكشاف. ويعمل في الاستراتيجية الذرية على شكل ضرورة تأمين الضربة الثانية عن طريق توزيع حصيف للقوة النووية وإخفائها وتمويهها والرصد الراداري والاستخباراتي. أما في الحرب التقليدية فيرتكز على الحصافة في استخدام الاحتياط والاستطلاع الجوي والراداري، وتوزيع المطارات وتحصينها وتمويهها وتأمين حماية أرضية وجوية

وراداريـــة دائمة لها. ولكن يجب إقامة توازن صحيح بينه وبين مبدأ التركيز لأنهما كثيراً ما يتعارضـان.

يلعـــب مبدأ الأمن دوراً هاماً لأنه يفتح الطريق للعمل الجريء إذ إن حساب الصعاب والمخاطر وإزالة احتمالات عوامل الصـدفة تؤدي إلى امتلاك زمام المبادرة والسيطرة على المعركة، خاصة إذا روعيت قواعد أمن الزمان، وأمن المكان، وارتفع مستوى سرعة الحركة.

لقد أثبتت تجربة حزب الله في لبنان في حرب تموز/يوليو أن مراعاة توفير أمن القـــيادات ومـــواقعها وأمن الصواريخ واستخدامها في أثناء المعركة، وأمن الأنفاق وتمـــويهها وأمـــن القوات وأسلحتها وحركتها وإخفائها مع استمرار فعاليتها في مواجهة التقنية الحديثة في الكشف والاستطلاع إلى جانب شل فعل الاستخبارات في الخـــرق وجمع المعلومات، قد لعب دوراً حاسماً في إبطال التفوق الجوي وإرباك الهجوم البري وإسقاط نظرية حرب بخسائر بشرية في الحد الأدنى (إسقاط مبدأ أمن القوات في تخطيط العدو).

4 - مبدأ الحركة

يشمل هذا المبدأ تأمين حرية الحركة وسرعتها وسريتها وحمايتها - أمنها - وامتلاك زمام المبادرة. وهو يشمل الحركة الاستراتيجية والحركة التكتيكية.

كان السرّ في كل استراتيجية نابليون وتكتيكه يتركز أساساً في مبدأ الحركة. أما المعركة الحاسمة، فكانت قمة هذه الحركة لتحقيق الهدف. وعندما قسم قواته إلى فـرق وأقســام على كل منها قيادة ذات استقلال ذاتي، وجعلها تتحرك باتجاهات مخـــتلفة، كـــان يرمـــي إلى التحرك بسرعة متزايدة ومضاعفة قواته والتعويض عن نواقصها بسرعة الحركة والزحف.

إن الحركة في الحرب لا تقاس بسرعة حركتك الآلية، وإنما تقاس بالمقارنة مع حــــركة العدو، وهذا يعني إن الحركة في الحرب هي العمل بأسرع مما يعمل العدو. إن المقدرة على التحرك هي الجوهر لأن التحرك في الحرب ليس مقيداً فقط بالمسافة والطـــرقات ووسائط النقل، وإنما أيضاً بحركة العدو وإجراءاته لمنع تحركك... إنها تعني في حالة الوضع القتالي المتجمد امتلاك إمكان الحركة.

كتبت سون تسو في "فن الحرب": "الحرب هي ما يجعل للسرعة أهم اعتبار. وهو أن تفيد من كل ما هو في غير متناول العدو. وتسلك الطرق التي لا يتوقع فعل سلوكها وأن تهاجم حيث لم يجرِ استعداداً".

عندما حبذ جوميني التحرك بطابورين متوازيين، أو أكثر، والعمل على الخطوط الداخلية استهدف الوصول إلى نقطة الهدف، بصورة أسرع، من الزحف بكتلة واحدة عن طريق واحد. وهنا ينطبق على اللوجستيقا التي يجب ألاّ تقل حركتها في الحرب الحديثة عن حركة القوات نفسها.

كثيراً ما أسيء فهم استراتيجية "الخطوط الداخلية" بحيث فهمت على أساس القيام بعمليات في منطقة معينة، بينما تتعلق أساساً بتأمين المقدرة على تحريك القوات إلى أية نقطة في جبهة القتال العريضة.

عندما كانت الحركة مرتبطة بسرعة سير المشاة على الأقدام كان من المنصوح به استراتيجياً قيادة العمليات من داخل جبهة محدودة ضد عدو منتشر حول محيط منظور، لأن إمكان نقل القوات والاحتياط وتأمين اللوجستيقا تصبح أكبر – جوميني – ولكن هذا المفهوم الجغرافي حول حركة الخطوط الداخلية أصبح معطلاً حداً للمناورة مع تطور النقل الآلي السريع والطيران. لذا فقد أصبحت استراتيجية الخطوط الداخلية تعامل اليوم بصورة نسبية، وضمن الغطاء الجوي والصاروخي. لأن الخطوط الداخلية تحدد اليوم بمقاييس النقل الآلي والبحري، وقبل كل شيء النقل الجوي. ولكن لا بدّ من التمييز هنا بين الحركة الاستراتيجية والتكتيكية، مثلاً قوات المظلات، أو على الأصح القوات المحمولة بالطوافة (الهيلوكبتر)، لها قوة حركة استراتيجية أكثر من قوة حركة تكتيكية، بينما تمتلك المشاة في منطقة جبلية قوة حركة تكتيكية وليس استراتيجية، في حين تمتلك القوة الآلية المحمولة الأرضية قوة حركة تكتيكية أكبر، إلى جانب درجة ما، من قوى الحركة الاستراتيجية.

لذلك على القائد الاستراتيجي، في تخطيطه للعمليات، أن يحدد لكل سلاح سماته الخاصة لمواجهة متطلبات مبدأ الحركة على حدّ تعبير باليت.

إن الحرب الحديثة جعلت القوات الآلية الضخمة تتطلب دعماً لوجستيقياً دائماً. لذلك فإن إمكانات التحرك تعزز إلى حدّ كبير في مرحلة التخطيط قبل

توزيع القوات في ميدان المعركة. لذلك فإن الجمع الصحيح بين الأجزاء المكملة لبعضها: التشكيلات التي يجب تبنيها، وتوزيع المحمولات، والنقل، ووضع نقاط الاتصال وعلاماته، وتنظيم غرفة العمليات كلها عوامل تخطيطية تزيد من مرونة التنفيذ وبالتالي الحركة - (باليت).

عندما ارتبكت القوات البرية الإسرائيلية أمام دفاعات حزب الله في حرب تموز/يوليو 2006 ارتبكت حركة اللوجستيقا. ثم أدى ارتباك حركة اللوجستيقا إلى مزيد من ارتباك القوات البرية. وهو ما أطلق نقداً داخلياً حول الخلل في خطة حركه اللوجستيقا والقوات (تقرير فينوغراد). ولكن هذا ما كان ليظهر لولا اصطدامه بصمود وقتال غير متوقعين ودفاع مفكر به جيداً.

لقد أصبح مبدأ الحركة في عصر الحركة الآلية فائقة السرعة لا يأخذ كالسابق صفة التحرك بأسرع من عدوك فحسب، وإنما أيضاً، صفة صراع مباشر بين الطرفين لعرقلة حركة الآخر، أي لم يعد عملية (سباق) فحسب، وإنما أيضاً عملية "عرقلة" أيضاً، ومنع العدو من الحركة، خصوصاً، وإن مسألة الخطوط الداخلية أصبحت مكشوفة دائماً للطيران، ولهذا غدا وجود غطاء جوي، في حروب الأسلحة التقليدية، مسألة حاسمة بالنسبة إلى حركة القوات الآلية على الأرض كما في البحر. هذا فضلاً عن تحول وسائط النقل الجوي إلى المقام الأول في نقل القوات الأرضية وفي عمليات اللوجستيقا... لقد أصبح امتلاك حرية الحركة بالنسبة إلى قوة آلية يتوقف على السيطرة الجوية. ولكن الدفاع المستميت في العمق وفي كل النقاط الممكنة يعيق حركة حرية قوات العدو حتى لو امتلك السيطرة الجوية وسرعة الحركة الآلية البرية (تجربة السوفيات في الحرب العالمية الثانية) لأن الصدام مع العقد الدفاعية يعوّق حركته، كما أن تجاوزها يشكل خطراً على المؤخرة والجانبين بسبب انتقالها إلى مهاجمتها مما يربك بدوره الحركة السريعة والآمنة.

إن مبدأ الحركة كأي مبدأ آخر تحكمه قوانين مختلفة سواء أكان من ناحية حركة كل سلاح، أم من ناحية نوع الحرب وطبيعتها وظروفها. ولكن يبقى تأمين الحركة - هويتها سرعتها وأمنها وقوة مناوراتها الاستراتيجية والتكتيكية - مسألة حاسمة في كل حرب.

كان ماوتسي تونغ قد طرح موضوعة هامة حول الحرب المتحركة في الحرب الثورية: "لا توجد خطوط جبهة ثابتة، إن خطّ الجبهة حيث يمكن الانتصار، قاتل عندما تكون قادراً على الانتصار، تحرك بعيداً عندما لا تكون قادراً على الانتصار. إن الحركة في خطوط الجبهة تعني الحركة في كل شيء، بما في ذلك طريقة بناء القواعد"... "إنه لمن الضروري صرف أكثر الوقت في الحركة، لا في القتال، ولكنها حركة من أجل القتال. إن الحرب المتحركة تشمل مسائل: الاستطلاع، الحكم، القرار، توزيع القوات، القيادة، الاختفاء، التركيز، الزحف، التوزيع، الهجوم، الملاحقة، الهجوم المفاجئ، هجوم على المواقع، الدفاع عن المواقع، أعمال مضادة، انسحاب، قتال ليلي، عمليات خاصة، تجنب القوي وضرب الضعيف، محاصرة العدو لضرب تحصيناته، هجمات تضليلية، الدفاع ضد الطائرات، العمل بين قوات العدو، عمليات تخطي، عمليات تنفيذ، عمليات بدون مؤخرة، الحاجة للراحة وتجميع النشاط والقوى".

وكتب محمد شيخو في "حرب التحرير في ألبانيا" حول أهمية الحركة لقوات الغوار: "وتكمن المناورة في طريقة تحريك قواتنا لتوجيه هجوم مفاجئ على العدو، والمحافظة على زمام المبادرة بأيدينا، وذلك بمهاجمته في الوقت والزمن والأسلوب الذي نريد"... "دلت تجربتنا على أن تلك التشكيلات التي استخدمت المناورة باعتبارها عنصراً تكتيكياً ذا أهمية رئيسة قد أحرزت عدة نجاحات، بينما كان الحال مختلفاً بالنسبة إلى تلك التشكيلات التي أهملت استخدام المناورة إذ تجمدت وأصبحت في الوقت نفسه هدفاً سهلاً للعدو وتكبدت خسائر كبيرة".

إن الفرق بين حرب الغوار، وبين الحرب النظامية بين جيشين، فيما يتعلق بمبدأ الحركة، أن الجيش النظامي، خصوصاً الحديث، يسعى إلى امتلاك الحركة على مستوى استراتيجي، أساساً، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتأمين حركته التكتيكية، في حين تسعى حرب الغوار امتلاك حرية الحركة التكتيكية، بينما تأخذ حركتها الاستراتيجية طابع الاختفاء والزوغان في إحباط الحركة الاستراتيجية لجيش العدو.

تستهدف الحركة سواء أكانت انسحاباً، أم زحفاً، أم توزعاً، أم تركيزاً، جعل الوضع في الهجوم أو الدفاع في مصلحتك أو استعادته ليصبح في مصلحتك.

ملحوظة: إن المبادئ الأربعة السابقة – التركيز، والاقتصاد بالجهد، والأمن، والحركة، – تحتاج إلى مهارة فائقة في إقامة التوازن الدقيق[1] بينها أي أن طريقة، ونسب الأخذ، بهذه المبادئ، أو القوانين، ومراعاتها مسألة متحركة تحكمها الظروف المعطاة في كل حالة، فمثلاً يجب إبقاء القوة الرئيسية – حين تكون في الدفاع – غير مشتبكة في المراحل الأولى، لأن إشراك العدد الأكبر من الاحتياط يجب أن يتمّ بعد أن تتضح اتجاهات المعركة، ويبين الاتجاه الرئيس لخطة العدو. ولكن المناورة والحركة الضروريتان في المرحلة الأولى قد تتناقضان مع التركيز المطلوب في المرحلة الثانية، لذا فإن إحداث التوازن الصحيح بين هذه القوانين في كل مرحلة من مراحل التخطيط والحركة والمعركة، وفي داخل كل مرحلة، يشكل المعضلة الأساسية بالنسبة إلى القائد. أما إيجاد الحلّ الصحيح لتلك المعادلة في كل حالة فهو ما يميّز القائد العسكري الناجح عن القائد الفاشل.

إن التركيز في منطقة في البداية يجعل إعادة التوزيع وإحداث التغيرات – امتلاك حرية الحركة – عملية متأخرة جداً في حالة نشوء وضع جديد بعد الضربة الأولى أو الاختراق، أو قطع طرق المواصلات، أو ضرب المطارات. ومن هنا فإن درجة توزيع القوات وتركيزها وتعيين الوقت المناسب لإحداث التغييرات الضرورية، وتغيير نسب أهمية كل مبدأ من تلك المبادئ هو ما يمكن تسميته بحيوية (ديناميكية) عمل المبادئ الأربعة، تلك المبادئ المترابطة والمؤثرة في بعضها البعض، فمثلاً من الصعب مراعاة مبدأ الحركة إذا لم يراعَ مبدأ الأمن، كما من الصعب مراعاة الأمن إذا لم يمتلك مبدأ الحركة، وكذلك الحال بالنسبة إلى التركيز أو الاقتصاد بالجهد. هنا أمامنا عناصر متناقضة متشابكة متداخلة مترابطة ضمن

---

(1) استخدم في النسخة الأولى جرياً وراء شائع، أو مطاً لاستخدام كلمة "ديالكتيك" تعبير "التوازن الديالكتيكي" فيما منهج إقامة التوازن بين متناقضات أو متفارقات ليس له مكان في مبادئ الديالكتيك المتعلقة بصراع الأضداد ونفي النفي أو التغير من الكم إلى الكيف أو الترابط بين الأشياء، ومن هنا استخدم الآن "إقامة التوازن الدقيق" لأنه أكثر انطباقاً على المنهج المطلوب في التعاطي مع متناقضات أو متفارقات أو متكاملات.

وحـــده، ولا بـــدّ من حلّ معادلتها كل مرة حلاً صحيحاً من خلال إقامة التوازن الدقيق في ما بينها، حسب الظروف المعطاة في كل حالة ومرحلة.

5 – مبدأ الهجوم (الدفاع)

مـــا من مبدأ أسيء فهمه مثل مبدأ الهجوم، وما من مبدأ عبد كما عبد مبدأ الهجوم في الحرب. ولهذا لا بدّ من دراسة هذا المبدأ دراسة متأنية هادئة.

ثمة شكلان أساسيان للحرب: الهجوم والدفاع.

عندما قارن كلاوزيفتز بين الهجوم والدفاع قال إن الدفاع لا بدّ من أن يكون هو "الشكل الأقوى في الحرب"، والدليل على ذلك أن الجانب الأضعف يلجأ إليه دائمـــاً من أجل التعويض عن تفوق الأقوى عليه، لذلك فالدفاع، منطقياً، يتضمن الشكل الأقوى للحرب.

إذا كـــان كلاوزيفتز صاحب الاستراتيجية المباشرة يقول هذا الكلام فجدير بعبدة الهجوم التقاط أنفاسهم قليلاً، والتفكر بعض الشيء. ولكن كلاوزيفتز يسلط الـــنار على الجانب السلبي في الدفاع، بالرغم من أنه الشكل الأقوى، لأن الهجوم يحمـــل جانباً إيجابياً يفتقر إليه الدفاع. وذلك على الرغم من أن الهجوم هو الشكل الأضعف – لاحظ العقل التركيبـــي في تفكير كلاوزيفتز – ولهذا طالب أن يضع الدفاع نصب عينيه الانتقال إلى الهجوم لأن "التحول سريع الزخم إلى الهجوم" هـــو، برأي كلاوزيفتز، "أعظم نقطة عبقرية في الدفاع". ويقول إن الامتحان الحقيقي لعبقرية القيادة تكمن في اكتشاف "نقطة التحول" التي تنقلب فيها كفتا الميـــزان، أي بعـــد أن يتصدع الهجوم أمام الدفاع، وهنا يجب أن يشنّ الهجوم المضادّ السريع.

على أنه من الممكن أن يضاف، على طريقة كلاوزيفتز، أن الهجوم هو العنصر الحاســـم في القتال، أو قل عنصر النصر، بدليل أن الأقوى يلجأ إليه من أجل سحق الأضعف وتحقيق النصر. ولهذا يجب فهم جوهر مبدأ الهجوم الذي يقف على رأس قـــواعد الحرب في كل التعليمات الميدانية في كل الجيوش، لأن الدفاع يستطيع أن يـــصدّ هجـــوماً ويستطيع أن يصدع هجوم العدو، ولكنه لا يكسب حرباً إلاّ إذا تحول إلى هجوم مضادّ في اللحظة المناسبة.

إن نابليـــون الذي اشتهر بعملياته الهجومية حتى عندما كان في حالة الدفاع كتب يقول: "إن كل فنّ الحرب يتضمنه الدفاع المفكر به جيداً، والمحسوب من كل جوانبه، يتبعه هجوم سريع مقدام".

إن الموقـــف الخاطـــئ في عـــبادة الهجوم في كل الحالات، وبغضّ النظر عن إمكانات الدفاع انعكس في لوحة تعليمات الميدان الفرنسية لعام 1921 إذ اعتبرت أعـــذ موقف الهجوم هو القانون المطلق بالرغم من الدروس القاسية التي تلقتها مثل هذه العقلية في الحرب العالمية الأولى. وكان المارشال الفرنسي فوش (فيردناد 1852 - 1929) قـــد اعتـــبر أن علـــى القائد أن يأخذ موقف الهجوم مهما يكن الوضع التكتيكـــي أو الاستراتيجي. وقد وقع بمثل هذا الخطأ كثير من الماركسيين وبعض القـــادة العـــسكريين الـــسوفيات في حروب التدخل وفي الحرب العالمية الثانية، إذ عالجـــوا مـــبدأ الهجوم بروح تجريدية ومالوا إلى تأليهه وعبادته. لقد أخطأ تلامذة نابلـــيون في فهم نابليون فيما يتعلق بمسألة الدفاع والهجوم في الحرب، كما أخطأ تلامـــذة مـــاركس ولينين في فهمهما حين قالا إن الهجوم يجب ألاّ يتوقف لحظة واحـــدة عـــندما تندلع الثورة المسلحة، وان الدفاع هو موت الثورة المسلحة. إن نظرية ماركس في هذه الحالة صحيحة تماماً، وقد أكدها لينين نظرياً وعملياً مرتين في ثـــورتي 1917. ولكـــن جوهرها مرتبط بشروط، وحالة خاصة، وهي اندلاع الـــثورة العامـــة في ظروف تؤخذ فيها الطبقة الحاكمة على حين غرة. وهنا يجب الاندفاع الهجومي الزخم للإجهاز عليها، ومن دون إعطائها فرصة التقاط الأنفاس، وإعـــادة تنظـــيم صفوفها. ولكن هذا لا يعني عبادة الهجوم في كل حالات الحرب خصوصاً، إذا كان العدو مستعداً والقوى غير متفوقة تماماً، فحالة الثورة العامة غير حالـــة الحرب. وقد بنى لينين الاستراتيجية العسكرية للاتحاد السوفياتي في حروب الـــتدخل على أساس الدفاع واستيعاب هجوم العدو ثم الانتقال إلى الهجوم المضاد، وقـــد عـــنف "اليـــساريين" الطفوليين لعدم إدراكهم مغزى توازن القوى في تقرير استراتيجية الحرب.

إذا كان من الخطأ عبادة الهجوم وتأليهه في كل الحالات وبمعزل عن الظروف المعطاة، فإن من الضروري اعتباره هدف كل حرب، سواء أبدأت دفاعية، أم كان

بالإمكـــان الــبدء بهجـــوم استدراجي ثم الارتداد للدفاع لتصديع هجوم العدو ثم الانـــتقال إلى الهجــوم المضادّ النهائي. إن مبدأ الهجوم هو مبدأ الحسم في الحرب، ويجـــب أن يكـــون نصب الأعين، كما يجب تعبئة القوات والقادة بروح المهاجمة وضرورة شنّ الهجوم ولكن عندما تكون الظروف المعطاة والفرصة متهيئتين.

لا يجـــوز التقلـــيل مـــن مزايا الدفاع وأهميته، خصوصاً، مع تطور الأسلحة الحديـــثة، ويكفـــي أن نتذكر أن أعظم المعارك كسبت في الحربين العالميتين الأولى والثانـــية بعـــد معركة دفاع باسلة تحولت إلى هجوم مضادّ شامل ألهى الحرب في مـــصلحة الـــذين كانـــوا في الـــدفاع - وسنتعرض لهذه الناحية تفصيلاً في فصل التكتيك.

إن الـــدفاع الـــسلبي هو الموت للجانب الذي يتبناه. أما الدفاع الإيجابي والمفكـــر بـــه جيداً، والمشرب بالهجمات المحدودة، ثم الذي يتحول إلى هجوم مـــضادّ هـــو حاســـم في الحروب الحديثة (بين الجيوش) التي لا تستخدم فيها الأسلحة النووية.

الدفاع السلبي: هو أن تقوي التحصين، وتربض وراءه، لتردّ هجمات العدو دون أن تفكـــر بالتحول إلى الهجوم المضادّ في اللحظة الحاسمة. أما الدفاع الإيجابي فهو الذي تتخلله اشتباكات حاسمة وهجمات صغيرة، إلى جانب التحصين القوي، ويكون هدفه تصديع هجمات العدو من أجل الانتقال إلى الهجوم.

طـــبعاً هذا لا ينطبق على المقاومة الشعبية أو عندما يكون العدو متفوقاً جداً. فالدفاع الإيجابي في هذه الحالة يكون في الهجمات المحدودة ولكن من دون الانتقال إلى الهجـــوم العام. وهذه تجربة المقاومة الفلسطينية وقطاع غزة وحرب تموز/يوليو 2006 والمقاومة في العراق ومن قبل المقاومة في قبرص وفي الجزائر.

مـــا مـــن عسكري إلاّ ويرفض الدفاع السلبي، ولكن في المقابل ما من عسكري حصيف يمكن أن يرفض الدفاع مبدئياً ويتخذ موقف الهجوم دائماً في كل الحالات.

كـــتب ماوتـــسي تونغ في دحض الأفكار التي تقول إن الهجوم الاستراتيجي متفوق على الدفاع الاستراتيجي بحجة أن الدفاع يهزّ المعنويات، أو أن الهجوم يهزّ معنويات العدو:

"تحت شعار الدفاع عن مناطق القواعد الثورية والدفاع عن الصين نستطيع تعبئة الأغلبية العظمى من الشعب لتقاتل بقلب واحد، وعقل واحد، لأننا مضطهدون وضحايا العدوان" ثم ضرب أمثلة كيف أن الاتحاد السوفياتي خاض الحرب الأهلية تحت شعار الدفاع عن السوفيات وكذلك كيف تمّ التحضير لثورة أكتوبر والتعبئة العسكرية تحت شعار الدفاع عن العاصمة، ويقول "إن موقف الدفاع، في كل حرب عادلة، لا يخمد عوامل الاغتراب سياسياً فحسب، وإنما أيضاً، يجعل من الممكن حشد الأقسام المتخلفة من الجماهير للانضمام للحرب".

التركيز هنا على الجانب السياسي وأهمية الدفاع السياسي في الصمود والحشد والتعبئة وعزل العدو سياسياً. أما على المستوى العسكري فالعلاقة بين الدفاع والهجوم تتوقف على ميزان القوى والظروف المعطاة.

إن مبدأ الهجوم يستهدف الإقناع بضرورة الهجوم وتشريب الجيش بروح المهاجمة لأن الدفاع لا يحقق نصراً، ولكنه لا يعني رفضاً للدفاع من حيث أتى. ولا يعني عدم اتخاذ موقف دفاعي في البداية للإفادة من ميزات الدفاع تمّ التحويل إلى الهجوم المضادّ في اللحظة الحاسمة.

في الواقع، إن عبادة الهجوم تعني رفض حرب الغوار والمقاومة والحرب الشعبية والحرب المتحركة ضمن الدفاع الاستراتيجي لأن هذه الحروب، في الجوهر، لها طبيعة دفاعية استراتيجياً، ودفاعية هجومية تكتيكياً، إذ إن ضرورة الحركة المستمرة في حرب الغوار أو في المقاومة أو الحرب المتحركة ضمن الدفاع الاستراتيجي تستهدف أول ما تستهدف الإفلات من هجمات العدو وتطويقاته، أي هي شكل من أشكال الدفاع شديد الحركة والإيجابية، وبقدر ما تنجح هذه العملية - الدفاعية في الجوهر - بقدر ما تنفتح آفاق واسعة للهجمات التكتيكية التي هي الجوهر الثاني القرين بالحركة الدفاعية، أو على الأصح، الدفاع المتحرك أو الدفاع الإيجابي. وهذا ينطبق في حالة الدفاع العميق. لأن ترك المواقع هو ما يريده العدو لكي يتقدم بأمن وبأقل ما يمكن من المخاسر، كما حدث في حرب 1978 في لبنان وصولاً إلى الليطاني. وبالطبع نظرية الدفاع العميق في نقاط أساسية مسألة خاضعة لمجموعة شروط تقررها. ولكنها استراتيجية أثبتت جدواها بقدر ما أثبت القتال الفواري جدواه في كثير من الحالات.

أمثلة ونماذج

أولاً: ثمـــة سلـــسلة مـــن أشكال الهجوم تستخدم في مختلف الحروب بطرق متعددة وفقاً لقوانين كل حرب، ويمكن إنجازها:

- الهجوم المباشر على نقطة أو موقع أو جبهة حيوية بهدف امتلاك زمام المبادرة وحرية الحركة، ولكن هذا الهجوم يشترط وجود قوة هجومية متفوقة.
- الهجـــوم المضادّ بعد تصديع هجوم العدو ويمكن تطبيقه على مستوى معركة محدودة، ومستوى جبهة واسعة، ومستوى الحرب ككل، ولكن الشيء الحاسم هـــنا هـــو حسن الاحتفاظ بقوة احتياطية خلف الخطوط الدفاعية المشتبكة، وحـــسن تقدير اللحظة المناسبة لشنّه، وهذه القضية تختلف من حرب لحرب، فمثلاً وضع ماوتسي تونغ ستة شروط للتحول من الدفاع إلى الهجوم المضادّ في ظروف الحرب الثورية في الصين.
  1. الجماهير تؤيد جيش الشعب تأييداً قوياً.
  2. كل القوات الرئيسية في الجيش الأحمر مركزة.
  3. الأرض مناسبة للعمليات.
  4. اكتشفت نقاط ضعف العدو.
  5. أصبح العدو في وضع منهك، ومحطم المعنويات.
  6. أغري العدو على ارتكاب الأخطاء.
- الهجوم المفاجئ: ويتمّ إما في وقت لا يتوقعه العدو، أو في نقاط غير محمية، أو ضعيفة جداً لا يتوقع العدو أن يشنّ الهجوم عليها. ويستهدف ضعضعة تماسك العدو وتحطيم معنوياته.
- الهجـــوم التضليلي: ويتمّ عن طريق تهديد نقطة هشة من نقاط العدو من أجل إجـــباره على اتخاذ إجراءات لتقوية نقطة التهديد مما يضعف النقطة الأساسية التي يراد اكتساحها. ولكن يشترط هنا أن تكون نقطة التهديد التضليلي ذات أهمية خاصة بالنسبة للعدو.
- الهجوم الخداعي: ويتمّ عن طريق تنظيم قواتك واتجاهاتك بصورة تظهر للعدو على عكس حقيقة السير العملي الذي ستتخذه، من أجل خلق جو عدم تأكد

لدى العدو لجعله يتخبط في الظلام، في حين تمضي لتحقيق الأهداف المحددة.

- الهجوم الاختراقي: تحطيم نقطة أو نقطتين في خطّ الدفاع، وإلحاق ذلك باختراق من قبل قوة تمثل جزءاً فقط من قواتك المهاجمة، ونقل العمليات - إذا كانت على نطاق جبهة واسعة - إلى ما وراء خطّ الدفاع لقطع خطوطه الداخلية وإحكام الحصار عليه، ومن ثم سحق قواته الرئيسة أو فرض الاستسلام. أو نقل القتال إلى داخل تحصينات الدفاع في حالة معركة، وإشغال الدفاع في قتال داخلي مع قوة الاختراق، بينما تتقدم القوات الرئيسية المهاجمة لاكتساح مواقع الدفاع الأمامية، والسيطرة على المعركة.
- هجمات الاستنزاف: وتتمّ عن طريق مهاجمة مجموعة من النقاط، وفتح جبهات ثانوية للعدو، من أجل إنهاك مصادره وقواته في الدفاع عن نقاط ضعف مستعددة. ولكن هذه العملية في حالة ممارستها في حرب بين دولتين، تقتضي أن تكون مصادر الذي يخوض حرب الاستنزاف أقوى من مصادر خصمه، لأن عملية الاستنزاف في الواقع سيف ذو حدين لأنه يستنزف الطرفين. أما بالنسبة إلى حرب غوار أو مقاومة أو حرب ثورية متحركة ضمن دفاع استراتيجي فتشترط وجود تأييد ودعم شعبي قوي جداً، أو متعاظم أبداً.
- هجوم استدراجي: ويتمّ من أجل إغراء العدو على شنّ هجمات على نقاط محصنة جيداً متفوقة على الهجوم، أو لإغرائه على الملاحقة لإيقاعه بمصائد معدة سلفاً.
- العودة إلى الهجوم المباشر والمفاجئ والاختراقي: ويتمّ في حالة انسحاب العدو من الاشتباك بقصد إعادة تنظيم صفوفه من أجل استعادة المبادرة وحرية الحركة. وذلك لحرمانه من استعادة الوضع القوي، وملاحقته.
- الهجوم عن طريق الالتفاف على الأجنحة، ويشترط توفر السرعة وقوة كافية.
- الهجمات الصغيرة المحدودة المفاجئة لعدو متفوق مهاجم وهو يستريح أو يتحرك أو ينسحب. وقد مورست من قبل المقاومة في حرب تموز/يوليو 2006

في لبنان ممارسة ناجحة أشاعت الذعر في صفوف بعض المهاجمين كما لو كانوا يواجهون "أشباحاً".

ثانيـاً: ثمـة سلسلة من الأشكال الدفاعية تستخدم في مختلف الحروب يمكن تلخيصها:

- الخطوط الدفاعية الثابتة: وتتمّ عن طريق مدّ خطّ دفاعي متماسك كثيف ولا بـدّ من توفر احتياط متحرك يستطيع الانتقال إلى أية نقطة يتهدّدها هجوم كثيف أو يتمّ اختراقها، نجح في الحرب العالمية الأولى ولكنه سقط في الحرب العالمية الثانية ولم يعـد شـكلاً منصوحاً به الآن إلاّ في المناطق الصغيرة المساحة مع توفر كثافة شديدة بالقوات والنيران. ومع ذلك فشل هذا النمط الدفاعي الإسرائيلي على الجبهتين المصرية والسورية في منع الاختراق في حرب تشرين 1973.
- الـدفاع العمـيق: ويتمّ عن طريق شبكة من النقاط الدفاعية الموزعة جيداً في العمـق، وهذه لا تمنع الاختراق، ولكنها تجعله يتحطم بعد أن يحدث، وتعمد إلى قطعه عن الاحتياط، خاصة حين يصطدم بإحداها، ولا تلجأ إلى الدفاع الثابت إلاّ في نقـاط محـددة لأنهـا تعتمد أساساً على الدفاع الإيجابي الذي يحاول تطويق الاختـراق أو كسر الحصار وشنّ الهجمات المحدودة باستمرار. ولكن هذا الدفاع يتطلب عمقاً واتساعاً في المساحة مع زخم شعبي مدني مؤيد ومشترك بالمقاومة.

إن القـتال الدفاعـي المستميت في نقاط محددة في ظروف مقاومة شعبية ضد جـيش مـتفوق يربك خطة الهجوم ويعرقل حركته. وقد يسمح في ظروف محـددة إلى تحريك رأي عام شعبي واسع يؤثر في مجرى المعركة ونتائجها، كما حدث في معركة مخيم جنين 2002 في الضفة الغربية ومخيم جباليا في قطاع غزة 2008 وفي بنت جبيل 2006 في لبنان.

- الـدفاع المـتأهب المتحـرك: وهذا يتمّ عن طريق حماية مختلف النقاط حماية محـدودة ومؤقتة بينما يعتمد على قوة ضاربة متأهبة يمكن نقلها إلى أية نقطة بسرعة فائقة. وهو يعتمد على القوة الآلية والطيران.
- القتال التراجعي: ويتمّ عن طريق الانسحاب أو الابتعاد عن الاشتباك. ولكنه يشترط أن يتمّ بانتظام، وضمن خطة معينة، ويستهدف تغيير الوضع الذي كان

قائماً في المعركة في مصلحة الطرف المنسحب، مستقبلاً، وقد يتخذ شكل جرّ العـــدو إلى نقاط دفاعية قوية، أو نصب مصيدة له، أو إنهاكه بمطاردة فاشلة لا تصل إلى قرار.

- الـــدفاع التعويضي: وهو التخلي عن نقطة أمام هجوم العدو، والهجوم على نقطـــة أخرى تجبر العدو على التخلي عن هجومه الرئيسي (استراتيجية هنيبعل الذي نقل المعركة إلى إيطاليا).
- الـــدفاع المتحـــرك: وهو إبعاد النقاط التي يمكن أن يهاجمها العدو، عن طريق التحرك المستمر والزوغان من أمامه، أو الإخفاء والتمويه الجيد والسرية اليقظة مـــع هجمات محدودة مستمرة. وهذا الشكل هام جداً في الحروب التي يمتلك فـــيها العـــدو تفوقاً حاسماً مثل حروب الغوار أو المقاومة أو الحرب المتحركة الشعبية ضمن الدفاع الاستراتيجي.
- دفـــاع خرق الحصار: وهو الدفاع الذي لا يستسلم حين يطبق عليه حصار ويـــستمر في المقاومة – حرب دفاع مواقع – إلى أن تسنح فرصة للتركيز على إحـــدى نقاط المحاصرين، وشقها والخروج من الحصار بانسحاب شامل وهنا ينـــتقل إلى الـــدفاع التراجعي، أو تطويق الحصار من الخارج وشنّ هجوم من الداخل والخارج.

هـــذا الـــنمط من الدفاع هو الذي لعب دوراً حاسباً في كسر الهجوم الألماني علـــى الاتحـــاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية. وكان فيه خروج على التقاليد العسكرية للجيوش التي تقول بالتسليم في حالة الحصار وفقدان السيطرة على الجو وقطع طرق الإمداد.

تمـــثل التكتيك هنا في الدفاع وعدم الاستسلام بل وانتهاز فرصة لاختراق الحـــصار. الأمـــر الذي أفقد الهجوم زخمه وأسقط بيده في كيفية معالجة هذه الحالة.

طبعاً إن كل هذه الأشكال الدفاعية يجب أن تتضمن الدفاع الإيجابي الذي يـــضع علـــى رأس أهدافـــه التحول إلى الهجوم، أما الهجوم المضاد الشامل، أو الهجمات التكتيكية المضادة حسب الظروف.

إن العلاقـة بـين الهجوم والدفاع كانت وما تزال علاقة عضوية متداخلة متبادلة الأولوية، وأي فصل تعسفي بينهما هو فصل خاطئ، ويؤدي إلى دمار.

ثالـثاً: على أن من الضروري معرفة مسائل الهجوم والدفاع في ظلّ الأسلحة الـصاروخية النووية، والتطورات الهائلة في كل مجالات الأسلحة والتقنية. ويمكن تحديد السمات التالية:

أ. الهجوم الاستراتيجي: وتستخدم فيه الصواريخ النووية التي توجه ضربات اسـتراتيجية مباشرة، سواء عن طريق الصواريخ الاستراتيجية أو صواريخ القوات الجوية والبحرية، بالإضافة إلى العمليات الاستراتيجية للقوات البرية والطـيران والبحـرية وهـو الشكل الرئيسي للاستراتيجية العسكرية النووية.

ب. الـدفاع الاستراتيجي: وتستخدم فيه صواريخ مقاطعة مسار الصواريخ الـنووية المعاديـة، كما تستخدم فيه قوات الدفاع الجوي على اختلافها، لتدمير الضربات النووية الاستراتيجية المعادية في الجو أو حرفها. إن مهمة الدفاع الاستراتيجي هي مواجهة الضربات الاستراتيجية المعادية.

ج. الدفاع والهجوم تكتيكياً: سوف يتخذ طابع العمليات للقوات التكتيكية البرية طابع الهجوم والدفاع حسب الظروف، كما كان الحال عموماً، مع ملاحظـة السمة المميزة المعاصرة للقوات التكتيكية، أي الدور الأساسي الـذي سـيلعبه الطيران ووحدات الصواريخ والوحدات المدرعة والآلية، وكذلك السرعة الهائلة في الحركة. الأمر الذي قد يتضمن استخدام أسلحة نووية صغيرة، بحجم موضعي محدود.

وأخيراً، على الرغم من أن غالبية المنظرين العسكريين لمرحلة الأسلحة النووية يستبعدون إمكان أية عمليات برية في ما بين جيوش نووية. إلاّ أن هيئات الأركان استمرت على إعداد جيوشها لمواجهة حرب نووية وبرية ولم يزل هذا النهج سارياً حـتى بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة. ولكن ثمة مطالبة واسعة بإعادة النظر حوله. وذلك باعتبار أن التحدي الذي يواجه جيوش الغرب في مكان آخر، كما يحدث في العراق وأفغانستان ولبنان وفلسطين.

6 - مبدأ المفاجأة

ليس لهذا المبدأ نمط خاص في التطبيق، أو على الأصح، ليس له صورة واحدة، إنه يعني أنك حين تصمم خطّة هجومية، أو دفاعية، عليك أن تراعي عنصر المفاجأة فيها لأنه يعطي فرصاً أكبر للنجاح، وكثيراً ما يعوض عن نقاط الضعف سواء العددية أو السلاحية أو التقنية، ولعل أهم ما فيه أنه يضعضع توازن العدو، وتماسكه، ويجعل الاضطراب يدب في صفوفه وعمله وعقله.

كثيرون يفهمون مبدأ المفاجأة بشنّ هجوم في وقت غير متوقع، أو على نقطة غير متوقعة فقط. إن هذا المفهوم يعطي جانباً واحداً من هذا المبدأ الذي يعني في الجوهر استخدام أي عنصر غير متوقع تفاجئ العدو به، وهذا ينطبق على كل المستويات من أكبر خطة استراتيجية إلى أبسط حركة تكتيكية، وينطبق على الدفاع كما على الهجوم، وعلى كل أشكال الحروب.

بيد أن مدى نجاح عنصر المفاجأة المقترح يتوقف على طريقة تنفيذه وسرعتها بحيث لا يعطي العدو فرصة أخذ الاحتياطات، أو الإجراءات المضادة، في الوقت المناسب. فمثلاً إن سرعة التعبئة للجيش، والتحرك الحاسم المدقيق قبل إعلان الحرب، أو في أثناء الحرب، وسرعة تنظيم القوات ونقلها من نقطة إلى أخرى كل هذه عوامل تحقق المفاجأة الاستراتيجية. وإن اختيار أسلوب غير متوقع لضرب الهدف أو طريقة مهاجمته أو اختيار نقطة غير متوقعة أو وقت غير متوقع أو استخدام سلاح جديد أو تكتيك جديد، أو إدخال مفاجآت في أثناء الاشتباك وكذلك طريقة استخدام الاحتياط، ومختلف الخدع، هي وسائل مختلفة لتحقيق المفاجأة في المجال التكتيكي. فهنالك أنواع كثيرة لتحقيق المفاجأة، أو قل أنواع المفاجأة: (1) بالزمان (2) بالمكان (3) بنوع السلاح (4) بالأسلوب (5) بالأمن والسرعة والحركة والتركيز والمبادأة والتمويه وبناء المقاتل.

إن إدراك مبلغ أهمية مبدأ المفاجأة، كمبدأ أساسي في كل حرب، يتطلب الحماية من مفاجآت العدو لك، وهذا يجب أن يقف على رأس الاعتبارات في تخطيطك. لأن الاحتياط سلفاً لمفاجآت العدو التي بنى عليها أملاً كبيراً، وإحباطها يشكل عملية مفاجأة للعدو تجعل الوضع ينقلب في مصلحتك. لذا يجب على

القائــد أن يفكر سلفاً بكل الاحتمالات المتوقعة التي يمكن أن يلجأ إليها العدو بل ويحتاط لغير المتوقع ما أمكن.

يقــول مولتكـــي: "ألاحظ أن هنالك دائماً ثلاث طرق مفتوحة أمام العدو ولكنه يأخذ عادة الطريق الرابع".

من هنا فإن ميزة القائد البارع أن يحسب للطريق الرابعة التي قد يسلكها العدو بينما يكتشف طريقاً رابعة لخطته لم تخطر ببال عدوه.

وبالمناســبة لم يــسبق لحــرب أن حملت مفاجآت سلبية كما حملت حرب تموز/يوليو 2006 بالنسبة إلى حالة الجيش الإسرائيلي وقيادته وأدائه، أو حملت من المفاجـــآت الإيجابيـــة ما حمله بالنسبة إلى أداء حزب الله على مختلف الصعد. فهي حرب المفاجآت بما يتعدى الشائع في مبدأ المفاجأة.

7 - وحدة القيادة والخطة والتنفيذ

ثمــة أسمــاء كثيرة تعطى لهذا المبدأ، فالأميركيون والسوفيات يسمونه وحدة القــيادة، والإنكليز يسمونه مبدأ التعاون والتنسيق CO-OPERATION كما أن هنالك من يقسمه إلى عدة مبادئ: وحدة القيادة، ووحدة الخطة، ووحدة التنفيذ، ولكن الجوهر واحد مهما اختلفت التسميات والتقسيمات وهو يتلخص:

أ. رؤيـــة كـــل جوانب الوضع المعطى في الحرب، بصورة موضوعية، بحيث تنتهي إلى تقويم واحد متماسك، وقرارات موحدة متماسكة.

ب. وضـــع خطة واحدة متماسكة، وإقامة التنسيق بين كل أجزائها، وكذلك بين مختلف الخطط المتولدة عنها، كما بين مختلف الأسلحة واللوجستيقا والإدارة.

ج. التنفيذ الموحد تحت قيادة واحدة.

إن وحـــدة القـــيادة والخطـــة والتنفيذ تنطبق أهميتها على كل المستويات من مستوى الحرب ككل إلى مستوى العمليات إلى مستوى أصغر معركة، وهي تنطبق على الجيش ككل كما تنطبق على فرقة ولواء حتى الحضيرة.

يقــول ماوتسي تونغ إن العلاقة بين الكل والجزء لا تنطبق فقط على العلاقة بـــين الاستراتيجية والحملة فحسب، وإنما أيضاً بين الحملة والتكتيك وتنطبق على العلاقـــة بـــين فـــرقة وعمليات ألويتها وعلى العلاقة بين عمليات اللواء وعمليات

كتائبه، وعلى العلاقة بين عمليات الكتيبة وعمليات سراياها، وعلى العلاقة بين عمليات السرية وعمليات فصائلها وحضائرها.

ومن هنا على القائد، في أي مستوى، أن ينسق العمل والتعاون بين كل الأجزاء المسؤول عنها ويقودها، ويضمن انسجامها مع الخطة الأعم، لأن مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ ينطبق على كل المستويات.

إن وجود خطط متضاربة على أي مستوى في داخل الجبهة المحاربة يعني دمارها. وإن عدم التنسيق بين الكل والجزء، وبين عمل مختلف الأجزاء يعني فقدان السيطرة على الوضع، وحرمان الجيش من التعاون والتنسيق.

وإن عدم التناغم بين عمل القوات الأصغر مع القوات الأكبر يعني الفوضى.

إن مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ لا يعني المركزية المطلقة بمعنى رفض التقسيمات اللامركزية والمبادرات اللامركزية، وإنما يعني جعل جماع العمل متماسكاً متناغماً موحداً ولكن ضمن مرونة.

ولكن إذا كان التمسك بهذا المبدأ يتطلب الانضباط الصارم والنظام الحازم في داخل الجيش وهو أمر لا غنى عنه في الحرب، ويتطلب خضوع المراتب الدنيا إلى المراتب الأعلى، فإن محتوى الانضباط والنظام يختلف باختلاف طبيعة الحرب التي يخوضها الجيش، أو طبيعة القيادة التي تقود الجيش، حيث نجد مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ يطبق في الجيوش التقليدية.

إن مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ أصبح حاسماً في عصر الحرب النووية، إذ غدا التنسيق الدقيق والبارع ضرورة بين الأسلحة النووية الاستراتيجية والتكتيكية من جهة، والقوات البرية والبحرية والطيران من جهة ثانية.

ولكن في تجارب حروب الغوار وحالات المقاومة والثورات تراوحت بين حالات وحدة صارمة مثل الصين، فيتنام، وحالات تعدد في القيادات والتنظيمات والبرامج، فلسطين، العراق، أفغانستان (في المرحلة السوفياتية). أما لبنان فقد عرف النمطين في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي حيث ساد التعدد. أما بعد ذلك حتى الآن تحت قيادة حزب الله فقد ساد مبدأ وحدة القيادة والخطة والتنفيذ. وكان هنالك تجارب كانت بين هذا وذاك.

8 - مبدأ المحافظة على الهدف

لا يوجد هذا المبدأ في كل التعليمات الميدانية لمختلف الجيوش ولكن التعليمات الميدانية البريطانية، وكذلك المنظرين الإنكليز - فوللر وباليت مثلاً - يشددون عليه ويعتبرونه أساسياً في الحرب.

ينطلق هذا المبدأ من التفريق بين الهدف وبين خطة تنفيذه، إذ أن أي قائد عسكري مهما تكن رتبته، من قائد سرية إلى قائد فرقة يأخذ هدفه - الهدف هنا بمعنى TARGET أو المهمة - من القيادة الأعلى منه، أما الخطة فهي من تصميمه. ولهذا فإن هذا المبدأ يضع المهمة وخطة تنفيذها على مستويين مختلفين من المسؤولية، وكذلك من حيث الأولوية.

لو راجعنا ديناميكية أية حرب، أو عملية، أو معركة، لوجدناها تتألف من أهداف متداخلة، فمثلاً قد يكون أمام حملة لواء هدف واسع، بينما يقسم اللواء هذا الهدف إلى عدة أهداف يوكل تحقيق كل منها إلى كتيبة أو كتيبتين، ثم قد تقسم كل مجموعة هدفها إلى أهداف على مختلف سراياها ضمن العملية الأكبر وكجزء من عملية تحقيق الهدف الأوسع سواء أكان قبيل البدء بالتنفيذ الشامل أم في أثنائه. ولكن كثيراً ما يحدث بعد أن يتلقى كل مستوى هدفه من المستوى الأعلى منه، ويبدأ بوضع الخطة والتنفيذ، أن يجد نفسه مضطراً لتغيير الهدف والخطة إلى هدف وخطة جديدين. وذلك إما لاهتبال فرصة قد سنحت لم تكن متوقعة، وإما لتجنب كارثة محيقة لم تكن منظورة عند تسلم الهدف. ولكن إن كان من الصحيح، عموماً، تغيير الخطة لتلائم الوضع المعطى وتغيراته، إلاّ أن تغيير الهدف هنا قد يعطل كامل العملية الأوسع ما دام ذلك التغيير يتناول هدفاً هو جزء منها. ولهذا يفترض هذا المبدأ عدم تغيير الهدف من قبل المستوى الذي كلف بتحقيقه، لأن مسؤولية التغيير هي من صلاحية المستوى الأعلى الذي حدد الهدف وذلك تجنباً لخلخلة الخطة كلها وتعريضها للخطر.

قد يبدو هذا المبدأ متناقضاً مع المرونة في التطبيق ومعطلاً للمبادرة. لكنه في الواقع لا يتناقض مع تغيير الخطة لمواجهة الوضع الجديد تمشياً مع سائر المبادئ الأخرى التي تشدد على ضرورة المرونة. وذلك لأنه يتشدد في عدم تغيير الهدف

إلاّ ضمن تغيير عام للخطة الأعلى فالهدف هنا جزء من خطة القائد الأعلى من ذلك المستوى، وهو الذي يجب أن يغيره لا القائد الذي كلف بتحقيقه.

ثمة حالات كثيرة لم يراعَ فيها هذا المبدأ، وعلى مستويات مختلفة، حيث وضع هدف جديد وأهمل الهدف المعطى، ولكن بالرغم من النجاحات التي قد يحققها مثل هذا التغيير بحد ذاته، إلاّ أنه قد لا يسهم في تنفيذ الخطة الأوسع والهدف الأكبر، فتكون النتيجة كارثة بالنسبة إلى الخطة الأوسع بسبب هذا التغيير الجزئي في الهدف.

إن تطبيق مبدأ المحافظة على الهدف في الحروب الحديثة التي تتميز بالآلية السريعة والضخمة والحشود الكبيرة واللوجستيقا الهائلة، يحظى بأهمية كبرى، لا سيما، إذا كان مستوى العملية كبيراً، لأن طبيعة التوزيع الآلي للقوات، كما يقول بالسيت، يعطيها صفة قوة الاستمرار، ولهذا فإن أي تغيير فجائي خاطف في الهدف على مستوى عالٍ يؤدي إلى مخاطر.

يترجم هذا المبدأ في حرب الغوار استمرارية العمليات أو المقاومة. لأن التشكيلات الصغيرة، تعمل بصورة شبه مستقلة، وهي التي تحدد فيها أهدافها وتحدد خطتها، ومن ثم تستطيع تغيير أهدافها وخطتها بمرونة كبيرة. ولهذا ترجم مبدأ استمرارية العمليات باعتباره مبدأ المحافظة على الهدف من خلال المواظبة على شنّ العمليات العسكرية ضد العدو دون انقطاع. وقد أكد أنور خوجا ومحمد شيخو على مبدأ المحافظة على الهدف في حرب الغوار من خلال استمرار القيام بالعمليات بالنسبة إلى كل وحدة صغيرة أو كبيرة وهو ما ينطبق على المقاومة وسط الشعب.

9 – مبدأ المبادرة

ينطبق مبدأ امتلاك زمام المبادرة على المستوى الاستراتيجي وعلى العمليات وعلى التكتيك. ويعتبر أساساً في مبدأ حرية الحركة. ولهذا فإن كثيراً من التعليمات الميدانية لا تفرد له بنداً خاصاً لأنها تعتبره جمعاً بين المفاجأة والحركة والأمن والهجوم.

يقول ماوتسي تونغ إن المبادرة ليست شيئاً خيالياً إنها شيء ملموس. ويقصد إن المبادرة في الجوهر هي المحافظة على قواتك وجعلها تمتلئ بالروح القتالية. لذلك

فإن الانسحاب أمام ظروف غير مؤاتية هو عملية مبادرة بالرغم من أنه يبدو في الظاهر تراجعاً اضطرارياً، لأن الانسحاب في تلك الحالة يعني المحافظة على القوات، وكسب الوقت من أجل قهر العدو في النهاية، بينما يعتبر، في المقابل، أن رفض الانسحاب ورفض الارتداد إلى الدفاع في ظروف غير مؤاتية، والإسراع للاشتباك من أجل كسب زمام المبادرة، يؤدي إلى هزيمة وهو شيء سلبي.

إن كسب زمام المبادرة قد يكون بالانسحاب، وقد يكون برفض الانسحاب وفقاً لظروف كل حرب كما قد يكون بالهجوم، وقد يكون بإحباط مخططات العدو، كما قد يكون بمبادرات إيجابية تربك العدو.

قد يفهم من المبادرة أنها عملية البدء أولاً، ولكن هذا شكل من أشكالها وإن كانت بمعناها الواسع تعني حسن التصرف ضمن الحالة المعطاة. الأمر الذي قد يتعارض أحياناً مع التطبيق الحرفي للقواعد أو التعليمات. أما حسن التصرف فقد يكون باهتبال فرصة سانحة غير متوقعة، أو تجنب خطر لم يكن متوقعاً، أو ابتداع تكتيك جديد في معالجة حالة خاصة. ولهذا، من جهة أخرى، فإن كل التعليمات العسكرية تفترض إبقاء فسحة لمبادرة القائد في أثناء التنفيذ، بحيث لا يعمل ضمن خطة جامدة غير قابلة للتعديل والتغيير وفقاً لمبادرته وحكمه الذاتي.

10 – مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة

من المحال في القتال توزيع قواتك على كل النقاط توزيعاً متساوياً، كما أن من المحال أن تهتم بكل القضايا اهتماماً متساوياً.

يقول ماوتسي تونغ: "على القائد بأي مستوى أن يركز على المسألة أو العمل الأهم والأكثر حسماً في كل الوضع الذي يعالجه، وليس على مسائل وأعمال أخرى"... "لا يتقرر الشيء الأهم تجريدياً وإنما وفقاً للوضع الملموس".

إن مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة يترجم في العمليات والتكتيك إلى "مبدأ توجيه الضربة الرئيسة" أي تحديد نقطة أو نقاط (العدد قليل عادة) التركيز والاتجاه الرئيسي لعملك. فقد تكون هذه النقاط أحياناً هي أشدّ نقاط الضعف لدى العدو – عندما يكون متفوقاً استراتيجياً – وقد تكون أحياناً النقاط الحيوية – في حالة

التوازن الاستراتيجي – وقد تكون النقاط القاتلة – عندما تكون أنت تمتلك التفوق الاستراتيجي. وهذا ينطبق أيضاً على المستوى الاستراتيجي كما على مستوى أصغر معركة. فمثلاً في حالة الهجوم على موقع يجب أن تحدد النقطة الرئيسة لتوجيه الضربة الحاسمة.

ويترجم هذا المبدأ في العمل داخل الجيش على أساس تحديد نقطة التركيز كل مرة مثلاً على التدريب، أو على التسليح، أو على التنظيم والانضباط، أو على رفع مستوى الكوادر القائدة، أو على العمل التثقيفي والمعنويات أو العلاقة بالشعب أو الاهتمام بالرأي العام أو على عزل العدو سياسياً.

إن مبدأ تقدير الحلقة الحاسمة، أو تحديد المسألة الأهم، والأكثر حسماً، في كل حالة يشمل الجمع الخلاق بين عدد من المبادئ السابقة وكيفية تطبيقها. ويتولد عنه عدد من القواعد مثلاً: "إنـزال الهزيمة بالعدو على دفعات" إنها جمع بين الاقتصاد بالقوات والتركيز والحركة، أو قاعدة: "توجيه الضربة الرئيسة" وهو جمع بين الاقتصاد بالقوات والتركيز.

هذا ويمكن أن يضاف في هذا العصر مع تطور تكنولوجيا الاتصالات والتكنولوجيا المعتادة لتعطيل الاتصالات، مبدأ **المحافظة على الاتصالات**.

• • •

تجربة الحرب العالمية الثانية والقواعد الأساسية لفنّ الحرب:

أكدت تجربة الاتحاد السوفياتي في الحرب العالمية الثانية على أهمية وحيوية القواعد الأساسية لفنّ الحرب، ولهذا يستحسن ذكرها مع ملاحظة ما أدخل عليها من تطوير نتيجة تجربة الحرب العالمية الثانية (من كتاب تاريخ فنّ الحرب – ستروكوف – الجزء الثاني):

*– مبدأ الجاهزية القتالية الدائمة.

– مبدأ حشد القوى والوسائط على الاتجاهات الحاسمة وقد تمّ ذلك على أساس الاقتصاد في القوى على بقية الاتجاهات إلى أدنى حدّ ممكن.

– مبدأ الانسجام بين القوى والوسائط المتوفرة وبين المهام الموضوعة.

- مبدأ التنسيق العميق للقوى والوسائط.
- مبدأ المفاجأة، وهو ذو أهمية كبيرة جداً في الظروف الراهنة
- مبدأ الفعالية الذي لا يزال يحتفظ بأهمية خاصة في الوقت الحاضر، والذي يضمّ عنصر المبادأة والقدرة على المناورة بالقوى والوسائط.
- مبدأ تحقيق النصر بالاعتماد على الجهود المشتركة لكل صنوف القوات.

ويقول ستروكوف أن هنالك بعض المبادئ الخاصة التي تطورت أثناء الحرب والتي لا تزال تحتفظ بأهميتها حتى في الوقت الحاضر ومنها مثلاً: مبدأ المطاردة الحاسمة، مبدأ تعزيز الخطوط المحتلة، مبدأ تنفيذ الاستطلاع بشكل دائم ومستمر، مبدأ تأمين الفرج والاجناب، مبدأ تأمين الارتباط المستمر".

خلاصة:

إن التطبيق الصحيح لقواعد أو مبادئ فنّ علم الحرب يساعد القائد على خلق وضع متفوق على العدو، أو إلغاء حالة غير ملائمة له، أو تعطيل تفوق العدو، ولكن نجاح هذا التطبيق لا ينفصل عن مجموعة العناصر الإنسانية الأخرى مثل الوعي والشجاعة والتضحية والمعنويات والتنظيم والتدريب والانضباط والقضية التي يقاتل المرء من أجلها. كما لا ينفصل عن وزن القوى المادية المقابلة (حجم القوات، وكثافة النيران، ومستوى الأسلحة والتقنية والحالة المدنية والرأي العام).

إن مفتاح التطبيق الصحيح لقواعد فنّ علم الحرب يكمن في اكتشاف القوانين الخاصة التي تحكم كل حرب وكل حالة داخل الحرب. وهنا يلعب العقل الإنساني أهمية حاسمة في التحليل والتقدير وأخذ القرار المناسب.

على أن المعادلة بين التطبيق الصحيح لقواعد فنّ علم الحرب وبين العناصر الإنسانية ووزن القوى المادية المتقابلة تختلف من حرب إلى حرب، خصوصاً، في ما يتعلق بطبيعة كل من القوى المتحاربة، والهدف الذي تقاتل ما أجله.

الفصل الثالث

التكتيك

التكتيك

- 1 -

مدخل عام

لقد رأينا في غالبية التعريفات للاستراتيجية أن أكثرها عرّف التكتيك مقابل تعريف الاستراتيجية. ويلاحظ من تلك التعريفات أنها متفقة حول تعريف التكتيك أكثر بكثير من اتفاقها أو تقاربها في تعريف الاستراتيجية. وقبل أن نمرّ بها من جديد، يحسن أن نتذكر إن مهمة الاستراتيجية لا تنحصر في بحث مسائل الاستراتيجية كاستراتيجية فحسب، وإنما أيضاً، تختار التكتيك الأنسب وتوجه العمل التكتيكي نفسه، وتقوده ككل، من أجل أن يلعب دوره في الوصول إلى قرار.

دارت التعريفات حول التكتيك:

- التكتيك هو استخدام القوات العسكرية في المعركة.
- التكتيك فنّ قيادة القوات في المعركة.
- التكتيك هو الوسيلة التي بوساطتها تنزل الهزيمة بالعدو في المعركة.
- ساحة المعركة هي مجال التكتيك.
- التكتيك هو فنّ استخدام السلاح والقوات، أو النيران والحركة في المعركة. وذلك بطريقة تجعلهما يمارسان أكبر تأثير.
- علم التكتيك هو دراسة قوانين الحرب في وضع جزئي.

تتفق كل هذه التعريفات على نقطة أساسية، وهي حصر التكتيك في عملية الاشتباك في المعركة، وإن كانت هنالك تعريفات تضمّ له المناورة الاستراتيجية – العملانية – أي تعتبر التكتيك يشمل كل مجال التنفيذ، ولكن هذا المطّ لمجال

التكتيك لا يسهل الدراسة، وإن كان مسوّغاً، خصوصاً، بعد التحام العمليات في التكتيك مع الحروب الحديثة. فقد أصبح التكتيك جزءاً من العملية الاستراتيجية ممهداً لها لتعود بدورها لتمهيد الطريق للتكتيك - كما سنرى في عمليات بليتزكريغ - ولهذا فإن حصر التكتيك في ميدان المعركة نفسها، يجب ألاّ يجعلنا، في العصر الراهن، نمدّ جداراً عازلاً بينهما، وإن كان من الضروري دراسة التكتيك كمجال قائم بذاته مميز عن العمليات، بل إن نابليون نفسه سمّى العمليات، بالتكتيك الكبير تمييزاً لها.

تتناول دراستنا للتكتيك هنا مسائل السلاح، والتشكيلات، والأرض، واستخدام القوات العسكرية في المعركة، خصوصاً، مسألة النيران والحركة في المعركة؛ أو قل جزئيات الحرب تاركين للاستراتيجية كل ما له علاقة بالحرب ككل، مع إطلالة للعلاقة بين العمليات والتكتيك.

إن أية عملية اشتباك هي عبارة عن: بشر، سلاح، تشكيلات وأوضاع معينة بالعلاقة مع الأرض أو قل تشمل عملية الاشتباك أساليب القتال من أجل الوصول إلى الخصم في المعركة والقضاء عليه. أو بعبارات مختصرة عامة: فنّ استخدام القوات المسلحة في المعركة. وهذا يضم طريقة تنظيمها، وتشكيلاتها، وتوزيعاتها، وتركيزها، وحركتها، واستخدام أسلحتها، والتعاون بين مختلف صنوف الأسلحة في الصدام.

ومن هنا فإن التكتيك يتناول مسائل:

1. السلاح وفنّ تحريكه في المعركة، وهو ما يعرف باللغة العسكرية المعاصرة فنّ النيران والحركة.
2. التشكيلات بحيث يتبنى التشكيل الأنسب للقوات في المعركة، وذلك لجعل أسلحتها ومعداتها تستخدم على أفضل وجه، وكذلك قوتها البشرية والعددية.
3. طريقة استخدام أرض المعركة في الجمع بين السلاح والتشكيلات والحركة.

أما تفصيل ذلك:

السلاح:

يمكن تقسيم أنواع الأسلحة منذ أقدم العصور حتى اليوم إلى قسمين رئيسيين:

1. سلاح الصدام، أي سلاح الاشتباك القريب مثل السيف والرمح والحربة.
2. سلاح المقذوفات أي سلاح الاشتباك البعيد مثل السهم والمقلاع والمنجنيق والرصاص والقنابل والمدافع والصواريخ.
3. الدرع والمتراس والخندق والنفق.

ويضاف إليها الوسائط المساعدة مثل الفرس والفيلة والعربات والدبابة والطائرة.

إن سمة أسلحة الصدام أو القتال القريب – وقد أضيف إلى عائلتها في العصر الحديث الرشاشات الخفيفة والمسدس والقنبلة اليدوية – كونها أكثر حسماً لأنها تعني الاشتباك الجسدي الذي يحدد النهاية. إما هزيمة أو نصراً. ولهذا يعتبر هذا القتال مفتقراً إلى المرونة. أما في حالة المقذوفات بعيدة المدى، عدا القنابل النووية، فهي تمتلك المرونة لأنها تعطي القائد وقواته إمكان عدم الاشتباك، وإعادة التجميع، والعودة إلى الاشتباك بالرغم من عمل القذائف، ولا تعتبر هذه الأسلحة حاسمة كأسلحة الاشتباك. والحسم هنا لا يحدد أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه في تقرير مصير المعركة وإنما القصد أن القرار النهائي لا يمكن أن يتمّ إلاّ بعد الدخول إلى حيث العدو لتجريده من السلاح وإنهائه كقوة مسلحة. وهذا ما تحققه أسلحة الصدام. لقد رأينا إن التقديرات العسكرية، حتى في عصر الحرب النووية، تتجه إلى اعتبار السلاح النووي وحده لا يكفي لتحقيق النصر النهائي، إذ لا بدّ من القوات التكتيكية لإكمال المهمة، ومن المشروع أن تعتبر هذه القوات أي قوات الصدام القريب متكاملة مع الصواريخ عابرة القارات. بل يجب أن تكون هي الأساس والثانية في خدمتها، ممهدة لها.

الحركة:

إن طريقة تحريك السلاح وتشكيل القوات وتحريكها، أي الحركة، هو الذي يعطي الحيوية والزخم في المعركة، ولهذا يوصف التكتيك بأنه فنّ النيران والحركة. وقد انقسم العسكريون منذ القدم، وخاصة، في العصر الحديث حول الأهمية

الخاصة لكل من النيران والحركة، ومال الكثيرون إلى التشديد على أهمية النيران، أو السلاح، أو ما يسمى اليوم الثورة في التكنولوجيا العسكرية، والتقليل من أهمية الحركة ودورها. ولكن هذه الموضوعة تقلل من شأن القائد والجندي، أو العامل الذاتي، بالرغم من أن التاريخ القديم والحديث مليء بالأمثلة التي استطاعت فيها قوات أقل سلاحاً وأضعف نيراناً أو أدنى تقنية، أن تنتصر بفضل الحركة على قوات أقوى سلاحاً وأكثف ناراً وأرقى تقنياً تكنولوجياً. طبعاً هنالك حالات اعتمد النصر فيها على تفوق السلاح فقط. ولكن هذا الاعتقاد يؤدي إلى كارثة في حالة عدم الحسم من خلال التفوق في النيران، أو في حالة مواجهة خصم متفوق بالحركة التكتيكية، أو على الأصح، بالجمع الماهر بين الحركة والنيران في المعركة. لذلك فإن التشديد يجب أن يكون على الحركة أو على النيران المتوفرة والحركة في آن. لأن الحركة هي التي تجعل السلاح يعمل على أفضل وجه.

من هنا يأتي مقتل عَبَدة التكنولوجيا العولميين حين يتنكرون للإنسان وللأساسيات في علم الحرب ويضعون ثقل الحسم كله في الحرب على التقانة (التكنولوجيا) العليا (الطيران والصواريخ: النيران ثم النيران).

التشكيلات:

إن مسألة تشكيل القوات في المعركة تشكيلاً مناسباً يستهدف الإفادة من كتلتها وأسلحتها ومعداتها وحركتها التكتيكية على أكمل وجه ممكن.

ما دامت المعركة هي صدام بين كتلتين من البشر تستخدمان السلاح لسحق بعضها بعضاً فهذا يقتضي:

أ. أن تنظم كل كتلة بطريقة تجعلها تعمل كرجل واحد، أو في الأدق بأعلى درجات التناغم والتناسق، لكي يؤدي توحيد جهودها إلى مضاعفة مقدرة كل رجل ومضاعفة مقدرة المجموع من خلال وضع الكتلة كلها ضمن تشكيل معين.

ب. ينبع تشكل القوات في المعركة من حاجة كل مقاتل لأن يكون محمياً من أجنحته ومؤخرته بجيرانه، ومن الطبيعي أن يرتب الأفراد بشكل يتيح لكل

فـــرد أن يغطي جيرانه، ويغطّى من جيرانه بنظام متراصّ طويل، أو صغير، وبعمق كبير أو قليل تبعاً لتكتيك العصر.

ج. لا يمكن قيادة تلك الكتلة من البشر إذا لم تكن منظمة.

د. تشكيل القوات يعطي كل فرد ثقة بالرابطة المادية والمعنوية التي تربطه ببقية الكتلة.

هـ. لا يمكن تحريك تلك الكتلة وجعلها تقوم بمناورات تكتيكية قبيل المعركة، أو في أثنائها، ما لم تكن مشكّلة بطريقة معينة.

عـــرفت الجـــيوش منذ أقدم العصور حتى اليوم أربع تشكيلات رئيسية سواء أكانـــت القوة التي تشكّل مؤلفة من عشرة أم مائة أم من مائة ألف، وسـواء أكانت مـــسلحة بالرماح والسيوف والقوس والنشاب أم بالرشاشات والصواريخ المضادة للـــدبابات، وسواء أكانت تسير على الأقدام، أم تمتطي صهوات الخيول، أو ظهور الفيلة، أم تركب الدبابات والعربات.

وهذه التشكيلات هي:

1. الخطّ LINE: من ميزاته أنه يؤمن التركيز الأقصى لقوة السلاح في حركة الاشتباك. ولكن سيئاته هي افتقاره للعمق، والمرونة، وبطئه، وعدم سهولة تأقلمه مع كل أنواع الأرض.

2. الرتل COLUMN: من ميزاته أنه يؤمن المرونة، والعمق، ويتأقلم جيداً مع الأرض، وهـــو أكثـــر سرعة من الخطّ. أما سيئاته فهي افتقاره إلى الجبهة FRONTAGE وضمانة الأجنحة FLANGES.

3. المربع SQUARE: يؤمن العمق والجناحين، ويؤمن جبهة وتركيزاً معقولاً. ولكـــنه أقل إمكانية على المناورة التكتيكية من الرتل، ويستخدم أساساً في التكتـــيك الدفاعي سواء أكان على شكل مربعات نابليون المقسمة إلى أرتـــال، أم كـــان بالمفهـــوم المعاصر القائل بالنقاط الدفاعية الشاملة والعميقة.

4. تشكيلة المناوشة SKIRMISHING: وهي تشكيل متحرك يصلح أساساً للقـــوات الـــصغيرة. ومـــن مزاياها سرعة الحركة، والتأقلم مع الأرض،

ومقـــدرتها على أخذ أشكال متعددة بما فيها الخطّ والمربع، ولكن سيئتها افتقارها إلى التركيز عند الالتحام.

أمـــا بقية التشكيلات فهي اشتقاقات من هذه التشكيلات الرئيسة الأربعة. ثم تنـــشأ إلى جانب ذلك مسألة عدد القوات في التشكيلة، وهذه لها خمسة أشكال: التركيز، التوزيع، الاقتصاد، الزيادة، النقصان.

علـــى أن مـــن المهـــم الانتـــباه إلى أن تشكيلات الجيش تقرر نمط التدريب ومـــستوى القـــيادات وطرائق عملها وهي مشتقة من نمط الاستراتيجية والتكتيك المحـــددين. ولهـــذا حظيت دائماً على أهمية قصوى في الرؤية الاستراتيجية للحرب والنظرية التكتيكية. وتأثرت بنوع السلاح وطبيعة الحرب.

الأرض: إن طريقة استخدام الأرض في المعركة تقرر كيفية الجمع بين السلاح والحـــركة والتـــشكيلات. فإن ما يسمى بطوبغرافية أرض المعركة يؤسس شرطاً أساســـياً للتنفـــيذ التكتيكي والمناورة التكتيكية. بل هي من أولى مهمات المناورة التكتيكـــية. ولكـــن يجب أن يضاف باطن الأرض (يمكن من الأنفاق وبناء مدن وخطوط حديدية وطرق مواصلات تحت الأرض).

لم يكـــن هذا العنصر مهماً أيام المعارك على أرض منبسطة يختارها الطرفان، ولكـــنها أصـــبحت حقـــيقة بديهـــية الآن خاصـــة مـــنذ زمـــن مارلـــبورو MARLBOROUGH (1650 – 1722) الذي جعلها عاملاً هاماً في طريقة قيادة الجيوش في المعركة[1].

يجـــب التفريق هنا بين أهمية استخدام الأرض في المعركة وبين النظرية الخاطئة التي اعتبرت أن الموقع أهم من القوات، ومن ثم اعتبرت أن احتلال الأرض والمواقع الاستراتيجية هما الشيء الحاسم، في حين أن الشيء الحاسم دائماً هو سحق قوات العـــدو في المعركة لأن أي احتلال للمواقع والأرض، بينما قوات العدو الرئيسة ما زالت سليمة لا يحمل أهمية حاسمة، إذ ستسقط كل المواقع وتستعاد الأرض بأسرع مما أخذت إذا هزمت القوات الرئيسة نظائرها في المعركة الحاسمة.

(1) جون مارلبورو (إنكليزي) قاد معركة "رامليي" Ramillies (في بلجيكا) ضد فرنسا وبافاريا.

لقد ازدادت في الحروب الحديثة أهمية استخدام ما تحت سطح الأرض مثل الأنفاق أو غرف الاستراحة والاسعافات الطبية، ومخازن الأسلحة (شريطة عدم اكتشافها من العدو) مع السيطرة على الجو وتطور التقانة العالية للطيران والمنظار والصاروخ والقنابل الذكية، كما لمواجهة استخدام الغازات والقنابل الكيماوية أو النووية الصغيرة.

تمهيد حول التكتيك

إذا كانت تشكيلة القتال تعني خطاً متراصاً من الرجال يتراوح في العمق، وفي الطول، فإن الحماية ستضعف عند الأجنحة وهي أضعف النقاط. ونظراً لضعف الأجنحة أصبح المتحاربون يحاولون كسب النصر عن طريق الالتفاف عليها مما تطلب الدخول إلى المعركة بجبهة أطول من جبهة العدو. وإذا لم يكن العدد كبيراً فهذا يعني تمديد الجبهة، ومن ثم خلق نقاط ضعيفة جديدة في الجبهة نفسها. وقد فتح هذا إمكان استغلاله عن طريق خرق جبهة العدو. ومن هنا أصبح هدف التكتيك الهجومي في المعركة هو شقّ تماسك جبهة العدو، وتحطيم نظام تشكيلته، إما عن طريق الالتفاف حول الأجنحة أو خرق الجبهة الأمامية أو الإنزال خلف الخطوط.

ما إن تخرق جبهة العدو حتى يصبح تماسكه مفككاً، وتؤدي الصدمة إلى إشعار كل جندي بالخطر، فتتمزق الرابطة المعنوية مع تمزق التماسك المادي، فيتحول الجيش المنظم إلى كتلة مضطربة. ومن هنا أكد كلاوزيفتز على أهمية تحطيم معنويات العدو من خلال الصدمة في المعركة. وكانت هذه هي لحظة إطلاق كتلة الفرسان في الماضي. أما في العصر الحديث فقد أخذت شكل انسحاب منتظم قدر الإمكان من جانب المهزوم، وأحياناً قبل الاشتباك. ومن ثم ملاحقته من جانب المنتصر مستهدفاً منع المهزوم من إعادة تنظيم قواته، ومتابعة الإجهاز عليه.

إن حركة الالتفاف على الأجنحة تتطلب حركة أسرع، وامتداداً أوسع، مما يتطلبه خرق الجبهة. ولهذا السبب كانت الأجنحة تتشكل من الفرسان وأصبحت تتشكل من الآليات المصفحة فيما بعد.

يجب على الجانب المهاجم أن يمتلك قوة متفوقة على دفاع العدو، وهذا يستحقق عن الطريق التعاون بين مختلف أسلحة الصدام - فرسان ثقيلة أو خفيفة، فيلة، مدرعات ودبابات - وأسلحة النيران المؤازرة أو الممهدة (سهام، نبل، مقاليع، منجانيقات، مدفعية مشاة، طائرات، صواريخ) ويجب على كل هذه الأسلحة أن تتقاسم الأدوار وتكون متعاونة متناغمة ومتحركة وسريعة في خرق جبهة العدو.

اعتمد هذان الشكلان من الهجوم: الالتفاف على الأجنحة، أو صدمة خرق الجبهة الأمامية، على ما يلي - في الماضي:

1. حجم كل من الجيشين.
2. فعالية فن الهجوم بمقارنته مع فن الدفاع كما فعالية كل منهما.
3. السرعة.
4 - وأضيف عامل الأرض والتحصينات فيما بعد.

كان الدفاع يعتمد على مقدرة كل رجل في الخطّ على استخدام سلاحه، وكان أحياناً محمياً بدرع، أو بخطّ من رماة النبل والسهام، أو بحاجز صغير من الأخشاب، أو خندق، أو وراء سور (كان الأسلوب في معالجة الدفاع عن المدن من وراء أسوار عالية يعتمد على الحصار الطويل أساساً، مع محاولات لاختراق السور من إحدى نقاطه، أو أبوابه، عن طريق الخدعة والتسلل أو التسلق).

ولكن الدفاع في معركة الاشتباك قد اعتمد أساساً على استخدام القذائف بادئاً بالسهام، ثم المنجنيق، ثم المدفع، والقذائف المتفجرة، والبنادق، وكان على الهجوم مواجهة هذه الأسلحة قبل الوصول إلى متاريس العدو في قتال قريب، عن طريق استخدام مثيلاتها لإسكات أسلحة القذف الدفاعية، أو على الأقل إنقاص كثافتها إلى حدّ معقول يتيح إمكانية الاندفاع إلى نقطة الاختراق.

ولكن مع تطور الأسلحة التقليدية الحديثة - زيادة كثافة النيران - أصبح الدفاع في القمة. مما جعل عملية المعركة أكثر تعقيداً وأصبحت تتطلب مجموعة من الإجراءات والخطط الماهرة وعمليات المناوشة حتى يغدو بالإمكان الالتحام مع العدو. أي أضحى من الضروري إنهاكه وإنزال خسائر أولية به مع التركيز على النقطة الحاسمة في الوسط أو في الجناحين. ولكن كان لا بدّ قبل بدء عملية

الاختراق أو الالتفاف تشغيل احتياط الدفاع، إما بجرّه إلى نقطة هجوم تضليلي، أو إجبـــاره على التوزع على نقاط كثيرة، إلى جانب التركيز على هزّ معنوياته. ومن هنا أصبحت المعركة التكتيكية تتشكل من مرحلتين:

1. مرحلة أولى تمهيدية قد تكون طويلة أو قصيرة حسب كل حالة.
2. مرحلة توجيه الضربة الرئيسة.

ولنتذكر أن أي جيش يتألف من بشر يجمعهم نظام، وتماسك، وثقة متبادلة، ومعنويات وإرادة على القتال، وأسلحة وكثافة نيران، وتشكيلات معينة تؤلف سداً في وجـــه الهجـــوم، واحتـــياط متحـــرك، واتصال دائم بالقواعد الأساسية لتأمين المواصـــلات والتعزيـــزات - والـــدعم اللوجستيقي. الأمر الذي راح يفرض على الهجوم:

أ. تمـــزيق تماسك الجيش ونظامه وهزّ معنوياته، الناحية النفسية السيكولوجية (وكـــان كلاوزيفتـــز قـــد كرس جزءاً كبيراً من كتابه "حول الحرب" (ON WAR) لمسألة المعنويات وأهميتها في الحرب).

أما تحقيق ذلك فيتمّ بطرق متعددة منها:

1. قـــبل المعـــركة: عمليات حصار وإنهاك مستمر، وشائعات وحملات نفسية، وتظاهرات قوة.
2. بـــدء المعـــركة: عمليات خداع، رهبة القتال، والصرخات والقنابل الـــصوتية، وعمليات التمويه، وأساليب المفاجأة، التي تصل قمتها - حـــسب رأي نابليون - عند لحظة تصدع معنويات العدو أي لحظة الهجوم المفاجئ الكاسح.
3. عملـــية الاختـــراق نفسها وتمزيق أحد الأجنحة أو كليهما، أو خرق الوســـط، أي هـــزّ تماســـك الجيش ومعنوياته بقوة الصدمة المسلحة (كلاوزيفتز).

ب. إسكات نيران العدو، أو إنقاصها جداً، وذلك من خلال تركيز نيران تمهيدية، خـــصوصاً، في نقطة توجيه الضربة الرئيسة. وهذا بدوره يمزق تماسك العدو عندما ينجح الاختراق من تلك النقطة ويتخلخل سدّ الدفاع.

ج. قطـــع مواصـــلات العدو وطرق إمداده، وإذا أمكن ضرب مخازن ذخائره وتموينه في جبهة المعركة نفسها أيضاً.

د. أصـــبح تـــوفير غطاء جوي أمراً حاسماً في الحروب الحديثة التي تستخدم السلاح التقليدي، ولكن المقاومة الفياتنامية في حرب تحرير جنوبي فياتنام أثبتت أن من الممكن لقوات المشاة المهاجمة تخطي هذا الشرط الذي يجمع عليه كل العسكريين الكلاسيكيين.

ينطـــبق مـــا تقدم على تكتيك المعارك الأرضية، أما الأسطول البحري وقوة الطـــيران فالعملـــية في الجوهر صراع بين آلات حديدية في قلبها الرجال، لذا فإن الجانـــب المـــادي في معـــارك الجو والبحر له الأهمية الحاسمة مثل السرعة والحركة والمـــدى والحماية والوزن والعدد. فنتائج المعركة تقرر، أساساً، بعدد السفن المغرقة والطائـــرات المسقطة. وإذا لم تكن القوى المادية متوازنة فإن أحد الطرفين سيتخلى عـــن المـــيدان، لـــذا فإن التفوق في الـــسلاح والمعدات هو الحاسم في معارك البحر والجو.

إن التكتيك في الجو والبحر يختلف عن الأرض:

أ. العامل الطوبغرافي ملغى، أما العوائق الوحيدة مثل الرياح والشمس والغيوم والـــضباب فهـــي دائمـــاً متساوية بين الطرفين بسبب عملية الحركة والمناورة.

ب. العامل الإنساني أقل تأثيراً في معارك الجو والبحر.

ج. إن القـــتال في تشكيلات خطوط وأرتال لم يطبق في البحرية إلاّ في مرحلة قصيرة و لم يطبق في الجو مطلقاً.

د. الـــشيء الحاسم في معارك البحر والجو متوقف على الجانب المادي والتقني فضلاً عن أهمية التدريب والشجاعة.

وأخيراً إن المعركة الجوية هي حصيلة معارك فردية، وهدفها تحطيم آلة الطيران المعـــادي في الجو، أو في المطارات. لذلك فإن مفهوم تكتيكها يختلف جوهرياً عن تكتيك معارك الأرض.

بين العمليات والتكتيك

كـــان مركز الثقل بين العمليات والتكتيك يتنقل من أحدهما إلى الآخر، مع مراحل اندماج أو توازن.

لقـــد كانت المرحلة الأولى، والتي امتدت ردحاً طويلاً من الزمان حتى أواخر القرن الثامن عشر، باستثناء حروب الفتوحات الإسلامية الأولى، قد تميّزت بأولوية المعـــركة على العمليات حيث كان الأساس هو الاشتباك والمناورة التكتيكية على أرض المعـــركة بالـــذات، وفي أثناء الالتحام. وكان مركز الثقل في المعركة يتحدد أساســـاً في حجم القوات وقوة "النيران". أما المرحلة الثانية، فقد انتقل فيها مركز الـــثقل إلى العمليات أولاً، ثم إلى الحركة وقوة النيران داخل المعركة، وكان نابليون أستاذ هذا التطوير الجديد في العصر الحديث. وجاءت المرحلة الثالثة، والتي امتدت حـــتى نهايـــة الحرب العالمية الأولى آخذة في طريقها القرن التاسع عشر كله، حيث انعقـــد نوع من التوازن الرجراج بين العمليات وحجم القوات والحركة التكتيكية وقوة النيران.

لقـــد أدى تطـــور كثافة النيران والأسلحة والتجنيد العام، وتعميم "التكتيك الكبير" النابليوني، إلى تكوين شبكة واسعة من الأرتال أصبح الرجال فيها مكتفين لتـــشكيل كتلة قتالية متأهبة دائماً. مما أنقص من قيمة العمليات النابليونية، وجعل الحركة التكتيكية في المعركة لا تقلّ أهمية عن حركة العمليات.

إن زيادة قوة النيران، وخاصة، البندقية السريعة الطلقات، إلى جانب الخنادق والمـــتاريس، ثم المدفـــع الرشاش، والأسلاك الشائكة مع مطلع القرن العشرين زاد كثيراً من قوة الدفاع. وأصبحت عملية الاختراق صعبة. وبقي الأمل لدى المهاجم في حـــركات الالـــتفاف حول الأجنحة غير المحمية، ولكن هذا الالتفاف يشترط لنجاحه أن يكون أسرع من نقل احتياط الدفاع وأسرع من انسحاب الجناح الذي ضُـــرب علـــيه عملية الالتفاف. ولكن هذه السرعة لم تتوفر وأسفرت عن التفاف يقابلـــه انـــسحاب، ثم التفاف مضادّ فانسحاب، والتفاف مضاد، كما حدث في الحـــرب العالمية الأولى بالنسبة إلى خطة سكليفن SCHLIFFEN ومعركتي المارن MARNE 1914 و1917. وهـــنا دخل الوضع مرحلته الرابعة حيث امتدت الجبهة

مــن سويــسرا حــتى بحر الشمال وتحولت إلى معارك استنـــزاف. علماً أن هذه الظاهرة سبقت وحدثت في الحرب الأهلية الأميركية، وفي جبهة منشوريا في الحرب الروسية - اليابانية (1904 - 1905).

لقد كان السبب في تحوّل حرب الحركة النابليونية إلى جبهة راكدة:

أ. زيادة القدرة الدفاعية مع اختراع المدافع الرشاشة محمية بالخنادق والمتاريس والأسلاك الشائكة، وتوفر عدد ضخم من الجنود والاحتياط.

ب. لمـــا أصبحت حركة الالتفاف الجانبية غير ناجحة تدنت المعركة إلى حرب خـــنادق، مـــع بقاء محاولات الاختراق على أمل إعادة الحركة للعمليات وللمعركة على حدّ سواء.

ج. تخلـــف جنـــرالات الحرب عن إيجاد التكتيك المناسب، وحركة العمليات المناســـبة في مواجهة قدرة الدفاع مع التطورات الجديدة في كثافة النيران والتحصين وسرعة الاحتياط.

وكـــان الحلّ الوحيد الذي فكر فيه الجنرالات في هذه المرحلة هو زيادة كثافة الـــنيران، خصوصاً، نيران المدفعية. ولكن على الرغم من الزيادة الهائلة لتلك النيران فقد بقي الركود على حاله. فقد كان يكفي ليفلت موقع رشاش أو أكثر، ليقضي على اندفاع الهجمة الكثيفة. وثبت أن قوة نيران الهجوم مهما تعاظمت لا يمكن أن تكون حلاً إذا لم تصحبها حركة مناسبة.

جـــاءت المـــرحلة الـــرابعة مع تطور استخدام الدبابات والطيران متجلياً بتكتيك بليتزكريغ الألماني، مما أعاد للحركة كل حيويتها - الحركة في المناورة الاستراتيجية والحركة في المناورة التكتيكية. ولكن هذه المرحلة تميّزت بالاشتباك ممهداً لاختراق بعض نقاط دفاع الجبهة الطويلة يتبعه تغلغل في العمق مصحوباً بمـــناورات استراتيجية شبيهة بالمناورة النابليونية لفرض قرار في معركة حاسمة. وهـــناك عاد مركز الثقل إلى الحركة - حركة الاشتباك ثم حركة العمليات ثم حركة الاشتباك، وهذا عكس التكتيك الكبير النابليوني - العمليات تسبق وتهيئ للمعـــركة - الآن معـــركة الاختراق تسبق وتهيئ للعمليات والتي تهيىء بدورها للاشتباك.

أما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية فقد عاد مركز الثقل لحركة العمليات، ولكنها حركة سريعة الالتصاق بحركة المعركة. وذلك بسبب تضاعف السرعة وحركة القوات نتيجة تطور الطيران ليس كقوة ضاربة فحسب، وإنما أيضاً، كقوة مناورة تحمل القوات الأرضية بآلياتها إلى أية نقطة في جبهة العدو ووراء خطوطه الأمامية لتبدأ مناوراتها وتفرض المعركة. إن تكتيك بليتزكريغ الذي كان يقضي بإجراء عملية اشتباك أولاً لنقل الدبابات إلى ما وراء خطوط الدفاع، أصبح الآن عملية اشتباك جوي للسيطرة على الجو لنقل القوات الأرضية. هذا وقد يتخذ إما شكل هجوم على المطارات أو معارك جوية كتمهيد للعمليات ثم المعركة.

وإذا ترجمنا هذا إلى لغة عسكرية فسوف يعني أن استراتيجية العمليات أصبحت شديدة الحركة مع سرعة التحرك والطيران. ومن ثم زاد عمق المعركة و لم تعد جبهة أمامية. بل أصبحت منطقة واسعة عمقاً وعرضاً وذات بعد جوي على غاية الأهمية، و لم تعد خطوطاً وجبهات وإنما اتجاهات. وتكرّست هذه الظاهرة مع تطور الصواريخ المتوسطة والبعيدة المدى.

إلى هنا نكون قد مهدنا بخطوط عريضة عامة لندخل في موضوع دراسة التكتيك بتفصيل يزيد الصورة وضوحاً.

- 2 -

تطور التكتيك عبر العصور

لم يتطور التكتيك العسكري صعداً من الأدنى إلى الأرقى على شكل تطور مطرد متناسق، كما لم يكن دائماً في مستوى التطور التقني والصناعي والاقتصادي والاجتماعي. لأنه كثيراً ما كان يتخلّف عنه، ويظلّ أسيراً للتقاليد لمدى طويل أو قصير. ولكنه كان في النهاية يعود ليصبح في ذلك المستوى.

يقول كلاوزيفتز: "أي شيء أكثر بدهية من أن يكون للحرب الثورية (الفرنسية) طريقتها الخاصة في التصرف ومعالجة الأشياء؟ ولا يمكن للنظرية إلاّ أن تشمل تلك الطريقة الخاصة، بيد أن المعضلة هنا أن النظرية المتولّدة عن حالة خاصة

سرعان ما يولي زمانها، لأنها تستمر في البقاء من دون تغيير في حين تكون الظروف قد أخذت تتغير كلياً بالتدريج. وهذا ما يجب على النظرية أن تتجنبه من خلال النقد المرن العقلاني".

إن كلاوزيفتز، في الواقع، يطرح هنا موضوعة صحيحة على غاية الأهمية تفسر التطور المتفاوت بين تخلف النظرية وتغير الظروف. كما تفسر لماذا لم يتطور التكتيك صعوداً من الأدنى إلى الأرقى على شكل تطور مطرد، وإنما أخذ شكل تعرجات تشبه الرسم البياني لسلسلة جبال تعلو قممها وتهبط، كما أن تلك القمم لا ترتفع باطراد، وإنما قد ترتفع إحداها لتتلوها مجموعة من القمم أدنى منها ثم تأتي قمة أعلى وهكذا. أما تفسير ذلك فيرجع إلى اختلاف القارات والأزمنة والأمكنة والظروف الاجتماعية والأنظمة.

لقد تطور التكتيك العسكري زمن المصريين القدماء تطوراً عالياً جداً كما يبدو من تفاصيل معركة قادش 1288 ق.م. حيث نظموا جيوشهم إلى فرق ذات اكتفاء ذاتي تتألف كل فرقة من مختلف الأسلحة (مشاة، رماة النبل، العربات المحاربة). وقد راحت تعمل كلها بتناسق رائع في المعركة. كما أقاموا نظاماً إدارياً عالي الكفاءة، واستخدموا تكتيك الالتفاف على الأجنحة وأساليب الهجوم التضليلي مع التركيز على نقطة الهجوم الرئيسي. ولكن هذا المستوى من التكتيك لم يحافظ عليه، ولم يطور في زمن اليونان والرومان والفرس، بل تدنى مستواه، خصوصاً، مع تشكيلة الفلانكس PHALANX المكدونية حيث راح القتال يأخذ شكل خطّين متوازيين تقف المشاة الثقيلة في المقدمة ووراءها المشاة الخفيفة، بينما ينتشر رماة النبل والحجارة في الخطّ الثاني، أما الفرسان فعلى الجناحين. إن عيب تشكيلة الفلانكس يأتي من ثقل كتلتها وصعوبة مناورتها، إذ ما إن يشتبك الطرفان حتى تصبح أية مناورة من قبل تشكيلة الفلانكس غير ممكنة، عدا المضي في الصدام حتى النهاية. ولعل أخطر نقاط الضعف في هذه التشكيلة، والتي تفرض تكتيكاً جامداً، كونها خالية من الاحتياط وغير قادرة على التأقلم مع كل الظروف الطوبغرافية، فهي لا تستطيع أن تعمل إلاّ في الأرض المنبسطة لأن قوتها تنبع من تماسك كتلتها.

اكتشف هانيبال (حنابعل) هذا الضعف فأضاف لتشكيلة الفلانكس خطاً ثالثاً يمثل الاحتياط. وقد استخدمه بمهارة فائقة في معركة طريبة TREBIA في إيطاليا (218 ق.م.) حيث أشغل وسط الجيش الروماني بقوته الرئيسية الأمامية، وهاجم جناحه الأيسر بدفعة قوية من الفرسان والمشاة في لحظة حاسمة من لحظات المعركة. وكان الرومان قد أضافوا هم أيضاً تشكيلة الخطّ الثالث الاحتياطي، وأسموا تشكيلتهم بالليجون LEGION وهي مثل تشكيلة الفلانكس من خطّين متوازيين صداميين مضافاً إليهما خطّ التعزيز أو الاحتياط.

وقد سموا تلك الخطوط أنساق (أيشلونات). ولكنهم قسموا كل نسق (أيشلون) إلى وحدات أصغر مما أكسبه عمقاً. ومن ثم أصبحت كتلة الليجون قادرة على التوزع والتشكل كما يمكن أن تجزأ لوحدات أصغر متحركة. وقد برزت قيمة هذا التشكيل الجديد على الفلانكس اليوناني في معركة بدنا PYDNA في اليونان (168 ق.م.) حيث جروا الفلانكس إلى أرض غير مستوية فانفصل جناحاه وهنا اندفع الرومان كرأس سهم ضارباً إسفيناً مزق الفلانكس بالرغم من دقة نظامه وتدريبه الجيد. وهكذا برزت قيمة الحركة والمرونة واستخدام الاحتياط بينما ظهر جمود الفلانكس وعدم قدرته على الحركة المرنة والتشكيل السريع، وافتقاره إلى الاحتياط، وميزه التأقلم مع الأرض غير المستوية.

تكرّست تشكيلة الثلاثة خطوط بدل الخطّين اليونانيين منذ ذلك التاريخ. وإلى أمد طويل.

بعد معركة أدريانوبل ADRIANOPLE في تركيا (378م) سحقت الليجونات الرومانية أمام هجمة الفرسان التي استخدمت لتقوم بدور تكتيك الصدمة المحورية الرئيسة. ومنذ ذلك التاريخ تخلى الرومان عن الليجونات – المشاة القوة الرئيسية – وجعلوا الفرسان سلاحهم الرئيس. كان تكتيك المشاة باستخدام الرمح والسيف عاجزاً عن مواجهة صدمة الفرسان. وهنا استخدم تكتيك مضادّ للفرسان وهو القوس والنشاب.

وجاء الإمبراطور جوستنيان في القرن السادس للميلاد ليعالج هذا التكتيك المضادّ فقسم الفرسان إلى قسمين (أ) الفرسان الخفيفة وسلاحها القوس والنشاب

لتطلق سهامها في كل اتجاه وهي تعدو بسرعة على خيولها، (ب) الفرسان الثقيلة وسلاحها السيوف والرماح ومهمتها إنزال الصدمة الهجومية الرئيسة بعد أن تكون المشاة الخفيفة قد عطلت رماة السهام من المشاة أو ضعضعتهم. أما تنظيم الجيش البيزنطي فقام على أساس وحدة الباندوم BANDUM (400 رجل) وكل ثلاث أو أربع وحدات باندوم تشكل لواء وكل ثلاثة ألوية تشكل فرقة أو تورما TURMA وقد أمنت للجيش إدارة كفوءة، فكانت هنالك عربة لوجستيقا لكل 16 رجلا إلى جانب خدمات طبية منظمة.

كان الفرس في تلك الفترة قد طوروا استخدام سلاح الفيلة ليلعب دور الصدمة التي تشقّ صفوف المشاة بينما تكون مشاة الفرس خلف الفيلة مباشرةً لإتمام الهجوم، وهو تكتيك شبيه بتكتيك الحرب العالمية الأولى في استخدام الدبابات ووراءها المشاة لتحقيق الاختراق.

وجاء العرب ليتفوقوا على كل من قبلهم في مجال التكتيك العسكري، خصوصاً، في مجال الحركة التكتيكية، وتشكيلات القوات، وتعاون صنوف الأسلحة وابتداع فنّ المناوشة[1].

ولكن هذا التطور الذي أحدثه العرب لم يحافظ عليه في أوروبا التي هوت بين براثن الإقطاع وعقلية الفروسية. فسلاح الفرسان أصبح في عهد الإقطاع في أوروبا، وهو السلاح المتفوق، فاقداً لقوة المناورة التي أعطاها له العرب، فغدا كتلة من الحديد الثقيل فوق الفرس. وأتقن فنّ المبارزة الفردية مع انحدار في فنّ تكتيك التشكيلة القتالية في معركة تتعاون فيها الأسلحة كلها وتمارس أدوارها بتناغم.

ولعل الفترة الوحيدة في هذه المرحلة، التي تطور فيها التكتيك، هي تلك التي جاءت على أثر تجارب جيوش أوروبا الإقطاعية في حروب الفرنجة ("الحروب الصليبية")، حيث أفادت من الدراسات النظرية التي خلفتها الإمبراطورية الرومانية الشرقية، والتي عامل منظروها الحرب كعلم. ووضعوا مجموعة من الدراسات النظرية وكراسات تعليمات ميدان تغطي مختلف مجالات الحرب.

---

(1) راجع الدراسة الخاصة بحروب العرب المسلمين وحروب نابليون في نهاية الفصل الخامس.

ولعل أهم هذه الأعمال هي التي كتبها الأباطرة، أمثال الإمبراطور موريس MAURICE في كتابه "الاستراتيجية" STRATEGIEON في عام 580م، ومؤلف الإمبراطور ليو LEO الحكيم الذي امتدّ حكمه من 886 - 912. وقد بحثت في هذه الدراسات مسائل التنظيم في الجيش والإدارة وتسلسل القيادة وأقسام الجيش، وعمله التكتيكي في الميدان والاعتبارات الاستراتيجية التي يجب أن يراعيها القادة. وقد انعكست هذه الدراسات على جيوش الفرنجة التي شكلت الجيش من الفرسان الثقيلة والمشاة وجعلته كتلة واحة مع تكتيك يجمع بين حركة الفرسان وسهام المشاة ("النيران"). وبهذا تفوق التكتيك العسكري الأوروبي في حروب الشرق على التكتيك العسكري بين الإقطاعيين في أوروبا.

لكن هذا التكتيك سقط أمام تكتيك المسلمين الذي امتاز بقوة المناورة وحركة المناوشة والسرعة، إذ بينما كانت جيوش الفرنجة تتحرك ككتل متماسكة وتعتمد على صدمة هجوم الفرسان في الاشتباك، راح المسلمون على خيولهم الخفيفة يناورون بشكل متحرك سواء أكان في أثناء الاشتباك، أم في إزعاج جيش العدو في أثناء الزحف. وقد استخدموا الخيالة من رماة السهام لتناوش الجيوش الثقيلة من الأجنحة ومن المؤخرة وتكرّ عليها ثم تفرّ لتستدرجها إلى مصائد أو تنهكها، ثم يأتي دور الصدمة المحرومية في اللحظة الحاسمة.

أما صلاح الدين الذي أظهر مهارة في تطبيق هذا التكتيك برع في إبداع تكتيك آخر وهو العمل على فصل المشاة عن الفرسان في جيش العدو وضرب الطرفين منفصلين بعد أن يفقدا عنصر الجمع بين سهام المشاة وصدمة الفرسان.

على كل حال، إن استعراضنا لتطور التكتيك اعتمد على المراجع الأوروبية، وخصوصاً ليدل هارت. ولهذا مرّ سريعاً بتطور التكتيك قديماً في مصر وفارس مع تركيز على أوروبا لكي نأتي تدريجاً إلى بحث التكتيك في عصر نابليون ثم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين - أي مرحلة الأسلحة النارية. ولهذا فإن تطور التكتيك لدى الشعوب الشرقية في آسيا لم يعطَ حقه في هذه الدراسة. لأن الدخول فيه يحتاج إلى بحث مطول مستقل. وإن كان من الضروري التنويه بصورة عامة أن الشرق، ولا سيما، المغول والعرب قد أبدعوا في فنّ المناورة التكتيكية وفنّ المناوشة.

تطور التكتيك في عصر الأسلحة النارية

كــتب إنجلــز في "ضــد دوهرنغ" يقول "لقد جلب البارود من العرب إلى أوروبــا الغــربية، في مطلع القرن الخامس عشر، وقد أدى ذلك، كما يعرف كل تلمــيذ مدرسة، إلى إحداث تطوير أساسي في قواعد الحرب". ولكن إنتاج البارود والأسلحة النارية يتطلب صناعة ومالاً، وكان هذان الجانبان يوحدان بأيدي سكان المــدن، لــذلك كانــت الأسلحة النارية منذ البداية أسلحة المدن وأسلحة الملكية المعــتمدة علــى المــدن في كفاحها ضد النبلاء الإقطاعيين، وقد راحت الأسـوار الحجــرية حول قصور النبلاء تتساقط أمام مدافع سكان المدن، كما أخذ رصاص البــنادق والطبنجات يخترق دروع فرسانهم. وهكذا أصبحت المشاة والبنادق هي العامل الأكثر حسماً مع تطور البرجوازية".

كــان الأتــراك من جهة وجيوش بولندا من جهة أخرى هم أول من حاول تشغيل المدفعية في الميدان، وإن كان الأتراك قد برعوا في استخدام مدفعية الحصار، ولكــن غرب أوروبا ظلّت متخلفة عن المناورة في المدفعية في الميدان، وكان أقصى استخدام لها يتركز في وضعها وسط خطّ الجبهة دون أن تلعب دوراً متحركاً.

أمــا الطبنجات والبنادق فقد ظلّت أسلحة بطيئة وبدائية، ولهذا بقي دورها مــساعداً لأنهــا كانت بعد أول إطلاق جماعي VOLLEY تنشغل في إعادة الدكّ للإطــلاق الــثاني، وهنا تصبح تحت رحمة هجمة الفرسان. مما اقتضى تجميع حملة البــنادق مــن المشاة في خطّ متراصّ على طريقة الفلانكس وأصبحوا كتلة ثقيلة دفاعــية وبحاجــة أيضاً إلى صف آخر من حملة الرماح للدفاع عنهم أمام هجمة الفرسان. فقد كان سلاح الفرسان في هذه المرحلة يشكل القوة الرئيسة. أما المشاة والمدفعية فأسلحة مساعدة.

أدخــل غوســتاف أدولف (1594 – 1632) تحسينات أساسية على تنظيم الجــيش، فجعــل ســرية المــشاة 150 رجلاً (75 حملة بنادق و59 مسدسات – طبنجات – والبقية ضباط ومساعدو ضباط)، وألف الكتيبة من أربع سرايا، واللواء مــن ست كتائب. وخفف وزن البندقية وقصر الرمح من 16 قدما إلى 11 قدماً، وكانت التشكيلة شبيهة بالليجون الروماني (ثلاثة خطوط متوازية)، وحرر الفرسان

من البنادق، وقصر أسلحتهم على السيوف والطبنجات ليصبحوا أخفّ وبالتالي أسرع حركة. وقسم المدفعية إلى ثلاث فئات:

أ. المدفعية الثقيلة للحصار أساساً.

ب. مدفعية ميدان ثقيلة ومتوسطة.

ج. مدفعية كتيبة – باوندين – تصحبها المشاة الخفيفة.

لقد أدى إدخال مدافع الميدان الخفيفة إلى زيادة كثافة النيران مع حركة تكتيكية للرمي على أية نقطة، وهذا عكس مدافع الميدان الثابتة التي كانت ترمي على اتجاه واحد فقط. وإذا أضيف إلى هذا إدخاله للحربة على البندقية يكون قد جعل المشاة سلاحاً رئيساً يلعب دور قوة صدام لأن إدخال الحربة على بندقية المشاة جعل من الممكن توزيع الخطّ، وتخفيف التراصّ مما قلل أخطار المدفعية المضادة، وحرر المشاة من ضرورة حمايتها بوحدات الرماح ضد هجمات الفرسان.

إن إصلاحات غوستاف أدولف عززت دور المدفعية – مدفعية الميدان المتحركة – ومعها سلاح المشاة. ولكن هذه الإصلاحات لم تصبح عامة في أوروبا ولم تجد تكتيكها المناسب إلاّ بعد مرور زمن طويل. وكان فريدريك الثاني الكبير (1712 – 1786) قد ارتفع بإصلاحات غوستاف أدولف إلى أعلى ذروة حتى ذلك الوقت، في ما يتعلق بتنظيم المشاة على ثلاثة خطوط. وقد جعلها على شكل مربع أجوف طويل الجبهة. وتتمّ حركته على أساس كتلة واحدة وفقاً لنظام التحرك العسكري في المعركة كما طور فريدريك الكبير تكتيك الخطّ المائل.

ويقول إنجلز عن تشكيلة الخطوط في زمن فريدريك الكبير: "إن مثل هذه الكتلة ثقيلة الحركة لا يمكن أن تتحرك بهذه التشكيلة إلاّ على أرض منبسطة تماماً، بل وحتى في هذه الحالة، فإن تحركها يتمّ بمعدل بطيء جداً (خمس وسبعون خطوة في الدقيقة). وأما تغيير هذا التشكيل في المعركة فكان أمراً محالاً، إذ ما أن تشتبك المشاة مع بعضها البعض فإن النصر أو الهزيمة يتقرران بسرعة، وبضربة واحدة".

أُدخل تكتيكان هامّان خلال هذه الفترة أحدهما جاء بوساطة القائد الفرنسي هنري تورين TURENNE (1611 – 1675). وقد عمل على تغيير نظام الخطوط الثلاث المتوازية بتشكيلات تستطيع القيام بمناورات تكتيكية مثل الاستطلاع

والتمـــرن علـــى فنّ الاســتكشاف وحماية الجيش في أثناء الزحف، أما التطور الثاني فكـــان علـــى يد القائد الإنكليزي جون مارلبورو (1650 – 1722) حيث أرسى تكتيك احتلال الموقع الاستراتيجي أكثر من الاهتمام بتكتيك مهاجمة نقاط الضعف في جيش العدو. وأثبت في معركة راميليس RAMILLIES (1706) – في بلجيكا – أن أشدّ نقاط الضعف والخطر هي تلك القريبة من خطوط انسحاب العدو. إن هـــذين التكتـــيكين أصـــبحا يتطلبان لتنفيذهما إحداث تغيير أساسي في تشكيلة الخطوط، ولكن هذا التغيير انتظر طويلاً حتى مجيء نابليون.

تكتيك المناوشات

بيـــنما كانـــت أوروبا تقاتل بتشكيلة الخطوط كانت القارتان الأميركية والآســـيوية تمارسان تكتيكاً أرقى وهو تكتيك وحدات المناوشة التي تقاتل في الغابـــات وخلـــف الـــصخور وتنصب الكمائن، وتستخدم الحركة الفائقة في تكتيكها.

لقد لاقى البريطانيون الأمرّين من تشكيلات الهنود الحمر القائمة على أساس فـــنّ المناوشـــة SKIRMISHING حيث راحوا يقاتلون تشكيلات الخطوط من مـــسافات أبعـــد ومن وراء مواقع مستورة. ولم يسعف البريطانيين في النهاية غير التفوق في النيران والسلاح والتقنية.

وكـــان هذا الفنّ (فن المناوشة) متطوراً جداً في آسيا، وبصورة تقليدية، وقد طبقـــته باستمرار القبائل العربية في شمالي إفريقيا وفي الصحراء ومارسته القبائل في أفغانستان، كما قبائل المغول وغيرهم.

أعـــادت حرب الاستقلال الأميركية الحياة من جديد لهذا التكتيك، حيث راحـــت تشكيلات الثوار تقاتل بزمر موزعة وقوات سريعة الحركة، وبقناصة متـــشرين تحـــت غطاء الغابات والصخور. ويقول فريدريك إنجلز "فأصبحت تـــشكيلة الخطـــوط تحت مثل هذه الظروف، بلا حول ولا طول، فلحقت بها الهـــزيمة مـــن خـــصوم غير مرئيين وغير ملموسين. لقد أعيد اكتشاف القتال بأسلوب المناوشات، وهو أسلوب جديد في الحرب جاء نتيجة للتغير الذي طرأ على المادة الإنسانية في الحرب".

تفســير إنجلز هنا حول التحول إلى أسلوب المناوشات من خلال ما طرأ على المــادة الإنســانية في الحرب لا يفسر أولاً تطوره في مناطق متعددة قبل ذلك. ولا يفسر ثانياً تطوره من خلال تجربة حرب الاستقلال الأميركية نفسها.

تكتيك نابليون

جاء نابليون ليجسّد التطور الكيفي الذي حدث مع اندلاع الثورة الفرنسية، وليصل حدّ الكمال بـــ:

1. تطويرات غوستاف أدولف فيما يتعلق باستخدام المدفعية في الميدان.
2. تطويرات تورين حول المناورة.
3. تطويرات مارلبورو حول الإفادة من الأرض.
4. تطويرات فريدريك الكبير في مفاجآته التكتيكية البارعة.
5. تطويــرات حــرب الاســتقلال الأميركية حول فنّ المناوشة واستخدام القناصة.
6. تطويرات الثورة الفرنسية باستخدام تشكيلة الرتل.

وكــان أمامه استخدام جيش ضخم مؤلف من تجنيد أمة بأسرها؛ فأبدل تــشكيلة الخطوط وأحلّ محلها تشكيلة الرتل COLUMN مما أتاح لقوات قليلة الــتدريب أن تتحرك بمستوى جيد من النظام. والأهم أن تتحرك بسرعة أكبر (مائة خطوة وأكثر في الدقيقة)، وكانت لهذه التشكيلة مزايا أخرى: (1) سهولة قــيادتها (2) مقــدرتها علــى المــناورة (3) مقدرتها على التأقلم مع أية أرض (4) تــوفير العمق الذي برزت أهميته في معركتي ريفولي RIVOLI (1797 ضد النمــسا في إيطالــيا) ومارينغو MARENGO (1800 ضج النمسا أيضاً) وإذا أضيف لها مجموعات القناصة، وزمر المناوشة، واستخدامه البارع للمدفعية، فمن السهل التصور مدى تفوقه التكتيكي على تشكيلة الخطوط الجامدة. مما أتاح له اختراقها بسهولة.

كــان تكتيك نابليون في المعركة يبدأ بهجمات صغيرة من مجموعات القناصة، والمناوشــة، لإشغال تشكيلات الخطوط وإبقائها في حالة اشتباك، ومن ثم إنهاكها عمــوماً، بينما يكون قد ركّز مدفعيته على النقطة التي حددها للاختراق، وما إن

بخرق تلك النقطة وينهنه بقية الجيش بعمليات القناصة ينتقل إلى الهجوم في اللحظة المناسبة قبل أن يستعيد العدو رباطة جأشه، ويعيد تنظيم خطوطه، ولا سيما، نقطة الاختراق. هنا كان يشنّ هجوم المشاة بكل قوة تشكيلة الرتل الذي أعطى الاختراق عمقاً وجبهة. وبهذا جاءت انتصاراته حاسمة.

يلاحظ مما تقدم أن نابليون لم يكن أستاذ الاستراتيجية والعمليات الاستراتيجية فحسب، وإنما أيضاً أستاذ التكتيك وذلك بالجمع البارع بين النيران والحركة والتشكيلة المناسبة واختيار نقطة توجيه الضربة الرئيسة مع اختيار اللحظة الحاسمة لتوجيهها.

أما هزيمة نابليون في ووترلو (1815) فلها مجموعة من الأسباب السياسية والدولية، ولكن إذا أخذت المعركة من الناحية العسكرية الصرف، فقد تفوق عليه ويلنغتون (DUKE OF WELLINGTON - إنكليزي) بالقيادة التكتيكية للمعركة مستفيداً من دروس نابليون نفسه، وهو بهذا المعنى تلميذ له بحق. فقد قام نابليون بمناورة استراتيجية عبقرية حين ركّز قسماً من قواته سرّاً في شارلوروا CHARLEROI، ونصب مصيدة ماكرة على الطريق الرئيسي نامور - نيفل NAMUR-NIVELLES. ولكن ويلنغتون حسب لتكتيك نابليون بدقة فأفاد جداً من طوبغرافية الأرض لحماية جنوده من تركيز نيران المدفعية، وقرر اتخاذ موقف دفاعي بقصد استيعاب نيران المدفعية والصدمة الهجومية التي ستليها، وبرع في إعادة تشكيل قواته بسرعة فائقة لشنّ الهجوم المضاد. وهكذا جاءت معركة ووترلو لتستنفذ أبعاد تكتيك نابليون وتحتاط له بتكتيك مضادّ... الدفاع المدروس جيداً ينتقل في اللحظة الحاسمة وبسرعة فائقة إلى هجوم مضادّ. وهكذا لم ينتصر على تكتيك نابليون غير تكتيك نابليون.

قبل الانتقال إلى التكتيك في القرن التاسع عشر يحسن أن نستعيد ملحوظة إنجلز حول العاملين التقنيين اللذين أديا إلى مساعدة نابليون على تطوير أساليب الحرب: الأول، العربات السريعة الخفيفة حاملة مدافع الميدان التي صمّمها غريبوفال GRIBEAVAL (1715 - 1789) والتي أمنت حركة أكثر سرعة حسب متطلبات الحرب في هذه المرحلة، أما الثاني، فهو إمالة مقبض كعب البندقية الذي

كـــان حتى ذلك الوقت باستقامة امتداد "سبطانة البندقية" وقد دخل هذا التحسين إلى فرنسا عام 1777 نقلاً عن بنادق الصيد، فغدا من الممكن إحكام التسديد على فـــرد محدد من دون خطأ بالضرورة. ولهذا أصبح من الممكن، بفضل هذا التحسين علـــى البندقية، استخدام تكتيك المناوشات الذي كان تطبيقه بالسلاح القديم عديم الجدوى.

التكتيك في القرن التاسع عشر:

كان القرن التاسع عشر عصر الثورة الصناعية والعلمية، وأدى هذا بدوره إلى تطويـــر الأســـلحة، خاصة، البندقية السريعة التي تعبأ من المخزن إلى جانب تطوير المدافع. وإذا ما أضيف إلى ذلك إمكان الإنتاج الغزير، ورخصه بالتالي، إلى جانب شيوع نظام التجنيد الإجباري في كل دول أوروبا؛ فسوف نتصور جيوشاً كبيرة، تشكل المشاة المسلحة بالبنادق السريعة الحديثة قوتها الرئيسة، مدعومة بنسبة ثلاثة مدافـــع ميدان لكل ألف رجل. وهي مدافع ذات نوعية جيدة جداً – طبعاً بالنسبة إلى ذاك العصر.

إذا تـــرجمنا ما تقدم إلى اللغة العسكرية فيعني إن كثافة النيران أصبحت للغاية جداً. وقد عبرت الحرب البروسية – الفرنسية 1870 عن نتائج هذا التطور، ولنترك فـــريدريك إنجلـــز يصف الوضع: "كانت الحرب البروسية – الفرنسية أول حرب يتقابل فيها جيشان، وكلاهما مسلح بالبنادق التي تعبأ رأساً من المخزن. أما ما هو أكثـــر من ذلك فكون كل منهما قد استخدم التشكيلة التكتيكية نفسها..." ولم يكـــن هنالك من فرق بينهما سوى إضافة البروسيين لتشكيلة الرتل تشكيلة الرتل المـــرافق، في محاولة، لإيجاد شكل للقتال ينطبق، بصورة أفضل، على نوع السلاح الجديد.

ويواصـــل انجلـــز: "ولكـــن عندما حاول الحرس البروسي في موقعة سان بـــريفات ST. PRIVAT، في 18 آب/أغسطس، تطبيق استخدام تشكيلة الرتل المـــرافق تطبيقاً جدياً، وإذا بالفرق الخمس المشتبكة، بصورة رئيسة، تفقد أكثر من ثلث قوتها (176 ضابطاً و5114 جندياً) في أقل من ساعتين. فهجرت منذ

ذلـــك التاريخ، تشكيلة الرتل المرافق، بصورة لا تقلّ عن هجران تشكيلة رتل الكتيبة وتشكيلات الخطوط. لقد هجرت كل فكرة تقول بكشف الجيش، بأي شـــكل من الأشكال، كشفاً يضعه ضـمن مدى نيران العدو. ولهذا فقد واصل الألمـــان بقـــية القتال معتمدين على تلك المجموعات التي تشنّ حرب المناوشة. وحلّـــت الأرتال تلقائياً لتتحول إلى مثل تلك المجموعات تحت تأثير وابل مخيف مـــن النيران. ولكن هذه العملية لاقت، أيضاً، معارضة من ضباط المراتب العليا بحجـــة أنهـــا منافية للانضباط الجيد، بيد أنها تشكل، في الوقت نفسه، الشكل الوحـــيد المناسب للتحرك تحت نيران مضاعفة من بنادق العدو. .وهكذا أثبت الجندي، مرة أخرى، أنه أذكى من قائده. فقد كان الفضل يرجع للجنود، حين اكتشفوا، بالغريزة، الأسلوب الوحيد للقتال الذي أثبت جدارته حتى الآن تحت نـيران البنادق السريعة التي تعبأ من المخزن. وقد نفذ الجنود هذا الشكل رغما عن ضباطهم، تنفيذاً ناجحاً".

إذا تـــرجمنا هـــذا التطور إلى عبارات أخرى فسنجد أن سرعة الإطلاق من البندقـــية أعطى للحركة التكتيكية في المعركة كثافة نيران لم يسبق لها مثيل، وهذا يعـــني أن تكـــتيك هجمات المشاة الجماعية أو الفرسان على مواقع الدفاع أصبح تكتيكاً ملغى لأن ازدياد مدى النيران مع الكثافة الشديدة، يفترضان عبور المهاجمين مـــسافة طـــويلة تحـــت مدى النيران قبل أن يصلوا إلى تحصينات الدفاع. ومن ثم سيحـــصدون جماعياً قبل أن يتحقق لهم الالتحام القريب. وهذا يعني بلغة التكتيك العسكري تفوق الدفاع تكتيكياً على الهجوم.

تأكـــيداً على صحة هذه الموضوعة، لنراجع دروس الحرب الأهلية الأميركية حيث تميّزت:

1. جيشان ضخمان كل منهما قد تجمد خلف تحصيناته بانتظار هجوم الآخر وقد ركدت الجبهة وامتدت على خطّ طويل جداً.
2. استخدام شبكة المتاريس والخنادق من قبل القوات المدافعة.
3. زيادة كثافة نيران الدفاع مع شيوع استخدام البندقية السريعة التي تعبأ من المخزن.

عندما كان الجنرال روبرت إدوارد لي LEE (قائد أميركي شمالي 1807 - 1870) في موقــف دفاعـي ركّز قواته بين متاريس من الخشب كغطاء للمدافعين. مما شـكّل عقبات في طريق المشاة المهاجمة. وكان هذا هو حال القوات الأخرى وهي في حالة الدفاع. لقد أدى هذا الوضع إلى رجحان كفة الميزان في مصلحة الـدفاع، لا في مصلحة الهجوم، لأن المدافع المتمترس مغطىً جيداً، وقادر على ضـرب المهاجمين من مسافة بعيدة، وهنا كان على المهاجم قطع مسافة طويلة تحت نيران كثيفة، وبعد ذلك كان عليه أن يكافح لتجاوز المتاريس أو الخنادق. ولهـذا كان أي هجوم بتشكيلة كبيرة يعني خطر الإبادة، ولم يكن من الممكن أي تحـرك ضمن هذا الظرف إلاّ لوحدات صغيرة - وحدات مناوشة - فقط، لأنــه كـان باستطاعتها أن تدور خلف المتاريس، أو تتقدم تحت غطاء نيران كثـيفة. أمـا تقـدم تشكيلة كبيرة من المشاة فقد أصبح مغامرة غير محمودة العواقب.

لم تـستطع قوات الشمال أن تحرك وضع الحرب إلاّ حين أحدثت تناور حول معـسكر ميل سبرينغ MILL SPRING المحصن، في محاولة، لإيهام القائد الجنوبي زولـسوفر ZOLLICOFFER للمدافعين الجنوبيين أن أمامه قوة صغيرة. ولما ابتلع زوليـسوفر الطعم خرج بقواته من وراء التحصينات، وإذا به يواجه بقوة متمرسة مـتفوقة... فتمزق جيشه وراح الشماليون يتابعون المعركة والملاحقة حتى حققوا انتـصاراً حاسماً... وهكذا بدأت نقطة الانعطاف في تدهور وضع الجنوبيين الذين لوبقـوا خلـف خنادقهم، ولم يوزعوا معسكراتهم عن بعضها كثيراً، لكان على الشمال أن يقاتل أمداً أطول بكثير.

عندما أخذ القرن التاسع عشر يقفل أبوابه وافتتح القرن العشرون بالحرب الروسية اليابانية 1904 - 1905، كان الدفاع قد قفز خطوة أخرى إلى الأمام، مع اختراع المدفع الرشاش والأسلحة الرشاشة الخفيفة.. وزادت الخنادق عمقاً، وشيدت التحصينات الإسمنتية، ومدت شبكات الأسلاك الشائكة... وقد أدت هذه التطورات إلى تحويل هجمات المشاة الجماعية، في ذلك الحين، إلى مغامرة خرقاء تماماً.

- 3 -

التكتيك في الحرب العالمية الأولى

عندما اندلعت الحرب العالمية الأولى لم يكن الجنرالات في كلا الطرفين المتحاربين قد أدركوا أبعاد الطور الجديد الذي مال إلى الدفاع، ولم يفيدوا مطلقاً من دروس الحرب البروسية - الفرنسية، أو الحرب الأهلية الأمريكية، أو الحرب الروسية - اليابانية في جبهة منشوريا، فظلّوا يعيشون ضمن أوهام الهجوم الجماعي والشجاعة والحربة، وقدروا أن زيادة أعداد المدافع - أصبحت ستة لكل ألف رجل مع تحسين نوعيتها أكثر كما كثافة نيرانها - ستتكفل بالخنادق والمتاريس والأسلاك الشائكة وأعشاش الرشاشات. ولم يقتصر الأمر على القادة الفرنسيين في التغني بميزات الهجوم وتفوقه على الدفاع، إذ راح الجنرالات الإنكليز وكذلك الألمان يعزفون على الوتر إياه.

انطلقت الأوامر تُصدر بشنّ الهجمات الكثيفة الجماعية لاكتساح مواقع الدفاع بهجمات جبهية. وكانت النتيجة ارتفاع أرقام الضحايا ارتفاعاً مريعاً دون نتيجة تذكر. أما عمليات الالتفاف على الأجنحة فكما سبق وقلنا، دخلت مأزقاً مسدوداً هي الأخرى عندما تبين أن سرعة جلب الاحتياط تضاهي سرعة الالتفاف وكذلك سرعة انسحاب الجناح تعادل سرعة الاختراق. مما أسفر عن عملية التفاف فعملية التفاف مضاد، فعملية التفاف مضاد... وهكذا تجمدت الجبهة من سويسرا حتى بحر الشمال وأصبحت حرب خنادق وحرب استنزاف طويلة حتى بدت وكأن لا نهاية لها، كما دلت معركتا فيردوم VERDUM وسوم SOMME.

راح الجنرالات يجربون تكتيكات جديدة لمعالجة الدفاع المتمترس وراء المدافع الرشاشة والأسلاك الشائكة والتحصينات والخنادق. وكان أمامهم:

أولاً: استخدام المدفعية على نطاق أوسع وأكثف لدكّ أعشاش الرشاشات فزادت نسبتها إلى عشرين مدفع لكل ألف رجل بالإضافة إلى الدعم قصير المدى الذي أمنه الهاون. ويقول ليدل هارت إن كثافة النيران ارتفعت في عام 1917 إلى وجود مدفع لكل خمسة أو ستة أمتار في الجبهة التي يشنّ عليها الهجوم، أي أكثر

مـــن مائتي مدفع لكل كيلومتر واحد. وبالمناسبة، يقول ليدل هارت أيضاً إن مدفع الهاوتزر أثبت فعالية في سحق التحصينات أكثر من مدافع الميدان الأبعد مدى.

كـــان اســـتخدام المدفعية أساس تكتيك نابليون بقصد فتح ثغرة لشنّ هجوم المـــشاة وكـــان هذا التكتيك ينجح غالباً حين يكون القصف فعالاً لشلّ المدافعين مؤقـــتاً، أما التكتيك المضادّ فكان الدفاع المرن ELASTIC DEFENCE حيث يغطى الخـــطّ الأمامـــي للدفاع بقوة خفيفة بينما تنتظر غالبية قوة الدفاع في الخطوط الخلفية لكـــي تـــسحق الهجـــوم عندما يبدأ الاختراق، أو لتشنّ الهجوم المضادّ حين يتصدع الهجوم.

تـــبين لجنـــرالات الحـــرب العالمـــية الأولى أن اتساع الجبهة وتفرق أعشاش الرشاشات وحسن توزيعها وتمويهها يقتضي كثافة نيران أكثر مما تصور أي جنرال، وهـــنا جـــاءت صعوبة نقل الذخائر اللازمة لمثل هذا المستوى من النيران، ولمدى طـــويل، ولهـــذا كان من الصعب المحافظة على مستوى كثافة النيران بعد الدفعات الأولى من الإطلاق. ثم تبين أيضاً:

1. إن تركيز النيران ومدتها الطويلة أفقد المهاجمين ميزة عنصر المفاجأة وأعطى العدو فرصة حشد احتياطه لشنّ هجوم مضادّ بعد سكوت المدفعية وشنّ هجوم الاختراق.
2. إن الـــدكّ الكثيف بالمدفعية يقلب الأرض ويجعل حركة المهاجمين بطيئة، ويمنع الآليات العجلية من التقدم على أرض حرثتها القنابل وملأتها بالركام والحفر.
3. مهمـــا كـــان القصف شديداً لا بدّ من أن تفلت بضعة رشاشات لتكلف الهجوم الجماعي للمشاة غالياً، إن لم تحبطه تماماً.

ثانياً: حاول الجنرالات استخدام القنابل الدخانية، ولكن هذه لم تؤدّ إلى تغيير يعدل ميزان تخلف الهجوم، بالتكتيك التقليدي المتبع.

ثالـــثاً: كـــان الحـــلّ التكتيكي الحقيقي لهذه المعضلة يكمن في استخدام الدبابات:

1. إنها مصفحة محمية من نيران الرشاشات ومن الشظايا.

2. أتاحت سلاسل الدبابات (جنازيرها) إمكانية تجاوز الأسلاك الشائكة والمتاريس والخنادق فضلاً عن الحفر والدمار بسبب القصف المدفعي.

رابعاً: إن تركيز الدبابات باستطاعته أن يقوم بعملية الاختراق كما باستطاعته التحرك بسرعة وفي العمق.

هذا يعني أن سلاح الدبابات كان يمكن أن يحلّ مشكلة اختراق تحصينات الدفاع ويعيد للهجوم قوته، كما كان من الممكن لسلاح الدبابات أن يعيد الحياة للحرب المتحركة ولعمليات الالتفاف على الأجنحة. لأن نجاح الهجوم يشترط أن تكون حركة الالتفاف أو الاختراق والتغلغل أسرع من الانسحاب أو جلب الاحتياط. وكان هذا ما يمكن للدبابات أن تؤمنه. وكان هذا هو السبب، في تحول الحرب العالمية الأولى إلى حرب قوة نيران وليس حركة. وذلك حين لم يستفد من الدبابات كما يجب.

عندما ظهرت الدبابات، لأول مرة، في معركة السوم SOMME في تموز/يوليو 1916 أجهضت تجربتها للأسباب التالية:

1. لم تُركز، ولم يكتشف بعد التكتيك المناسب لها.
2. لم يُحسن تنظيم التزويد والتموين والصيانة لتلبية حاجات حركة الدبابات.

ولكن تكتيك استخدام الدبابات كسب أهمية خاصة، لأول مرة، في معركة كامبري CAMBRAI، تشرين الثاني/نوفمبر 1917، وإن كانت معركة أراس ARRAS – نيسان/أبريل 1917، قد مهدت له إذ بدل القصف الشديد الطويل قبل الهجوم، لم يعد للمدفعية أن تبدأ قبل ساعة الصفر، وقد استخدمت الدبابة كدرع مصفحة، مسلحة بمدفع رشاش، تتقدم المشاة مما سمح للهجوم بأن يكون ناجحاً. ولكن هذا التكتيك جعل الدبابة بطيئة مرتبطة بسرعة أقدام المشاة، ولم يكشف عن كل الإمكانات الكامنة في هذا السلاح الجديد.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وبقي الدفاع في أوجه، وإن كان مقامه قد تدنى نوعاً ما عن بداية الحرب 1914. أما الهجوم فكان مصيره الفشل إلاّ بعد أن يكون في الدفاع، ويتحول إلى هجوم مضادّ بعد تصدع هجوم العدو. لقد جاءت

هجمـــات ربـــيع 1918 الألمانية نتيجة لفشل هجمات الحلفاء 1917، ولكن فشل هجـــوم الربيع أمام الدفاع مهد الأرض لهجوم الحلفاء المضادّ في أوائل خريف 1918، والـــذي انتهى باستسلام ألمانيا. وبالمناسبة جاء هجوم الحلفاء 1915، 1916 نتيجة لفشل هجمات ألمانيا 1914 أيضاً. ولكنه عاد وتجمد أمام الدفاع الألماني.

إن عـــدم مقدرة جنرالات الحرب العالمية الأولى على التأقلم مع الأسلحة الجديـــدة - المدفع الرشاش والمدفعية الثقيلة والدبابات - جعلهم يعجزون عن اســـتنباط تكتـــيك جديد يستطيع التصدي لخنادق الدفاع وأسلاكه الشائكة ورشاشاته، وكان الثمن دفع الملايين من الجنود في تكتيك غبي ليذبحوا بالجملة. بـــل إنهـــم فشلوا في أكثر الأحيان في إدراك مغزى تكتيك نابليون في استخدام المدفعية.

لم يدركـــوا أن نابليـــون قـــد جمـــع جمعاً صحيحاً بين نيران المدفعية وبين الحـــركة،ولم يكـــن الجانـــب الـــتدميري للمدفعية غير مرحلة من مراحل الحركة التكتيكـــية، وكان نابليون يقول "لا تستطيع الأرتال خرق الخطوط من دون دعم نـــيران مدفعـــية متفوقة تمهد لشنّ الهجوم" أما الجنرال بيتان PETAIN فقد اعتبر المدفعـــية هي التي تقوم بمهمة سحق العدو، وما على المشاة إلاّ دخول أرض محروثة لاحـــتلالها، والقيام ببعض التنظيفات. ثم لم يدركوا أن تكتيك نابليون ذاك لم يكن يـــواجه مدافـــع رشاشة وبنادق سريعة لا تتوقف نيرانها، فيما رماتها غير منظورين خلف الخنادق والمتاريس والأسلاك الشائكة.

لنتذكر، مرة أخرى، أن أساس التكتيك:

أ. الأسلحة والطريقة المناسبة لاستخدامها وأشكال تعاونها.

ب. تـــبني تـــشكيلات تتناســـب مع التطور التقني للسلاح وكثافة النيران والمساحة.

ج. الإفادة من الأرض.

د. النيران والحركة.

إن التكتيك الحديث في عصر الآلية والتقنية المتطورة لا بدّ من أن يقوم أساساً علـــى التأقلم الصحيح بين النيران والحركة والتشكيلات والأرض والمساحة. ولكن

القـادة الأغبياء ينسون كل هذه العناصر فيعقدون كل آمالهم على القوة التدميرية للسلاح الحديث فقط. وهذا ما فعله قادة الحرب العالمية الأولى وكانت النتيجة، ما إن تستقر الجبهة على حرب خنادق حتى يتغيب تكتيك الحركة والمناورة من ساحة المعـركة وذلك بالرغم من أن كل مقومات الحرب المتحركة كانت متوفرة (غطاء نـيران كثـيف، نقـل آلي سـريع، تطور المصفحات والدبابات وبدء استخدام الطائرات) - ولكن لم يفد من ذلك.

إن الخطـأ يكمن في عدم إدراك أهمية تأقلم التكتيك مع كل سلاح جديد وحالـة جديـدة... وإذا حددنا أكثر نقول إن الخطأ يكمن في النظرة أحادية الجانـب. وذلك في تفسير التكتيك بأحد عناصره فقط أي التفوق في السلاح والتقنـية والقـوة التدميرية. إن تحقيق النصر بقوة السلاح وحده غير وارد، في الحرب الحديثة، حتى عندما يكون التفوق كبيراً، أو على الأدق، لم يحدث هذا إلاّ على ندور.

بـل إن باليت يقول: "إن إنـزال التدمير عن طريق التفوق في السلاح ليس تكتـيكاً إنـه حلّ آلي في غياب التكتيك. لأن قوة السلاح حين تجمع مع الحركة تحقـق الـزخم الضروري للتنفيذ التكتيكي"، ويضرب مثلاً على الحلّ الآلي حين يقتـصر على كثافة قصف المدفعية لتدمير المدافعين - بقوة القذيفة - وكذلك هو الحـال بالنـسبة إلى هجمـات المشاة الجماعية من دون غطاء النيران لأن جوهر التكتيك هو الجمع بين النيران والحركة.

وكذلك بالنسبة إلى الدفاع حين يتمسك بموقع ثابت معتمداً على قوة النيران لتحطـيم المهاجمين. لأن هذا حل آلي أيضاً وليس تكتيكاً، إذ من دون خطة حركة على شكل مناورة للتركيز في اللحظة والمكان المناسبين، أو على شكل شنّ هجوم مـضادّ بالجمع بين قوة النيران والحركة، لن يكون تكتيكاً بالمعنى العميق للكلمة، ولن يؤدي إلى تحقيق نصر حاسم.

ولهـذا لا يمكن الحديث عن فنّ علم الحرب من دون إدراك هذه الحقيقة الأساسـية ألا وهي الجمع الصحيح بين قوة السـلاح والحركة في الدفاع أو في الهجوم.

وقبل الانتهاء من دروس التكتيك في الحرب العالمية الأولى يحسن أن نراجع بعض الملحوظات التي طرحها ليدل هارت في مجلّده الضخم حول الحرب العالمية الأولى. يتساءل ليدل هارت "لو أن ألمانيا بدلاً من إلقاء كل إمكاناتها العسكرية في سلسلة هجمات ضخمة في عام 1918، وقفت في الدفاع في الغرب بينما راحت تعزز مكاسبها في الشرق، هل كان بإمكانها أن تتجنب الهزيمة؟"، ولنأخذ تجربة 1915 عندما كان الحلفاء يمتلكون 145 فرقة في الغرب في مقابل مائة فرقة ألمانية، وكانت شبكة خنادق الألمان ضعيفة، وسطحية بالمقارنة مع شبكة خنادقهم وتحصيناتهم عام 1918، ومن هنا يصعب رؤية الحلفاء يخترقونها حتى لو انتظروا تدفق القوة البشرية الأميركية، ليعودوا إلى تفوقهم العددي الذي تمتعوا به عام 1915. ويقول إنه كان بمقدور الألمان، في أسوأ الحالات، الدخول بصلح أفضل كثيراً من نتائج صلح فرساي.

حقاً إن هذه الملحوظة صحيحة من الناحية العسكرية الصرف، ولكن الأخطاء الاستراتيجية لم تكن فقط بسبب أخطاء عسكرية صرف لأنها كانت محكومة أيضاً بتدهور الوضع الداخلي في ألمانيا – شبه مجاعة، وتفجر ثورة داخلية – ولكن الذي يهمنا هنا هو الجانب التكتيكي الذي أدى إلى عدم إدراك القوانين التي كانت تحكمه في الحرب العالمية الأولى إلى أخطاء استراتيجية بسبب عدم التقويم الصحيح لإمكانات الدفاع والهجوم، والأهم عدم إيجاد الحلول التكتيكية المناسبة التي يجب أن يتبناها الهجوم للخروج من مأزقه.

المشكلة هنا في سمة الجمود في العقل عند موضوعات كانت صحيحة، ثم تأخره عن التقاط المعادلة الجديدة.

وأخيراً يجب ألاّ ننسى ونحن ندرس الجوانب التكتيكية في الحرب العالمية الأولى، سائر العوامل الأخرى التي أفرزت نتيجة الحرب، وإن كانت النقاط التي تناولناها من الناحية التكتيكية قد لعبت دوراً رئيساً من الناحية العسكرية الصرف. ولكنها لوحدها ليست السبب الوحيد. لأنها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالمسائل الأخرى الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والحالة المدنية والتحالفات.

دروس التكتيك في الحرب العالمية الأولى

كانت تجربة الحرب العالمية الأولى ملأى بالدروس الاستراتيجية والتكتيكية، وحبلى بولادة تكتيك جديد. ولكنها كأية تجربة أخرى لا تعني دراستها، بالضرورة، أن يخرج كل من يدرسها بالدروس الصحيحة، فهنالك من سيتلقى دروسها، بصورة سطحية، وهنالك من سيتلقى دروسها، بعمق، ليخرج بالاستنتاجات المناسبة، أو قل، بموضوعات مناسبة للعمل مستقبلاً.

نظرة متسرعة إلى تلك التجربة، ستقود إلى القول إن الدفاع متفوق جداً على الهجوم، وإن أفضل استراتيجية وتكتيك هو خطّ الدفاع المتراصّ المدعوم بالخنادق والأسلاك الشائكة والمدافع والرشاشات. ومن الغريب أن الذين أصدروا الأوامر لهجمات المشاة الجماعية الكارثية في الحرب العالمية الأولى، كانوا أصحاب "النظرية" الجديدة.

في الواقع، لم تستطع قيادات الجيوش الأوروبية أن تستخلص الدروس الجديدة، وبقيت تعيش ضمن المعطيات التي عاشتها في الحرب العالمية الأولى، وكأن الحرب ستكرر نفسها مرة أخرى. ولكن التفكير المبدع في استخلاص دروس تلك الحرب، وفي التأقلم مع التطورات الجديدة التي شاهدتها السنتان الأخيرتان في الحرب، أعني الدبابات والطائرات، جاء عن طريق ضباط صغار مغمورين، ويمكن ذكر اتجاهين أساسيين بهذا الخصوص:

الأول: كتب ضابط فرنسي برتبة رئيس واسمه لافارغ LAFARGUE (كراسة تحدث فيها عن تجربة الهجوم في الحرب العالمية الأولى. وقد لاحظ أن "بعد توقف المدفعية عن قصف مواقع الدفاع قصفاً كثيفاً، وبدء هجوم المشاة الجماعي، كان لا بدّ من أن يفلت رشاشان أو ثلاثة، وكان هذا كافياً لضرب هجوم المشاة. وعندما تقضي الضرورة إعادة القصف المدفعي لإسكات الرشاشات المتبقية يكون الألمان قد أعادوا تعزيز مواقعهم لتعاد الكرة من جديد".

وجد لافارغ الحلّ عن طريق أن يحل مكان هجوم للمشاة الجماعي هجوم وحدتين صغيرتين من المشاة الخفيفة تحملان رشاشات صغيرة وقنابل يدوية وتشقان طريقهما عبر الفجوات التي فتحها القصف المركز، ثم تتمركزان في قلب جبهة

الـــدفاع، وتـــشتبكان بالرشاشات والقنابل اليدوية مع جيوب المقاومة المتبقية من خلفها، وهذا يؤمن غطاء كافياً للهجوم العام لاكتساح الدفاع.

حـــصر لافـــارغ فكرته على مستوى هجوم سرية أو كتيبة، ولكن تبين أن نظريته يمكن أن تطبق على مستوى لواء وفرقة.

لم يعبأ أحد بكراسة لافارغ ولكن الألمان ترجموها واهتموا بها اهتماماً خاصاً، بل إن الجنرال إيريك لوديندورف LUDENURV كتب حولها كتاباً، ودخلت في برنامج تدريب الجيش الألماني.

الـــثاني: قامـــت مجمـــوعة من الضباط وعلى رأسهم ليدل هارت، وهارت هوبارت HUBERT ومعهم الجنرال فوللر بطرح نظريات حول استخدام الدبابات بوصـــفه سلاحاً تكتيكياً يستطيع أن يعمل مستقبلاً في إحداث الاختراق بدعم من الطيران. وطرح ليدل هارت نظرية الحركة الآلية الحيوية في المعركة، أو على الأصح مـــسألة إمكـــان إعـــادة الحياة للحرب المتحركة بمحتوى جديد أساسه الدبابات والآلـــيات المـــصفحة والطيران وكتب شارل ديغول وآليو في فرنسا بالاتجاه نفسه أيضاً.

لم يكـــن مصير هذه النظريات يختلف عن مصير نظرية لافارغ: إهمالاً كاملاً مـــن قيادتي الجيش البريطاني والجيش الفرنسي، واهتماماً بالغاً من قبل قيادة الجيش الألماني التي حاولت أن تجمع بين موضوعة لافارغ وموضوعات ليدل هارت وفوللر وهـــوبارت، وأخـــذت تجـــري التجارب على إيجاد الصيغة للتكتيك الأنسب في استخدام الآلية المتطورة بالاعتماد على تطوير الموضوعات المذكورة أعلاه.

كـــان الفكر العسكري السوفياتي قد راح يسير بتوازٍ مع أرقى ما توصل إليه التفكير الجديد في الغرب - على مستوى الضباط الصغار - ومع التجارب الألمانية للـــتأقلم مـــع الأســـلحة الجديـــدة. بل كانت النظريات التكتيكية والاستراتيجية الـــسوفياتية قـــد تناولت المسائل التكتيكية الدفاعية المضادة لاحتمالات التكتيك الجديد أيضاً.

ثمـــة نظرية أخرى نشأت في هذه الفترة تتعلق بالطيران تبناها دوهي DOUHET الإيطـــالي وميتـــشيل MITCHELL الأميركـــي وترينـــشارد TRENCHARD

البريطاني، وقد راح هؤلاء الجنرالات يؤكدون على الأهمية الاستراتيجية لقاذفة القنابل، وطالبوا بتبني استراتيجية جوية مستقلة. ولقد نبعت هذه النظرية من القوة التدميرية الهائلة لحاملة القنابل مما جعل حروب المستقبل تحت رحمة الجو، أما القوات الأرضية فقوى مساعدة.

إذا أمعنا النظر في هذه النظرية فسنجدها تقف على رجل واحدة وهي الاعتماد على قوة النيران فقط، في حين اهتم الاتحاد السوفياتي بكل التطورات الحديثة على حد سواء: الدبابات والطيران، وخرج بالموضوعة التي تقول بجعل قوات الجو والأرض فريقاً تكتيكياً متعاوناً لتحقيق هدف استراتيجي مشترك. وكان التفكير الألماني يتجه إلى الأخذ بهذا الاتجاه.

إن جوهر النظرية المقابلة لنظرية "استراتيجية جوية مستقلة" تتلخص بالجمع بين سلاح الطيران والدبابات والمشاة المحمولة. وجاءت الممارسة لتؤكد صحة هذه النظرية وتكشف عن نواقص - وعدم كفاية - نظرية دوهيت وميتشيل وترينشارد.

هذا وسنجد لاحقاً من كرر الخطأ نفسه في إعطاء الطيران دوراً مستقلاً في كسب المعركة لدى عدد من جنرالات ما بعد انتهاء الحرب الباردة. وكان من بينهم الجنرال حالوتس الذي قاد العدوان الإسرائيلي على لبنان في حرب تموز/يوليو 2006. وقد بنى خطته الفاشلة على كسب الحرب أو حسمها من خلال القصف الجوي والصاروخي.

- 4 -

التكتيك في الحرب العالمية الثانية:

عندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وأخذ الحلفاء يتهاوون أمام جيوش هتلر التي حققت انتصارات كاسحة في أوروبا، في عامي 1939 - 1940، وسقطت فرنسا وعدد من بلدان أوروبا الغربية والشرقية، وحوصرت بريطانيا في جزرها، راح الصحفيون ومعهم نشرات الأخبار يرجعون السبب في انتصارات هتلر

العسكرية إلى التفوق الكاسح بالدبابات، وأصبحت كلمة بليتزكريغ BLITZKRIEG – وهو الاسم الألماني الذي أعطي لتكتيك الدبابات – تحمل معنى التفوق الكاسح بالدبابات، بينما، في الحقيقة، كان الحلفاء في فرنسا هم الذين يملكون التفوق بالدبابات والمشاة في أيار/مايو 1940. فقد غزا الألمان أوروبا الغربية بست وثلاثين فرقة فيها 35 كتيبة دبابات (2574 دبابة) نـزلت ضد 3500 دبابة للحلفاء، وكان للألمان تفوق على سلاح الجو الفرنسي. ولكن ليس إذا جمع مع سلاح الجو البريطاني. ولكن النازيين هزموا الحلفاء بتكتيك متفوق في استخدام سلاح الدبابات وليس بالعدد أو النوعية، بالرغم من كون نوعية الدبابة الألمانية أفضل نسبياً.

إن تكتيك بليتزكريغ، في حقيقته، عبارة عن اختراق جبهة العدو من نقاط قليلة محددة – نقطتان أو ثلاث نقاط، يسبقه قصف مدفعي وجوي، ثم يشق رتل الدبابات المركزة طريقه ليمضي متغلغلاً في العمق وليبدأ عمليات مناورة استراتيجية خلف خطوط الدفاع تسيطر بها على الطرقات الرئيسة ومراكز محطات القطارات، وبهذا يحصر الجسم الرئيسي للدفاع بين فكي كماشة. إن هذا التكتيك هو جمع بين موضوعة لافارغ وبين موضوعة ليدل هارت حول "الأهداف غير المحددة" وديناميكية الحركة. وقد أصبح تكتيك بليتزكريغ يعرف في بعض الأوساط "بالحرب الصاعقة".

تبدأ العملية بتجميع معلومات لتحديد الفراغات، أو نقاط الضعف في جبهة العدو سواء أكان الاختراق على مستوى فرقة أم سرية. ثم يبدأ هجوم عام وهمي لتثبيت المدافعين بينما تُركّز الدبابات على الثغرات المحددة لتشقّ طريقها بعد تمهيد سريع من القصف المدفعي والطيران. ومن الواضح أن نجاح الاختراق مسألة شبه حتمية ما دام موجهاً ضد نقطتين أو ثلاث وبتركيز شديد جداً.

عندما يتمّ الاختراق تظلّ جوانب الثغرات مفتوحة بوساطة المشاة الذين يلحقون الدبابات بالدراجات والآليات السريعة، بينما يستمر رتل الدبابات بالتغلغل في العمق من اتجاهين أو ثلاثة. وذلك من أجل قطع خطوط المواصلات ووقف تموينات العدو المركزية ومواصلاته الأساسية، ثم تتبعها المشاة المحمولة عبر

الثغـرات التي فتحت وحميت. وهنا يصبح بالإمكان فرض نصر في معركة حاسمة. لقـد اكتشف النازيون، في أثناء دراستهم لهذا التكتيك من كل جوانبه أن كل ما يحتاجون إليه هو فتح ثغرتين أو ثلاث ثغرات تكون كل منها بعرض كيلومتر أو كيلومترين. ودرسوا عدد القوات المطلوبة في كل مرحلة كذلك.

تتركز نقاط الضعف في هذا التكتيك:

1. يكشف جناحي رتل الدبابات المتقدم، ولكن النازيين اعتمدوا، بحقّ، على المفاجأة والسرعة لتحطيم معنويات العدو وشله وضعضعة موقفه بشكل لا يتيح له أن يفكر بشنّ الهجوم المضادّ على تلك الأجنحة إلاّ بعد أن تكون المشاة المحمـولة قد لحقت برتل الدبابات وأصبح الجيش كله (الفرقة أو الفيلق) متواجداً.
2. عـدم توفـر نيران دعم كافية بعد الاختراق، أي في أثناء التغلغل، لأنه لم يكن بالإمكان الإفادة من المدفعية القديمة بسبب بطء حركتها بالمقارنة مع حركة الدبابات. وجاء الجواب باستخدام الطائرات للتعاون التكتيكي، خصوصاً قاذفة القنابل، أي أنها أخذت تقوم بدور المدفعية الطائرة والتي تستطيع مجاراة سرعة تقدم الدبابات وتمهد الطريق لها. في الواقع كان ليدل هـارت قـد تحدث عن هذه النظرية في العشرينيات من القرن العشرين.
3. صـعوبة احتلال الأرض المخترقة وهذه مهمة المشاة، ولهذا كان الحلّ عن طريق نقل المشاة بعربات آلية، من خلال شاحنات صغيرة مصفحة.

كانـت نظرية الحلفاء تعيش في مفهوم خطّ الدفاع الطويل الثابت (خط ماجينو في فرنسا مثلاً) وقد وزع الجيش الفرنسي أكثر من نصف دباباته على وحـدات صـغيرة موزعة على طول الجبهة، لدعم معركة المواقع الجامدة، أما النصف الآخر فقد دخل المعارك على دفعات متفرقة فيما جمع الألمان عشر فرق بانـزر PANZER في ثـلاث فيالق بانـزر PANZER ووزع هذا التركيز الهائل على ثلاث نقاط فقط هي دينانت DINANT ومونتيم MONTHEME وسيدان SEDAN.

إن نجـــاح تكتيك بليتزكريغ كشف ضعف مفهوم خطّ الدفاع الجامد، وهو مفهـــوم ركّز على قوة النيران الدفاعية لإنـــزال الهزيمة بالهجوم معتمداً على الوهم بـــأن هجـــوم الألمان سيكون على نمط هجمات الحرب العالمية الأولى، أي هجوم بالمشاة على طول خطّ الدفاع، وما على المدافعين إلاّ الصمود أمام تكرار محاولات الهجوم حتى يتصدع ثم يبدأ الهجوم المضادّ. ولكن قوات البانـــزر طبقت تكتيكها المتحرك بتركيز ثلاث أو أربع فرق على جبهة كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات. مما جعل الاختراق محتوماً. ولم يكن لدى الغرب تكتيك مضادّ لهذا التكتيك.

كـــان خـــطّ الـــدفاع - ولـــنأخذ خطّ ماجينو - عندما يخترق يصبح من الـــضروري سحبه كله من أجل المحافظة على تماسك الخطّ الدفاعي. وقد رأينا أن هـــذه العملية كانت ممكنة في الحرب الأهلية الأميركية، وجبهة منشوريا والحرب العالمية الأولى، عندما كانت سرعة الهجوم متوقفة على سرعة اقدام المشاة. ومن ثم كان الانسحاب، أو جلب الاحتياط يمتلك فرصة كافية، وبالسرعة نفسها. أما في حـــركة بليتزكـــريغ الـــسريعة فلم يكن من السهل الانسحاب لإعادة لحم خطّ الدفاع...

ولكن لو فرضنا أن هذا التراجع لم تدبّ فيه الفوضى وكان باستطاعته إعادة لحـــم خطّ الدفاع الثاني إلاّ أنه لا يستطيع أن يتكرر إلى ما لا نهاية، ولا بدّ له من لحظة الالتقاء مع العدو في عملية هجوم مضادّ.

بدايـــة يجـــب الإيـــضاح أن الجـــواب السوفياتي عن كيفية مواجهة تكتيك بليتزكـــريغ لم يكن جاهزاً ومعداً له منذ البدء ولكن كان ضمن إطار تصور عام ثم تـــبلور تدريجاً بعد الاختراق الألماني وسلسلة من القصور والنواقص التي أشير إليها بعـــد تقريـــر نيكيتا خروتشوف (توفي 1971) الشهير في المؤتمر العشرين للحزب الـــشيوعي السوفياتي (1957) حيث انتقد ستالين بعدم الاستعداد الكافي للحرب. وهو ما كلف الكثير من الخسائر والتضحيات. ولكن المهم كيف صاغ السوفيات الجواب؟

لم يكـــن تكتـــيك بليتزكريغ مفاجأة كاملة للسوفيات، فقد كان الجنرالات الـــسوفيات يدركون أن اختراق خطوط الدفاع الأمامية من نقطتين أو ثلاث نقاط

مسألة شبه حتمية مع التركيز الشديد للدبابات والتمهيد بالقصف المدفعي والطيران. لذلك فإن الحلّ لن يكون على طريقة خطّ ماجينو، وإنما على شكل شبكة واسعة وعميقة من النقاط الدفاعية المركزة في العمق.

اخترقت فيالق البانزر التابعة للجنرالات غوردريان GURDERIAN وهوث HOTH وربنهارت REINHARDT الجبهة السوفياتية وراحت تتغلغل بمناورات استراتيجية ماهرة في الأرض السوفياتية، وأخذت رؤوس السهام المدرعة الألمانية تلتف وتحاصر الجيوش السوفياتية لتضعها في مصائد أو جيوب سماها الألمان KESSELS. ولكن القوات السوفياتية لم تتراجع ولم تستسلم واستخدمت مواقعها المحاصرة لتصبح حصوناً دفاعية، واستمرت في المقاومة حتى حين كانت معزولة تماماً.

وهنا أسقط بيد الجنرالات الألمان. ولم يفهموا كيف يمكن لجيش بين فكي كماشة ومعزول أن يستمر بالمقاومة ولا يستسلم. فقد كان هذا غير ما تعلموه في الأكاديميات العسكرية وغير ما عهدوه في الجبهة الغربية. وراحوا يستفسرون من برلين لإيجاد الحلّ لهذا النوع من المقاومة، والأكثر لهذا النوع من شبكة الدفاع العميق المركز.

ولكن السوفيات لم يستهدفوا فقط إقامة نقاط دفاعية مركزة في العمق، وتحويل الجيوش المحاصرة إلى قوة مقاومة لا تستلم، أي لم يستهدفوا الدفاع والتركيز على قوة النيران فقط، وإنما أرادوا استخدام كل ذلك لممارسة الحركة والمناورة الاستراتيجية والتكتيكية من هذه النقاط أي الدفاع الإيجابي.

فمثلاً إن النقاط الدفاعية، أو الجيوش التي أصبحت في طوق الأسهم المدرعة تعمد إلى استمرار المقاومة الدفاعية العنيدة جنباً إلى جنب مع شنّ الهجمات المضادة ليس بقصد إعاقة حركة عدد كبير من الدبابات المهاجمة فحسب، وإنما أيضاً لمنع مجيء المشاة المحمولة والمدفعية لتعزيز اختراق الدبابات، ومن ثم منعها من اللحاق برأس السهم المدرع الرئيس. وعندها يفصل جسم الهجوم عن رأسه الحديدي – الدبابات – وبعد ذلك يخضع القسمان المنفصلان إلى سلسلة من الهجمات المضادة المنسقة بين مختلف نقاط المقاومة وكذلك قوات "الأنصار" (الغوار أو العصابات) والمقاومة الشعبية الشاملة.

هـــذه هـــي، نظرية الدفاع الحيوي النشط (الديناميكي) الذي أساسه المناورة والحـــركة ولـــيس قـــوة النيران فقط كما كان حال نظرية الخطّ الدفاعي الثابت LINEAR DOCTRINE. ويقول باليت إن الحلفاء الغربيين عادوا واستفادوا من التكتـــيك الـــسوفياتي في معارك شمالي إفريقيا وغربي أوروبا في ما بعد. كما طبقه الألمان عندما فتحت الجبهة الغربية ضدهم.

يناقش ليدل هارت في كراسته "الثورة في الحرب" شيوع الفكرة الخاطئة التي تقول إن اتساع الأرض السوفياتية وصلاحيتها للدفاع هو السبب في فشل الهجوم الألمـــاني، ويـــؤكد أن هذه النظرية خاطئة تماماً لأن اتساع الأرض السوفياتية أتاح للهجوم الألماني مجالات اختراق أوسع. ليس هذا فحسب، وإنما أيضاً، أتاح له قوة مناورة هجومية بالرغم من عدم تفوقه في الدبابات والطائرات. إن اتساع المساحة والمهـــارة التكتيكـــية فـــسحا مجـــالاً واسعاً للمناورات الألمانية في داخل الأرض الـــسوفياتية. ويقـــول إن مـــن الأمور التي ساعدت الهجوم الألماني تلك الهجمات المـــضادة الأولى التي شنّها الجيش الأحمر قبل الأوان. وكانت النتيجة سقوط خيرة تشكيلات الجيش الأحمر في أولى هجماته.

ولكـــن الـــذي أنقذ الموقف هو نظام الدفاع العميق السوفياتي عندما اصطدم الألمـــان في نقـــاط دفاعـــية مركزة حاسمة مثل سفاستبول وستالينغراد ولينينغراد وموســـكو وروســـتوف. وجاء الشتاء لينتقل الجيش الأحمر إلى الهجوم من جديد فاصـــطدم بالنقاط الدفاعية الألمانية خاصة في المدن المركزية على خطوط القطارات وطـــرق المواصلات حيث ركّز الألمان دفاعهم. فرُدّ الهجوم على خاركوف، وعاد الألمان النازيون إلى الهجوم في صيف 1942. ولكن المناورة الهجومية فقدت مزاياها عـــندما كانـــت المسألة هي تركيز الهجوم على احتلال هدف محدد – ستالينغراد، وهنا تفوق الدفاع من جديد ولم يدحر الهجوم فحسب، وإنما أيضاً حمل معه الهزيمة حتى نهاية الحرب.

تعلـــم الـــسوفيات، بـــصورة أفضل متى يجب شنّ الهجوم المضادّ بعد فشل هجـــومهم على خاركوف في شتاء 1942، ولهذا انتظروا في صيف 1943 هجوم الألمـــان الذي شنّ في تموز/يوليو على كورسك KURSK وبعد أسبوع من القتال

المريـــر كسرت شوكة الهجوم وعاد الجيش الأحمر إلى الهجوم المضادّ بادئاً بضرب الأجـــنحة المكـــشوفة، واستهلك احتياط الدفاع الألماني، وتحول الهجوم المضادّ إلى هجوم شامل نهائي يتميز بالزخم. فظهرت سلبية توزع القوات الألمانية على المناطق الشاسعة التي احتلت في أوائل الحرب.

من دروس الحرب العالمية الثانية

إن دروس الحرب العالمية الثانية من ناحية التكتيك لم تسقط منـــزلة الدفاع، وإنمـــا أسقطت منـــزلة دفاع الخطّ الجامد، بل عززت قوة النقاط الدفاعية الحاسمة مـــثل لينينغراد وموسكو ستالينغراد، كما عززت نظرية الدفاع العميق الديناميكي الذي يصدع الهجوم ثم ينتقل إلى الهجوم المضادّ في الوقت المناسب والمدروس جيداً. ولقـــد تأكدت هذه النظرية في الجبهة السوفياتية وفي جبهة شمالي إفريقيا وفي جبهة أوروبا الغربية.

لقـــد تعـــزز الدفاع تكتيكياً مع تطور الأسلحة المضادة للدبابات، خصوصاً، المدفع ذاتي الحركة على المصفحة، كما تبين أن الدبابة تصلح للدفاع حين يحفر لها ولا يظهـــر مـــنها غير مدفعها، أي تستطيع أن تلعب دوراً دفاعياً، ثم الخروج من الحفرة لشنّ الهجوم المضادّ السريع.

وإذا أضـــفنا إلى أن الحرب الآلية أصبحت أكثر اعتماداً على الاتصال المستمر بالمؤخـــرة مـــن أجل التزوّد والصيانة واللوجستيقا بعامة...، فإن من الخطأ اتخاذ موقـــف تجـــريدي في مـــصلحة الهجوم، أو في مصلحة الدفاع، وإن جاءت أكثر الـــتجارب الـــسابقة الـــناجحة في مصلحة دفاع – هجوم، أو هجوم – دفاع – هجوم.

في الواقع، إن تكتيك بليتزكريغ ليس هجومياً صرفاً، وهذه مسألة لا يلحظها الكثيرون، إذ كان النازيون يبدأون بالهجوم ثم يتمركزون للدفاع ليصدعوا الهجوم المـــضادّ ثم ينتقلون إلى الهجوم من جديد، وقد طبق هذا بصورة واضحة في عملية احتلال بولندا، كما طبق في الجبهة السوفياتية.

بقيت مجموعة صغيرة من الملحوظات حول الحرب العالمية الثانية:

أولاً: سادت نظرية بريطانية رسمية في أوائل الحرب تقول بنظرية الدبابة مقابل الدبابة مع تشكيلات من المصفحات الخفيفة، بمعنى أن الحرب الآلية تتطلب تأمين تفوق آلي بالدبابات، لتحويل المعركة إلى معركة "أساطيل" من الدبابات ضد "أساطيل" من الدبابات. ويقول باليت إن النتيجة كانت كارثة الصحراء الغربية في هجوم الدبابات.

أما النظرية الألمانية فكانت عكس النظرية البريطانية تماماً، إذ تقول باستخدام الدبابة ضد القوات غير المصفحة لتحقيق اختراق سريع. أما سلاح العدو المدرع فيجب مواجهته بمضادّ الدبابات، والقصف الجوي، وليس بالدبابات الألمانية.

ولم تتخلص بريطانيا من خطتها الذي دام حتى 1942 إلاّ على يد الجنرال أوشينليك AUCHINLECK الذي أنقذ الجيش الثامن في شمال إفريقيا بعد أن كانت الهزيمة محققة، وألغى أسطورة دور الدبابات المستقل وأسطورة دبابة مقابل دبابة، وحول تكتيك الدبابات إلى تعاون بين مختلف الأسلحة في أرض المعركة الرئيسية.

ثانياً: سادت نظرية بريطانية رسمية أخرى حول الطيران اعتبرت أن دوره الرئيس هو ضرب المنشآت الاقتصادية ومصادر القوة لدى العدو، أي ضرب النقاط الداخلية (القصف الاستراتيجي)، أو ما سمي "بخطة الأستاذ" MASTER PALAN. وقد ألقي في سنة 1940 خمسة آلاف طن من القنابل على ألمانيا ثم ألقي ثلاثة وعشرين ألف طن عام 1941 ثم سبعة وثلاثين ألف طن عام 1942، أما عام 1943 فقد ألقت بريطانيا وحدها مائة وخمسة وثلاثين ألف طن بالإضافة إلى عمل الطيران الأميركي الذي رفع الرقم إلى 180 ألف طن.

أما في أوائل سنة 1944 فقد أصبح المعدل العام للقصف خمسة ألف طن يومياً. وبالمناسبة يجب أن يلاحظ هنا أن هذه النظرية البريطانية – الأميركية في القصف لا تحسب حساب الضحايا المدنيين، بل تستهدفهم، عملياً، بقدر ما تستهدف البنى التحتية ومراكز الانتاج. أما قصف مدينة درسدن التي أبيدت عن بكرة أبيها مع نهاية الحرب فقد شكل قمة في معاقبة شعب واخضاعه.

أما من جهة أخرى – عسكرية صرف فلم يُثبت هذا القصف أن باستطاعته تحقيق نصر حاسم، وإن كانت له مزاياه الهامة في المدى البعيد، أي أنه يدخل ضمن حرب الاستنـزاف والاعتماد على قوة النيران. كما أثبتت التجربة أنه إذا واجه خصماً ثابت المعنويات، وماهراً في الدفاع، فسوف يتحول إلى قوة تدميرية فقط. فإذا أخذت معركة كان Caen مثلاً فسنجد أنه ألقي على التحصينات الألمانية خمسة آلف طن من القنابل في مدى أربعين دقيقة، وعلى منطقة أقل من أربعة كيلومترات. وكل ما استطاع أن يفعله هو منع الحامية من تعزيز دفاعها، ولكن لم يجعل من الممكن اختراقها.

كانت النظرية الألمانية عكس النظرية الغربية حول استخدام الطائرات أيضاً، إذ جعلت مهمة سلاح الطيران جزءاً من عمليات الجيش وليس باعتباره قوة مستقلة ضد النقاط الصناعية والداخلية (البنية التحتية). أي تبنت نظرية القصف التكتيكي أي جعله في خدمة الحركة التكتيكية. وكما أشير سابقاً كانت النظرية السوفياتية قريبة من النظرية الألمانية في هذا المجال، بل إن غالبية النقاد العسكريين الغربيين يشهدون أن الاتحاد السوفياتي كان أمهر من جمع بين تكتيك الطائرات وتكتيك القوات الأرضية، في الحرب العالمية الثانية.

أما الأميركيون فقد جعلوا مهمة الطيران القصف الاستراتيجي أولاً، ثم التعاون التكتيكي ثانياً. ثم أخذ الفكر العسكري الغربي يميل مع تقدم عام 1944 إلى التركيز على نظرية القصف التكتيكي لا الاستراتيجي وتحويل الأخير إلى المنزلة الثانية.

في الواقع لقد ظهرت أهمية الطيران حاسمة في معارك الأساطيل في حزيران/يونيو 1942، في حملات المحيط الهادي، حيث كانت المعارك الجوية هي التي تقرر المعركة البحرية، إلى حدّ إنهائها قبل أن يشتبك الأسطولان أحياناً.

ثالثاً: من المفيد هنا استرجاع بعض الدروس التي استخلصها السوفيات من تجربتهم في الحرب العالمية الثانية سواء من ناحية فنّ العمليات أو من ناحية الدروس التكتيكية.

هذا ويذكر من دروس الحرب العالمية الثانية:

أ - العمليات الهجومية:

- **عمليات الاختراق:** لقد علمت تجربة الحرب أن حلّ المسألة المعقدة في الفنّ الحربي بشكل ناجح وهي مسألة خرق دفاع العدو المستعد، تقتضي تنسيق القوى والوسائط في العمق على مستوى الجيوش والجبهات، وقد شكلت أنساق ثانية في الجيوش وأحياناً في الجبهات. واستخدمت الفيالق والجيوش المدرعة والآلية باعتبارها مجموعات متحركة للجيوش والجبهات خلف الخطوط.

- **عملية التطويق:** تقوم القوات العاملة على الجبهة الخارجية بصدّ محاولات العدو الرامية إلى فكّ التطويق عن القوات المحاصرة، كما كانت القوات العاملة على الجبهة الداخلية تقوم بمهمة تدمير التجمعات المطوّقة.

وأكدت تجربة الحرب أن عمليات تطويق العدو يجب أن تستهدف توحيد حادثتي التطويق والتدمير في حادثة واحدة. وظهرت كذلك ضرورة عزل العدو المطوّق من الجو أيضاً.

- **عمليات العمق:** استخدمت خلال الحرب، وعلى نطاق واسع العمليات الهجومية مع توجيه ضربات جبهية عميقة (عملية فيسلا - أودر)، وهذه العمليات ما تزال تحوز على أهمية عملية حتى في الظرف الحاضر.

لقد لعبت الجيوش المدرعة دوراً كبيراً في إيجاد الإيقاعات العالية للهجوم. وقد استخدمت لتوجيه ضربات عميقة لتجزئة التجمعات المعادية. وكذلك ضربات متلاحقة لتطويق التجمعات المعادية. كما استخدمت في النسق الأول للترتيب العملياتي للجبهة عند اختراق الدفاع، كما استخدمت لتنفيذ المناورة الواسعة على جوانب ومؤخرة قوات العدو، فضلاً عن استخدامها في عمليات الملاحقة والمطاردة.

- **عمليات الطيران:** استخدم الطيران في المجال التكتيكي في أثناء اختراق المنطقة التكتيكية للدفاع، ثم طور فأصبح يشمل المجال العملياتي أيضاً أي أصبح الهجوم الجوي مستمراً حتى كامل عمق العملية الهجومية للجيش أو الجبهة. ومن هنا

فقــد تألــف هذا الهجوم من فترتين: التمهيد الجوي المباشر، والدعم الجوي للهجوم.

إن أهـــم الدروس التي ما زالت تحتفظ بقيمتها حتى في الظروف الراهنة: تنظيم الــتعاون بــين الطيران (والقصف الصاروخي لاحقاً) والقوات البرية، حشد القوى الجوية على اتجاهات الضربة الرئيسية، تحقيق المفاجأة في الضربة والمحافظة علــى الــتأثير المستمر على العدو، المركزية في القيادة مع الاستخدام الواسع للوسائط الرادارية والحركة البرية.

لقــد استخدم هذا التكتيك من قبل قوات الحلفاء ضد العراق في حرب الخليج الثانية، كما استخدمه الأميركيون والبريطانيون في حرب 2003 التي استهدفت احتلال العراق.

ب – **العمليات الدفاعية**: دلت تجربة الحرب على:

1. ضــــرورة التحــضير الهندسي للدفاع. مثلاً الأفخاخ الملغمة في كل نقطة ينسحب منها الدفاع أو يمكن أن يدخلها أو يمر بها الهجوم.
2. زيـــادة عمق الدفاع وصلابته، وبناء خطوط وسيطة ومائلة بالإضافة إلى النطاقات الدفاعية الأساسية.
3. لم تكــتف القـــوات الـــسوفياتية، بعد التجربة المريرة، باحتلال المنطقة التكتيكـــية للدفاع والخطّ الدفاعي العملياتي العائد للجيش فحسب، وإنما أيضاً، احتلت الخطّ الدفاعي الأول العائد للجبهة.
4. تطويـــر الدفاع المضادّ للدبابات، وقد دلت التجربة على أن الاعتماد على الأســـاليب السلبية في الإلتجاء ضمن المناطق التي لا تسمح بمرور الدبابات كما حدث في الأشهر الأولى من الحرب، هو أسلوب خاطئ، فقد اعتمد في مـــا بعد على إقامة نقاط ومناطق قوية مضادة للدبابات على الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات.

لم تفقد خبرة تنظيم الدفاع العملياتي التي تجمعت في الحرب الماضية أهميتها حتى في الــوقت الحاضر، خصوصاً، فيما يخص تنظيم الدفاع على عمق كبير وكــذلك تنفيذ الضربات المعاكسة القوية والمناورات. إلى جانب خطط مصائد

الـــدبابات تـــبعاً لـــنمط المضادات ابتداء من الألغام الأرضية والجانبية مروراً بالمضادات الفردية المحمولة، وانتهاء بالمضادات من بعد.

ج – من الدروس التكتيكية:

1. التكتيك الهجومي: كان خرق الدفاع الأمامي من أعقد أنواع الهجوم في فترة الاجتـــياح الألماني للاتحاد السوفياتي، وكان الخرق من نقاط التماس المباشر مع العدو هو النوع الأساسي للخرق.

– الترتيب القتالي: عندما كان الدفاع، بعد العملية الهجومية، يتصف بالطابع البؤري كان اختراق الدفاع لا يتطلب قوى كبيرة، ولكن عندما أصبح دفاعـــاً عمـــيقاً ومتصلاً اضطرت القوات السوفياتية المهاجمة إلى اتخاذ تـــرتيبها القتالي على نسقين وذلك بالنسبة إلى فرق وأفواج المشاة. أما الكـــتائب فقـــد تـــراوح ترتيبها بين النسق الواحد والنسقين حسب الظـــروف، في حـــين بقيت سرايا وفصائل المشاة تعتمد على الترتيب القتالي ذي النسق الواحد.

لقـــد استخدمت الأنساق الثانية للأفواج من أجل إكمال خرق الموضوع الـــثاني، واستخدمت الأنساق الثانية للفرق من أجل إكمال خرق النطاق الرئيس للدفاع، وتدمير الاحتياطات الفرقية المعادية واستخدمت الأنساق الثانية للفيالق من أجل خرق النطاق الثاني للدفاع.

لقد دلت التجربة أيضاً على عدم صحة تقسيم الترتيب القتالي إلى مجموعة ضاربة، ومجموعة مشاغلة بسبب عدم قيام هذه الأخيرة بأية أعمال إيجابية مما سمح للعدو بسحب قواته من أمام مجموعة المشاغلة ومن ثم تعزيز الاتجاه المتعرض للضربة الرئيسية، ولهذا السبب كلفت مجموعات المشاغلة بالقيام بأعمـــال نـــشطة وباختراق الدفاع المعادي إلى عمق أقلّ نسبياً من العمق الذي خصص للمجموعات الضاربة.

– التنسيق بين القوات: دلت التجربة على ضرورة التخلي عن تنظيم التعاون علـــى الخـــريطة، وليس على الأرض. ولهذا تقرر أن لا يتخذ قائد الفرقة قراره للمعركة إلاّ بعد القيام بالاستطلاع الشخصي، وأن يتمّ التعاون على

الأرض، وأن يـتمّ تعـيين اتجاهات الهجوم على الأرض أيضاً مع إعطاء الوقت الكافي للكتائب والأفواج لتنظيم المعركة.

- المطـاردة: تـرتب القوات على نسقين بهدف تطوير قوة الضربة في حالة ازدياد مقاومة العدو المنسحب. أما إذا كان انسحاب العدو فوضوياً وبلا مقاومة تذكر، فيتبع ترتيب النسق الواحد لأن السرعة في هذه الحالة تلعب الدور الحاسم الأول.

لقد أكدت خبرة الحرب أن الحصول على إيقاعات عالية خلال المطاردة يتعلق إلى حـدّ بعيد بقدرة القوات على الفتح السريع من ترتيب الرتل إلى الترتيب القتالي، وعلى سرعة العودة من الترتيب القتالي إلى ترتيب الرتل.

- الاسـتطلاع: لقد دلت تجربة الحرب على الأهمية الحاسمة للاستطلاع في حالات الهجوم كما في حالات الدفاع.
- الأعمـال الليلـية: اعتبرت الأعمال الليلية بوصفها أعمالاً خاصة، ولكن بينت تجاربها والإفادة منها بأنها حاسمة لأنها ستكون أعمالاً ضرورية في أية حرب مقبلة.

2. التكتيك الدفاعي: دلت تجربة الحرب على:

- أهمية الدفاع التكتيكي العميق.
- إن الأسلوب الخندقي هو الأساس في التحضير الهندسي للمنطقة التكتيكية للدفاع[1].
- تطويـر الدفاع المضادّ للدبابات باتجاه زيادة كثافة وعمق الوسائط المضادة للـدبابات وكذلك بالامتناع عن مركزه الوسائط المضادة بشكل خطي، وبحشدها على الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات[2].

---

(1) دلّـت تجـارب الحرب في فيتنام ولبنان (2006) وقطاع غزة (2007 - 2008) على أن الأنفاق عموماً (والخنادق الفردية البرميل في التجربة الفيتنامية)، أصبحت هي الأساس في التحضير الهندسي للمنطقة التكتيكية للدفاع. وإن لم تزل تماماً ضرورة الخنادق (تجربة قلعة الشقيف في حرب عام 1982 في جنوب لبنان).

(2) قدمت التجربة المصرية في حرب تشرين 1973 إمكان شطب كتيبة دبابات أو لواء من قبل كمائن لأفراد بأسلحة صاروخية محمولة.

دلـــت خلاصـــة تجربة الدفاع المضادّ للدبابات على أن يتألف من: النقاط القـــوية المتحـــركة المضادة للدبابات، المناطق المضادة للدبابات، الحواجز المـــضادة للـــدبابات، الاحتياط المضادّ للدبابات، مفارز السدود المتحركة (والألغام، والكمائن)[1].

- ضرورة التنظيم الصحيح لجهاز النار باعتباره شرطاً أساسياً من أجل تأمين صلابة الدفاع ومناعته، بحيث لا ينحصر تنظيمه أمام الحدّ الأمامي للدفاع وضـــمن الموضع الأول، وإنما على كامل العمق التكتيكي للدفاع، وليس فقط على عمق الموضع الأول.

ودلـــت التجربة على أنه من الخطأ وضع كتائب المدفعية خلف حاجز أو عائق طبيعي بعيداً عن الاتجاهات الصالحة لمرور الدبابات.

- ثمـــة أهمـــية كـــبرى للـــدفاع الدائري وتنظيم تعاون القُطيعات الدفاعية للكتائب، فضلاً عن بروز الأهمية الخاصة لنيران القناصة.
- ضرورة تنظيم جهز الدفاع المضادّ للطائرات تنظيماً دقيقاً، بحيث يتضمن: المـــراقبة الجـــوية، الإنذار عن الخطر الجوي، جهاز النار للأسلحة المضادّة للطائـــرات، نـــيران أسلحة المشاة، الوقاية الجيدة، التمويه الجيد للتراتيب القتالية للقوات[2].

خلاصة عامة حول التكتيك

يجـــب إدراك البعد الثالث للحركة الذي ولده تطور الطيران مما جعل السرعة تـــزيد عـــشرة أضعاف أو أكثر على أية سرعة آلية على الأرض وهذا يعني إعطاء الهجوم مزايا كبيرة على الدفاع كما زاد من أهمية الطيران:

---

(1) تأكـــدت هذه التجربة في حرب تموز/يوليو 2006 في مواجهة زحف الدبابات وتدميرها من قـــبل قوات المقاومة الدفاعية ولكن في مستوى صاروخي أرقى بسبب تطور دبابة الميركافا ومناعتها ضد الصاروخ المحمول آر. بي. جي.

(2) كـــل ما يتعلق بدروس التجربة السوفياتية حول دروس العمليات والتكتيك "البند 3"، أخذ من كتاب "تاريخ فن الحرب" – الجزء الثاني – الجنرال ستروكوف – باللغة العربية.

أ. تحول الجيوش إلى جيوش آلية محمولة، وهنا يلعب الطيران دوراً حاسماً في تقييد حركتها، أو حماية حركتها، ولهذا فإن تأثيره في حركة الآليات أكثر بكثير من تأثيره في القصف الاستراتيجي، والقصف التكتيكي على مواقع الدفاع. وقد أصبحت هذه إحدى علامات التكتيك في ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى اليوم[1].

ب. تطور نقل القوات الأرضية بآلياتها بوساطة الطيران جعل القوة الاختراقية كبيرة جداً، تتيح وضع القوات الأرضية في أية نقطة داخل جبهة العدو لتقوم بمناوراتها وعملياتها التكتيكية. ولكن بالرغم من ذلك لم يثبت في الواقع أن الدفاع ضعيف كما يبدو نظرياً. وقد قللت عوامل ثلاثة من سلبيات الدفاع إزاء هذا التفوق الهجومي:

- استخدام الهجوم المضادّ من قبل احتياط دفاعي متحرك أو قوات دفاعية قريبة من موقع الإنزال لضرب الآليات التي أنزلتها الطائرات، مع ميزة عدم مواجهة مشكلة الوقود ونقل القذائف واللوجستيقا من قواعد بعيدة.
- ضرورة تركيز المهاجم لقواته مسألة حتمية لكي يستطيع التقدم إلى هدفه الأمر الذي يعيق إمكاناته على المناورة في اللحظة الحاسمة. ولا سيما إذا واجه قوات دفاعية تعرف الأرض وقادرة على التمويه والانتشار ومفاجأة الآليات.
- تركيز مواقع الرصد والإرسال يعطي معلومات عن اتجاه طريق المهاجم، وهذا تقلل من قيمة المساحة التي يجب أن يغطيها الدفاع.

أما في المقابل، فإن التوزيع الحصيف والسري والمموه للقوات الأرضية ونقاط الدفاع والمنشآت الصناعية والمطارات يقلل من فعالية قصف الطائرات. أما العلو الذي على الطائرات أن تضرب منه إذا كان شاهقاً جداً فتقل فعاليته في مواجهة أهداف متحركة ولا سيما فردية وإن كانت إصابة هدف ثابت محدد الإحداثيات شبه أكيدة (في حدود عشرة أمتار).

---

(1) في حرب العدوان على العراق 2003 تم تدمير رتل من الدبابات العراقية من الجو في أثناء حركته بعد أن خرج من مواقعه المموهة، كما دمرت الدبابات العراقية من الجو في صحراء الكويت 1991.

أمـــا القصف من علو منخفض فيزيد من الخطر على المهاجم. هذا فضلاً عن ســلبية وجود المهاجم وطائراته على أرض غريبة مما يسهل تضليله إلى إضاعة قنابله على أهداف موهومة أو أهداف مدنية ترتد عليه سلباً كما حدث في ملجأ العامرية في بغداد في حرب الخليج الثانية[1] أو في قرية قانا اللبنانية في حربي 1996 و2006، وفي مخيم جنين 2002 وفي قطاع غزة 2008.

إن المـــشكلة الأساسية التي يواجهها التكتيك الآن، عدا الحرب النووية، هي مسألة معالجة:

1. الاختـــراق الهجومـــي عـــن طريق نقل القوات الأرضية بالطائرات لتبدأ مناوراتها خلف خطوط الدفاع.
2. الهيلوكبتر المصفحة التي تحقق الهبوط العمودي وتنقل المشاة إلى أية نقطة، وكذلك الهيلوكبتر ناقلة القوات الآلية الثقيلة.
3. مـــسألة الـــسيطرة على الجو في حالة تحريك القوات الآلية المحمولة على الأرض.
4. ازديـــاد ضـــخامة الأساطيل الجوية بشكل يتيح لها التركيز على القصف الاســـتراتيجي دون التـــضحية بالـــتعاون مع القوات الأرضية في القصف التكتيكي.

إن هذه المشاكل التكتيكية، في الواقع، تواجه الشعوب المتخلفة، أساساً، لأن هذه القضايا أصبحت ثانوية بالنسبة إلى الدول الكبرى، روسيا والولايات المتحدة مـــثلاً، بالمقارنة بمسائل الحرب النووية – ولأنها تعالج من قبل هذه الدول بمستوى التكتـــيك والتقنـــية إيـــاه – وقد رأينا، في أثناء دراسة الاستراتيجية النووية، أن اســـتراتيجية الـــردع النووي، أو قل استراتيجية التوازن النووي، تستهدف حصر الحـــرب بالحروب المحدودة، أي عدم اشتباك الدول الكبرى ببعضها البعض. وهذا

---

(1) تجـــربة القـــصف الجوي في حرب الخليج الثانية 1991 وحرب الأطلسي ضد صربيا 1998 وحرب 2003 في العراق أثبتت أن خسائر الجيوش تتراوح بين 5% إلى 15% في المئة على أعلـــى تقديـــر، إذا كانت مموهة جداً، وأقل من ذلك بكثير بالنسبة إلى قوات المقاومة في حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان (القصف الجوي والصاروخي أثخن في المدنية وفي الجسور).

يعني أن مسائل التكتيك الحديث - النقاط الأربع أعلاه - ستطبق، عملياً، في تلك الحروب المحدودة أي من جانب الإمبريالية العالمية والكيان الصهيوني، أساساً، ضد الشعوب والدول المتحررة في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، وبالتالي لا بدّ من إيجاد التكتيك المضادّ لها. ولكن من الواضح أن معالجة هذه المسائل التكتيكية ستوقف على وضع كل بلد يواجهها ومستوى تطوره سياسياً وتكتيكياً وتنظيمياً واقتصادياً وعسكرياً إلخ...، وإن كانت ثمة خطوط عريضة لا بدّ من توفرها تتركز في:

أ. الاحتياطات الدفاعية المضادة - سلبياً - مثل التوزيع الحصيف لنقاط الدفاع والمنشآت والمطارات والملاجئ والخنادق والتمويه والأنفاق.

ب. تسبق استراتيجية وتكتيك الدفاع العميق المتحرك، شبكة النقاط القوية المنتشرة في العمق والتي تتميز بالدفاع الحيوي النشط (الديناميكي) الإيجابي، والمقاومة الشعبية الشاملة بكل أشكالها. وقد أثبتت تجربة حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان أهمية قوات الدفاع الذاتي المحلية في القرى والبلدات على مواجهة الإنزال وراء الخطوط، أو تحرك آليات العدو المموهة "الملبننة" في الطرق الداخلية. وثمة تجارب، ولو محدودة، في الضفة الغربية وقطاع غزة في مواجهة تسلل قوات العدو المموهة ("المستعربين")، الأمر الذي يوجب تطوير هذه التجارب لتصبح أشد فعالية.

ج. التركيز على العناصر الإنسانية مثل المعنويات والصمود والتنظيم الشعبي اليقظ والمنتشر، وتفجير عبقرية الكوادر والمقاتلين والنخب العلمية والجماهير لاكتشاف وسائل دفاعية - هجومية وأشكال تكتيكية. وهنا لا بدّ من التشديد على العامل الذاتي، لا سيما، نوعية القيادة وصحة خطها السياسي والفكري وصوابية الاستراتيجية والتكتيكية.

د. أما بالنسبة للتكتيك الإيجابي في مواجهتها فهذا يتوقف على نوع الأسلحة المتوفرة، وعلى وضع القوات المسلحة. ولكن، دائماً، هنالك طريق فعال في الجمع بين الأسلحة المتوفرة والحركة حتى ولو كانت في مواجهة أسلحة متفوقة.

إن أهـــم التطورات في العلم العسكري، بعد الحرب العالمية الثانية، إلى جانب احـــتمالات اســـتخدام الأسلحة الصاروخية النووية، هي التطورات المتعلقة بحرب الـــشعب الـــثورية والمقاومات الشعبية التي استطاعت تحقيق انتصارات باهرة على المستويات الاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية ضد التفوق المادي والتقني للجيوش الإمبريالية. فلدينا تجارب حرب الشعب الثورية في فياتنام ولاوس وكمبوديا وقبلها الـــصينية وهي تتجاوز التقنية العسكرية الأميركية وكل التطورات التي حدثت في ارتفـــاع مستوى الحركية الجوية، وزيادة الكثافة النارية الجوية، وسرعة الآلية البرية ليس اعتماداً على تفوق مقابل في هذه المجالات وإنما ارتكازاً على الجوانب السياسية والمعـــنوية والتنظيمـــية وإطـــلاق مـــبادرات الجماهير الثورية واكتساب الخبرات الاســـتراتيجية والعملياتية والتكتيكية العسكرية، في أثناء الصراع المسلح ضد أعلى مستويات العسكرية الإمبريالية.

وكـــذلك تجـــارب المقاومات الشعبية في بورسعيد والجزائر وفلسطين ولبنان والعـــراق والصومال وأفغانستان (عشرات تجارب المقاومات). لقد اعتمدت هذه الـــتجارب علـــى عدالة القضية وعلى الإنسان، وعلى الدعم الشعبي والرأي العام العالمي والتنظيم المناسب، وتعبئة الجماهير وتنظيمها وتوحيدها وتسليحها وإطلاق مـــبادراتها وتجـــريبها علـــى الدفاع عن نفسها ووطنها ضد العدوان والاحتلال، واســـتطاعت أن تجـــد الأجـــوبة المناسبة في مواجهة التقنية المتفوقة لأكثر الجيوش العصرية قوة وتطوراً، ليس هذا فحسب وإنما أيضاً على امتلاك فنّ القتال المناسب، استراتيجياً وعملانياً وتكتيكياً، أي تطوير العلم العسكري نفسه، وفي كل المجالات.

الفصل الرابع

- القسم الأول

مرحلة الحرب الباردة

1950 - 1991

- القسم الثاني

مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

1991 - 2008

القسم الأول

مرحلة الحرب الباردة

1991 - 1950

- 1 -

الأبعاد السياسية

أولاً: لم يسبق أن كان هنالك نظام دولي تحكمت فيه دولتان عظميان. وقد احتكرتا القدرة النووية وميزان الرعب النووي. و لم يسبق بالرغم، مما بينها من تناقض إيديولوجي وصراع على النفوذ العالمي، وحتى وجودي كنظام، ألاّ يصل الأمر بهما إلى حد الحرب. وذلك على عكس ما حدث مع الدول الكبرى السابقة في الحربين العالميتين. طبعاً الفضل هنا يعود إلى القنبلة النووية ووسائط نقلها.

هذا و لم يسبق للوضع الدولي أن عمد رأساه النوويان للتوافق على تنظيم لعبته بالرغم من كثرة اللاعبين، أو الساعين إلى الخروج عليه مثل الصين وفياتنام وكوريا الشمالية وإيران الإسلامية، وعدد من دول حركة عدم الانحياز. وقد تمكّنا إلى حد بعيد من ضبط الوضع في أوروبا، وإلى حد نسبي، بقدر، في الشرق الوسط.

ثانياً: لقد اتسم الوضع الدولي بالانقسام إلى معسكرين متعاديين ومتوافقين، أما السمة الثانية فكانت الدول الفالتة من هيمنتهما، إلى جانب حجم ما من الفوضى العالمية نتيجة السمتين المذكورتين. ومن هنا قسّمت الصين العالم بعد صراعها مع الاتحاد السوفياتي إلى عالم أول (أميركا والسوفيات) وعالم ثانٍ أوروبا واليابان وعالم ثالث بقية دول العالم.

هذا ما أثر في حروب مرحلة الحرب الباردة، أو النظام الدولي آنف الذكر. فكان لا بد من أن تبقى عموماً تحت سقف معادلة توازن الردع النووي. ومن

ثم ألا تجرّ السوفيات والأميركان إلى الصدام، بسبب أية قضية تخصّ دولة أخرى. وهنا يمكن استثناء أوروبا التي كانت جزءاً من المعادلة الأساسية. لهذا كادت أزمة برلين 1951 أن توصل للصدام بينهما. وكذلك أزمة الصواريخ الكوبية بسبب زرع صواريخ سوفياتية في فناء الأمن القومي الأميركي. أما قصف هانوي عاصمة فيانتام الشمالية وحرب حزيران/يونيو 1967، أو احتلال أفغانستان، فما كان ليدفع أي منهما إلى المواجهة المباشرة التي يُنفض فيها الغبار عن السلاح النووي.

كل الحروب التي مرّ ذكرها، أو التي لم تذكر، اتسمت بكونها حروباً محدودة، طويلة الأمد أو قصيرته. فلم تسمح الدولتان ما أمكنهما بأن تذهب الحرب إلى حد الحسم، عدا حرب فيانتام التي فرض هوتشي منّه حسمها ضد الأميركان، وباستقلال عن القرار السوفياتي، وهو ما تكرّر في الحسم ضد السوفيات في أفغانستان. أما حرب الفوكلاند فقد حسمت لأن السوفيات لم يكن لهم أي دور فيها. مما سمح بأن تستفرد بريطانيا وأميركا بحسمها ضد نظام يعتبر من جبهتهما في الصراع الدولي. فضلاً عن أن منطقة الحسم "جزر الفوكلاند" معزولة وبعيدة عن الصراع بين الدول.

ولكن بالرغم من محدودية تلك الحروب قياساً بحروب القرن التاسع عشر، أو حروب المنتصف الأول من القرن العشرين إلا أنها كانت في أغلبها مسرحاً استخدمت فيه آخر تطورات التكنولوجيا في الطائرات والمدافع والصواريخ والبوارج ووسائط النقل واللوجستيقا وحتى حروب الدبابات هذا ولم تكن تكتيكات الحرب العالمية في الهجوم والدفاع بعيدة منها.

ثالثاً: ما من مُنظِّر فكّر في التخلي عن أسس علم الحرب أو عن استراتيجيات الحرب المعروفة، أو تكتيك المعارك، مع كل ما حدث من تطورات تقنية على الأسلحة أو تكتيكات الهجوم والدفاع، بل حتى جيوش الدول الكبرى بقيت محافظة على التشكيلات للفرق والألوية والكتائب والسرايا، والتدريبات التقليدية المعززة بتجربة الحرب العالمية الثانية. وذلك بالرغم من التغيير النوعي الذي أحدثه السلاح النووي على احتمالية الحرب في ما بين مالكيه.

وكـان السبب الرئيس في ذلك هو عدم الاستعداد الكلي لاندلاع الحرب بين الاتحاد السوفياتي وأميركا، أو بين معسكريهما بالتأكيد.

حـدث هـذا بالرغم من التطورات التي تحققت ما بين 1950 - 1991 على الطائرات والدبابات والمدافع والصواريخ والأقمار الصناعية والاتصالات وعلى دقة الإصابة وتعظيم القوة التدميرية للقنبلة والصاروخ.

أثبـتت كـل الـتطورات التي حدثت بالنسبة إلى الحركة والنيران من حيث السرعة والكثافة أو من حيث الدقة والاتساع أن بالإمكان للدفاع أن يتلافى الكثير مـن أضـرارها وفعاليتها. وذلك من خلال تصميم دفاع مفكراً به جيداً. بل وأن يمـارس الهجوم حتى في ظروف سيطرة كاملة للعدو على الجو. فالمثل الفياتنامي في حرب تحرير جنوبي فياتنام أثبت ذلك في التطبيق العملي على مستوى المدن والقرى كمـا علـى مـستوى حركة سرايا وكتائب وحتى ألوية. وكان ذلك من خلال الأنفـاق والملاجئ الفردية، مثلاً البراميل المزروعة تحت سطح الأرض والمنتشرة في الـشوارع وحـول البـيوت. فكان يُلجأ إليها فوراً في أثناء القصف، إلى جانب الاحـتماء بأشكال التمويه المختلفة والاعتماد على الجهد الإنساني حتى البدائي في إمـداد الجبهة بالدعم والسلاح. والمدهش كانت الدراجة العادية (البسكليت) إذ لعـبت دوراً استثنائياً في نظام اللوجستيقا حتى في الجبال الوعرة في فياتنام. حقاً لا يصدق كم كان يحمّل عليها.

لقد أثبتت تجارب أغلب الحروب أن القصف الجوي (وبطائرات الوزن الثقيل B52 علـى شمالي فياتنام) لا يُكسب حرباً، ولا يفل إرادة مصممة، ولا يحول دون الحركة، ولا يمنع المناورة التكتيكية إذا أتقنت الانتشار والتركيز في الوقت المناسب. وقد ينطبق هذا حتى على القنبلة النووية المحدودة (غير الشاملة) إذا استخدمت.

أثبـتت حـربا المقاومة الشعبية في كل من فياتنام الجنوبية ضد أميركا، ومن أفغانستان ضد السوفيات. إن بالإمكان أن تواجه قوى أكبر دولتين بكل ما تملكان مـن إمكانـات وتـسلح وتقنية عالية، من قبل قوات صغيرة مقاتلة مدعومة من الـشعب. وتملـك إمكان كسب الرأي العام الداخلي والإقليمي والعالمي. ومن ثم تـستطيع أن تهـزّ الـرأي العام داخل الدولة المعتدية (لا سيما عندما يفشل الحل

العسكري). وقد خرجت الدولتان في كل من حربي فياتنام وأفغانستان مهزومتين ومستنزفتين مادياً ومعنوياً فضلاً عن تداعيات أخرى أحدثت خللاً في ميزان القوى بينهما نتيجة كل حرب. فأميركا انتكست لعشر سنوات، في الأقل بعد هزيمتها في فياتنام. أما السوفيات فقد تفاقمت أزمتهم الداخلية وأدّت، مع أسباب أخرى، إلى انهيار الاتحاد السوفياتي نفسه.

رابعاً: في الحروب المحدودة، وضمن ظروف دولية مساعدة، ثمة عاملان هامان يؤثران في مجرى الحرب ومصيرها. فإذا كانت الحروب في الماضي تتقرّر بصورة أساسية من خلال المعركة والعمليات والحسم في الميدان ليأتي دور السياسة لترجم ذلك إلى مكاسب سياسية، فإن مصير الحرب أصبح يتقرّر جزئياً على أرض المعركة، أو في مسرح الحرب، وجزئياً من خلال تدخل المعادلة الإقليمية الدولية. وأخيراً وليس آخراً من خلال الرأي العام المحلي والإقليمي والعالمي. وهنا لعبت، دائماً، مسألة عدالة الحرب دوراً هاماً.

خامساً: أثبتت التجارب أن ثمة دوراً حاسماً يلعبه الخط السياسي والفكري الذي يدير السياسة والعلاقات بين مختلف الأطراف. فماوتسي تونغ كان يقول حين كنا نحارب وخطنا السياسي والفكري خاطئ، كأن نتطرف "يميناً" أو "يساراً"، وكنا مئات الألوف من المقاتلين ولدينا مناطق شاسعة، نأخذ بالتراجع. ووصلنا أحياناً بسبب الخطأ في الخط السياسي والفكري إلى آلاف أو مئات. ولما كنا نصحّح الوضع ونتبنّى خطاً سياسياً وفكرياً صحيحاً كنا نتحول من آلاف إلى مئات الألوف وصولاً إلى كسب الحرب.

كل تجارب الحروب في مرحلة الحرب الباردة وقبلها وبعدها لعبت فيها المعادلة الدولية والرأي العام الداخلي والإقليمي والعالمي أدواراً هامة، مع التفاوت، سلباً أو إيجاباً في كل منها وفقاً لكل حرب. كما لعب الخط السياسي والعسكري والفكري الصحيح من جانب القوة الأضعف دوراً حاسماً كذلك.

سادساً: نشطت في العشرين سنة الأولى من مرحلة الحرب الباردة الدراسات التي ترشد جيوش الدول الكبرى إلى كيفية مواجهة المقاومة وحروب الشعب. وكان هذا نتيجة لاندلاع حركات الكفاح المسلح في أغلب البلاد التي

كانـــت تـــرزح تحـــت الاســـتعمار أو تتعرّض للاحتلال. وقد حملت عنوان (COUNTER INSURGENCY WARFARE) "الحـــرب المضادة للتمرد". ومما اقتـــرحته تـــشكيل فرق في الجيوش النظامية تعد لمواجهة مثل هذه المهمات. وقد طـــرحت سياسيات تستهدف عزل المقاومة أو الثورة عن الشعب ليسهل ضربها، ويـــتحقق فـــشلها. ومن هنا تنبع أهمية الخط السياسي الصحيح في الشعار والفكر والممارســـة لاحباط تلك السياسات. ومن هنا يجب أن يلحظ أن السياسة والرأي العـــام المحلي والإقليمي والعالمي يلعبان أدواراً حاسمة لا تقلّ أهمية عن الاستراتيجية والتكتـــيك العسكريين المتبعين. وبهذا أصبح مسرح الحرب لا يقتصر على الميدان العـــسكري وإنما أصبح مركباً من عسكري وسياسي واجتماعي وإعلامي ومحلي وإقليمي وعالمي.

فالحرب المحدودة حرب سياسية ذات بعد شعبي وإقليمي وعالمي وليست حرباً عسكرية فقط. وحروب المقاومة الشعبية حروب سياسية وليست حروباً عسكرية فقـــط. ولهذا يجب أن تكسب بالسياسة كما يجب أن تكسب بالحرب، كما ينبغي لها أن تكســـب في ميدان الرأي العام المحلي والإقليمي والعالمي وفي جبهة الخصم.

مـــن هنا تنبع أهمية ملاحقة الدراسات التي سيجريها منظرو مكافحة الثورات والمقاومـــة كمـــا أهمية الدراسات المقابلة في التعلم من تجارب المقاومات الفاشلة والناجحة.

على أن كل هذه الدراسات بالرغم من أهميتها التفصيلية ستدور ضمن بعدين رئيـــسيين: الأول، التكتيك العسكري على ضوء تطور الأسلحة وأنظمة التجسس والمراقبة والتعقب من جهة القوى العسكرية المنتسبة إلى الدول الكبرى أو الصناعية المتطورة، وفي المقابل ما تطوره المقاومة الشعبية من تكتيك عسكري وأمني لمواجهة تلك التطورات والأنظمة. أما البعد الثاني، وهو الأهم من الأول فيتعلق بمن يكسب الشعب المعني ومن ثم الرأي العام اقليمياً وعالمياً.

فكل صراع دار بين محتلين ومقاومين، دار على كسب الرأي العام محلياً أولاً، ثم إقليمـــياً وعالمياً ثانياً. هذا الجانب يظل في مصلحة المقاومة بسبب عدالة القضية ولكـــون القضية قضية الشعب. وقد زادت تطورات الإعلام المرئي والإنترنت من

إضعاف قوى الاحتلال وتقوية الطرف الشعبي والرأي العام المقابل لأنه لم يعد من الممكن أن تخاض حرب بتعتيم إعلامي كامل أو ترتكب جرائم ضد المدنيين أو تحدث نكسات ولا تعمّم على نطاق واسع. ولكن مع ذلك إذا ارتكبت أخطاء من جانب المقاومة فسيصار إلى استغلالها لعزلها عن مصادر قوتها: الشعب والرأي العام من حولها وفي العالم.

الحالة الفلسطينية وحدها اقتصر الصراع فيها على كسب الرأي العالم العالمي فقط. لأن المشروع الصهيوني استهدف تهجير كل الشعب الفلسطيني والتنكر لحق العرب والمسلمين في فلسطين. ولهذا كان من العبث أن يخوض صراعاً لكسب الشعب الفلسطيني أو الرأي العام العربي والاسلامي (الاقليمي).

وهنا لا بد من التأكيد مرة أخرى على خصوصية كل حرب بما في ذلك كل احتلال وكل مقاومة. وهي خصوصية تأتي من خصوصية المكان والزمان والأرض والمناخ والشعب والقضية، كما الظروف وموازين القوى السائدة محلياً وإقليمياً وعالمياً.

إن كل ما يمكن تعلّمه من التجارب المختلفة، وما يمكن أن يخرج من قوانين وعبر ذات طابع عام يظل مهماً من جهة، ولكنه من جهة أخرى يخضع للخصوصية آنفة الذكر.

وبهذا نعود هنا أيضاً إلى مجموعة العوامل التي لخصت عوامل النصر والهزيمة في الحرب لنجدها ممتدة أيضاً إلى حالات الحرب المتعلقة بالمقاومة كما بالقوات المحتلة. فالعوامل تتبادل الموقع الرئيس والمواقع الثانوية من حالة إلى أخرى، وستظل كذلك دائماً. فما لعب دوراً حاسماً في الحرب ضد مقاومة ما لا يلعب الدور نفسه ضد مقاومة أخرى، وكذلك فإن دور العامل الحاسم والعوامل الثانوية ليس نفسه في لعب دور في مصلحة هذه المقاومة أو تلك.

فكل حرب عملية معقدة مركبة وذات فرادة استثنائية ومع ذلك لا مفر من دراسة التجارب والخروج بقوانين عامة، لكن مع التطبيق المبدع الخلاق دائماً. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإن مراجعة تجارب الحروب والمقاومات في مرحلة الحرب الباردة تؤكد ثقل المعادلة السياسية المحلية والاقليمية والعالمية التي واجهتها

كل حرب من تلك الحروب وهو ما يجب أن يراعى إلى جانب قضايا الاستراتيجية والتكتيك في علم الحرب. وبهذا تتكامل الصورة، فلا يقتصر بناء الاستراتيجية للحرب بين الدول الصناعية أو المتكافئة. ومن ثم التدقيق في الحالة المدنية والاقتصادية والاجتماعية لكل من المتحاربين (فون كلاوزيفتهن) فحسب، وإنما أيضاً تأثيرات المعادلات السياسية اقليمياً وعالمياً ورأياً عاماً في استراتيجية الحرب غير المتكافئة.

– 2 –

حروب مرحلة الحرب الباردة

الحرب الكورية: 1950 – 1953

قسّمت كوريا عملياً إلى شمال وجنوب نتيجة التدخل السوفياتي والأميركي فيها قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية وبعيدها. فقد اتفق الأميركيون والسوفيات على أن يتوقف الزحف السوفياتي عند خط عرض 38 في هجومه على الجيش الياباني فيما تدخل أميركا لاحقاً إلى جنوبي خط 38.

الكوريون بإجماع رفضوا تقسيم كوريا بعد أن قام نظام ديمقراطي (شيوعي) في الشمال بقيادة كيم إيل سونغ (1912 – 1994) ونظام موالٍ لأميركا في الجنوب بقيادة سيغمان ري (1875 – 1965). وكلا الزعيمان أصرّ على توحيد كوريا. من هنا بدأت الحرب عملياً حين ترجم كيم إيل سونغ هذه الرغبة في الزحف نحو الجنوب في 25 كانون الثاني/يناير 1950. وكان ذلك بداية ما عُرف باسم الحرب الكورية.

استخدم كيم إيل سونغ قواته المنظمة باعتبارها جيشاً يمتلك الدبابات والطائرات والآليات، وإن كانت متواضعة، في هجومه على قوات حكومة سيغمان ري التي تساقطت أمامه كأوراق الخريف. وقد دخل سيول العاصمة في 28 حزيران/يونيو 1950 ولم يتبقَّ إلاّ جزء صغير من الجنوب حول مدينة بوزان حيث لجأت فلول القوات الكورية الجنوبية مع قوة أميركية لم تُثبّت مواقعها بعد. على أن

الضغط السوفياتي وابتعاد قوات كيم إيل سونغ عن مصادر اللوجستيقا المختلفة قد فرضا عليه التوقف عن إكمال الزحف وحسم الحرب.

بدأ الأميركيون بالإعداد لدخول الحرب وقد أصدروا قراراً من مجلس الأمن بالتدخل. وقد سمحت لهم بذلك مقاطعة المندوب الروسي للاجتماعات بسبب الاحتجاج على وجود مندوب شان كاي شيك فيما أصبح مقعد الصين، واقعياً، من حصة حكومة الصين الشعبية. فالتدخل الأميركي العسكري تمّ تحت رايات الأمم المتحدة، ومعه تحالف عريض من دول غربية وآسيوية (تركيا لعبت دوراً نشطاً في هذه الحرب).

ما إن تمّت الاستعدادات حتى انطلقت القوات الأميركية والكورية الجنوبية والحلفاء ("قوات هيئة الأمم") في هجوم استخدمت فيه الطائرات والدبابات مطلقة كثافة نيران هائلة، أسفر عن دحر قوات الشمال ودخول عاصمتها بيونغ يانغ وليس الاستيلاء على العاصمة سيول والجنوب تحت خط 38 فقط. وبهذا أصبحت القوات الأميركية على حدود الصين تقريباً.

هنا اتخذت الصين قراراً بالتدخل المباشر لأن وصول الأميركيين إلى نهر يالو يعني مواصلة الهجوم إلى داخل الصين نفسها.

قرار التدخل الصيني لم يَجُر معه قراراً سوفياتياً عدا التدخل بالطيران ضمن حدود الصين عند نهر يالو. (البعض يعتبر أن الحرب الكورية زرعت بذور الانشقاق الصيني – السوفياتي وكانت سبباً رئيساً فيه).

راح الهجوم الصيني، منذ الأول من تشرين الثاني/نوفمبر 1950، يدحر القوات الأميركية وقوات الحلفاء الآخرين حتى دخل بيونغ يانغ، ثم تجاوز خط عرض 38، وصولاً إلى احتلال سيول في 1951/1/4 مكملاً جنوباً. ولولا ابتعاد الجيش الصيني عن مصادر اللوجستيقا والضغط السوفياتي لما أبقى من الجنوب للأميركيين شيئاً. ثم تبين أن هنالك تهديداً أميركياً، أيضاً، باستخدام القنبلة النووية.

ولكن الأهم ما دار من المعارك الضارية التي راحت تتبادل مواقع التقدم والتراجع بين الطرفين. وقد استُخدم الطيران الأميركي، كما استُخدمت الدبابات والمجنزرات الكاسحة من قبل الصينيين. وتجنباً لنيران الطيران اعتمد الصينيون على

الموجات البشرية في هجمات ليلية بسبب السيطرة الجوية الأميركية وكثافة النيران. ممـا أوصـل الأمور خلال العام 1950 وشطر من 1951 إلى حد التهديد، فعلاً، باستخدام القنبلة النووية. وهنالك من يؤكد أن الرئيس الأميركي هاري ترومان كـان جاداً في استخدامها، ولا سيما في العام 1951. فقد عزل الجنرال الأميركي الشهير دوغلاس ماك آرثر لتبقى يده طليقة باستخدامها إن اقتضت الضرورة.

حـدث نـوع مـن الجمود على الجبهة حول خط العرض 38 بعد أن أعاد الأميركيون الهجوم واستعادوا سيول، وتغلغلوا مرة أخرى في الشمال وإن لم يصلوا إلى احتلال بيونغ يانغ. ثم تواصل الهجوم الصيني ليعيدهم إلى ما وراء خط العرض 38. فما بين تموز/يوليو 1951 – وتموز/يوليو 1953 أصبحت الحرب سجالاً حول ذلـك الخـط مـن دون أن يتكـرّر ما حدث بين كانون الثاني/يناير 1950 إلى تموز/يوليو 1951 من تقدم وارتداد على الجبهتين في العمق حتى حدود الحسم.

يمكن اعتبار حرب كوريا حرباً نموذجية من الناحية العسكرية من نمط الحربين العالميـتين الأولى والثانية. فكانت مذبحة عظيمة من جهة ما حصدته من أرواح من الطـرفين وكـذلك ما وقع من جرحى وأسرى (الأرقام التي أعلنها الطرفان طعن فـيها، ولكـنها دائماً كانت بمئات الألوف ويزيد، فهي أكبر حرب بعد الحرب العالمية الثانية، وإن لم تكن أطولها، بين المعسكرين وقد حرص الاتحاد السوفياتي أن يـشارك فـيها، بصورة غير مباشرة. وهي الحرب التي وُضع فيها استخدام القنبلة الـنووية الأميركية على الطاولة. ومع ذلك ما إن انتهت حتى أدخلت عالم النسيان فأسماهـا بعـض مؤرخيها "الحرب المنسية" قياساً بما قبلها، وبما بعدها من حيث الشهرة وديمومة الاستشهاد بها.

أمـا على المستوى التكتيكي فإن معارك الاشتباك بين الدبابات كانت قليلة، فيما لعب الطيران الأميركي دوراً بارزاً. ولكن الأهم والجديد كان تكتيك الهجوم بالموجات الكثيفة الليلية من جانب الصينيين.

توقـع بعـض المنظّرين أن تكون الحرب الكورية هي حرب التجربة (بروفة) للحـرب القادمـة بين المعسكرين. ولكنها في الواقع كانت آخر مواجهة تقليدية بينهما، وإن لم يكن الاتحاد السوفياتي قد شارك مباشرة فيها. وقد يكون الفضل في

ذلك للاتحاد السوفياتي أكثر منه لأميركا. وهو ما أكدته الحرب الفياتنامية حين قرّرت الولايات المتحدة الأميركية قصف جمهورية فياتنام الشمالية، إلى حد أحداث تدمير واسع وبطائرات B52 في العاصمة هانوي فيما أحجم الاتحاد السوفياتي عن الرد، علماً أن جمهورية فياتنام الشمالية جزء من المعسكر الاشتراكي. وكان من المفترض بأن يشملها الوفاق الدولي كما الاتفاق غير المكتوب على عدم اعتداء أي من الدولتين الكبريين على أراضي المعسكر الآخر ودوله.

صحيح أن الاتحاد السوفياتي قدّم المساعدات لجمهورية فياتنام الشمالية ولكن كان ذلك ضمن السماح بضربها. ولشدّ ما أبدى الزعيم الفياتنامي الشمالي هوتشي منه مرارته من هذا الوضع، ولكنه عضّ على الجرح قابلاً بما يصل من مساعدات ودعم.

حروب 1956، 1967، 1977

اعتُبرت حرب العدوان الثلاثي 1956 وحرب 1967 وحرب 1973، ومن الحروب التي اتّسمت بحروب دون سقف الدولتين الكبيرتين وإن كان الطرف الإسرائيلي الصهيوني جزءاً من معادلة الدول الكبرى، ولا ينتسب إلى دول العالم الثالث. ولهذا فهي حروب ذات طرف يدخل ضمن إطار حروب أو جيوش الدول الكبرى، وعلى التحديد، الغربية منها، ولا سيما حرب العدوان الثلاثي 1956.

حرب 1956: "حرب السويس"، "حرب العدوان الثلاثي"

ففي حرب العدوان الثلاثي واجهت مصر ثلاثة جيوش: البريطاني والفرنسي والإسرائيلي في آن واحد. وكان الهدف السياسي إسقاط حكومة جمال عبد الناصر. ولهذا احتل الجيش الإسرائيلي قطاع غزة وسيناء ووقف على حدود قناة السويس، وبدأ الإنزال البريطاني - الفرنسي على الأرض المصرية. وكانت استراتيجية الحرب من النمط التقليدي في استخدام النيران والحركة. وذلك بالاعتماد على تفوق كاسح بالطيران والدبابات.

هذا لم يترك فرصة للجيش المصري للصمود على جبهة القطاع - سيناء، ولكن تحول إلى مقاومة شعب وجيش في بورسعيد والإسماعيلية. الأمر الذي أوقف الزحف الذي نزل من الجو، كما منع الجيش الصهيوني من المخاطرة بعبور قناة

السويس. وبهذا توقف الزحف العسكري الذي استهدف إجبار عبد الناصر على الاستقالة.

ولكن الحرب توقفت عند هذا الحد بسبب معادلة دولية، أيضاً، ضغط فيها الاتحاد السوفياتي بشكل حاسم لوقفها مهدداً حتى بضرب عواصم دول العدوان. كما ضغطت فيها أميركا لوقفها حيث كانت تتربّص بالحلول مكان بريطانيا وفرنسا في المنطقة. و لم تكن قد ردّت بعد على تفجير السوفيات للقنبلة الهيدروجينية والتي أحدث تفجيرها خللاً في ميزان القوة النووية بين السوفيات وأميركا والغرب عموماً. وهذا ما سمح بابتلاع التهديد السوفياتي والرضوخ له.

ومن هنا كانت حرباً محدودة، بلا حسم عسكري. وجاء النصر نتاجاً لصمود الشعب والقيادة أولاً، وللإنذار السوفياتي ثانياً، وقرار الصمود والمقاومة في بورسعيد والإسماعيلية ثالثاً، إلى جانب الهبة الجماهيرية المصرية والعربية والإسلامية والعالمثالثية (الهند ويوغسلافيا خصوصاً)، كما المعادلة الدولية آنفة الذكر رابعاً.

إن حروب ما بعد الحرب العالمية الثانية وعلى التحديد في ظل أوضاع عالم أخذ ينقسم إلى معسكرين وقوة عالمية ثالثة (دول حركة عدم الانحياز)، سمح بإمكان تحقيق انتصار سياسي ليس نتيجة انتصار عسكري في الميدان، ولا حتى نتيجة لشبه توازن استراتيجي أو تكتيكي عسكري في الميدان. فالنتائج لم تقتصر على وقف العدوان وانسحاب القوات المحتلة بما فيها القوات الإسرائيلية إلى ما وراء خطوط هدنة 1949 فحسب وإنما أيضاً، شكّلت علامة لتراجع المكانة الدولية للدولتين كبريين بريطانيا وفرنسا وهبوطهما إلى الدرجة الثانية بعد أميركا والاتحاد السوفياتي كما لفقدانهما التدريجي لما تبقّى من مستعمراتهما. طبعاً دون إغفال وضع المضائق تحت إشراف هيئة الأمم. مما اعتبر نوعاً من المكسب السياسي لدول العدوان لا سيما الكيان الصهيوني.

القانون هنا هو ارتباط الحرب المحدودة بالمعادلة السياسية المحلية والإقليمية – الدولية. وذلك من جهة المدى الذي يمكن أن تصل إليه والنتائج التي يمكن أن تحقّقها، وكلها دون الحسم الكامل في منطقة أصبحت شديدة الحساسية بالنسبة إلى المعسكرين وحركة عدم الانحياز لاحقاً.

حرب حزيران/يونيو 1967: حرب العدوان الإسرائيلي 1967*

ثلاثة جيوش عربية انخرطت في آن واحد وهي المصرية والسورية والأردنية في حرب حزيران/يونيو 1967 ضد الجيش الصهيوني. وكانت المبادأة فيها من جانب الطيران الإسرائيلي الذي انقض على مدارج الطيران العسكري المصري، والتي كانت بلا حماية وبلا مراعاة لشروط الأمن (التمويه والإخفاء وسرية المواقع والرصد الراداري). وقد اعتبر الإجهاز على الطائرات العسكرية المصرية حسماً للمعركة البرية، كما حصل فعلاً في قطاع غزة وسيناء مرة أخرى حيث توقف زحف الدبابات الإسرائيلية عند قناة السويس، فأغلقتها أمام الملاحة المدنية.

وما إن انتهى الهجوم على الجبهة المصرية حتى انتقل إلى الجبهتين السورية والأردنية حيث سقط الجولان وسقطت الضفة الغربية حتى نهر الأردن.

ومرة أخرى توقفت الحرب بعد خمسة أيام بقرار دولي وبوفاق أميركي – سوفياتي. ولكن مع ذلك لم يستطع الجيش الإسرائيلي، والمعطى مباشرة هذه المرة من قبل أميركا، أن يفرض نهاية سياسية للحرب على طريقة الحسم النهائي بفرض شروط الاستسلام. الأمر الذي جعلها حرباً محدودة بالرغم من احتلال مناطق واسعة من الأرض، ومن دون التقليل من خطورة ما احتل من أرض. ولكن المقصود من الناحية العسكرية. والدليل سرعة انتقال مصر إلى حرب الاستنزاف على قناة السويس وسرعة اندلاع المقاومة الفلسطينية لتفتح جبهتي الأردن ولبنان، وبدعم مصري – سوري – أردني – لبناني – عربي عام.

لقد أثبتت الجيوش، مرة أخرى، أنها لا تستطيع أن تقاتل إذا فقدت غطاءها الجوي وتمتع عدوها بتفوق في الدبابات والنيران وحتى بالعديد في المعركة المحدّدة. لأنها تكون عملياً قد خسرت الحرب أو المعركة قبل أن تدخلهما. بل إن ما يُدرّس في الأكاديميات العسكرية الرسمية في العالم عموماً هو ألاّ يقاتل الجيش إذا حوصر أو إذا فقد الغطاء الجوي ووقع بين فكي كماشة أو تفوق عليه خصمه في الآن نفسه في مناورة الدبابات. طبعاً هذا القانون المسلّم به عالمياً كسرته الجيوش السوفياتية في الحرب العالمية الثانية كما كسرته قوات المقاومة الشعبية.

هذه الإشكالية هي التي واجهت الجيوش الأوروبية بما فيها الفرنسية في الحرب العالمية الثانية وقد استسلمت جميعاً وهي التي واجهت الجيوش السوفياتية إلى أن جاء القرار بمنع الاستسلام تحت كل الظروف. ومن ثم اللجوء إلى الدفاع العميق والخندقة والمقاومة وحتى الانتقال وسط الحصار إلى الهجوم لفتح ثغرات في الحصار. ومع ذلك استمرّت الأكاديميات العسكرية الغربية والعربية تقول بالاستسلام أو عدم القتال في هذه الحالة.

إن قوانين الحرب بين جيشين غير متكافئين تفرض على الجيش الأضعف الذي يفتقر إلى الغطاء الجوي والتفوق في النيران والآليات أن يعمد إلى قوانين حرب الشعب التي اعتمدت من قبل الجيش السوفياتي في الحرب العالمية الثانية، أو قوانين الحرب التي طبّقها الفياتناميون في حرب تحرير جنوبي فياتنام. إنه قانون تحويل الجيش إلى تكتيك واستراتيجية حرب جيش وشعب ضد الجيش المتفوق، وهو ما طبق في نموذج بورسعيد والإسماعيلية في حرب السويس 1956 أو نموذج سفاستبول وستالينغراد وغيرهما من المدن والبلدات والمواقع في الحرب العالمية الثانية، كما طبقه الكورويون والصينيون في الحرب الكورية.

في حرب الاستنزاف 1969 عمل الجيش المصري تحت مظلة دفاع جوي معقولة نسبياً ساعد فيها السوفيات وضمن دعم شعبي في الجانب الآخر من قناة السويس. هذا ويمكن القول إن المعادلة الدولية، في حينه، سمحت بأن تحصر الحرب بالاستنزاف المتبادل. وهذا ما حدث على الجبهة السورية 1974/1973 كذلك.

هنا أيضاً ارتبطت الحرب المحدودة كما حربا الاستنزاف على الجبهتين المصرية والسورية كما فتح جبهة الأردن 1970/1968 أمام المقاومة بالمعادلة السياسية المحلية والإقليمية - الدولية، وذلك من جهة مداها ونتائجها. وهذا بالطبع غير ما يحدث في الحروب التقليدية حيث كانت الاستراتيجية تتجه إلى حسم الحرب في الميدان والوصول إلى استسلام العدو. وبالمناسبة أخطأ، عن قصد أو بلا قصد، من اعتبروها هزيمة تستدعي التسليم. فلم يلحظوا أن الهزيمة بالمعنى العسكري الذي حدّده فون كلاوزيفتز لا ينطبق على الحالة (عدوان 1967) بدليل استمرار الصمود والانتقال إلى حرب الاستنزاف واندلاع المقاومة الفلسطينية وتبنيها والإعداد للحرب من جديد.

حرب تشرين 1973

منذ انتهاء حرب الاستنزاف 1969/1970 اتجهت القيادة العسكرية للجيش المصري في عهد جمال عبد الناصر ثم في عهد أنور السادات إلى إعداد خطة حرب يقفز فيها الجيش إلى الجانب الآخر من قناة السويس، وعلى التحديد تحطيم خط بارليف الدفاعي الذي أقامه الجيش الإسرائيلي وهو معزّز بالطيران وبحاجز مائي لا يسهل اجتيازه.

أثبتت تجربة حرب تشرين 1973 على الجبهة المصرية أهمية مبدأ المفاجأة وإمكان أن يُحطم خط دفاعي شديد التحصين والمزايا مع توفر مضادات أرضية تحدّ من تدخل الطيران، أو تقلل من تأثيره، إلى جانب سرعة الوصول إلى التحصينات بوسائل شبه بدائية (المراكب السريعة والجسور العائمة وخراطيم المياه لإزالة الحواجز الترابية)، والاشتباك داخلها حتى بالسلاح الأبيض. وذلك من خلال قوات اختراق محدودة العدد تعتمد الاشتباك القريب المباشر وعلى مستوى خط بارليف كله. وقد أنجز ذلك ضمن معنويات إيمانية عالية ودوافع وطنية وقومية متأججة، لدى المقاتل المصري الذي صمّم على استعادة كرامته العسكرية منذ حزيران 1967.

ويجب أن يذكر؛ بأن حرب تشرين 1973 كانت الابنة الشرعية للهبة المليونية المصرية والعربية في التاسع من حزيران/يونيو 1967، التي رفضت استقالة عبد الناصر وطالبته بالصمود وبالعودة إلى الحرب من جديد. فكان الرد على النكسة العسكرية (ومن شاء الهزيمة العسكرية) بالسياسة والإرادة الشعبية.

أما عسكرياً فقد أثبتت حرب تشرين، أيضاً، إمكان تحطيم لواء دبابات وأكثر من خلال الصواريخ الفردية المحمولة من مجموعات من المشاة، وقد صُدَّ تقدم الدبابات. وهو ما تكرّر في تجربة حرب تموز/يوليو 2006، أي حرب دبابة مقابل مقاتل يحمل صاروخاً مضاداً وليس دبابة مقابل دبابة.

لقد كانت الاندفاعة الأولى التي قام بها الجيش المصري وزعزعتها لجيش العدو كفيلة بفرض تراجع سياسي على الحكومة الإسرائيلية، أو اللجوء إلى التهديد بالقنبلة النووية؛ ولكن التدخل الأميركي المباشر سياسياً وعسكرياً حال دون

الخيارين. فقام بمدّ جسر جوي لدعم الموقف العسكري والمعنوي، وقدّم معلومات من خلال الأقمار الصناعية سمحت لأريل شارون بدباباته بأن يفتح ثغرة الدفرسوار، وقد رفض السادات التعامل معها، بالرغم من إمكان ذلك، تحت حجة "أنه لا يريد أن يحارب أميركا". فإذا كانت قيادة السادات للحرب قد تكشفت عن جرأة من حيث الإقدام عليها. ولكنها كانت في الآن نفسه مترددة بل متهالكة على وقف إطلاق النار بأسرع ما يمكن بعد الإنجاز الأول.

الأمر الذي سمح للجيش الإسرائيلي بأن يحتفظ بالدفرسوار وبأن يعود ليضرب الخرق الذي أحدثه الجيش السوري في الجولان بموازاة الاختراق المصري حيث كانت حرب تشرين حرباً مصرية - سورية مشتركة، وبخطة واحدة وتوقيت واحد.

وهكذا تدخلت المعادلة الدولية والسياسة والتدخل الأميركي وطبيعة القيادة التي مثّلها السادات في نتائج حرب تشرين بقدر ما تدخلت القوات العسكرية ويزيد.

حروب الهند الصينية

أولاً: فيتنام

شهدت فياتنام حربين في مرحلة الحرب الباردة: الأولى، كانت مع الفرنسيين وانتهت بانتصار فياتنام في معركة ديان بيان فو 1954 والتي قادها الجنرال نغوين جياب. واتخذت شكل حرب نظامية تقليدية بين جيشين بعد أن تطورت المقاومة الفياتنامية إلى مستوى تأسيس جيش شعبي والانتقال إلى الهجوم العام.

ولكن المعادلة الدولية السوفياتية - الأميركية فرضت على أن يكون سقف تلك الحرب تحرير فياتنام الشمالية وتقسيم فياتنام إلى شمال ("شيوعي") وجنوب ضمن المعسكر الغربي متحولاً من النفوذ الفرنسي إلى النفوذ الأميركي.

بيد أن قيادة هوتشي منّه رفضت الاعتراف بشرعية تقسيم الأمة الفياتنامية واستمرت بالتحريض على ضرورة استعادة وحدتها مهما كلّف الثمن. وظل الأمر كذلك إلى أن نضجت ظروف إطلاق المقاومة من جديد وبقرار فياتنامي مستقل عن الاتحاد السوفياتي والصين، وإن كانت الصين قد شجّعت على اتخاذ هذا القرار،

كمـــا كانت منذ 1961 قد دخلت في مفاصلة كاملة مع الاتحاد السوفياتي مقرونة بحـــرب إيديولوجية وسياسية على مستوى المعسكر الاشتراكي كما على المستوى العالمي.

دامـــت الحرب الفياتنامية في الجنوب أساساً والشمال داعماً وتحت القصف الأميركي حوالى 12 سنة انتهت بانتصار فياتنامي حاسم في ميدان المعركة 1976. وقد ولّى الجيش الأميركي الإدبار، كما لم يحدث له يوماً من قبل.

اســـتخدم الأميركـــيون في هــــذه الحرب أقصى ما توصل إليه تقدم الطيران والقنابل والسلاح التقليدي من تطور تقني، فكانت حرباً اجتمعت فيها تكتيكات مكافحـــة العصابات في الغابات والمدن والقرى إلى مواجهة حملات على مستوى تقابل جيوش في المعركة، فكانت معركة محدودة طويلة الأمد. والأهم طُبّقت عليها مـــن جانب الطرفين استراتيجية الحسم العسكري وتحقيق النصر النهائي. وقد جاء ذلك على عكس توقعات المنظرين العسكريين الذين راحوا يؤكدون أن استراتيجية الحـــسم العسكري لم تعد ممكنة في عصر الردع النووي والوفاق الدولي - الحرب الباردة.

ولكن لأن فياتنام قرّرت ألاّ تكرر تجربة 1954 في التعامل مع المعادلة الدولية، واســـتبقت قـــرارها المستقل بيدها بعيداً من تأثير الاتحاد السوفياتي وكانت الصين تشجعها على ذلك. وقد اعتبرت القرار الفياتنامي المستقل في مصلحتها - وهذا ما سمـــح لهـــا بالحسم خارج المعادلات الدولية في حينه -. وبالمناسبة بعد التحرير في 1976 وبعـــد وفاة هوتشي منّه، تعزّزت العلاقات الفياتنامية - السوفياتية أكثر من العلاقـــات الفياتنامـــية - الصينية التي دخلت حالة برود إن لم يكن أكثر من ذلك كمـــا تبيّن عندما غزت فياتنام كمبوديا وقضت على الخمير الحمر حلفاء الصين. فموضـــوع كمبوديا ولاوس وزعامة فياتنام للهند الصينية (فياتنام لاوس كمبوديا) كـــان الـــسبب الرئيس وراء الخلاف الصيني - الفياتنامي فيما أيّد السوفيات غزو فياتنام لكمبوديا واستلحاق لاوس.

كـــان الطـــيران وكثافة النيران كما الدبابات والآليات والمدافع والصواريخ ووسائط الاتصال والتقانة قد تطور بيد الأميركيين إلى مستويات عالية لا تقارن بها

الأسلحة التقليدية في الحرب العالمية الثانية أو الحرب الكورية أو حتى في عقدي الخمسينيات والستينيات، ومع ذلك استطاعت الحركة التكتيكية الأرضية الفياتنامية ومع حسن التناغم بين النيران وتلك الحركة إلى عدم السماح بأن يحسم الطيران والتقنية والدبابات المتطورة وكثافة النيران الحرب بالرغم مما تتمتّع به من تفوق هائل.

الأمر الذي أعاد الاعتبار مرة أخرى، كما دائماً، إلى دور الإنسان، والإبداع الإنساني في حل إشكالات مواجهة ذلك التفوق، وأحياناً من خلال أكثر الأساليب بدائية ولكن مع كسب الشعب والاعتماد على عدالة القضية وروح الاحتمال والصبر والتضحية والعمل الدؤوب.

مثلاً، لا يستطيع أحد أن يتصوّر ما فعلته الدراجة العادية (البسكليت) في اللوجستيقا الفياتنامية الشمالية والجنوبية، بما في ذلك نقل الذخائر والمعدات. وكذلك ما فعلته البراميل الفردية المدفونة في جوانب الطرقات والبيوت في الحماية من قصف الـ B52.

الحرب الفياتنامية لم تسمح بأن يقال إن السيطرة الجوية أو كثافة النيران أو الحركة الآلية والتقنية أصبحت العامل الحاسم في الحرب أو في المعركة.

والحرب الفياتنامية نقضت نظرية الحرب المحدودة في عصر الردع النووي وأكدت إمكان حسم المعركة والحرب بما يشبه الحسم النابليوني أو ما قال به فون كلاوزيفتز، وذلك بالرغم من رغبة السوفيات والأميركان والغرب عموماً.

والحرب الفياتنامية أكدت أن الذي يكسب الشعب يكسب الحرب والذي يحمل القضية العادلة والخط السياسي والفكري الصحيح في إدارة الحرب وفي التعامل مع تناقضات الداخل هو الذي يكسب الشعب ويوحد أوسع جبهة.

والحرب الفياتنامية أكدت على أهمية استقلال القرار بالرغم من سطوة النظرية التي كانت تقول لا مهرب من الرضوخ للمعادلة الدولية أو للوفاق الدولي في مرحلة الحرب الباردة أو الانقياد وراء قيادة أحدهما. بل أثبتت أيضاً أن خوض حرب تفرضها أميركا على شعب صغير لا يعتبر جنوناً، وإنما ينطلق من عقلانية تؤدّي إلى إنـزال الهزيمة بأميركا.

طبعاً إن ذلك كله لا يعني أن من الممكن تطبيقه في كل مكان وزمان وبغضّ النظـــر عن خصوصية كل حرب وكل وضع وكل حالة إقليمية ودولية. فالمطلوب هنا ليس الانتقال إلى طرح موضوعات مقابلة لتلك الموضوعات التي زعزعتها تجربة فياتنام لتتعامل مع الحرب بالمنهجية نفسها.

ثانياً: حرب لاوس وكمبوديا

خـــاض الشعبان اللاوسي والكمبودي حربيّ تحرير ضد القوات الأميركية في أثـــناء الحرب الفياتنامية الجنوبية. فقد أصبحت جبهة "الهند الصينية"، مرة أخرى، جبهة عريضة واسعة للحرب.

وعلـــى الرغم من خصوصية كل من فياتنام ولاوس وكمبوديا دولاً وشعوباً وأحـــزاباً وقيادات إلاّ أن الحرب التحريرية ضد الأميركيين جمعت بينها، ومن دون أن يكـــون لهـــا قيادة واحدة، أو التحول إلى جبهة متحدة. فكل مقاومة خاضت حـــربها بمعزل عن الأخرى، وضمن ظروفها الخاصة، بل قد تبيّن بعد الانتصار في كل من فياتنام ولاوس وكمبوديا أن ثمة تناقضات في ما بينها، ربما من نمط التناقض بـــين "الأخ الكبير"، و"الأخ الصغير". وهو ما دفع فياتنام بعد التحرير والوحدة أن تغـــزو كمبوديا وتحسم الأمر مع "الخمير الحمر". وهو ما جعلها تلجأ إلى التحالف مـــع الاتحـــاد السوفياتي بعد وفاة هوتشي منّه وغزو كمبوديا. ومن ثم الابتعاد عن الـــصين وربمـــا إلى حـــدّ التوتر بين "الحليفين" في الحرب الفياتنامية الجنوبية ضد الأميركيين. فقطار المساعدات من بكين إلى فياتنام الشمالية كان متصلاً على مدى 24 ساعة طوال الحرب.

المهـــم أن اعتماد كل من لاوس وكمبوديا لمبادئ حرب الغوار والتطور إلى مـــستوى حـــرب مناورات بالسرايا أو الكتائب كان السمة الغالبة عسكرياً لنمط الحـــربين المذكـــورتين. وقـــد تكلّلا بالنجاح نفسه الذي تكلّل فيه انتصار فياتنام الجنوبية. وبهذا شهد عام 1976 انتصار الأشقاء الثلاثة.

فالتجـــربة العسكرية في هذه البلدان الثلاثة هي تجربة فريدة من حيث المرحلة الأعلـــى الـــتي تطورت إليها حرب الغوار، وهو ما لم يحدث في عدد من حروب الغوار في تجارب أخرى استطاعت أن تنتصر. ففي التجربة الجزائرية بقي الاشتباك

علـــى مـــستوى غواري. أما التشكل في جيش فقد كان خارج الحدود أو داخلها جـــزئياً ولكـــن من دون الانتقال إلى مستوى الاشتباك الميداني المباشر مع الجيش الفرنسي، الأمر الذي أكد، للمرة الألف، أن لكل حرب خصوصيتها وفرادتها.

حرب الفوكلاند 1982

انـــدلعت حرب الفوكلاند بسبب احتلال الجزر المشكلة منها لا سيما جزيرة جورجيا وجزر ساندويتش من قبل الجيش الأرجنتيني والتي يعتبرها جزءاً من أراضيه فيما تعتبرها بريطانيا جزءاً من أملاكها وراء المحيطات. علماً أنها بالفعل تبعد آلاف الأميال عن الجزر البريطانية ومئات الأميال عن الأراضي الأرجنتينية.

وجاء الرد البريطاني سريعاً بشن الحرب، بداية، من خلال الأسطولين الجوي والبحري ثم النـــزول على الأرض لإعادة احتلال الجزر. ودامت الحرب، وبشكل ضـــروس وطـــاحن في الـــبر والجو والبحر 74 يوماً، أسفرت عن قتل 255 جندياً بريطانياً، و649 أرجنتينياً.

والغـــريب أن الحـــرب اندلعت من دون إعلان من جانب الطرفين. وانتهت باستـــسلام الأرجنـــتين وانـــسحابها منها. ولكن بعد عشرين عاماً أعلن الرئيس الأرجنتيني نستور كوشنير في 2003 أن بريطانيا "حققت نصراً استعمارياً"، وأقسم أن تعـــود الجـــزر يـــوماً مـــا إلى الأرجنتين، ومن دون أن يتكرر استخدام القوة العسكرية.

الانتصار البريطاني عاد على بريطانيا بعدة فوائد منها محوه لآثار فشل العدوان الثلاثـــي المسمّى "حرب السويس" 1956. وقد عزز شعبية رئيسة الوزراء مرغريت تاتـــشر ومنحها فرصة النجاح الانتخابات 1983، وكانت الاستطلاعات قبل ذلك تشير إلى تدهور شعبيتها.

أمـــا على مستوى الأرجنتين فقد أطاحت بالحكم العسكري الذي أراد أن يحقّق انتـــصاراً باستعادة الجزر ليخرج من أزمة داخلية كانت تعصف به، وهو بالفعل حسّن من شعبيته عندما حقّق الجيش بعض الإنجازات العسكرية في أثناء الحرب.

اعتـــبرت حرب الفوكلاند من الناحية العسكرية بأنها أكبر اشتباك عسكري جـــوي - بحـــري بـــين دولتين "عصريتين" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. وقد

استخلص المؤرخ العسكري السير جون كيغان عدة دروس من بينها ألها أظهرت هشاشة السفن الحربية السطحية وتفوق الغواصات والصواريخ المضادة التي تطلق من الغواصات أو الطائرات، واعتبر الغواصة أهم من الطائرة في حرب البحار وإن لم يتأكد هذا الرأي من خلال حرب بحرية أخرى ثانية.

هذا واستنتج كيغان أيضاً أن فاعلية الطيران كانت محدودة في أرض صخرية وعرة ساعدت على اختباء القوات.

حرب الفوكلاند، بسبب بعد مسرح العمليات عن أراضي الدولتين المتحاربتين، أظهرت أهمية اللوجستيقا على مستوى النقل البحري والجوي. هذا وأظهرت حرب الفوكلاند استخدام اللباس المصنع من النايلون بالنسبة إلى الجنود لخطورته في حالة الحريق والحرارة مع النصح باللباس القطني. وكشفت عن وجود نقص شديد في الإسعاف الميداني للجرحى في الجانبين، وبظروف مناخية شديدة القسوة.

إلى هنا لا تكون حرب الفوكلاند قد جاءت بجديد فعلاً من حيث التكتيك العسكري أو مسرح العمليات، ولكنها كانت اختباراً للأسلحة الجديدة ولا سيما الصواريخ والطوافات (الهيلوكبتر) في اللوجستيقا وفي المعركة.

لقد برز في هذه الحرب أن للإعلام دوراً خطيراً، وذلك حين سُرِّبت إلى إذاعة BBC أخبار فشل الهجوم على "غوزغرين" وقد هدّد الكولونيل هـ. جونز بمقاضاة كبار موظفي الإذاعة أمام المحاكم بتهمة الخيانة، ولكنه لم ينفِّذ تهديده حيث قُتل في معركة غوزغرين الثانية.

وبالمناسبة تسريب الخبر جاء من قوى نافذة أرادت إضعاف رئيسة الوزراء مرغريت تاتشر. ولكنها الحقيقة. ولكان الإعلام قد أبرزها لو كان متواجداً في الميدان كما يحدث الآن.

هذا وحملت حرب الفوكلاند بعداً شديد الأهمية، عرف مؤخراً وإن أنكرته الحكومة البريطانية رسمياً. وهو إرسال غواصة تحمل قنابل نووية تكتيكية إلى مسرح العمليات لاستخدامها إذا اقتضت الضرورة، وهي قنابل بحجم 10 كيلو طن نووي إلى نصف كيلو طن، وهذه وتلك يمكنها ضرب أهداف تكتيكية مثلاً ضرب

مواقع، أو اختراق في العمق. وهنا أيضاً تحرك الرئيس الأرجنتيني نستور كوشنير في 2003 عندما تسرب الخبر بعد عشرين عاماً طالباً اعتذاراً بريطانياً: "لهذا العمل الموسف والوحشي".

حرب غزو لبنان 1982

مثلت حرب غزو لبنان من قبل الجيش الإسرائيلي في 6 حزيران 1982 كسابقتها "حرب الليطاني" 1978 نموذجاً للحرب السريعة غير المتكافئة بصورة صارخة. والدليل السرعة (سرعة الدبابة) التي وصلت فيها الأولى إلى نهر الليطاني، والثانية إلى مشارف بيروت.

وجسّدت حرب 1982 دور المعادلة الدولية في حروب مرحلة الحرب الباردة. ولكن حجم الدور ونسبته يجب أن يؤخذا بتفاوت من حالة لأخرى، وعلى تحديد طبيعة الطرف الأضعف وكيفية إدارته للصراع. وهذا التفاوت يمتد من موقف استقلالي يفرض نفسه على المعادلة الدولية (المثل الفياتنامي) وموقف متردد من نموذج السادات إلى موقف وجد نفسه معزولاً سياسياً فذهب إلى المساومة قابلاً الخروج من بيروت شريطة اصطحاب أسلحته الخفيفة (مفاوضات ياسر عرفات مع المفاوض الأميركي فيليب حبيب 12 آب/أغسطس 1982).

أما من الناحية العسكرية فإن المواجهة التكتيكية الوحيدة ذات المغزى، وباعتراف العدو الصهيوني، فقد وقعت في قلعة الشقيف. ولكن إلى جانب ضرورة ما حصل من دفاع عن بيروت واستعصاء احتلالها بالرغم من قصف مكثف دام 57 يوماً.

تفاصيل معركة قلعة الشقيف التي كانت تحت قيادة كتيبة الجرمق (السرية الطلابية سابقاً) من حركة فتح، وردت في فصل من كتاب "الهجوم المفاجئ: الضربات الصاعقة لنخبة القوات العالمية" كتبه المؤرخ العسكري البريطاني بيتر دارمن. وقد هدف إلى إبراز "لواء جولاني" في الجيش الإسرائيلي ليدرجه بسبب تغلبه على المقاومة في معركة قلعة الشقيف، من بين نخبة قوات الصاعقة العالمية. وذلك بعد أن أغمض عينيه عن كونه يتحدث عن معركة غير متكافئة، بصورة صارخة من الناحية العسكرية.

يـروي كيف بدأت المعركة بقصف جوي كثيف مركز للطيران الإسرائيلي علـى بقعة لا تتعدّى ملعب كرة قدم. ومع ذلك فشل بإزاحة المقاتلين من القلعة. ويرجع ذلك إلى الناحية المعنوية أولاً وإلى حسن الخندقة والتحصين وحفر الأنفاق والتمويه ثانياً. وهو جهد بشري بدائي دام شهوراً أو سنوات.

بـدأ الهجوم الأول في حسبانه أن القصف أنهك الدفاع وهيأه للسقوط أمام زحـف كتيـبة بوكين هارشونيم المدرعة المؤلفة من لواء جولاني. ولكن المفاجأة كانـت بوابل الرصاص الذي أربك سائقي الآليات وأوقع عدة إصابات عندئذ بدأ التراجع وخرج قائد الحملة من الميدان بسبب رضوض أُصيب بها.

أعـيد تنظيم المهاجمين، ومدوا بقوات جديدة، وعُيّن المحور جيورا هورنك المشهور بـ "كومبي" لتولي القيادة. وقد اختير بسبب سمعته وثقة القوات بقيادته. فـشنّ الهجوم الثاني بعد تجدد قصف الطيران على القلعة. وكاد "كومبي" أن يموت بعـد أن فقـد سائق ملالته السيطرة عليها. فأصيب من كانوا فيها بجراح طفيفة، وعـان "كـومبي" من ألم شديد بسبب الصدمة في الظهر. ولكنه ركض 700 متر لـيلحق بالعناصـر المتقدمة. فأعاد تنظيم رجاله وقرّر مهاجمة القلعة بالأقدام تاركاً لدبابة تغطيته.

وفي داخـل القلعـة دار قتال شرس دام ربما من الحادية عشرة ليلاً إلى طلوع الفجـر. وننقـل عـن أحد الضباط الذين شاركوا قوله: "رحنا نمطرهم بالقذائف الـصاروخية المـضادة للـدبابات والمتفجرات والقنابل اليدوية. ولكنهم استمروا فهاجمناهم مرة ثانية بقوتنا المتوفرة وبوابل جديد من الصواريخ والمتفجرات والقنابل الـيدوية "حتى أمكن إسكات نيران العدو". وفي إحدى الجولات أصيب "كومبي" ومـات علـى الفـور. فكانت خسارة كبيرة ولكن عدنا إلى تنظيم أنفسنا لجولة أخرى.

هذه التجربة المحدودة، وربما الفريدة في تلك الحرب تؤكد كم يستطيع موقع تمّ تحـصينه جـيداً ولو بإمكانات بدائية أن يصمد تحت القصف، وهو معزول عن الإمداد، وأن يكلف العدو من الخسائر ما لا يطيق لو أصبح هذا الجزء معمماً وفي كل المواقع.

الحرب العراقية – الإيرانية

هـــذه الحرب تختلف عن الحروب الأخرى التي عرفتها مرحلة الحرب الباردة من خلال طرفيها اللذين ينتميان إلى دول العالم الثالث فضلاً عن كونهما إسلاميين وجـــارين وبين مكوناهما الداخلية عرى وثقى منهبية وقومية وتاريخية. وكان من الواضـــح منذ اليوم الأول أن الحسم غير ممكن في هذه الحرب، وبأنها ستكون حرباً محـــدودة، وطويلة الأمد، واستنـــزافية، بصورة راعبة، للبشر والأموال والمعدات، فضلاً عما ستورثه من أحقاد وعداوات.

يقـــدّر أن عدد القتلى من الطرفين في هذه الحرب يدور حول مليون ونصف المليون والجرحى أكثر من ذلك، فضلاً عن 80 ألف أسير. أما الخسائر المادية والمالية فيصعب تحديدها (الأرقام المعلنة غير دقيقة عموماً).

دامت الحرب ثماني سنوات. وقد ابتدأت عام 1980 بشن هجوم عراقي واسع احـــتلّ في نهاية عام 1980 ميناء خورمشهر، ثم أعقبته هجمات وارتدادات متبادلة وصـــلت أيضاً إلى قصف كل منهما لعاصمة بلد الآخر عام 1985. وكان العراق أوائـــل 1982 قد انسحب من معظم الأراضي التي تمكّن من احتلالها مع اندفاعته الأولى، وقـــد احتلّ الإيرانيون في شباط/فبراير 1984 منطقة آبار مجنون وفي 1986 منطقة الفاو.

لقـــد استخدمت في هذه الحرب التكتيكات العسكرية التقليدية وفي مقدمتها التـــناغم بـــين النيران والحركة إلى جانب الجمع بين تكتيكات شبيهة بتكتيكات الحـــربين العالميتين الثانية والأولى كما حرب الشعب من الجانب الإيراني الذي جمع بـــين قـــوات الجيش النظامي الموروث من عهد الشاه وقوات الحرس الثوري ذات الطابع الشعبي، بما في ذلك استخدام أسلوب الهجوم بالموجات البشرية.

جـــاء أغلب التسلح الإيراني في أثناء الحرب من الصين وكوريا الشمالية كما من ســـوق السلاح الدولي من خلال طرف ثالث (بعلم الدول الكبرى المعنية). أما العراق فتـــسليحه من حيث الأساس كان من خلال الاتحاد السوفياتي، كما من خلال سوق صفقات السلاح الدولي وعبر طرف ثالث دائماً. ويذكر أن الموقف العربي انقسم إزاء هذه الحرب، فسورية وليبيا دعمتا إيران فيما بقية الدول العربية عموماً دعمت العراق.

كان الموقف الدولي، كما عبّر عن نفسه من خلال تمرير السلاح للطرفين قد تبنّـــى سياســـة تـــشبه شعار "فخار يكسر بعضه" بحيث يبقى التوازن في الميدان العـــسكري في حدود بعيدة من نتيجة تصل إلى حد انتصار أحدهما وهزيمة الآخر. وبرز هذا الموقف أكثر بعد أن أخذت إيران تتهيأ لحسم الحرب. ففي 1987، وبعد الإعـــلان بـــأن القـــوات الإيرانية أخذت تتعرّض لناقلات النفط الكويتية في مياه الخليج، أخذ كل من أميركا والاتحاد السوفياتي بالتدخل العلني في الحرب ضد إيران مـــن خلال الإعلان عن حماية الناقلات النفطية الكويتية في الخليج ومحاصرة سوق التسلح الإيراني.

وكان أخطر حدث في هذه المرحلة إسقاط البحرية الأميركية في الخليج لطائرة ركاب إيرانية في 3 تموز/يوليو 1988 وعلى متنها 290 راكباً مدنياً، وكان في ذلك إنذار لإيران بالتدخل العسكري المباشر إن لم توافق على وقف الحرب.

وهكـــذا في تموز/يوليو 1988 فُرض على إيران، وبضغوط لم يكشف عنها، بقبول وقف إطلاق النار استجابة لقرار صادر عن مجلس الأمن. وكان مجلس الأمن في 1987 قد اصدر قراراً مماثلاً ورفض.

وبالفعـــل تمّ التقيد هذه المرة بوقف إطلاق النار من الجانبين وأعلن أن العراق خـــرج مـــن الحرب ولديه مليون جندي تحت السلاح وخمسمائة طائرة حربية و 5.500 دبابة.

وراح العـــراق يتعرّض من قبل أميركا، بعد سنة من وقف إطلاق النار لضغط اقتـــصادي وسياســـي لا هوادة فيهما. وذلك للعودة بالجيش إلى ما كان عليه قبل الحـــرب مـــن حيث العديد والقدرات العسكرية. وكان لهذا علاقة، طبعاً، بتوازن القوى المقرر مع الجيش الصهيوني وهو ما ولّد أزمة وصلت إلى حد احتلال العراق للكـــويت في 1990. وما ترتّب على ذلك من شن حرب دولية عليه عرفت باسم حرب الخليج الثانية 1991.

وفي أثناء احتلال العراق للكويت وفي ظروف الاعداد الأميركي والعالمي لشن حرب عليه لسحب قوته من الكويت، عقد العراق اتفاقاً بينه وبين إيران بإعادة ما بقـــي بحوزته من أراضٍ في شط العرب تنفيذاً للاتفاقية العراقية - الإيرانية لعام 1975.

وأطلق الطرفان أعداداً من الأسرى لدى كل منهما، وأعيدت العلاقات الديبلوماسية.

خلاصة، لقد انتهت الحرب بين العراق وإيران "بلا منتصر ومهزوم". وقد لعبت التدخلات الدولية الهائلة دوراً حاسماً في تسعيرها وفي وقفها. وذلك بعد أن استنفدت أغراضها من وجهة نظر الدول الكبرى وأصبح من الضروري وقفها، ولكن عن غير رضا كل من إيران والعراق. مما أبقى الجمر تحت الرماد. فالنظام الدولي الذي ساد في ثمانينيات القرن العشرين لم يكن ليسمح في منطقتنا العربية الإسلامية بحسم الحرب لأسباب إسرائيلية أولاً لأن الحسم سيحدث خللاً هائلاً في ميزان القوى يؤثر في التفوق الإسرائيلي، المتفق عليه أميركياً وسوفياتياً وأوروبياً، كما يؤثر ثانياً في المعادلة العربية الإسلامية والنفوذ الدولي ومعادلات النفط. فقد استطاعت الدولتان الكبريان وحلفاؤهما من خلال السيطرة الشديدة، وإن لم تكن الكاملة، على سوق السلاح، من أن تحافظا على ميزان القوى بحيث يمضي الطرفان باستنزاف بعضهما من دون أن يترك لأحدهما، ولا سيما لإيران، فرصة قلب ذلك التوازن.

التطور العسكري في الحرب العراقية - الإيرانية

إذا وضعنا جانباً كل السلبيات السياسية والإنسانية والاقتصادية التي حملتها الحرب العراقية - الإيرانية، وإذا وضعنا جانباً الدور البشع الذي لعبته سياسات الدول الكبرى بهذه الحرب والتحكم في طريقة إنهائها، فسنجد نتيجة إيجابية غير محسوبة تمخضت عنها. وهي أن كلا الطرفين: العراق وإيران خرجا من الناحية العسكرية والعلمية والتقنية والإدارية أقوى مما كانا عليه قبل الحرب. وهذا من السنن، لأن ما يتحقق من نهوض عسكري وعلمي وتقني وإنتاجي وتعبوي في أثناء الحرب، أو الإعداد الجدي لها، يفوق ما يحدث في عهود السلم أضعافاً، وهو ما عرفته جيداً الدول الكبرى في تجاربها (حربان عالميتان وحروب محدودة متعددة) من تطوير لقدراتها العسكرية العلمية والتقنية واللوجستيقية والإدارية والتعبوية في أثناء الحرب. وهو ما لا يتحقق مثله في المراحل السلمية العادية.

فالحروب، في الغالب، تضاعف قوى المنخرطين فيها بغض النظر عما يحدث من دمار وما يقدّم من تضحيات في الأرواح والأموال. فالنشاط المدني والعلمي

والتقني والتطويري في يوم واحد من أيام الحرب أو أيام الإعداد الجدي لها يضاهي أسابيع وشهوراً من النشاط في عهود السلم والاسترخاء.

هذه حقيقة، بالرغم من مقتنا وكرهنا للحرب.

وبالمناسبة إن أهم المنجزات والتطويرات التقنية التي تغنى بها العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، وذلك من الكمبيوتر والبرامج والإنترنت وأجهزة الاتصال والشرائح الدقيقة وأمثالها كلها تطوّرت في حضن المؤسسة العسكرية، وبإشراف مباشر من قبل هيئات الأركان. أما ما يفرج عنه للاستعمال المدني فيكون متخلفاً عشر سنوات في الأقل عن الجيل الجديد الذي وضع في خدمة الجيش.

وهذا هو تاريخ كل تطور علمي وتقني وصناعي وإنتاجي عرفته أو ولدته الحداثة الغربية. فالغرب بقي في حالة حرب أو في حرب منذ القرن السادس عشر حتى اليوم. فمن يقرأ تاريخ ما شهده العالم من تطورات علمية وتقنية خلال القرون الخمسة الماضية ولا يربطها بدور المؤسسة العسكرية فيها (الحروب) يكون قد أسقط عاملاً أساسياً لا يمكن نكرانه. وهذا العامل سار جنباً إلى جنب مع عامل الاستعمار والنهب العالمي للثروات لآسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية في تطوير حضارة الحداثة الغربية. وهذا العامل الأخير (الاستعمار والنهب العالمي) كان يوفّر الفائض المطلوب لإحداث كل تلك التطورات.

القسم الثاني

مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة

1991 - 2008

- 1 -

نظرية "الثورة في الشؤون العسكرية M.R.A

مع كل تطور تقني (تكنولوجي) في تطوير السلاح أو اكتشاف سلاح جديد أو في تعظـيم السرعة والنقل كانت تحدث هزّة في عالم التكتيك والعمليات. وفي كـل مـرة كانت تخرج نظريات تتحدّث عن تفوق الهجوم على الدفاع أو تفوق الدفاع على الهجوم، أو عن إبطال سلاح معين أو تكتيك معين كانت تحدث هزة عالم التكتيك والعمليات.

ولكن لم يحدث قط ما حدث في السبع عشرة سنة الماضية من بروز نظريات تـنسف أسس علم الحرب، وتتخطّى كل قواعده، لحساب التقنية والتطورات في عـالم الحاسوب (الكمبيوتر) و"الرقميات"، والشاشة البلازمية، وعالم الاتصالات، والشرائح، وما سُمّي بالأسلحة الذكية أو القنابل الذكية، والطائرة الشبح، والطائرة بـلا طيار، والصاروخ الذي لا يخطئ هدفه بما في ذلك الدخول من النافذة وتحديد مـدى الانفجار. وبهذا غاب الإنسان ودوره على الجبهتين، وأُهمل فون كلاوزيفتز ولـيدل هـارت وماوتـسي تونغ ودروس السوفيات في الحرب العالمية الثانية، أو دروس حروب التحرير الشعبية.

فقـد أصـبح السلاح الحديث (الطائرة والصاروخ) والشاشات وكثافة الـنيران، عـوامل الحسم في الحرب والمعركة. ولهذا يمكن تسمية أصحاب هذا الاتجاه بـ "عَبَدة التكنولوجيا".

وسنرى بعد قليل، وعبر التجربة، كيف أدّى ذلك بهم إلى هزائم وإخفاقات وربما كوارث.

وبالمناسبة حدث مثل هذا في عالم الاقتصاد خلال الفترة نفسها حيث جاءت مرحلة العولمة التي صاحبت هجمة تكنولوجيا التلفزيون والإنترنت والحاسوب والبرامجيات لتغييب الأسس التي قام عليها الاقتصاد الحديث، ودعك من القديم. وليغيب، من ثم، آدم سميث، وجون ستيوارت مِل، وريكاردو، وكارل ماركس، ولينين، وكينزي. وبدأت تسود نظريات اقتصاد الإنترنت و"اقتصاد المعرفة"، و"اقتصاد المضاربات بالبورصة والعملة"، فأصبح الاقتصاد المالي- الورقي الذي لا غطاء له في الاقتصاد الواقعي هو هدف الاقتصاد. وأصبح من السخافة الحديث عن الإنتاج الزراعي والصناعي، والتطوير المهني، والاقتصاد المستقل أو اقتصاد الاكتفاء الذاتي. فأصبح المضارب بالبورصة أفضل من رجل الصناعة أو المزارع، وهذا ما جعل شركة أندرسون للتدقيق الحسابي تتحوّل إلى خبير في تزوير الموازنات من أجل التلاعب بأسعار الأسهم في البورصة ولعبة المضاربات وذلك بدلاً من تدقيق الموازنات.

ولكن من يتابع ما حدث في انهيار النمور الأسيوية ثم في انهيار البورصة في أميركا في مطلع القرن الحادي والعشرين، ثم ما يحدث الآن (2008) من أزمة عالمية بسبب انهيار الرهونات العقارية وقد راحت تتضخّم مثل كرة الثلج، والأهم ما يحدث الآن للاقتصاد الأميركي وللدولار ولأسعار النفط والمواد الغذائية يتحقّق بأن نظريات "عَبَدة التكنولوجيا" في الاقتصاد لن تصمد أمام اختبار الحياة القاسي.

على أن اختبار الحياة أشد قسوة عندما نأتي إلى الحرب، لأن خسارة الحرب ليست مثل خسارة في البورصة أو حدوث ركود في الاقتصاد.

إن كلاً من التقنية وتطور السلاح والنيران والسرعة والدقة والاتصالات عنصر من عناصر سنن الحرب أو أسس الحرب، ولا يمكن له أن يحل محل كل العناصر الأخرى، ومن يعاملها باعتبارها فوق العناصر الأخرى فعقابه في الميدان شديد.

ولعل أول من دفع ثمن هذا الطيش بالتخلي عن القواعد الأساسية في وضع الاستراتيجية كان المحافظون الجدد، وذلك بتلاعبهم بأوليات الاستراتيجية الأميركية

وتحـويل الحرب إلى جبهات ثانوية، وفقدان التركيز على احتواء الدول الكبرى أو الـدول المنافسـة والمتحولة إلى كبرى عسكرياً واقتصادياً وتقنياً. فما معنى اعتبار "الإرهـاب" أخطر على أميركا من الدول التي تمتلك القدرات النووية والصاروخية أو تلـك الـتي راحـت تسيطر على الأسواق العالمية ببضائعها (وليس بمضاربات البورصة). أين يصرف هذا في علم الحرب؛ أو في تحديد أولويات الاستراتيجية.

والمثال الآخر على العقاب الذي ينـزل بمن يتجاهل أسس علم الحرب أو قواعدها أو القاعدة الذهبية في التكتيك (التناغم بين النيران والحركة) نجده لدى الجنـرالات الإسـرائيليين وفي مقدمتهم الجنرال حالوتس قائد الجيش في حرب تموز/يوليو 2006 في لبنان. وقد شكّلوا خلال الخمسة عشر عاماً الماضية نموذجاً لعَـبَدة التكنولوجـيا العسكرية حيث راحوا يركّزون على الطيران والقذائف الذكـية وقـوة الـنيران على حساب القوات البرية والدبابات وبناء الضابط والجـندي مثلاً. وقد أدّى هذا النهج إلى سلسلة من الأخطاء العسكرية البدهية في الاسـتراتيجية والعمليات والتكتيك، وحتى في حق تقاليد الجيش الإسرائيلي نفسه.

يمكـن للمـرء أن يـتأكد من كل ما تقدم عند قراءة المؤرخين العسكريين الإسـرائيليين الذين قوّموا حرب تموز/يوليو 2006 على لبنان. ناهيك عما تضمّنه تقريـر فينوغـراد، وكان الثمن استقالة مجموعة من الجنرالات وزعزعة ثقة المجتمع الصهيوني بجيشه الذي يشكّل العمود الفقري للمجتمع والدولة وأساس بنيانهما.

إن الوقـوع بأسر ما سمّي بمقولات "الثورة في الشؤون العسكرية" (R.M.A) كـان واحـداً من الأسباب الرئيسة لفشل خطة الحرب الإسرائيلية على لبنان في تموز/يوليو 2006 كما كان واحداً من أسباب فشل الاحتلال الأميركي كما خطّط له المحافظون الجدد في العراق.

الإشـكال الـذي أخـذت تثيره التطورات التقنية على السلاح والوسائط والسرعة والاتصالات واللوجستيقا هو كيف تتواءم هذه التطورات مع أسس علم الحرب وليس كيف تنفصل بذاتها وتصبح العامل الوحيد أو الأهم من بين العوامل الأخرى التي تقرّر مصير الحروب.

وهـذا ما يجب أن ينطبق أيضاً، على الميادين الأخرى مثل السياسة والإعلام والتعليـم والاقتصاد أي كيف تبنى التطورات الجديدة على الأسس، وليس كيف تلغـي تلـك الأسـس فـتحل المتغيرات الجديدة مكانها، وبالدرجة الأولى مكان الإنسان.

الحرب وسط الشعب

أمـا الإشـكال المعاصر الثاني الذي أخذ يبرز في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الـباردة، وعلـى ضوء إلحاح تجارب السبع عشرة سنة الماضية فيتعلق، بالنسبة إلى أميركـا وحلـف الـناتو بالدرجة الأولى، في كيفية إقامة التوازن بين بناء الجيش (نظـريته، استراتيجيته، تشكيلاته، تدريباته، أسلحته) وما يواجهه من تحديات من حـروب المقاومة الشعبية. وهو ما أسماه روبرت سميث "الحرب وسط الشعب" في كتابه "THE UTILITY OF FORCE" "جدوى استخدام القوة".

تعالـت أصوات كثيرة من داخل الجيش الأميركي نفسه، كما من بين ضباط جـيوش الـناتو تدعو إلى المواءمة بين "بناء الجيش"، وما يقوم به من مهمات من أمثلـتها: في أفغانـستان، والعراق، ولبنان، وفلسطين. وذلك لأن جيوش "الدول الـصناعية" (وفقـاً لمـصطلح حديث)، بنيت على أساس مواجهة "جيوش دول صناعية" أو حرب بين جيوش ودول متكافئة (تقريباً دائماً). أما النموذج فالحربان العالميـتان الأولى والثانـية، وعلى الخصوص الثانية. وكانت الجيوش المقصودة في مرحلة الحرب الباردة هي الجيش السوفياتي وجيوش حلف وارسو في مقابل جيوش حلف الناتو.

ولكن المشكل كما يثير كثيرون اليوم أن الحرب لم تقع وفقاً لهذا النموذج ولا يقدر لها أن تقع في المستقبل مع قوانين استمرارية الردع النووي. فالحروب الجديدة هـي حروب بلا ميدان عسكري، ولا معركة من النمط المذكور وإنما هي حرب ضـد قوى صغيرة، وأفراد يخرجون من وسط الناس. ولا يمكن أن تميزهم عن بقية الـناس إلاّ عـندما تراهم يطلقون النار، أو ترى آثارهم لغماً ينفجر من تحتك أو جسماً عادياً يتفجّر من جانبك.

هــذه الإشكالية التي تذهب إلى التفريق بين النموذجين للحرب كانت قائمة دائماً منذ الغزو الاستعماري، بل واجهها نابليون في إسبانيا. وقد كتبت حولها في الخمسين سنة الماضية عشرات الدراسات وأكثر تحت عنوان "حرب مكافحة التمرد" أو "الحرب المضادة للتمرد". ولهذا، فإن جيشاً كجيش بريطانيا، على الخصوص، وبسبب كثرة مستعمراتها ومحدودية سكانها وحجمها وما واجهته من ثورات وحروب غوار عالج الإشكال المذكور، في السابق، بالمرونة الفائقة في التغيير وفقاً لنموذج الحرب الذي يُواجهه. أما، عموماً، فكانت الجيوش الاستعمارية أو الغازية تقوم بفرز فرق من داخلها لمواجهة هذه الحالات فيصار إلى تسليحها وتشكيلها وتدريبها بما يتناسب وهذه المهمات.

أما روبرت سميث وغيره، ممن لم يصلوا إلى مستواه من حيث شمولية التنظير، فيذهبون إلى إعادة النظر بكامل بنية الجيش واستراتيجية تسليحه وتشكيله وليس مجرد فرز فرقة أو أكثر للقيام بهذه المهمة. والحجة الأساسية هنا هي إسقاط احتمالية الحرب في ما بين "الدول الصناعية". ومن ثم تحول مهمات الجيش لمواجهة تحديات يعددها روبرت سميث بـ: الإرهاب، انتشار السلاح النووي، حماية البيئة، وحماية توفير بعض المصادر مثل الطاقة والماء، أو قوات حفظ السلام، وقوات فض نزاعات، وضبط الحركة الشعبية في منطقة ما. طبعاً يقصد بالدرجة الأولى المقاومة من النمط الأفغاني والعراقي واللبناني والفلسطيني.

وبالمناسبة روبرت سميث جنرال بريطاني تقاعد عام 2005. وشارك مباشرة في مواجهات عسكرية، أو حروب، مسارحها كانت في إيرلندا والبوسنة والهرسك وكوسوفو، والحرب ضد صربيا 1999، وحرب الخليج الثانية ضد العراق 1991، وفي حرب أفغانستان 2001، وحرب العراق 2003.

نمط "الحرب وسط الشعب" كما يقدمه الجنرال سميث يختلف عن نمط الحروب التقليدية بين الجيوش الصناعية، حيث تنفرد هيئة الأركان بتنفيذ الاستراتيجية العسكرية بمجرد اتخاذ قرار الحرب من القيادة السياسية، فتكون لها الاستقلالية الكاملة في مسرح الحرب بهدف تحقيق النصر الحاسم، ثم تسلمه للقيادة السياسية لاستثماره وتحويله إلى مكاسب سياسية.

أما "الحرب وسط الشعب" فمسرحها المدن والقرى حيث يختلط العدو داخل صفوف الشعب، مما يقضي الفرز المستمر بين السكان والعدو للقضاء عليه. فالسكان ليسوا هم العدو[1].

هذه المعادلة (الحرب وسط الشعب) تدمج السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي والتقني بكل لحظة، ويوم، ومعركة وعلى طول مسرح الحرب وعرضه ومن البداية حتى النهاية. فالقيادة العسكرية لا تستطيع التصرف باستقلالية إلاّ في الحدود التي يكتشف فيها العدو ويصار إلى مهاجمته. ولكن عملية عزل العدو عن الشعب، بل كسب الشعب، أو تحييده، تدخل فيها كل جوانب المواجهة التي تشمل ميادين السياسة والإعلام والاقتصاد والثقافة والتقاليد.

ومن هنا يرى أن نمط الحرب التقليدية بين دولتين وجيشين لم يعد هو النمط السائد أو الأساسي للحرب في القرن الواحد والعشرين، أو في الأدق منذ انتهاء الحرب الباردة. مما يتطلب أن يعاد النظر في تنظيم الجيش وعمله القيادي وتدريب ضباطه وجنوده ليتأقلموا مع نموذج "الحرب وسط الشعب".

ويلحظ الكتّاب إيفان توماس وجون باري وباباك دينغابيشه ولاري كابلو في مقال مشترك في "نيوزويك" الأميركية (2004/4/1) بأن ثمة انقساماً بين جيلين من الضباط الأميركيين حول طبيعة الحرب التي يتوجب الإعداد والتخطيط لها: الجيل الأكبر سناً يقف مع نمط الحرب التقليدية. أما الجيل الثاني الأصغر وهؤلاء ممن قاتلوا في أفغانستان والعراق فيركزون على حرب بهدف كسب العقول والقلوب (رأي سميث عملياً). والفرق بين وجهتي النظر ليس بسيطاً كما قد يتراءى في الوهلة الأولى، لأن كلاً منهما لها طريق في تجهيز القوات وتسليحها وتشكيلها وإعدادها وعديدها.

---

(1) هذا القانون تخالفه النظرية الإسرائيلية في "الحرب العملانية" Operational Warfare. إذ كما يوضحها الجنرال أفيف كوخافي إذ لا يفرّق بين العدو والمدنيين فالشعب الفلسطيني كله العدو. "العسكرية الإسرائيلية تستخدم ما بعد البنيوية كنظرية عملياتية" بقلم إيال وايزمن، وهو ما يسمّى "الهندسة المعكوسة" - المرور من خلال اختراق جدران البيوت، وليس عبر الشوارع والأزقة.

وكــان دونالد رامسفيلد وزير الدفاع الأميركي، في حربي أفغانستان والعراق 2001، 2003 على التالي: اعتمد على رأي من قالوا بحلول التقانة - التكنولوجيا: الأقمــار الــصناعية والكومبيوترات وأجهزة الرصد الرقمية محل الجيوش الكبيرة. ولكن ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى تبيّن أن الحرب لم تكسب مع الاحتلال، وإذا بالمقاومة تندلع والقتال يُستأنف. ثم سرعان ما تبيّن للأميركيين استحالة كسب الحرب بالرغم من تفوق التقنية العسكرية وتطورها. وهنا بدأ البحث عن الخبرات والــدروس المستفادة من حروب "مكافحة التمرد". ونقل عن العقيد بول بينغلينغ مقــالاً عنوانه "إخفاق قيادة الجنرالات" معتبراً أن الجنرالات يطبقون تقاليد بالية في الحــرب. ولهــذا أقــام الجيش الأميركي 12 مجسّداً لقرى وأحياء عراقية في مركز تــدريب في فورث أروين من أجل تدريب جيل من الجنود والضباط لمواجهة هذا الــنمط مــن الحــرب الــذي عرفته التجربة الأميركية في أفغانستان والعراق بعد احتلالهما.

ركّز العقيد بول بينغلينغ في مقالته لمجلة "أرمد فورستر جورنال" (مجلة القوات المسلحة) الأميركية، في عدد شهر أيار/مايو 2007، على نقد الجنرالات الأميركيين في إخفاقهم للإعداد للحروب المقبلة، وفي تدريب جنودهم لمواجهة التحديات التي تفرضــها الحرب الجديدة. فقد اقتصرت استراتيجية الجيش على استعمال أسلحة الــتقانة العالية المتطورة من النوع الثقيل، والمهيأة للحروب التقليدية وبقيت مناهج الجيش كما كانت في الحرب الباردة.

وبعــيداً من جملة من الأخطاء السياسية التي ارتكبت في العراق إلاّ أن جوهر النقد من الناحية العسكرية يلتقي مع رأي روبرت سميث من دون أن يكون قد قرأه وذلك في إعادة بناء الجيش ليتناسب مع حروب من نمط مواجهة المقاومة في العراق وأفغانستان.

هــذا يعــني أن الــتفكير الاستراتيجي الجديد سيواجه إشكالية بناء الجيش (نظــريته، اســتراتيجيته، تشكيلاته، تدريباته، أسلحته) لمواجهة حروب المقاومة الشعبية، أو ما أسماه سميث "الحرب وسط الشعب".

"النظرية العملانية": "الهندسة المعكوسة"

أوضح الكاتب الإسرائيلي إيال وايزمن EYAL WEIZMAN في مقالة تحت عنوان "العسكرية الإسرائيلية" تستخدم "ما فوق البنيوية" باعتبارها "نظرية عملياتية". ما هو المقصود "بالهندسة المعكوسة" التي يتحدث عنها الجنرال عفيف كوخافي (42 سنة) الذي قاد عملية اقتحام نابلس في نيسان/أبريل 2002.

إذا كانت الهندسة صممت لبناء البيوت والعمارات، وإذا كانت هندسة المدن تعني هندسة الطرق والأزقة فإن "الهندسة المعكوسة" تدرس كيف تهدم الجدران وتخترقها، وكيف يستبدل استخدام الطرق والأزقة والدخول والخروج من الأبواب بفتح طرق بديلة عبر اختراق الجدران الداخلية للبيوت والأبنية، أي "أنفاق" لكن من داخل البنايات. فتلميذ كلية الهندسة المعمارية يدرس كم يحتاج من الاسمنت والحديد وبأية سماكة يبني جدران الغرف، أما تلميذ الهندسة المعكوسة فيدرس كم يحتاج من المتفجرات ليفتح ثغرة في الجدار. وهكذا...

هذا بالطبع يتطلب تغيير النظر إلى المدن وسكانها بحيث تُرى مشكلة مكانية أو ساحة حرب على القائد العسكري أن يعالجها وليست مشكلة عمرانية أو إنسانية أو سكنية. ويضرب الجنرال كوخافي مثلاً على المقصود فيقول: "مثلاً هذا المكان الذي تنظر إليه وهذه الغرفة ليسا إلاّ تصوراتك. فالمشكل كيف تفسِّر الممر أو الزقاق مثلاً. فنحن نفسِّره باعتباره مكاناً يُمنع المرور منه، والنافذة ممنوع الإطلال منها والباب يحظر الخروج منه ولهذا نفتح ما يعترضنا من جدران خارجية وداخلية". وهذه هي "النظرية العملانية" في المدن.

وقد فتح الجنرال المتقاعد شيمون نافي SHIMON NAVEH "مركز الدراسات النظرية العملانية". وتعتمد هذه المدرسة على كتابات فيليكس غوتاري FÉLIX GUATTARI وجيلس ديلوز GILLES DELEUZ وغي ديبورد GUY DEBORD وهؤلاء يبحثون هندسة المدن بصورة معاكسة لما تفعله الأكاديميات الهندسية. فالعسكريون الإسرائيليون يعتبرون حرب المدن هي "نهاية الاشتباك ما بعد حداثي". هنا يصبح المدنيون مقاتلين والمقاتلون مدنيين فالكل في المعركة سواء لأن كل شيء يمكن أن يكون هو وضده في آن، أو ينقلب في لحظة إلى ضده.

وهـذا بالطبع كما يقول إيال وايزمن غير صحيح وإنما هو تسويغ لعدم فرز المقاتلين عن المدنيين.

وهـذا بالطبع مناقض لكل نظرية روبرت سميث أو كل نظريات "حروب مكافحة التمرد" الاستعمارية، لأنها تستهدف فرز المقاتلين عن المدنيين وكسب الأخيرين أو تحييدهم. ولهـذا لا يمكن لعقل أن ينتج نظرية من النمط الذي يتبنّاه عفيف كوخافي وشيمون نافي "عسكريو ما بعد الحداثة" غير العقل الصهيوني الذي يعتبر كل المدنيين الفلسطينيين أعداءه حتى الذين يتعاملون معه أو يتنازلون لـه عن كثير من حقوقهم ما داموا باقين على أرض فلسطين و لم يرحلوا.

"النظـرية العملانية" تفتح طريقها من بين جدران الأبنية ومن ثم تقتحم على سكان المدينة بيوتهم، فيفاجأون بالجيش يهدم الحائط أو يفتح ثغرة كبيرة فيه في الغـرفة الـتي يجلسون فيها، ثم يصار إلى تجميعهم في غرفة تغلق عليهم بلا ماء ولا أكل ولا إمكان لقضاء الحاجة. وذلك لبضعة أيام إلى أن تنتهي العملية فيفتح لهم في أثناء الانسحاب.

ومن هنا تقوم النظرية في أساسها ضد السكان وليس ضد الهدف المحدّد الذي يأتي دوره في نهاية المطاف.

هـذه النظرية من بنات أفكار هندسية، وعسكرية، وفلسفية، ما بعد حداثية، تجـد سندها في نظرية "الثورة في الشؤون العسكرية" أي النظريات التي ولدت ما بعد انتهاء الحرب الباردة ولا سيما مع مجيء المحافظين الجدد (الصهاينة حتى العظم) إلى قيادة الإدارة الأميركية في عهدي جورج دبليو بوش.

علـى أن "النظرية العملانية" (الهندسة المعكوسة) لا تستحق أن تدخل في العلم العسكري فهي غير قابلة للتعميم وغير قادرة على مواجهة امتحان حروب المقاومـة المدعـومة من الشعب فهي تسهم في استعداء الناس والتفافهم حول المقاومـة، وهـذا ترتدّ على نفسها بالهزيمة العسكرية وليس بالهزيمة الأخلاقية والإنسانية فقط.

الرد على نظرية "الحرب وسط الشعب"

المشكلة في كل هذه التنظيرات النابعة من تجربة الحروب في مواجهة المقاومة، بغض النظر عن إصرارها على تسميتها بالإرهاب أو بالتمرد، كونها لم تلحظ أن الجيش مرّ قبل ذلك بمرحلة الهجوم على دولة وجيشها لاحتلالها وجاء ذلك منسجماً مع استراتيجيات بناء الجيوش لمواجهة "الحروب الصناعية" أو التقليدية أو من نمط الحربين العالميتين الأولى والثانية، أو ما كان معدّاً له من مواجهة بين حلفي الناتو ووارسو في مرحلة الحرب الباردة.

والأنكى أن هؤلاء ذهبوا بكل يقين مريح على أن المرحلة المعاصرة تخطّت الحروب بين الدول فيما هم يعدون على قدم وساق لحرب مع إيران وإعادة الحرب ضد حزب الله أو ضد سورية، كما إعادة احتلال قطاع غزة، أي الحرب في المرحلة السابقة للحرب "وسط الشعب"، وهي ذات طابع نظامي تقليدي في وجهه الرئيس. فقانون اقتحام عسكري لمنطقة غير قانون حالة احتلال تواجه مقاومة داخلية.

والمسألة المنسية الأخرى تتمثل في أن أصحاب الحديث عن انتهاء الحروب بين الدول الصناعية وعدم الحاجة إلى المحافظة على استراتيجية بناء الجيوش كما كان الحال في الحرب الباردة لم يتوقفوا للحظة أمام التطورات الممكنة في صراع الدول الكبرى في ما بينها وعلى التحديد في مواجهة عودة روسيا خلال السبع سنوات الماضية مع بوتين، كما لو أن المارد النووي السوفياتي عاد مرة أخرى من جديد، أو في مواجهة الصين التي أصبحت منافساً اقتصادياً كبيراً وتحوّلت إلى قوة نووية وصاروخية وعلمية كبرى. الأمر الذي يعني أن الوجه الأساسي للصراعات العالمية لن يقتصر على الصورة للحرب التي ولدتها تجارب السبع سنوات الماضية بعد احتلال أفغانستان والعراق.

وبكلمة أخرى، هل يمكن لاستراتيجية الحرب وبناء الجيش ألاّ تأخذ ذلك في الاعتبار وهي تحاول حل الإشكالية آنفة الذكر: إعادة بناء الجيش ليواجه ما يسمّى التحديات الجديدة التي عدّدها روبرت سميث، كما مرّ سابقاً. فالإشكالية ما زالت قائمة من حيث الحاجة إلى إقامة توازن صحيح بين النموذجين للحرب.

أمـــا الإشكالات التي طرحتها حرب تموز/يوليو 2006 فتتخطّى ما راح يفكر به روبرت سميث وتتجاوز ما اشتهر بحرب الغوار أو الحرب بين جيشين صناعيين. فهنالك إشكالات ميدانية تكتيكية، وهنالك إشكالات تقنية تكنولوجية تتعلق بحل مـــشكلة (الصواريخ المضادة) للصواريخ قريبة المدى أو متوسطته، كما إشكالات الـــتقاط لمعـــان الـــصاروخ ومعالجته الفورية السريعة. وهذه الإشكالات طرحتها صـــواريخ قطـــاع غزة أيضاً ولو على نطاق أضيق، ولكن ليس أقل خطورة. أما الإشكالات الميدانية التكتيكية فنلحظها بما يلي:

"الثورة في شؤون العسكرية" أمام حزب الله

التقانة العالية جعلت الإصابة من الجو ومن صواريخ أرض – أرض أو بحر – أرض، كمـــا جعلـــت الصاروخ المضاد أدق أيضاً بالإصابة جواً وأرضاً وبحراً. إنها جزء من الثورة في الشؤون العسكرية M.R.A. فالسيطرة على الجو جعلت حركة الدبابات لدى الخصم في منتهى الصعوبة إلاّ ربما في ظروف جوية محددة. وقد ظنّ جماعـــة نظرية "الثورة في الشؤون العسكرية"، إن ذلك يكفي لكسب الحرب تحت حجـــة "مـــن يمتلك السيطرة على الجو يسيطر على الأرض وعلى المعركة إلى أن يستـــسلم العدو". ولكن حزب الله أعدّ دفاعاً جيداً وهجوماً صاروخياً. وكان معه مـــضادات للدبابات وألغام فعّالة. وكان قد أخفى مواقعه على الطائرات والرصد وكـــان متحركاً في الانطلاق والاختباء، مما أبطل التفوق الجوي وحراك الدبابات. كـــان مـــستعداً للاشـــتباك القريب وهو ما راح يعظّم في حسابات العدو لحجم الخسائر المحتملة في حالة التصـــيم على الهجوم البري. وأثبتت الصواريخ الفردية إن بإمكانها تعطيل حركة الطوافات كما تعطيل زحف الدبابات.

- تجـــربة حرب لبنان أعطت للدفاع قيمة حتى متفوقة على الهجوم. فالذي فـــشل هو الهجوم والذي انتصر في الحرب ولو في حدود دحر الهجوم هو الـــدفاع العمـــيق المفكر فيه جيداً. فحزب الله في تجربة حرب تموز/يوليو 2006 أتقـــن جـــيداً الإخفاء المحكم للقوات، ومواقع الصواريخ، والحركة اســـتخدام الصواريخ غير المحمولة، والإخفاء الجيد لمراكز القيادة، والحفاظ

علـى الاتـصال بين القيادة وكل مواقع الجبهة. فكان ذلك استثنائياً في ظـروف تطور العدو في امتلاك تكنولوجيا الاتصالات والتحكم فيها من المركز الأم.

- الجهـد طويل الأمد (ست سنوات) في الاعداد للدفاع، وبأعلى درجات الـسرية، وبـلا ثرثرة أو مباهاة، والتوزيع المفكر به جيداً، والمخفي عن معلـومات العـدو، أو ما يمكن أن يسمى "السيطرة على الأرض" جعل الـتفوق الجوي أقل تأثيراً. فقد كان أعمى... ولم يستطع أن يكون فعالاً إلاّ في حـدود التناغم مع القوات البرية. وقد أثير في تقويم الحرب ضرورة تطويـر تكنولوجـيا رصد لمعان إطلاق الصواريخ (واحدة من التوصيات الإسرائيلية).
- إن الـسيطرة على الجو لم تستطع حماية مناورة الدبابات أو الإنـزالات خلف الخطوط.
- كـل ما تقدّم حقق سلسلة من المفاجآت، ولا يجوز أن تطغى عليه، كما فعـل الإعـلام، مفاجأة إصابة البارجة الإسرائيلية في عرض البحر، رغم أهميتها.
- اسـتمر الإعـلام عاملاً بلا انقطاع بالرغم من تدمير المبنى الأساسي لقناة المنار أو لإذاعة النور، فهنا كان دور البديل سري الموقع حاسماً.
- قـرار القـوات الأمامية التي كانت في القرى، وكانت ذات دور ثانوي، بعـدم الانسحاب، وفقاً لنظرية حرب العصابات حين شنَّ العدو هجومه علـيها. وقـد استمرت، ربما بمبادرة ذاتية، في مواقعها (قراها) كان قراراً صـائباً. وأثبت أن حرباً مثل حرب الجنوب يمكن أن تكون حرب دفاع عمـيق في المواقع جنباً إلى جنب مع تطبيق نظريات الغوار من قبل القوى الضاربة المتحركة.

القانـون هنا يمكن أن يكون. الذي لا يستطيع أن يقاوم هو الذي يتراجع إلى المواقـع الخلفـية، والموقع الذي يثبت يجب أن يعزّز ويُدْعم. فالتناغم بين الدفاع الـثابت العمـيق وقوات الغوار المتحركة يمثل نموذجاً جديداً في الحرب. وبكلمة

حرب تموز/يوليو 2006 كانت حرباً أرقى من حرب الغوار ولم تكن من نمط حرب المواقع بين الجيوش. فقد جمعت النموذجين من دون أن تكون حرباً متكافئة بين دولتين صناعيتين.

- 2 -

حروب 1991 - 2008

إن النموذجين البارزين، مع الفارق، المقاومة الفياتنامية ضد الاحتلال الأميركي والمقاومة الأفغانية ضد الاحتلال السوفياتي، يدخلان، في إطار "الحروب غير المتكافئة": غزو دولة صناعية نووية كبرى لبلد من بلدان العالم الثالث من جهة ثم يدرجان من جهة أخرى في إطار حروب المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأجنبي. فمن الجهتين لا جديد في القوانين العسكرية والسياسية التي حكمتهما، فالغزو والاحتلال كانا سهلان، بداية الأمر، بغضّ النظر عن الشكل الذي اتخذاه أو قُدما على أساسه، والمقاومة اتسمت بطول الأمد وباستنزاف القوي إلى أن يصل إلى حد عدم الاحتمال أو عدم القناعة بالقدرة على الحسم العسكري ضد المقاومة. ومن ثم تصبح الحرب بالنسبة إليه مجرد خسائر مادية ومعنوية لا معنى لمواصلتها. وعند هذا الحد تغدو الهزيمة محققة. ولكن ستختلف مع كل حالة أشكال إخراجها.

حرب الخليج الثانية 1991

الأمر نفسه تكرّر من جانب واحد في الحرب الدولية التي شنّت ضد العراق بعد غزوه للكويت. ففي مسرح العمليات حُسمت الحرب بلا مقاومة تذكر من قبل الجيش العراقي. وقد ضربت الدبابات العراقية. وتمّ التراجع بلا انتظام إلى داخل العراق. ولكن الحرب لم تتابع إلى احتلال العراق في العام 1991 و استبدل مكانه الحصار طويل الأمد (دام من 1991 إلى 2003)، مع تعزيز الجيب الكردي وحظر الطيران العراقي.

ولكن بعد انتهاء مرحلة الحرب الباردة بتفكيك حلف وارسو وانهيار الاتحاد السوفياتي، فقد اتخذت الحروب التي شنّت بعد ذلك نمط الحرب النظامية التقليدية

وصربيا 1999، وأفغانستان 2001، والعراق 2003، ولبنان 2006، حيث استخدم القصف التمهيدي الكثيف من الطيران والصواريخ البرية والبحرية بصورة عامة على مواقع داخلية متعدّدة ومختلفة. وبعد ذلك يصار إلى التركيز على نقطة الاختراق بالدبابات. وهذا هو التكتيك الحاكم في حرب عدوانية يشنها جيش دولة صناعية ضد بلد من بلدان العالم الثالث.

الحرب ضد صربيا 1999

ففي حرب صربيا حسمت المعركة من دون الدخول في المرحلة الثانية أي الدخول في الدبابات باتجاه العاصمة لاحتلالها. وكان السبب انهيار مقاومة حكومة ميلوسوفيتش بعد أن تخلّى الحليف الروسي (بقيادة بوريس يلتسن) عنها. وقد اعتمدت عليه بالوقوف إلى جانبها حتى النهاية. فالانهيار هنا لم يحدث بسبب القصف وكثافة النيران. فالجيش بقي سليماً وقادراً على المواجهة في حالة تقدم الدبابات (التقديرات إن ما لحقه من خسائر لا يتعدّى 15%). علماً أن الأمر بزحف الدبابات تلازم في الوقت نفسه، مع الموقف الروسي الذي طالب ميلوسوفيتش بالتوقف عن المقاومة من خلال وساطة فنلندية – سورية حملت له "شروط الاستسلام".

من حيث الظاهر بدا كما لو أن القصف بالصواريخ والطيران هو الذي حسم الحرب وليس انقلاب الموقف الروسي وقرار الزحف البري الذي كان قد بدأ فعلاً. فأرقام الخسائر التي ألحقها القصف بالجيش لم تتجاوز قتل 169 وجرح 299. وقد دمرت خمس طائرات في مرابضها معظمها قديم ترك عمداً وبعضها صنع من المطاط. ودمرت 13 دبابة و93 آلية معظمها كانت وهمية. الطيران كان يقصف من ارتفاع 15 ألف قدم. فهو لم يكن مؤثراً إلا في الأهداف المدنية.

حربا أفغانستان 2001 والعراق 2003

جرت الحربان التي شنتهما الإدارة الأميركية وبتحالف دولي، متفاوت في الحالتين، على الطريقة التقليدية في قصف استراتيجي يشمل نقاط كثيرة في العمق وهدفه التأثير في معنويات القيادة والجيش والناس عموماً (كما حدث في النموذج الصربي بادئ الأمر)، ولكنه لم يأتِ بالنتائج التي حدثت في صربيا. فكان من الضروري الدخول بالدبابات مع استمرار القصف.

أمـــا المقاومـــة من قبل القوات النظامية فكانت محدودة، والأسوأ أن دخول العاصـــمتين كـــان بلا مقاومة يندمج فيها الجيش مع الشعب وتصبح مقاومة من شارع إلى شارع ومن بيت إلى بيت. وهذا يرجع إلى طبيعة الخطة الدفاعية المقابلة الـــتي لم تعـــدّ نفسها لهكذا مقاومة، وإنما راهنت على المقاومة لاحقاً بعد أن يتم الاحـــتلال. هـــذا إذا افترضـــنا بأنها كانت مقتنعة بأن الحرب ستقع وسيصار إلى احتلال البلد كله.

أمـــا الـــوجه الآخر لهاتين الحربين العدوانيتين اللتين احتلتا أفغانستان والعراق وتعـــدّتا حدود ما أعلنتاه من أهداف الحرب وأسبابها. وذلك بتحولهما إلى حرب احـــتلال ضد مقاومة شعبية، أو، في الأصح، حرب مقاومة شعبية ضد الاحتلال. ومـــن هـــنا سرعان ما بدأ العد العكسي في غير مصلحة قوات الاحتلال عسكرياً وسياســـياً. فدخلت أميركا وحلف الناتو في أفغانستان في مأزق لا أمل في الخروج مـــنه بسحق المقاومة والقضاء عليها، وإنما الدخول في حرب استنـــزاف طويلة لن تكون نهايتها بمختلفة عن النهاية في الحالات المشابهة.

وهـــذا ما انطبق أيضاً على العراق وإن اختلف الوضع في تفصيلات ما حدث في كل من البلدين من انقسام داخلي راح يعيق المقاومة من دون أن ينقذ الاحتلال من المصير الذي ينتظره.

المهـــم أن المقاومة الشعبية في مرحلة ما بعد انتهاء الحرب الباردة ومع كل ما عـــرفته جـــيوش أميركا من تقدم في الأسلحة والتقانة العالية ومع كل ما طرأ على الوضـــع الـــدولي مـــن مـــتغيرات ما زالت المقاومة هي الأسلوب (الاستراتيجية والتكتـــيك) الأقدر على إنزال الهزيمة بالاحتلال. فأميركا الآن، وبأقل ما احتاجها الأمـــر في فيتـــنام من حيث السنوات، تخوض حرباً يائسة في كل من أفغانستان والعراق.

تحرير جنوب لبنان 2000 وقطاع غزة 2005

علـــى الضد من كل التقديرات الوهمية التي سادت بعد انتهاء الحرب الباردة وخـــروج الاتحـــاد السوفياتي وحلف وارسو من الميدان تمكّنت المقاومة الإسلامية بقيادة حزب الله وبالتفاف الحكومة والجيش والشعب حولها من تحقيق انتصار مدو

في حزيـران/يونيو 2000. وذلك بفرض انسحاب الاحتلال الإسرائيلي من جنوب لبنان (مستبقياً مزارع شبعا) بلا قيد أو شرط.

وحـدث مـثله، مع الفارق، بعد خمس سنوات في قطاع غزة حيث فككت المستوطنات وتمّ انسحاب الاحتلال أيضاً بلا قيد أو شرط. وهنا تدخلت السلطات الفلسطينية في حينه، وبلا معنى، لعقد اتفاق مجاني حول المعابر ولا سيما معبر رفح، والذي كان في الأصل جزءاً من قرار "فك الارتباط". وقد راح يسهم نتيجة ذلك (اتفاق معبر رفح) في تشديد الحصار الخانق لاحقاً.

المهـم أن التقديرات الوهمية التي سادت في السنوات الأولى بعد انتهاء الحرب الـباردة، والقائلة إن عصر المقاومات انتهى مع انتهاء نظام المعسكرين وقيام النظام العالمـي الجديـد أحـادي القطبية قد تبين أنها خاطئة ومضللة. فالمثال اللبناني ثم الفلـسطيني أثبـتا وهمية تلك المقولات، بل أثبتا أن آفاق المقاومة والممانعة الشعبية لأي احتلال أصبحت أقوى من ذي قبل لا سيما في ظروف المعادلة الدولية الراهنة التي تتّسم بالفوضى قياساً لمعادلة نظام المعسكرين.

والدلـيل الـثاني المهـم اندلاع انتفاضة الأقصى في خريف العام 2000 وقد جـاءت أقـوى مـن سابقتها 1987، وعندما شنّ شارون حربه في ربيع 2002 لاحـتلال مـناطق (أ) والقضاء على الانتفاضة مبتدئاً باجتياح مخيم جنين، دارت حـرب مقاومة شعبية من بيت لبيت صمد فيها المخيم 13 يوماً بالرغم من صغره وتداعـي بـيوته وقلة عديد المقاتلين فيه (لم يتجاوزوا الأربعين مقاوماً) وبأسلحة بدائـية كلاشـينكوف وأم 16 وعبوات بدائية من صنع محلي. وقد اضطرت هيئة الأركـان إلى تغـيير جنرالين فشلا في اقتحام المخيم ثم انتقل قائد الأركان موفاز وأريل شارون رئيس الوزراء شخصياً لإنهاء المهمة.

الأمر الذي أثبت مرة أخرى، ولو على نطاق مصغر وضيق، أن اقتحام جيش عصري، ويمتلك أعلى درجات التكنولوجيا، لمخيم (أو قرية أو مدينة) قرّر الشعب فـيها الـصمود والمقاومة القتال، سيواجه حرباً قاسية، وعزله، وسوء سمعة محلية وإقليمية وعالمية. مما يجعل الخسارة أعلى من مردود الانتصار. وإذا حدث أن سيطر من الناحية العسكرية بعد دمار وبين أشلاء الشهداء والمدنيين وفي ظل غضب الرأي

العام فسيكون في وضع المهزوم لا المنتصر. وذلك إذا ما نظر إلى قوانين الحرب التي تحكم العدوان العسكري ضد شعب يصمد ويقاوم ويمتلك عدالة القضية ويحظى بعطف رأي عام واسع.

ومنذ معركة مخيم جنين راحت حملة شارون في الضفة الغربية وقطاع غزة تتخبّط لتنتهي بقرار فك الارتباط (سحب الجيش وتفكيك المستوطنات) من قطاع غزة، أي لينتهي بما يشبه ما انتهى إليه الاحتلال الاسرائيلي في جنوبي لبنان.

حرب تموز/يوليو 2006 – لبنان

لم تختلف حرب تموز/يوليو 2006 التي استهدفت تصفية المقاومة التي يقودها حزب الله في جنوبي لبنان عن الحروب العدوانية التي شنّتها دولة صناعية حديثة كبرى من الناحية العسكرية لاحتلال بلد من بلدان العالم الثالث يمتلك جيشاً، أو مقاومة، متواضعين من حيث التسلح والعديد والإمكانات قياساً للدولة الغازية المعتدية. وهو ما اتسمت به حروب الهند الصينية (فياتنام، وكمبوديا، ولاوس) وحرب الجزائر، وأفغانستان (مع السوفيات) ولبنان 1978، و1982، أو حرب 1956، 1967 ضد مصر، أو مؤخراً حربا أفغانستان والعراق وإعادة احتلال مناطق في فلسطين. وهو ما اصطلح على تسميته بـ "الحرب اللامتكافئة".

ولكن الفارق في هذه المرة كان فشل الهجوم الذي دام زخمه 34 يوماً من دون أن يحقق تقدماً، ولو شبراً واحداً على الأرض. وقد استهدف الوصول إلى الليطاني وربما أبعد من ذلك لو سارت الأمور معه كما يرام.

صحيح أن القانون العام كان، ولم يزل، أن يتمكن جيش الدولة الكبرى (والجيش الصهيوني من ضمنها عسكرياً) أن ينجح في الغزو، ويحتل الأرض (بما فيها المدن والقرى). وصحيح في المقابل أن هزيمته محققة في مواجهة مقاومة طويلة الأمد مؤيدة من شعبها. وذلك بعد استنزاف مادي ومعنوي وسياسي طويل وصولاً إلى انسحاب اضطراري، أو عبر اتفاق مذل، وإن حفظ له ماء الوجه (تجربة الجزائر)، ففي تجارب مثل فياتنام 1976، ولبنان 2000، وقطاع غزة 2005 كان النمط الأول من الانسحاب الاضطراري بلا قيد أو شرط.

أما الحدث الحدث الذي مثلته حرب تموز/يوليو 2006 فكان أولاً، فشل الغزو أصـــلاً وعـــدم تحقيق هدفه من دون انتظار مقاومة طويلة الأمد لانزال الهزيمة به. وكـــان ثانـــياً مواجهة بين مقاومة وجيش عصري يستخدم أرقى ما توصلت إليه التقنـــية (التكنولوجـــيا) العالية أو ما اصطلح على تسمية الـــ R.M.A "الثورة في الـــشؤون العسكرية". وقد اعتُبرت بأنها "الحاسمة في إنهاء الحروب، وبسرعة خاطفة مع أية قوة عسكرية دونها مستوى في التطور". ومن هنا أحدثت حرب تموز/يوليو ثورة على "الثورة في الشؤون العسكرية"، أو على وضع التقانة (التكنولوجيا) مكان الإنسان في شؤون الحرب.

وبكلمـــة لقد هوت حرب تموز بالصنم التكنولوجي، عملياً، ووضعت عَبَدته في مـــأزق نظري، وإن لم يعترفوا بذلك بعد. وأعيد الاعتبار لأولوية دور الإنسان كما لعلم الحرب.

لم يـــصدر عـــن مختصين بالشؤون العسكرية في حزب الله أي تقويم تفصيلي للخطة العسكرية، وللتجربة الميدانية اللتين واجه بهما تلك الحرب. فبعد سنتين من حـــرب تموز/يوليو 2006 (أي حتى كتابة هذا المقطع عام 2008) ما زال الإعداد جاريـــاً علـــى قـــدم وساق لحرب الثأر واستعادة الهيـــة من جانب جيش الكيان الـــصهيوني. وهـــو مـــا لا يسمح بنشر ذلك التقويم، كما لا يسمح بتسريب أية معلـــومات عن الخطة الإسرائيلية القادمة أو خطة تلافي النواقص التي كشفتها تلك الحرب. فحرب تموز/يوليو لم تضع أوزارها بعد.

من هنا سيقتصر تقويم الحرب على العموميات من جهة الدفاع - الهجوم مـــن جانـــب حزب الله، وعلى ما تسرب من تقرير فينوغراد والأهم ما كتبه عـــدد من كبار المؤرخين العسكريين الإسرائيليين "حول النواقص التي أدت إلى فـــشل الهجـــوم أو إلى رداءة أداء الجيش الإسرائيلي" في الحرب على حد تعبير آفي كوبـــر في "جـــيش الدفاع الإسرائيلي في حرب لبنان الثانية: الأداء السيئ لماذا؟" (2008) إلى جانب هذا المصدر "دروس للحروب الإسرائيلية - اللبنانية" (أنطـــوني هـــ. كـــوردزمان، 2008)، ومـــارتن فـــان غريفيلد "تغير وجه الحرب" (2007).

جبهة المقاومة عسكرياً

بداية ما كان من الممكن أن تظهر كل تلك النواقص في الجيش الإسرائيلي أو أن يفشل الهجوم لولا ما واجهه من خطة دفاع مفكراً بها جيداً من قبل حزب الله، ومن قتال تميّز بالمهارة والقدرة إلى جانب الروح الإيمانية الاستشهادية الشجاعة.

ولهذا ونحن نتعرّض للنواقص التي أثارها المؤرخون العسكريون الإسرائيليون ومعهم تقرير فينوغراد (لم ينشر بالكامل)، يجب أن نتذكر، مرة أخرى، ودائماً، بأن ذلك ما كان ليبرز، بكل هذا الوضوح، لولا المقاومة الناجحة التي صمدت وقاتلت وهاجمت وحقّقت الانتصار عليه، وكان إلى جانبها دعم غير مباشر من الجيش اللبناني، وموقف شعبي لبناني واسع ورأي عام هائل عربي وإسلامي.

أولاً: ما ظهر من خطة الدفاع - الهجوم لدى حزب الله بأن مراكزه القيادية ومواقعه العسكرية، بما في ذلك مخابئ صواريخه الهجومية، كانت آمنة إلى حد بعيد. وذلك بفضل سرية عالية وتمويه تركا الإحداثيات التي لدى طيران العدو وصواريخه فقيرة جداً. وإلاّ كان بإمكانه أن يقضي عليها جميعاً بأقل من ثلاث ساعات بل صدر تقرير عن حالوتس رئيس أركان الجيش أكد فيه أنه قضى على الصواريخ خلال الـ 35 دقيقة الأولى من الهجوم، بل حتى تلفزيون المنار وإذاعة النور استمرا بالعمل بلا توقف حتى بعد أن سحق مبناهما الرئيسين. فقد تمكّن حزب الله طوال الـ 34 يوماً من الحرب وبالرغم من السيطرة الجوية الكاملة لطيران العدو أن يمطر شمال فلسطين حيث المستوطنات الإسرائيلية، بما يُقدر بأربعة آلاف صاروخ وفقاً للإحصاء الإسرائيلي.

وثانياً: ظهر أن حزب الله استطاع أن يحافظ على الاتصال بين القيادة وكل المواقع في الجبهة بلا انقطاع. هذا إلى جانب الاستماع أحياناً إلى ما يجري من اتصالات في ما بين ضباط العدو في الجبهة. علماً أن في الحروب السابقة كانت القوى الغازية تقطع الاتصالات في الجبهة المقابلة خلال ربع الساعة الأولى. إن القدرة على حماية الاتصالات في جبهة حزب الله، وعلى مواصلة الإعلام لا تقلّ أهمية في الحرب عن الحفاظ على أمن مواقع الصواريخ أو القوات ومراكز القيادة.

وتمثلت المفاجأة الثالثة في صمود المواقع الأمامية في الجبهة في بنت جبيل ومارون الراس وعيتا الشعب من دون استخدام أسلوب "القتال التراجعي" من أجل القتال على أساس حروب الغوار. وقد كشفت التقارير الإسرائيلية عن وجود أنفاق ومخابئ ساعدت على ذلك. فالقتال هنا أخذ أسلوب قتال مواقع وهو فاجأ المهاجم وأربكه، وبشّره بوقوع خسائر كبيرة في الأرواح إن صمّم على مواصلة الاقتحام. فبقاء المقاتلين طوال 34 يوماً في تلك المواقع ومن حولها في مواجهة جيش آلي حديث له سيطرة كاملة على الجو يعطي أبعاداً تذكّر بالمقاومة السوفياتية في المدن والقرى في الحرب العالمية الثانية، مع الفارق الذي هو في مصلحة المقاومات الشعبية في القرن الواحد والعشرين وذلك خصوصاً، مع وجود الإعلام والرأي العام. فهاهنا اليوم ظروف تتجلى فيها الحرب بين جيش متفوق معتدٍ يرتكب المجازر من جهة وشعب ومقاومة وقضية عادلة من جهة أخرى.

والظاهرة الرابعة كانت المهارة والشجاعة والكمائن الذكية من جانب قوات حزب الله في مواجهة تقدم الدبابات والآليات وفي مقدمها أكثر الدبابات تطوراً (الميركافا). فقد ووجهت الدبابات الإسرائيلية في حرب تموز/يوليو 2006 في وادي الحجير وغيره من الوديان بما لم تتوقعه من كمائن، صنعت ما أطلق عليه الإعلام "مقابر الدبابات". هذا إلى جانب مواجهة الدبابات بالصواريخ المحمولة الأكثر تطوراً من صاروخ "ب 7" الذي تمتنع عليه دبابة الميركافا. هنا برزت أهمية تسليح حزب الله بصواريخ خفيفة ومتوسطة روسية كانت بيعت لسورية (وفقاً للتقارير الإسرائيلية). ولكن قبل ذلك، أهمية الإنسان الذي استخدمها بذكاء ومهارة ورباطة جأش. وما بذل من جهد في التدريب والإعداد والحفر لسنوات سابقة.

طبعاً ما تقدّم لا يغطّي الصورة من جانب جبهة حزب الله من الزاوية العسكرية (موضوعنا)، وإنما يغطّي ما كشفته المعركة والمعلومات المنشورة وأمكن استنتاجه. هذا ومن دون التعرض للدور الذي لعبته المصداقية والشعبية وكسب للرأي العام من خلال خطابات السيد حسن نصر الله أمينه العام في أثناء الحرب وهذه في الحرب تعادل فرقاً عسكرية أو تعوض عنها.

وبالمناسبة، قيل على سبيل المثال أن القيادة العسكرية الألمانية في الحرب العالمية

الثانـــية قوّمت مقالات ايليا اهرنبورغ في البرافدا السوفياتية اليومية بفرقة عسكرية زادتها على قواتها في أثناء غزوها للاتحاد السوفياتي.

جبهة الجيش الإسرائيلي عسكرياً

لـــو جمعـنا كـتابات ما أشير إليهم أعلاه من مؤرخين ومنظرين عسكريين إســـرائيليين (آفي كوبـــر، وأنطوني كوردزمان، ومارتن غريفيلد)، وما تسرّب من تقرير فينوغراد لوجدنا حالة الجيش الإسرائيلي كانت في الحضيض، عدا ما يمتلكه مـــن هيـــبة سابقة (الجيش الذي لا يُهزم)، ومن أسلحة وتكنولوجيا عالية وعديد قوات ودعم أميركي عسكري.

الـــنواقص كما يبدو كثيرة، ولا يسهل حصرها، وقد طغت في أهميتها على كل ذلك التفوق الهائل في القوة العسكرية. وبالمناسبة إن من يدقّق في هذه النواقص ويقـــيس بهـــا الـــنواقص التي عرفتها الجيوش العربية في الحروب، خصوصاً الجيش المـــصري في حـــرب حزيران/يونيو 1967، يجد أسباباً للتخفيف في الأحكام التي صدرت بحق تلك الجيوش. ففي الحالة العربية حدثت النواقص في ظل خلل هائل في مـــيزان القوى العسكرية في غير مصلحتها، فالخسارة العسكرية كانت شبه محققة حـــتى لو تمّ تلافي تلك النواقص. فمثلاً لو روعيت قواعد الأمن للطائرات المصرية التي دُمّـــرت في مـــدارجها، في حرب 1967 لخفّفت الخسائر في تلك الطائرات بلا شك. ولكـــن مـــا كان لها أن تسيطر على جو المعركة، أو حتى أن تتدخل فيها لأنها كانت ستسقط في الجو. أما في الحالة الإسرائيلية فالنواقص حدثت في ظل تفوّق عـــسكري هائل في مصلحتها. فأسهمت بصنع الهزيمة من دون التقليل من أهمية دور حزب الله في صنع تلك الهزيمة التي مُني بها الجيش الإسرائيلي في حرب تموز/يوليو 2006.

مـــن جملة ما يذكره آفي كوبر يركّز على "أداء الجيش غير المرضي وقد حمل نظريات عسكرية مالغة إلى جانب مهنية وقيادة فقيرتين". فقيادة هذا الجيش تبنّت نظريات وهمية (ما بعد الحداثة) كما تضمّنتها مقولة R.M.A: "الثورة في الشؤون العـسكرية"، ويشاركه مارتن غريفيلد وأنطوني كوردزمان في هذا.

ويـــشترك ثلاثتهم مع الرأي القائل: "اهتراء المستوى القتالي بسبب المهمات البوليـــسية التي غرق فيها الجيش، كل الجيش، في مطاردة الانتفاضتين الفلسطينيتين

1987 و2000. وهكـذا مـضت عـشرون سـنة والجيش يطارد الأفراد، فاتقن "اسـتخدام الكلاب البوليسية" والاختباء وراء دروع بشرية مثلاً "بنت في الحادية عشرة من عمرها".

لقد ترتّب على النقيصة الأولى المبالغة بقدرة الطيران على كسب الحرب أو في الإخضاع والتدجين بالنسبة إلى الحكومات. ولهذا هبط عدد الدبابات وارتفع عدد الكومبيوتـرات. واشتريت الطائرات الأكثر تعقيداً وكلفة. ورُكّز على الصواريخ الدقـيقة والمـزوّدة بـ GPS لتصبح أكثر دقة (تدخل من النافذة وتحدّد الحجم المطلـوب استـخدامه من المتفجرات). أما القادة الذين كانوا على رأس جنودهم ينادون "الحقوني" أصبحوا وراء الشاشات البلازمية. وعليه قس.

والنقيـصة الثانـية (مطاردة الانتفاضتين)، وقد نجم عنها ضعف التدريب والاستعداد. فلم يدرب الاحتياط جيداً، وأصبحت اللوجستيقا ممركزة وضعيفة جداً. والدبابات لم تكن مستعدّة لمواجهة أسلحة حزب الله المضادة. وباختصار لم يُعـدّ الجـيش لحـرب حقيقية وإنما لحرب الناس العزل ومطاردة المطلوبين. فالـضابط ينال الترقية على قتله لفلسطيني وليس على تدريباته في المناورة، أو علـى ما يملكه من معرفة تكتيكية في القتال. وبهذا لم يبقَ في الجيش إلاّ قلة ممن يعـرفون قـيادة كتيبة. فالجيش بحاجة إلى كتائب بالمعنى العسكري التقليدي للكلمة.

ويـضيف ثلاثـتهم أخطاء أو نواقص من نوع "قيادة سياسية مترددة وغير مجـرّبة"، "سـيطرة الجـيش على القرار"، "الجهل حول مواقع الصواريخ، ونقص المعلومات الاستخباراتية" في منطقة "احتلت 18 سنة"، أو مثل "الخوف من الخسائر البـشرية"، أو الخـوف من الصواريخ المفترضة مما جعل الطائرات تعمل من علو "أفقـدها القدرة على تحديد عدو ماكر"، ضباط الميدان ارتبكوا وراحوا يتجادلون وحزب الله يستمع إليهم".

رداءة الأداء فرضـت اسـتقالة قائد الفرقة الأمامية، والقائد الأعلى منه، وقائد الجبهة الشمالية ورئيس الأركان، ووزير الدفاع. وقدّم عشرات استقالتهم بانـتظار قـبولها. هذا إلى جانب فقدان الجيش تقاليده في وضع خطة المعركة:

"الالتفاف السريع حول العدو وتطويقه باستخدام عامل المفاجأة واحتلال الأرض" (وليس السيطرة عليها من الجو وفقاً لنظرية "الثورة في الشؤون العسكرية" R.M.A.

خلاصة: إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن الجيش الإسرائيلي دخل مرحلة التدهور أو الشيخوخة. فهنالك إشكالات في العقلية وفي البنية، وفي تقاليد الشجاعة، وفي القائد والضابط والجندي، ومن ثم فالإصلاح أو التصحيح لن يكون سهلاً، أو سريعاً. لأن الجيش كله أصبح بحاجة إلى إعادة بناء.

وبالمناسبة لم يشر أحد ممن تناولوا التقويم بقصد الترشيد والتصحيح المسائل المتعلقة بأخلاق القائد والضابط فحالوتس الذي يذهب ليبيع أسهمه في البورصة قبل بدء الحرب بساعات ومثله عدد من الضباط الكبار الذين انخرطوا في "البيزنس" ليسوا موشي دايان ورابين وشارون. فالجيش أمام طبقة جديدة هي ابنة نجيبة لمرحلة العولمة وما فوق الحداثة، فهل ثمة من علاج؟

الحرب على قطاع غزة 2008

إذا كانت الصدمة التي تلقاها الجيش الإسرائيلي بتجربته مع حزب الله قاسية جداً فها هي ذي تكرّر في قطاع غزة، وإن بوضع مختلف؟ ولكن اشد فداحة بسبب وضع القطاع المحاصر، والمقطوع العمق الجغرافي فضلاً عن حجم اللاتكافؤ في موازين القوة العسكرية.

فالجيش الإسرائيلي منذ سنة وهو يحاصر القطاع ويتحفز لاقتحامه وقد حاول حتى الآن (حزيران/يونيو 2008) مرتين وفشل.

إن اقتحام القطاع "إذا ما توفّرت له خطة دفاعية مفكراً بها جيداً" إلى جانب الصمود الشعبي والتصميم الإيماني بروح قتالية شجاعة ولو في بضع مئات من المقاتلين سيكون ممتنعاً عن الاقتحام ليضيف إلى الجيش الإسرائيلي صدمة لا تقلّ عن صدمة جنوبي لبنان. فالقانون الحاكم هنا لا يحسب عسكرياً فقط وإنما يدخل فيه الرأي العام الفلسطيني والعربي والإسلامي والعالمي. فقطاع غزة إذا قاتل لا يقاتل وحده. فكلما صبر وصابر وقاتل أكثر ازداد انخراط العرب والمسلمين في المعركة، وهذا بدوره يوازي فرقاً عسكرية

3

تذكير علم

السباق بين الهجوم والدفاع

الصراع لن ينتهي بين الدفاع والهجوم سواء أكان في مجال السلاح والتقانة أم في مجـــال تـــشكيلات الهجـــوم والدفاع. وقد امتدّ هذا الآن إلى سباق بين الدرع الـــصاروخية (الصاروخ المضاد للصواريخ) والصاروخ متعدد الرؤوس النووية، أو إمكان إطلاق عدد من الصواريخ تفوق الصواريخ المضادة. وهو ما أخذ ينتقل من تجـــربتي جنوبي لبنان وقطاع غزة في إطلاق الصواريخ في 2006 و2007 — 2008، إلى الـــسلاح التقليدي وذلك بإيجاد صواريخ مضادة لهذه الصواريخ وهو ما تدأب علـــى تطويـــره الآن التكنولوجيا الأميركية - الإسرائيلية ليس لتعزيز قوة الدفاع فحـــسب وإنمـــا أيضاً، قوة الهجوم نتيجة ذلك وفي الآن نفسه، أي الحيلولة دون الوصول إلى المعادلة المسماة "توازن الرعب" مرة أخرى.

والصراع بين الدفاع والهجوم على ضوء تجربتي لبنان بالخصوص وقطاع غزة على مستوى أدنى حتى الآن سيتخذ شكل تطوير الأنفاق ووسائط الاتصال المضادة لتكنولوجـــيا الحرمان من وسائط الاتصال، وضد وسائل كشفها سواء أكان عن طريق المعلومات، أو من خلال التقانة المتطورة. وهذا التطوير يظل دفاعياً بالدرجة الأولى. ولكـــنه يـــسمح للدفاع بأن يتحول إلى الهجوم التكتيكي، كذلك (تجربة حزب الله والتجربة الفيتنامية).

وبالمناســـبة محاولة تقوية الدفاع، ومن ثم الهجوم نتيجة ذلك أي من خلال الأنفـــاق أو التحـــصين العمـــيق تحت الأرض كان من سمات مواجهة القنبلة الـــنووية وأســـلحة الـــدمار التقليدية حتى على مستوى الدول الكبرى وإن لم يكـــشف عـــن مدى فعاليته بـــسبب عدم تجربته في الحرب. هذا ويدخل في هذا السباق:

- الصراع بين الوسائط الإعلامية في الحرب أي بين عملية الإخفاء والإفلات من الهجوم وعملية تطوير الهجوم في الكشف والإمساكات.

- الصراع بين سرية المواقع ومراكز القيادة من جهة والهجوم الذي يستهدف كشفها للتمكن من ضربها من جهة أخرى.
- الصراع بين الذكاء الإنساني في الدفاع والتكنولوجيا المتطورة التي تحاول التغلب على الذكاء الإنساني وتعطيله.
- الصراع على كسب الشعب وإشراكه في الدفاع من جهة وتحطيم معنوياته وعزله من جهة أخرى. وهذا قد يتخذ شكل التدمير والقتل والعقاب الجماعيين من جانب الهجوم في مقابل الصمود ورفع مستوى التضحية والاحتمال من جانب الدفاع.
- الصراع على كسب الرأي العام العالمي من جانب الدفاع وتحييده وتشويشه من جانب الهجوم.
- الصراع على توسيع جبهة الحلفاء من جانب الدفاع والتقليل من أهمية الحلفاء من خلال تعظيم قوة الحسم لدى الهجوم.
- الصراع بين إطالة المعركة والحرب من جانب الدفاع ومحاولة الحسم السريع من جانب الهجوم المتفوق.

وبكلمة، كلما تقدّم الهجوم خطوة يتوجّب على الدفاع أن يجد ما يبطلها أو يخفّف من قوتها. وكلما تقدّم الدفاع خطوة فعل الهجوم الشيء نفسه.

ولهذا، فالحرب منذ البدء حتى اليوم، وإلى غد وبعد غد ستظل سباقاً أبدياً بين الدفاع والهجوم أو كما يرمز إليه بين الدرع والسيف، أو بين الترس والنشّاب، أو بين المدفع والمتراس أو بين الصاروخ والأنفاق.

ولكن منذ البدء وإلى غد وبعد غد الدفاع والهجوم متلازمان لدى كل طرف. ولكن لا بدّ لأحدهما من أن يطغى على الآخر وفقاً لموازين القوى وتطورات التقانة. ولكن سيبقيان في المواجهة وفي السباق وسيظل الدفاع هو الأقوى وهو سلاح الأضعف. والهجوم سيظل صاحب الحسم وسلاح الأقوى. والاستراتيجية الفضلى هي الدفاع الذي ينتقل إلى الهجوم بعد كشف المعتدي وكسر شوكة عدوانه أو هجومه فيكون الانتقال إلى الهجوم معززاً بالحق والعدالة والمظلومية، وهو أفضل الهجوم وأقواه.

عوامل النصر والهزيمة في الحرب

الذي يقرر النصر أو الهزيمة في الحرب هو الوضع ككل بمختلف جوانبه. وعندما يقال الوضع ككل بمختلف جوانبه فهذا يعني جبهة عريضة تمتد من أصغر قرية ومصنع إلى أصغر حركة تكتيكية في ساحة المعركة حيث تتداخل العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالعوامل التنظيمية والعسكرية استراتيجياً وتكتيكياً، مروراً بعوامل المكان والزمان والعناصر الإنسانية والذاتية، والوضع المحلي والمدني لدى كل من الطرفين المتقابلين. وذلك إلى جانب الوضع الإقليمي والعالمي وما يسود من موازين قوى ومعادلات دولية.

ولكن حين يقال الوضع ككل يجب أن يفهم أن من غير الممكن نزعه من أجزائه وجعله مستقلاً عنها أو جعلها مستقلة عنه، لأنه مكون من كل الأجزاء، ولأن كل جزء يؤثر ويتأثر في الأجزاء الأخرى، فهو جزء يؤثر في الوضع ككل كما أن الوضع ككل يؤثر في كل جزء. غير إن أهمية كل جزء بالنسبة إلى الوضع ككل ليست متساوية بين مختلف الأجزاء كما أنها ليست مقداراً ثابتاً.

يمكن تقسيم عمل الوضع ككل وعملية كل جزء فيه إلى قسمين رئيسين:

1. العناصر المادية الموضوعية مثل الوضع البشري والاقتصادي والتقني والأسلحة والأرض وسرعة الحركة.
2. العناصر الذاتية مثل الدور الذاتي للقيادة والأفراد والوعي والتنظيم والإجراءات، وأساليب معالجة العناصر المادية الموضوعية استراتيجياً وتكتيكياً في كل الحالات. كما الشجاعة والمعنويات والقتال الضاري والصمود والاستعداد للتضحية.

بكلمات أخرى، يمكن القول إن الحرب عبارة عن خصمين – جبهتين – يتصارعان ضمن حدود العناصر المادية والذاتية المعطاة، كما ضمن الظروف وموازين القوى المحيطة بهما. ومن ثم فإن كلاً منهما سيحاول الإفادة حتى الحدّ الأقصى من تلك العناصر لتأمين التفوق على خصمه لإنزال الهزيمة به. ولكن لما كان كل من الخصمين سيعمد إلى العمل:

أ. ضمن جبهته.

ب. ضد جبهة الخصم.

ج. وفي إطار الوضع ككل محلياً وإقليمياً وعالمياً.

فإن هذا يعني الدخول في عملية بناء داخلي ضمن جبهتك وعملية إحباط لعملية البناء الداخلي للعدو في جبهته، وعملية صراع كلي بين الطرفين لجعل الوضع ككل بمختلف جوانبه محلياً وإقليمياً وعالمياً يتجه لتأمين التفوق لك ضد العدو. وهذا يعني اشتباكاً متعدد الأوجه على كل مستوى لإنجاح مسعاك وإحباط مسعى الآخر وإن ما يعطي هذا الاشتباك صفة العملية المتفاعلة المتبادلة كون الآخر سيحاول عمل الشيء نفسه. وهذا يجعل كل خطوة تتخذها لها مقابل لدى العدو، وهذا المقابل سيسعى لتصعيد خطوته المقابلة وإلغاء أو تنقيص خطواتك أي عملية نفي النفي في بعض الحالات بصورة مستمرة حتى يتقرر الانتصار لأحد الطرفين والهزيمة للطرف الآخر. مثلاً تكتيك عسكري فالتكتيك المضادّ ثم التكتيك المضادّ للتكتيك المضادّ - تكتيك جديد ثم مضادّ، وهكذا. ففي هذا الإطار يمكن الحديث عن ديالكتيك الحرب.

على أن الاشتباك لا يقتصر على هذا النمط من السباق والصراع، وإنما هنالك عملية قد تكون أكثر أهمية وهي المتعلقة ببناء الذات وكسب الشعب وتحشيد الحلفاء وبناء الجبهات ومعالجة التناقضات والخلافيات داخل جبهتك. وهذه بحاجة إلى منهجية متوازنة دقيقة يحكمها خط سياسي صحيح في كل مجال وأمام كل مشكلة. فالحرب ليست مثل مصارعة ملاكمين يتبادلان اللكمات فحسب وإنما هنالك جبهة كاملة مقابل جبهة كاملة. الأمر الذي يتطلب عملاً غير تبادل اللكمات. لأن قانون البناء غير قانون الهدم. وهنا يُقصر المنهج الديالكتيكي الصراعي عن معالجة ما يحتاج إلى توليف وموازنة وتوفيق ليُغلّب "منهج الميزان" أو منهج إقامة التوازن الدقيق من خلال التوليف وليس عبر الصراع فقط.

ثم يجدر بنا الوقوف قليلاً لملاحظة أن سمة العصر الراهن جعلت هذه العملية تدخل في نطاق الوعي، ولم تعد تعمل عفوياً. إن كل طرف جعل يدرس وضعه ووضع الطرف الآخر - العدو - كما دراسة الوضع ككل من حول الوضعين

دراسة دقيقة معمقة لاستنباط أنسب استراتيجية وتكتيك يتفقان مع الوضع ككل. وذلك لتأمين الانتصار عن طريق جعل عناصر جبهتك المادية والذاتية تعمل بأعلى تـــأثير ضـــد مقابلاتها في الجبهة الأخرى، مع حساب عمل مقابلاتها تلك، وإيجاد المضادات لها.

لننظـــر الآن إلى العـــوامل التي تؤثر في الحرب ومصيرها، ونذكر أهمها دون حصرها كلها:

1. الوضع الاقتصادي والمدني.
2. العامـــل السياسي وطبيعة الحرب - عدالتها أو عدم عدالتها وطبيعة القوّة التي تقودها.
3. المكان الذي تدور فيه الحرب - طبيعة الأرض واتساعها.
4. الـــزمان الذي تقع فيه الحرب - مستوى التطور الإنتاجي والتقني وقوانين الحرب التي تحكمه.
5. العامـــل المعـــنوي والـــسيكولوجي بالنسبة إلى القادة وبالنسبة إلى الجنود وبالنسبة إلى الجبهة الخلفية والقتال الضاري، والشجاعة والتماسك والإيمان بالقضية التي يقاتل في سبيلها.
6. العوامل التنظيمية في المجالين المدني والعسكري.
7. مـــستوى الـــتدريب ومـــستوى القيادات العليا والكوادر، والصراع بين المبادرات والإجراءات ومضاداتها على كل مستوى.
8. كميات السلاح وعديد القوات المسلحة، حجم القوات وكثافة النيران.
9. نسبة القوات إلى المساحة، وعامل السرعة والحركة الآلية.
10. الاستراتيجية والتكتيك المستخدمين من قبل كل من الطرفين.
11. المقدرة التخطيطية والتنفيذية والقدرات الإدارية والتنظيمية.
12. عامل الوقت والإمكانات المحتملة مستقبلا.
13. الرأي العام في كل من الجهتين والرأي العام العالمي.
14. نوع التحالفات السياسية ومدى اتساع جبهة كل طرف.
15. مدى تماسك الوضع ككل في جبهة كل من الطرفين.

إن كـــل هذه العوامل متداخلة متشابكة، ولمة ديناميكية، خاصة، لنسبة تأثير كل من هذه العوامل في كل حرب وكل زمان ومكان. وهذا هو السبب الذي لم يجعـــل معـــركة مثل أخرى، والأهم لم يجعل حرباً مثل أخرى. ومن ثم جعل لكل نصر في حرب ولكل هزيمة فيها أسباباً مختلفة، حتى لو تشارك وجود عامل أو أكثر على مستوى واحد في حربين. وهذا السبب هو الذي جعل الحرب شديدة التعقيد، وكثيراً ما قاد العلاقة بين كل هذه العوامل إلى نتائج متضاربة، فأحياناً نرى جيشاً أصـــغر حجمـــاً وأقل نيراناً ينتصر على جيش أكبر حجماً وأكثف نيراناً. وهذا لا يعـــني الاســـتنتاج أن الأصغر حجماً والأقل نيراناً أقوى من الأكبر حجماً وأكثف نيرانـــاً. لأننا إذا تعمقنا دراسة الأسباب لانتصار الأضعف فسنجدها في تفوقه في عـــوامل أخرى من المجموعة أعلاه قد تكون الاستراتيجية أو الحركة التكتيكية أو العـــوامل الـــسياسية أو الإيمانـــية والمعنوية وقد تكون فساد وضعية العدو وتحبطه بالمعوقات – قد تكون إحداها أو أكثر.

وفي المقابـــل نجـــد أحـــياناً، الجيش المتفوق مادياً وتقنياً ينتصر على الجيش الأضـــعف. وهـــنا أيضاً لا يجوز الخروج بالاستنتاج القائل إن المتفوق مادياً وتقنياً سينتـــصر حتماً على الأضعف منه. لأن النصر هنا – إذا تعمقنا في دراسة أسبابه – لن يرجع إلى عامل التفوق المادي والتقني فقط إذ ستجد توفر عوامل أخرى إيجابية في جبهته أو توفر عوامل شديدة السلبية في جبهة الآخر لا تنحصر في تخلفه المادي والتقني. وإلاّ كيف تفسر الحالات التي تأتي النتيجة فيها عكس ذلك؟

هـــنا نحن أمام خيارين إما تفسير حالة واحدة والوقوف عاجزين عن تفسير الحـــالات الأخرى، حين نرجع الأسباب إلى عامل واحد أو عاملين أو ثلاثة فقط، ومن ثم لن نخرج بنظرية متماسكة في فهم قوانين الحرب، والأخطر أننا لن نستطيع معالجة أي حرب تواجهنا الأضمن المحدودية الضيقة التي حصرنا أنفسنا فيها، مثلاً إذا قلـــنا إن التفوق المادي والتقني هو الحاسم فسيؤدي هذا إلى العجز في مواجهة خـــصم متفوق علينا مادياً وتقنياً، ليس هذا فحسب وإنما أيضاً سنفشل أمام خصم نحـــن متفوقين عليه مادياً وتقنياً إذا عرف كيف يفيد من العوامل الأخرى ويجعلها تعمل في مصلحته.

أمـــا الخيار الثاني فهو أن ترى الحرب في إطار هذه الوحدة المتشابكة المتفاعلة مـــن العوامل والتي تتفاوت مقاديرها، أو نسبة تأثير كل منها وأهميته من حرب إلى حرب، ومن زمان إلى زمان، ومن مكان إلى مكان، ومن جبهة إلى أخرى.

وإذا قـــبلت هـــذه الموضوعة فسوف يكون بالإمكان تفسير كل نصر وكل هـــزيمة تفـــسيراً علمياً دقيقاً يكون بمجموعه مفهوماً متماسكاً في مستوى النظرية العلمـــية، كما سيكون بالإمكان - وهذا هو الأهم - معالجة كل حرب تواجهنا معالجـــة علمـــية دقـــيقة تؤمن النصر، أو في الحالات التي تكون فيها كل الرياح معاكسة لنا تجنبنا هزيمة ساحقة.

والآن لندخل في تمعن أعمق في فهم قوانين النصر والهزيمة في الحرب.

طـــبعاً من السهل القول إن الجبهة التي تكون كل تلك العوامل في مصلحتها ستنتـــصر حتماً، ولكن، عملياً، لم توجد بعد تلك الجبهة التي تتوفر فيها كل تلك العوامل في مصلحتها دفعة واحدة، وعندما توجد يكون "زمان" الحروب قد ولّى. ولكـــن الذي هو واقع فعلاً، أن إيجابيات هذه العوامل وسلبياتها تكون موزعة بين الطرفين بنسب متفاوتة أو متقاربة حسب كل حالة.

فمـــثلاً قـــد تتوفر لدى أحد الطرفين بعض تلك العوامل بصورة متفوقة على نظيراتهـــا لـــدى الطـــرف الآخر، كأن يكون متفوقاً بحجم القوات وكثافة النيران والحـــركة التكتيكـــية والدعم اللوجستيقي، فيما يكون خصمه متفوقاً بالجوانب الـــسياسية والتنظيمـــية وعدالة القضية وصحة الاستراتيجية والتكتيك المستخدمين وتأيـــيد الـــرأي العـــام المحلي والعالمي وحسن التأقلم مع الأرض التي يقاتل عليها، وصفات الشجاعة والذكاء لدى قادته وكوادره وجنوده (أو مقاتليه).

هـــنا يدخل كل طرف في صراع مع الطرف الآخر، في محاولة، لجعل جوانبه الإيجابـــية - نقـــاط قوته - تعوض عن جوانبه السلبية - نقاط ضعفه - ولتحويل المعركة ضد نقاط ضعف الطرف الآخر لتقرر في ذلك المجال مع محاولة إلغاء نقاط قوة الطرف المقابل، أو إنقاصها وإضعافها، وتجنب تحويل المعركة إلى تلك النقاط. وهذا ما سيفعله الطرف الآخر تماماً، أو على الأصح، الشيء نفسه، ولكن بصورة نفي لمحاولات الطرف الآخر.

يتقـــرر النـــصر في مصلحة الطرف الذي ينجح في تصعيد إيجابياته إلى الحدّ الأقـــصى ويجعلها تعوض عن سلبياته، وتوازي، أو تتفوق على إيجابيات الخصم في المجـــالات التي يستطيع أن يجاريه فيها. ولكن ثمة شرط آخر وهو أن تكون شروط وظروف فعل ذلك ممكنة. لأن المسألة ليست متوقفة على الإرادة فقط.

فعلى سبيل المثال إذا كانت الجزائر أضعف من الاستعمار الفرنسي من ناحية القوات المسلحة وكثافة النيران والتقنية فسيكون من السخف أن تحاول منازلتها في هـــذه الميادين، ولهذا فقد راحت تركز على مجموعة من العوامل الأخرى - القتال الثـــوري مـــن الجـــبل والمدينة والعمل السياسي المحلي والعالمي وفي داخل فرنسا بالذات، وتبني الاستراتيجية والتكتيك المناسبين عـــسكرياً. مما أدى في النهاية إلى شلّ إرادة الاســـتعمار الفرنـــسي والمحاكـــه. مما اضطره إلى التراجع والتسليم باستقلال الجزائـــر. ولكـــن كان شرط الوصول إلى هذه النتيجة إلى جانب القدرة على بقاء المقاومة هو ظرف عربي وعالمي موالم وفي غير مصلحة فرنسا. والدليل أن الثورات الجزائـــرية التي اندلعت في القرن التاسع عشر بعد احتلال الجزائر في 1833 لم تكن أقل قوة أو عزيمة من الثورة الجزائرية التي تكللت بالانتصار.

ثمة حروب كثيرة لعبت فيها بعض تلك العوامل دوراً حاسماً بينما ثمة حروب أخرى لعبت فيها بعض العوامل الأخرى الدور الحاسم وهكذا، وهذا ما يفسر لماذا نشأت نظريات متضاربة حول أهمية كل عامل من تلك العوامل فمثلاً نظرية أردان دوبيك ARDANT DU PICQ التي تقول إن العامل الحاسم في الحرب ليس عمل الـــصدام أي قوة السلاح وإنما إرادة القتال لدى المتحاربين. وهنالك نظرية يتبناها لـــيدل هارت وقد نقلها عن نابليون وفوش تقول إن الهزيمة تتقرر في عقول القيادة المقابلة ومعنوياتها وليس بعدد القتلى في المعركة.

وهنالك نظرية شائعة تقول بتفوق الجانب المادي - القوات المسلحة والتقنية والعلـــوم وكـــثافة الـــنيران والحركة التكتيكية - وقد تبناها هتلر بقوة وكذلك الجنـــرالات الأميركـــيون. وهنالك نظرية توينبي وفوللر التي تقول بأولوية العامل التكتيكي - والتقنية. وهنالك نظرية دانتون التي تعتبر أن الشجاعة هي كل شيء، وهـــنالك نظرية كلاوزيفتز حول أولوية الوضع الاقتصادي والمدني. وهنالك نظرية

لينين حول الانتفاضة العامة المسلحة أو تعريفه للاستراتيجية (مرّ ذكره)؛ وثمة نظرية ماوتسي حول تطويق المدن من الريف أو حول الحرب الشعبية طويلة الأمد. وهنالك النظرية الغوارية التي تبناها كاسترو وتشي غيفارا وهنالك كثيرون ركزوا على الإيمان والشجاعة والتضحية.

وهكذا في الواقع، ما من نظرية بين هذه النظريات لا تستطيع أن تأتي بالشواهد العملية والتاريخية لإثبات جانب الصحة في موضوعتها. إذ إن في كل حرب لعبت مجموعة ما من تلك العوامل دوراً أكثر حسماً من بقية العوامل. ولكن من الخطأ محاولة تكرار نجاح ما في ظروف حرب مختلفة لأن النتيجة ستجيء، بل جاءت في الغالب، مغايرة. فكل حرب يجب أن تقرأ ضمن خصوصياتها وزمانها ومكانها وما حولها من موازين قوى وأوضاع إقليمية وعالمية ثم يصار إلى تحديد الاستراتيجية والتكتيك المناسبين وما يجب أن يركز عليه من عوامل الانتصار أكثر من غيره.

ثمة مجموعة من السمات يجب ملاحظتها حول العلاقة بين هذه العوامل:

أولاً: كل عامل من هذه العوامل ليس مقداراً ثابتاً إذ يمكن تصعيده وتطويره أكثر فأكثر باستمرار ليلعب دوراً أكثر حسماً باستمرار.

ثانياً: إن زيادة تصعيد وتطوير أحد هذه العوامل أو مجموعة منها يمكن أن يصل إلى حدّ يعوض فيه عن النقص أو التخلف في العوامل الأخرى، أو بمعنى آخر يمكن أن يقابل تفوق العدو في مجال آخر.

ثالثاً: مواجهة تفوق العدو في مجموعة من تلك العوامل يمكن أن تأخذ عدة أشكال:

1. محاولة التفوق عليه في تلك المجموعة من العوامل بالذات، أي إذا كان متفوقاً تقنياً مثلاً، محاولة اللحاق به والتفوق عليه في المجال التقني ولكن هذه العملية تحتاج إلى توفر شروط مادية وذاتية لمثل هذا السباق. وإذا لم يكن هذا ممكناً – وهذا ما يحدث في أغلب الحالات – فيعمد إلى.
2. محاولة التفوق عليه في مجال آخر، أو عدة مجالات، تفوقاً حاسماً يعوض النقص ويتخطى تفوقه، ولكن هذا يشترط العمل على تخفيف تأثير تفوقه

في مجاله بالذات مثلاً إذا كان متفوقاً في الطيران فيجب محاولة تخفيف تأثير هـذا السـلاح عـن طريق التحصين الجيد، أو التمويه الجيد، والتوزيع الحصيف للقـوات والمنـشآت، وتقوية الدفاع الأرضي المضاد، وتعزيز المعـنويات في تحمل القصف والدمار. بينما يعمد على تصعيد التفوق عليه في إحـدى مجالات التكتيك الأخرى - حسب الظروف - تفوقاً حاسماً، مثلاً سرعة الحركة، المفاجأة، التركيز، التوزيع.

رابعـاً: مـسألة تحديد العوامل التي يجب أن تركز عليها في جبهتك لتحقيق التفوق أو تعويض تفوق العدو، وتحديد العوامل التي يجب إلغاء تأثيرها أو تخفيفه في جـبهة العـدو - وهي نقاط قوته - وتحديد عوامل الضعف في جبهته التي يجب التركيـز على استغلالها في مصلحتك ومحاولة منع العدو من إلغاء تأثير نقاط قوتك والتركيـز علـى استغلال نقاط ضعفك في مصلحته. كل ذلك محكوم بالظروف الماديـة المعطاة في كل جبهة من جهة ومحكوم بدور العامل الذاتي، خاصة القيادة، في تحديـد كل ذلك وفي قيادة العمل بنجاح تكتيكياً واستراتيجياً من جهة أخرى. كما هو محكوم بالظروف وموازين القوى والوضع الإقليمي والعالمي.

خامـساً: بعـد تحديد العوامل التي يجب التركيز عليها في جبهتك وكذلك تحديـد المضادات ضد نقاط قوة العدو وتحديد استراتيجية وتكتيك العمل في أثناء عملـية الصراع عليك أن تكتشف القوانين الخاصة للعمل في كل مجال، فمثلاً لا يكفي أن تقول يجب التركيز على عامل التنظيم، أو على العمل السياسي، إذ يجب أن تحـدد استراتيجية وتكتيك العمل في ذلك المجال تحديداً صحيحاً لتأمين أقصى درجات التفوق فيه.

سادساً: إن التركيز على مجموعة العوامل التي يقدر أنها ستلعب الدور الحاسم في تحقـيق الانتصار لا يعني إهمال، أو احتقار، العوامل الأخرى، بل يجب الاهتمام بها قدر المستطاع لتسهم إيجابياً، بالرغم من قدراتك أو إمكاناتك المحدودة فيها، في تعزيز مجموعة العوامل الرئيسة التي لها الأولوية.

وخلاصـة، إن المقصود مما تقدم هو رفض التقليل من شأن أي عامل من العوامل الخمـسة عـشر المذكورة، كما رفض الانتهاء إلى نتيجة تقول إن هنالك عاملاً أشدّ

حـــسماً في كل الحالات. لأن مجال الخيار هنا لا يأخذ شكل طرح كل هذه العوامل أمام المرء ليختار من بينها العوامل التي يجب أن تتوفر في جبهته، بصورة متفوقة.

فمـــثلاً لا يـــستطيع جنرالات دولة إمبريالية أن يختاروا عامل عدالة القضية لـــيكون إلى جانـــبهم، كما أن قادة حرب شعبية في بلد متخلف لا يستطيعون أن يختاروا عامل التفوق في النيران والتكنولوجيا على دولة إمبريالية كبرى.

إن هـــذه الموضوعة تستهدف الإشارة إلى توزع هذه العوامل، إيجابياً وسلبياً، بـــين كـــل جبهتين متحاربتين، توزعاً مختلفاً متنوعاً في كل حرب. وهنا يأتي دور العامـــل الذاتي – القيادة أساساً – لجعل العوامل الإيجابية في جبهتها هي التي تلعب الـــدور الحاسم في تقرير مصير الحرب المعطاة. وهذا يعني أن فهم طبيعة العلاقة بين مجمـــوعة العـــوامل التي تؤثر في الحرب، ومن ثم اكتشاف أصحّ أساليب معالجتها اســـتراتيجياً وتكتيكياً، يفتح آفاقاً واسعة للعمل الناجح ضمن كل ظروف حرب، ومهمـــا يكن الوضع معقداً، أو العدو متفوقاً. وبكلمات أخرى، إن هذه الموضوعة تـــؤكد – للشعوب بعامة، أن هنالك، دائماً، طريقاً أو طرقاً لتحقيق الانتصار على عدو متفوق ببعض العوامل وذلك بوساطة تطبيق:

1. نظـــرية التخفـــيف حتى الحدّ الأدنى من أثر نقاط تفوق العدو عن طريق إجـــراءات دفاعـــية، ومضادات، وإيجاد التكتيك الأنسب في مواجهتها. ومراعاة مبدأ الأمن ضدها.
2. نظـــرية التعويض، أو على الأصح نظرية تصعيد تأثير العوامل الإيجابية حتى الحـــدّ الأقـــصى لتقوم بالتعويض عن المجالات التي يتفوق فيها العدو وفي مقـــدمها الاعتماد على بناء الإنسان ودعم الشعب وتشكيل أوسع جبهة داخلـــية وجبهات شعبية شقيقة أو صديقة مناصرة، وكسب الرأي العام وعزل العدو سياسياً.
3. نظـــرية نقل المعركة، قدر الإمكان، إلى نقاط ضعف العدو وحيـــث نقاط قوتك ليقرر مصير الحرب في هذه الميادين.
4. نظـــرية اســـتمرار تصعيد التعويض والمضادات، والتركيز على الدفاع في مجالات وتركيز الهجوم في مجالات أخرى.

وبعد،

فــإن مفتاح النجاح في معالجة قضايا الحرب هو بيد العنصر الإنسـاني ووعيه وفعلــه في ظــروف محــددة. وهنا يقفز إلى المقدمة التقدير الصحيح للوضع العام وللموقف ومن ثم اكتشاف الاستراتيجية الأنسب وترجمتها من خلال الحرص دائماً على أن يبقى الخط الفكري والسياسي صحيحاً.

الفصل الخامس

بين حروب نابليون
وحروب الفتوحات العربية
الإسلامية الأولى

بين حروب نابليون
وحروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى(1)

- 1 -

مدخل

عندما تقوّم حروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى، يركز الجميع على الحماسة الدينية التي بثها الإسلام في قلوب العرب فجعلهم يعجلون لنيل الشهادة، وقد حرصوا على كسب الآخرة أكثر مما حرص أعداؤهم على كسب الدنيا. وبولغ في إبراز هذه الناحية إلى حدّ طغت معه على كل ما عداها.

فالذين أرّخوا لتلك الحروب من زاوية عربية إسلامية، أرادوا، أساساً، من تناول تلك المعارك إظهار الدور الذي لعبه الإيمان في كسب تلك الحروب. مما حوّل تلك المعارك إلى سلسلة من البطولات الفردية والجماعية، وضروب الشجاعة الخارقة، الأمر الذي جعلهم يقدمون تاريخ تلك الحروب على شكل قصص، وقصائد، وروايات. وقد أدى هذا إلى طمس جانب الفنّ العسكري في تلك الحروب، وإضاعة ما أحدثه القادة العرب المسلمون من تطوير في هذا الفنّ استراتيجياً وتكتيكياً. فلو أخذنا مثلاً كتاب "المدرسة العسكرية الإسلامية" للأستاذ محمد فرج الذي حاول أن يقدم الموضوع من خلال تحليل علمي عسكري، لوجدناه يستهلك معظم الكتاب في إبراز تلك الناحية التي أشرنا إليها. وبالرغم من أنه حاول في بعض الأحيان تناول الفنّ العسكري الإسلامي إلاّ أنه حوّله إلى عبارات تقريظ ومديح مع قليل من التحليل لدعم عباراته. بل إنه حاول في آخر

(1) نشرت هذه الدراسة في مجلة "دراسات عربية" - العدد 6، نيسان/أبريل 1972. ونقلت هنا كما هي مع بعض التنقيح الطفيف.

فصول مؤلفه أن يظهر كيف طبّق المسلمون قواعد علم الحرب التي استخلصها كلاوزيفتز وجوميني وفوللر، بعد اثني عشر قرناً. بيد أن حروب المسلمين الأوائل كان يمكن أن تكون أساساً لاشتقاق تلك القواعد التي اشتقت، من دراسة حروب نابليون.

أما الذين أرّخوا لتلك الحروب من زاوية معادية للعرب والمسلمين فقد التقوا في الجوهر مع ذلك المنطق، فقد راحوا يصورون الجيوش العربية الإسلامية أرتالاً من المتعصبين الذين امتلأوا بالحماسة لدخول الجنة فراحوا يكتسحون كل ما أمامهم بهجمات محمومة دون أن يمتلكوا ناصية علم الحرب. فلو أخذنا مثلاً كتاب الجنرال ج. ب. غلوب "الفتوحات العربية الكبرى"، لوجدناه يؤكد المرة تلو الأخرى على تخلف العرب المسلمين من ناحية الفنّ العسكري. بل حتى إنه حين كان يمرّ ببعض التفصيلات المدهشة في تلك المعارك كان يحاول تقديمها بروح تنكر عليها وجود استراتيجية عملاقة وتكتيك عسكري متطورين جداً.

وإذا كان المرء يجد بعض العذر لمحمد فرج حين لم يوفق، إلا بحدود، بالرغم من جهده المشكور والمقدّر، في تقويم تلك الحروب من زاوية علمية عسكرية، إلاّ أن المرء لا يستطيع أن يجد أي عذر للجنرال غلوب، لا سيما وأنه قدم تلك الحروب مدعومة بتفصيلات وخرائط تتناول فيها العمليات والتكتيك، ولم يبقَ إلاّ الخروج بالاستنتاجات المنطقية من تلك التفصيلات والخرائط إلاّ أن تعصبه الأعمى قاده إلى استنتاجات ليست خاطئة فحسب، وإنما منافية أيضاً للروح العلمية والأمانة. علماً أنه مطلع على كلاوزيفتز.

ومن هنا، فإن النقطة الأولى التي لا بدّ من إجلائها هي أن الانتصارات العسكرية التي تحققت في حروب الفتوحات الأولى لم تكن نتاج الحماسة الدينية فحسب، وإنما أيضاً، نتاج وجود فنّ عسكري متطور جداً ووجود قيادات استراتيجية وتكتيكية على أعلى مستوى.

إن هذه الموضوعة لا تستهدف الإنقاص من أهمية الجانب المعنوي لا من قريب ولا من بعيد، ولكنها تستهدف إبراز جانب الفنّ العسكري، وإن كان من

الضروري قبل إبراز ذلك الجانب رؤية العلاقة بين اجتماع القوة المعنوية التي ولدها الإسلام في العرب والفنّ العسكري.

الجانب المعنوي والفنّ العسكري:

خصّص كلاوزفيتز جزءاً كبيراً من كتابه "حول الحرب" (ON WAR) على إبراز أهمية الجانب المعنوي في الحرب، لا سيما، الشجاعة والاستبسال في القتال. ولهذا فإن مناقشة أهمية الناحية المعنوية مسألة مفروغ منها. ولكن، لا يعني هذا أن الحروب تكسب، فقط، بتوفر التفوق المعنوي. إذ إن أهمية الفنّ العسكري – الاستراتيجية والعمليات وقيادة التكتيك في المعركة – لا تقل أهمية عن الجانب المعنوي فهما صنوان كل منهما يكمل الآخر، ولا يؤدي افتقاد أحدهما إلاّ إلى الهزيمة.

طبعاً لا نقصد القول هنا إن الحرب هي جانب معنوي وفنّ عسكري فقط... إذ هنالك عوامل أخرى تلعب دوراً هاماً في مصير الحرب مثل التفوق العددي والتقني والوضع المدني والاقتصادي. إن الذي يناقش الآن هو العلاقة بين الجانب المعنوي والفنّ العسكري في الفتوحات العربية الإسلامية الأولى.

ثمة جواب بسيط على أولئك الذين يفسرون الانتصارات العربية الإسلامية من زاوية واحدة فقط هي الحماسة الدينية. إذ كيف يستطيعون أن يفسروا بعض الهزائم التي مني بها المسلمون عندما كانوا في أوج حماستهم الدينية وشغفهم بالاستشهاد. فإذا أخذنا معركة أُحد فلن نجد وهناً في إيمان المسلمين، وإنما سنجد الهزيمة نتاج خطأ تكتيكي ارتكبه رماة النبل عندما تخلوا عن موقعهم الذي حدده الرسول صلّى الله عليه وسلّم لهم وأمرهم ألاّ يتخلوا عنه تحت أي ظرف من الظروف. هنا نجد أن الحماسة الدينية والشغف بالاستشهاد لم يؤديا إلى نصر عندما وقع خلل تكتيكي، وقد استغله خالد بن الوليد الذي احتفظ بقوة الاحتياط. ولم يستخدمها حتى وهو يرى قريش تنهزم وتولي الأدبار. ولكنه استخدمها عندما لاحت الفرصة المناسبة واللحظة الحاسمة.

هنا ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن معركة الجسر ومعركة مؤتة بالإضافة إلى عدة حوادث هزم فيها المقاتلون المسلمون مثل هزيمة عقبة بن نافع وكامل

جيـــشه الـــذي كان معه على يد "البربر" في شمالي أفريقيا، أو الأربعة آلاف مسلم الذي شقوا طريقهم إلى باكو بعد معركة نهاوند حيث قضى عليهم الخزر ولم ينجُ منهم أحد.

إن المـــسلمين في هــــذه المعارك طلبوا الاستشهاد بقوة لا تقل عن أية معركة ظافـــرة أخرى إن لم تزد عليها. في الواقع لا يـــستطيع أحد أن يجد مطعناً من الناحية المعنوية في تلك الهزائم، بل على العكس سيجد طغيان الناحية المعنوية كان قوياً إلى حـــدّ أهملـــت بسببه بعض القواعد الأساسية في الحرب.. تلك القواعد التي حرص عليها المسلمون في كل معاركهم الظافرة.

إذا أردنـــا أن نقـــوّم الأهمية المعنوية التي لعبها الإسلام في حروب الفتوحات فسنجد تلك الأهمية تتجلى:

أولاً: من الناحية الاستراتيجية:

اســـتطاع الإسلام أن يوحّد العرب في الجزيرة العربية، ثم في سائر المناطق التي تـــواجد فـــيها العرب خارج الجزيرة، وبثّ فيهم روحاً ثورية عالية لنقل الإسلام خــــارج حدودهم: (حمل الرسالة). ومن ثم كوّن الجيوش الجرارة، وحقق ما نسميه الـــيوم بالتعبـــئة العامة والحرب الكلية. وهي الأساس الذي ارتكزت عليه حروب نابليون بفضل الثورة الفرنسية.

ثانياً: الناحية التكتيكية والصلابة:

1. ولدت ثورة الإسلام قوات منظمة، وأرست قواعد الانضباط الصارم، مما عوّض النقص في التدريب النظامي.
2. أدت الحماسة الإيمانية والشغف بالاستشهاد إلى إنجاح عمليات المناورة الـــتي تتطلب جهوداً كبيرة على تحمل صعوبات السير مئات الأميال، وتحمل كل أنواع المشقات وشظف الحياة القتالية ولكن هذه العمليات تـــدخل في إطار "التكتيك الكبير"، كما أسماه نابليون. هذا فضلاً عن الـــدور التكتيكـــي في المعركة نفسها حيث أصبحت هجمات الصدام تتميـــز بزخم شديد للغاية. كان يأتي بعد المناورة وتحديد اتجاه الضربة الرئيسة.

إن ما تقدم لا يغطي كل شيء ولكنه يلقي ضوءا على الأهمية الحاسمة، والأثر الكبير للدور الذي لعبته الناحية المعنوية استراتيجياً وتكتيكياً، بل يمكن القول إن الفنّ العسكري العربي الإسلامي ما كان له أن يتجلى بأروع صورة لولا توفر الناحية المعنوية تلك.

ولكن، كما سبق وقدمنا القول إن الناحية المعنوية وحدها ما كانت لتستطيع أن تحقق الانتصارات لولا أن توفر إلى جانبها بجتمع معاً تم توحيده مع فنّ عسكري متطور جداً. فما هو هذا الفنّ العسكري الذي لعب دوراً حاسماً هو الآخر؟

لكي نقوّم المستوى الذي كان عليه الفنّ العسكري في تلك الحروب، سنعقد مقارنة بينه وبين نظيره في حروب نابليون بونابرت. وهنا ينشأ سؤالان:

الأول: لماذا المقارنة مع حروب نابليون؟ تعتبر حروب نابليون – استراتيجية عملياته وتكتيكه – الأساس الذي قام عليه علم الحرب الحديث. إذ لا يختلف اثنان من مؤرخي ومنظري الحرب، في الغرب في أن نابليون يشكل نقطة الانعطاف التاريخية في فنّ الحرب، فالجميع يتفقون على أن الحروب قبل نابليون كانت عبارة عن تحرك الجيش المركز من نقطة في المكان إلى ساحة المعركة حيث يلتقي الجيشان في معركة تخلو من المناورة الاستراتيجية، وفي أحسن الحالات تتضمن بعض المناورات التكتيكية.

ولكن الحرب في عهد نابليون أصبحت حرب حركة... تتميز بمناورات استراتيجية أسماها "التكتيك الكبير" تلعب دوراً حاسماً في تقرير مصير الاشتباك قبل حدوثه. ولهذا نظر كلاوزيفتز وجوميني لعلم الحرب المعاصر انطلاقاً من دراسة حروب نابليون. وسار على نهجها من جاء بعدهما من مؤرخين ومنظرين.

في الواقع إن كل الذين كتبوا عن تاريخ الحروب، وقوّموا حروب نابليون، تجاهلوا الحروب العربية الإسلامية، ربما بسبب الجهل، أو التجاهل، بالدرجة الأولى، لأن نظرة سريعة إلى الفنّ العسكري الذي استخدم في حروب الفتوحات تكفي للخروج بالموضوعتين التاليتين:

أ. لا يمكن وضع حروب الفتوحات الإسلامية من ناحية الفنّ العسكري استراتيجياً وتكتيكياً ضمن عائلة الحروب التي سبقت عهد نابليون، لأنها تمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون. وذلك بالرغم من انتمائها زمنياً إلى عهود ما قبل مرحلة نابليون.

ب. إن التطوير الذي أحدثه نابليون على فنّ الحرب، قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من ألف ومائة عام على يد العرب المسلمين، رغم أن التطوير الذي جاء به نابليون لم يكن استمراراً موصول النسب بالتطوير الذي أحدثه العرب. أو في الأقل لم يقم الدليل حتى الآن على أن نابليون أطلع على حروب الفتوحات. ومع ذلك من غير المستبعد أن يكون قد اطلع عليها، وهو المشهور بشديد اهتمامه بدراسته تاريخ الحروب القديمة.

الثاني: هل من الصحيح إجراء مقارنة بين حروب نابليون وبين حروب الفتوحات؟ حقاً إن إجراء مثل هذه المقارنة يتضمن مخاطرة كبيرة لأن كلاً من تلك الحروب قد وقع ضمن ظروف مختلفة اختلافاً جوهرياً... إنها مختلفة زماناً أي من ناحية التطور التقني وأداة الحرب وقوى الإنتاج والعلوم، وهي مختلفة من ناحية المكان أي طبيعة الأرض والمناخ والظروف المادية والبشرية... وهي مختلفة من حيث طبيعة كل منهما. أي من ناحية الأهداف التي قامت تلك الحروب من أجل تحقيقها، كما من ناحية القوى التي قادتها. ولكن إذا أخذنا هذه الاختلافات بعين الاعتبار وأجرينا المقارنة فسنجد تلك المقارنة مسوّغة، خاصة، عندما نضع أيدينا على أوجه الشبه المذهلة. بل إننا سندهش حقاً حين نرى أوجه الشبه بالرغم من تلك الاختلافات. ولكن يجب التذكر في أثناء المقارنة أن الجانب النابليوني كان أكثر تطوراً بسبب تطور الأسلحة ووسائط النقل والعلوم والإنتاج. ولكن في الاتجاه نفسه.

على أن الحكم الفيصل سيتقرر بعد خوضنا لهذه المخاطرة إذ سيظهر بالبرهان الملموس إن كنا على حقّ في ما ذهبنا إليه.

- 2 -

حروب نابليون وخالد بن الوليد

يقسّم الجنرال الفرنسي أندريه بوفر ANDRE BEAUFRE (1902 - 1975) في كتابه "مدخل إلى الاستراتيجية" INTRODUCTION TO STRATEGY تاريخ الحروب إلى عدة مراحل يهمنا منها الآن المرحلة الأولى والمرحلة الثانية. أما المرحلة الأولى فتمتد منذ أولى الحروب التي سجلها التاريخ حتى نهاية القرن الثامن عشر، أو على التحديد، حتى نابليون وقد تميّزت هذه المرحلة الأخيرة باستقلال كل من العمليات والاشتباك، أي كانت العمليات والمعركة شيئين مختلفين مستقلين عن بعضهما البعض.

يرجع السبب في ذلك إلى أن مستوى تطور المعدات العسكرية والسلاح لا يتيح لوحدة صغيرة معزولة أن تقاوم مدة طويلة، أي إذا كان عليك التحرك بأمن فيجب أن يكون جيشك متراصا يسير ككتلة واحدة. ولهذا فقد كانت عملية انتقال الجيش عبارة عن انتقال من نقطة إلى نقطة أخرى لمواجهة العدو. وكان من الممكن لأحد الجيشين أو لكليهما رفض القتال عن طريق الانسحاب من نقطة الالتقاء، أو بعبارة أخرى لم تكن هنالك عمليات تطويق استراتيجي ومناورات استراتيجية تفرض على العدو معركة سواء أرضي أم أبى. لذا كان على الجنرال أن يدخل المعركة بعد أن يؤمّن تفوقاً عددياً أو وضعاً أقوى.

أما المرحلة الثانية - مرحلة حروب نابليون - فقد أصبحت العمليات والمعركة شيئين متمايزين ولكنهما مرحلتان متداخلتان. فقد تمّ على يد نابليون الجمع بين نظام التشكيلات المرنة للعمليات وبين التركيز المطلوب للمعركة. أما أعداؤه فظلوا يناورون مركزين. وقد أدى توزيع نابليون لقواته بعد أن قسمها إلى جيوش وحركها من نقاط مختلفة إلى شل عدوه وجعله لا يدري أين ستكون نقطة التركيز في المعركة.

وهكذا كان بمقدور نابليون محاصرة العدو كما حدث في أولم ULM، أو الالتفاف من خلفه وقطع خطوط مواصلاته وإجباره على القتال، كما حدث في

معــركة جينا JENA. ومن ثم كان العدو مضطراً على خوض المعركة حتى ضمن ظــروف غير ملائمة. وهنا كانت العمليات الاستراتيجية هي العامل الحاسم أكثر من المعركة.

وبكلمات أخرى كان تحرك جيوش نابليون سريعاً مرناً يستطيع أن ينسحب إذا شــاء ويــستطيع أن يفــرض علــى العدو المعركة من دون أن يتيح له إمكان الانسحاب. الأمر الذي جعل استراتيجية العمليات تؤمن له نصراً بعد نصر.

أمــا الجنرال البريطاني د. ك. باليت D.K. PALIT (من منظري الاستراتيجية النووية. وقد مرّ ذكره) في كتابه "أوّليات المعرفة العسكرية" THE ESSENTIALS OF MILITARY KNOWLEDGE فيعتــبر هو الآخر نابليون نقطة الأساس في العلــم العسكري الحديث، ويرى أن الثورة الفرنسية خلقت الظروف التي أتاحت لنابلــيون اســتغلالها. وذلك حين أصبح بالمقدور أن يقسّم الجيش الشعبي إلى عدة جــيوش كــل جــيش منها تحت قيادة مستقلة، وكل جيش يتشكل من مختلف الأســلحة وقادر على خوض معارك بمفرده. الأمر الذي فتح إمكانات استراتيجية وتكتيكية جديدة.

وكــذلك أدى تطوير الطرقات ووسائط النقل إلى زيادة قوة المناورة. وولد مفاهــيم مثل "خطوط العمليات" و"الخطوط الداخلية"، و"الخطوط الخارجية" في حين كان أعداء نابليون يعملون ضمن جيوش مكثفة تحت قيادة مركزية مما جعلهم غير قادرين على ممارسة المناورة الاستراتيجية والمناورات التكتيكية. أما نابليون فقد كانــت فــرقه المنفــصلة تعمل على نقاط متباعدة، وذات إمكانات على المناورة الذاتــية. ومــن ثم كانت قادرة على رسم خطة للمعركة بمرونة أكبر وقوة حركة أسرع.

كــان نابلــيون قــادراً على تقسيم التنفيذ إلى مرحلتين منفصلتين – مرحلة المــناورات قبل الاشتباك ومرحلة المعركة نفسها. فقد استهدف من المرحلة الأولى كــسب موقــع استراتيجي من خلال تتابع تحرك مختلف الفرق التي تقوم بتطويق العــدو أو الالتفاف على أحد أجنحته بحركة فائقة كما حدث في "أولم"، أو قطع خطوط مواصلاته كما حدث في "جينا". وأخيراً عندما يوضع العدو في وضع غير

ملائـــم لـــه، كـــان نابليون ينفذ المرحلة الثانية من خلال تجميع جيوشه أو فرقه والإطباق على العدو بتشكيلات هجومية.

أمـــا جوميني JOMINI الذي عمل تحت قيادة نابليون والذي يعتبر أفضل من أرّخ لحروب نابليون من الناحية العسكرية العملياتية والتكتيكية. فقد ركّز في كتابه "خلاصة فنّ الحرب" SUMMARY OF THE ART OF WAR على أهم الدروس الـــتي اســـتقاها من حروب نابليون. وهي جلب القسم الأعظم من قوات الجيش بالتـــتابع مـــن خلال إجراءات استراتيجية إلى المسرح الرئيس في الحرب، على أن تقطـــع طرق مواصلات العدو دون أن تعرض طرق مواصلاتها هي إلى الخطر. إن المـــناورة بهذه الطريقة تستهدف وضع قواتك الرئيسة ضد أجزاء من قوات العدو. وهـــنا لا يكفي أن يكون جلب تلك القوات إلى احتلال النقاط الحاسمة فحسب، وإنما يجب أيضاً جعلها تعمل بسرعة وجماعياً بحيث تقوم بجهد موحد.

وإذا كان كلاوسيفتز CLAUSEWITZ قد حلل حروب نابليون ضمن تلك الخطـــوط إلاّ أنه اهتم بصورة خاصة في كتابه "حول الحرب" (ON WAR) في مسألة أخذ القرار الاستراتيجي الحاسم الذي يعني دفع الحرب "إلى حدها الأقصى" حيث يجـــب أن تنتهي إما بسحق العدو نهائياً أو بالإطاحة به إطاحة كاملة. كما كانت استراتيجية نابليون دائماً. كما اهتم دور الجانب المدني للأمة في الحرب.

أما جيمس مارشال كورنول JAMES MARSHAL-CORNWALL في مـــؤلفه الضخم "نابليون كقائد عسكري" NAPOLION AS MILITARY COMMANDER فقـــد حـــاول أن يـــبرهن علـــى التطوير الذي عرفه الفنّ العسكري على يد نابليون لم يكن من إبداع نابليون بالذات، وإنما سبق وولدته الـــتجارب السابقة، وتناولته كتابات عسكرية تقدمت على عصر نابليون. أما دور نابليون فقد تلخص بالتطبيق الخلاق لكل التجارب والكتابات على أرض الحرب والمعركة، فمثلاً:

أ. المبدأ التكتيكي الذي سبق واستخلصته – الثورة الفرنسية في الفترة ما بين 1792 – 1795. وهو أن يشنّ القائد هجومه الرئيسي بأرتال COLUMNS مكثفة هجومية ضد النقطة التي يعتبرها مفتاح موقع العدو، وبعد أن يكون

قد زعزع الدفاع بنيران تحضيرية عن طريق المناوشين SKIRMISHERS وتركيـز المدفعيـة. أما إضافة نابليون على هذا المبدأ فلم تتعد زيادة نسبة المدافع والاحتفاظ بمدفعية احتياط تحت تصرفه من أجل تركز نيرانها عندما تصل المعركة أوجها.

ب. وكذلك الحال بالنسبة إلى "التكتيك الكبير" (GRAND TACTICS) والالتفاف حول الأجنحة وتنظيم الجيش إلى فرق وفيالق من أجل امتلاك مرونة أكبر في الزحف وفي المعركة فقد جاء نتيجة تجربة حرب السنوات السبع.

ج. تشديد نابليون على ضرورة أن تعيش جنوده من البلاد التي تدخلها، أو تعمل فيها. وهذا تمتلك حرية المناورة حين تتحرر من الاعتماد على الإمدادات والمخازن الخلفية هو تقليد الجيوش الثورية. وقد رجع منشأه من حاجة فرنسا إلى إطعام الجيش من خارج الحدود.

د. كان مارشال كونت دي ساكس MARSHAL COUNT MAURICE DE SAXE (1696 – 1750) والذي وصفه ليدل هارت بأنه "نبي العسكرية" قد كتب في مذكراته REVERIES (1732) حول ضرورة زيادة حركة الجيش ومناوراته. واقترح من أجل تحقيق ذلك، تنظيم الجيش على أساس لـ"ـيجونات (أو قل فرق باللغة الحديثة) على أن تكون كل فرقة قوة قتالية مستقلة مؤلفة من كل الأسلحة.

هـ. إن تقسيم الجيش إلى جسم رئيس تسبقه قوات طليعة وله احتياط في الأجنحة جاء نتيجة تجربة حرب السبع سنوات. وقد أكسب هذا التنظيم الجيش مزيداً من الحركة والمناورة إذ أتاح للجسم الرئيسي أن ينشر صفوفه DEPLOY أو يلتف حول أجنحة العدو بينما تكون قواته الطليعية، قد أشغلت الجسم الرئيسي في قوات العدو وجمدته. وكانت هذه التشكيلة هي تشكيلة فرق جيش نابليون عام 1796 في حملته الأولى على بيدمونت PIEDMONT.

إن الفنّ العسكري هنا يتلخص في تقسيم الجيش إلى عدة أقسام، وابقاء الأقسام تحت سيطرة القائد وضمن تعاون قريب لتجنب هزيمة أي قسم

علـــى حــــدة من جهة، ومن أجل التركيز للمعركة في اللحظة الحاسمة من الجهـــة الأخـــرى... إن المبدأ العام هنا هو الزحف بأرتال مختلفة. ولكن القتال يتمّ على أساس توحيد تلك الأرتال وتركيزها في المعركة.

و. كان الجنرال ج. جيوبرت J.A.H. GUIBERT (1743 – 1790) وهو الـــذي درســـه نابلـــيون جـــيداً قد كتب. "في الماضي كانت الحركات الـــضرورية لجعل الجيش يأخذ شكل رتل أو خطّ للمعركة، بطيئة ومعقدة إلى حدّ كانت تستغرق فيه عدة ساعات من أجل أخذ المواقع، وكان على الجيش أن يصطف من مسافة بعيدة عن العدو. أما في المستقبل فيجب أن تكـــون الحركات بسيطة سريعة متأقلمة مع كل أنواع الأرض. كما يجب أن تنظم تشكيلة القتال في آخر لحظة ومن أقرب مسافة ممكنة من العدو. لأن الأرتـــال COLUMNS أســـهل على المناورة من الخطوط LINES. وذلـــك لأن تـــضييق نقطة الهجوم في اللحظة الأخيرة سيؤدي إلى إرباك العدو وعدم إتاحة فرصة له لمواجهتها".

لقد أراد جيمس كورنول من كل ما تقدم أن يؤكد على أن تلك التطويرات العـــسكرية الـــتي تنسب إلى نابليون كان مسبوقاً عليها، أما عبقريته فتتلخص في تطبيقها تطبيقاً خلاقاً.

أما فريدريك إنجلز في موضوعته "نظرية القوة" في كتابه "ضد دوهرنغ". فقد أبرز كيف ألغيت قيمة تشكيلة الخطوط LINES القتالية أمام زمر الثوار الأميركيين في حـــرب الاستقلال الأميركية حيث أعيد اكتشاف القتال بأسلوب المناوشات. وهـــو أسلوب جديد في الحرب جاء نتيجة تغير المادة الإنسانية، أي الرجال الذين يقاتلون من أجل قضية، وليس كجيوش مرتزقة.

ثم يشير إلى الثورة الفرنسية التي أكملت ما بدأته الثورة الأميركية في المجال العسكري حيث واجهت جيوشاً مرتزقة حسنة التدريب بقوات تمثل تجنيد أمة بأســـرها، ولكن كان على الثورة الفرنسية أن تدافع عن باريس وتدخل معارك مكـــشوفة مما جعل أسلوب القتال بالمناوشات غير كاف. فتمّ اكتشاف شكل جديـــد يستخدم من قبل كتل كبيرة من المقاتلين وهو تشكيلة الرتل COLUMN

وقد أتاحت هذه التشكيلة إمكان التحرك بسرعة وبدرجة جيدة من النظام بالنسبة إلى قوات ضعيفة التدريب كما أتاحت تشكيلة الرتل إمكان القتال على أي أرض حتى على الأرض التي تعتبر غير مؤاتية إطلاقاً لتشكيلة الخطوط. لقد أتاحت تشكيلة الرتل العمل جنباً إلى جنب مع هجمات من قبل قوات المناوشة لإشغال تشكيلات خطوط العدو وإبقائها في حالة اشتباك وإنهاكها إلى أن تأتي اللحظة المناسبة لتندفع كتل الاحتياط الهجومية فتخرق تلك الخطوط في النقطة الحاسمة.

ويتابع إنجلز قائلاً "إن هذا الأسلوب الجديد في الحرب والقائم على أساس الجمع بين قتال المناوشات وقتال الأرتال، والقائم أيضاً على أساس تقسيم الجيش إلى فرق أو فيالق مستقلة مؤلفة من كل أنماط الأسلحة، قد بلغ غاية كماله على يد نابليون سواء أكان من ناحيته الاستراتيجية أم من ناحيته التكتيكية".

وإلى هنا، نكون قد استعرضنا كيف يقوّم المنظّرون والمؤرخون العسكريون التطوير الذي حدث في فنّ الحرب في عهد حروب نابليون. وبهذا تكون الخطوط الأساسية أو قل السمات الرئيسية التي تميّز بها الفنّ العسكري على يد نابليون قد حددت، وهي التي اعتبرت نقطة انعطاف في فنّ الحرب انتقلت به من مرحلة متدنية إلى مرحلة أرقى مختلفة كيفياً عن المراحل التي سبقتها.

ولكن كنا قد زعمنا في مطلع هذا الفصل وقبله في فصول سابقة، أن الفنّ العسكري في عهد الفتوحات العربية الإسلامية الأولى لا يمكن وضعه استراتيجياً وتكتيكياً ضمن عائلة الحروب التي سبقت عهد نابليون. لأنه يمتاز عليها بكل ما امتازت به حروب نابليون عليها. فكل ما أحدثه نابليون من تطوير على فنّ الحرب قد سبق واستحدث قبل ذلك بأكثر من ألف عام (1160 سنة) على يد العرب المسلمين، والآن، لا بد من إقامة الدليل الذي يحوّل الزعم إلى حقيقة ملموسة.

ولكي تصح المقارنة يتوجب ملاحظة تلك السمات التي امتاز بها الفنّ العسكري تحت قيادة نابليون كأجزاء أولاً ثم رؤية ديناميكية عملها مجتمعة ثانياً.

تقسيم الجيش والمناورة الاستراتيجية

يلاحظ من كل الموضوعات السابقة حول نابليون انها ركّزت على أهمية تقسيمه للجيش إلى فرق أو فيالق، كل منها ذات قيادة مستقلة، وكانت كل فرقة تتشكل من مختلف صنوف الأسلحة وتستطيع الدخول بمعارك منفردة إلى جانب تحريكها من نقاط مختلفة. مما جعل ساحة الحرب ساحة واسعة جداً تتحرك فيها تلك الفرق بمناورات استراتيجية لا تسمح للعدو بتحديد اتجاه التركيز ولا مداه، ولا حجمه، كما تؤدي إلى قطع مواصلاته أو تطويقه وإجباره على دخول معركة حتى حين يجد نفسه في وضع غير ملائم. وكان هذا عكس ما جرى عليه التقليد العسكري في الماضي حيث كان الجيش يتحرك ككتلة واحدة جبارة باتجاه نقطة المعركة حيث يلتقي مع الخصم في معركة مواجهة دون عمليات مناورة استراتيجية، فقد كان الشيء الحاسم هو عملية الاشتباك بالذات.

عندما حدثت ردة القبائل العربية عن الإسلام قسم الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه جيش المسلمين إلى أحد عشر لواء، وجعل على كل لواء قائداً.. وحرّك تلك الألوية لتعمل مستقلة ومتعاونة في آن، فقد كان على كل لواء أن يقوم بعمليات مستقلة في جبهة محددة، فأحياناً كانت مهمته تثبيت العدو وإزعاجه باستمرار، وأحياناً كانت مهمته الدخول في معركة فاصلة معه، حسب مقتضيات الوضع.

ولكن كان من بين تلك الألوية لواء رئيس يشكل الجسم الرئيس الذي يقوم بمهمة الدخول في المعركة الحاسمة مع قوات العدو الواحد بعد الأخرى، وكان على رأس هذا الجيش خالد بن الوليد. وكان كلما واجه قوة رئيسة من قوات المرتدين، يقوم بالتركيز ضدها عن طريق انضمام بعض الألوية الأخرى له. ثم ينتقل ليكرر تلك العملية. وهنا نجد كل ملامح التقسيم الذي يجمع بين مرونة الحركة والمناورة الاستراتيجية وبين التركيز في المعركة.

كان لنجاح هذه التجربة أثر حاسم إذ أصبحت إحدى السمات الرئيسة في الفنّ العسكري في حروب الفتوحات.

ولعـــل حملة برّ الشام من أروع الأمثلة على تأكيد هذه النقطة فقد قسّم أبو بكر الصديق (وبالتأكيد، بالتشاور مع صحابة رضي الله عنهم) جيش المسلمين إلى ثلاثـــة جيوش قاد أحدها عمرو بن العاص، وقاد شرحبيل بن حسنة الجيش الثاني بيـــنما قـــاد يـــزيد بن أبي سفيان الجيش الثالث. وأخذ كل جيش خطّ عمليات مستقل، فانطلق جيش عمرو بن العاص باتجاه العقبة ومنها إلى جنوب فلسطين... بيـــنما كانت منطقة جيش يزيد عبر تبوك ثم شمالاً إلى البحر الميت ومنطقة شرقي الأردن، أمـــا جيش شرحبيل فاتجه شرقاً نحو دمشق وكانت التعليمات التي حملها قـــادة تلك الجيوش أن يعملوا بتناغم بحيث يظلّ الاتصال مستمراً في ما بينهم كما يظـــلّ مستمراً في ما بينهم وبين الخليفة. وإذا ما ارتطم أحدهم بمقاومة تعني معركة حاسمة انضم إليه الجيشان الآخران وركّزت القيادة بيد القائد الذي يجري العمليات في منطقته.. نجد هنا السمات التالية:

أ. مـــنطقة الحرب أصبحت ساحة واسعة جداً تناور فيها الجيوش من حول جـــيش العـــدو وعلى خطوطه الداخلية ومن دون أن تفقد الاتصال في ما بيـــنها ومن دون تعرّض خطوط مواصلاتها للخطر. وكانت الصحراء من خلفها وكانت قريبة منها لحماية ظهرها وتأمين الانسحاب عند الضرورة. وكان ذلك من شرط توفير أمن القوات.

ب. الجمـــع بـــين مرونة المناورة والحركة الاستراتيجية الواسعة وبين التركيز المطلوب للمعركة.

ج. كل جيش له قيادته المستقلة، ويتشكل من مختلف صنوف الأسلحة وقادر على خوض معارك بمفرده.

د. إبقـــاء الاتـــصال وخطّ المواصلات مع المركز في المدينة من أجل استمرار التعبئة والتعزيز وإشراف القيادة الاستراتيجية للعمليات. إلى جانب المحافظة على الاتصال وخطّ المواصلات فيما بين تلك الجيوش الثلاثة.

بـــدلاً من أن يقوّم الجنرال غلوب هذا التقسيم، واستراتيجية عملياته على نحو ما يقوّم تقسيم جيوش نابليون واستراتيجية عملياته، راح يبدي استغرابه لـــماذا قـــسّم أبو بكر القوات على هذه الصورة وحاول تأويل ذلك في كتابه

"الفتوحات العربية الكبرى" (الصفحات 131 و132 - الطبعة الإنكليزية) بطرح الاحتمالات التالية:

1. "ربما جعل نقص الماء في الصحراء من الضروري التحرك بقوات منفصلة" ولكنه نسي أن هذه النقطة مردود عليها في حملة تبوك التي سبقت ذلك العهد حيث سار جيش موحد من ثلاثين ألفاً إلى تبوك.
2. أو ربما "بسبب الحسد بين القادة الذين يرفضون الخدمة تحت بعضهم البعض". ولكن هذا التأويل أدهى من سابقه، إذ ثمة دلائل كثيرة على أن مسألة الحسد غير واردة، فقد خدم كل أولئك القادة تحت قيادة خالد بن الوليد في حروب الردة، كما خدموا في ما بعد تحت قيادة خالد في تلك الحملة نفسها، ثم تحت قيادة أبي عبيده بن الجراح. بل إن كلمة خليفة المسلمين ما كانت لتخالف عندما كان يختار قائداً عاماً أو عندما كان يعزل قائداً. هذا وثمة أمثلة كثيرة دليلاً على ذلك.
3. ويتابع غلوب: "منطقياً يمكن الاستنتاج أن أبا بكر أراد لهذه القوات أن تلعب دور إزعاج أكثر من غزو البلاد" وهنا أيضاً يسقط منطق غلوب أمام جدية الحملة التي دخلت معارك فاصلة. وفتحت برّ الشام كله.

ثم كيف يستطيع أن يفسر إعادة تقسيم قوات المسلمين إلى عدة جيوش بعد أن دحرت قوات البيزنطيين في اليرموك وفتحت دمشق. إذا لم يكن هذا التقسيم قد قام على أساس مدروس وفهم كامل لدوره وأهميته وذلك ضمن خطة استراتيجية متكاملة؟ وكيف يفسر نقل أحد الجيوش من جبهة سوريا لتعزيز جبهة العراق، أو نقل أحد الجيوش من جبهة العراق لتعزيز جبهة سوريا؟

يبقى السؤال ما هي العوامل التي جعلت العرب المسلمين يكتشفون هذا الشكل من القتال وتقسيم الجيش؟ إذا كان تقسيم الجيش الفرنسي بعد الثورة قد جاء نتيجة ثلاثة عوامل رئيسة:

أ. عندما أصبح الجيش كتلاً من الجماهير المعبأة بعد الثورة الفرنسية، أو عندما أصبح يمثل تجنيد أمة بأسرها كما يقول إنجلز، غدا من الممكن

تقسيمه إلى أرتال وفرق، فإن هذا الشرط توفر لجيوش العرب بعد انتصار ثورة الإسلام التي أصبحت تمثل تجنيد أمة بأسرها.

ب. زيادة كثافة النيران لوحدة صغيرة أتاح لها إمكانات المقاومة مدة أطول، ومن ثم خلقت الشروط لتقسيم الجيش إلى فرق دون تعريض أمنه وحركته للخطر.. إن هذا الشرط لم يتوفر في فترة الفتوحات الأولى، ولكن كان مقابله شرط آخر يؤدي في الجوهر إلى النتيجة نفسها، وهو اعتماد التقليد العربي الصحراوي على سرعة الحركة والمقدرة على الاختفاء والظهور وكثرة التنقل والمناورة، مما أتاح لوحدة صغيرة إمكانات المقاومة مدة أطول من خلال التحرك الخاطف، أو الاختفاء الخاطف أو الظهور الخاطف، أرقى من عمليات المناوشة فهي فن في العمليات قائم بذاته. الأمر الذي أمّن هذا إمكان تقسيم الجيش إلى فرق دون تعريض أمنه وحركته للخطر. وهذا بدوره أتاح للعرب المسلمين إمكان اكتشاف أهمية المحافظة على خطوطهم الداخلية والعمل على خطوط العدو الداخلية، لأن العمل العسكري هنا أصبح يعتمد على الحركة والسرعة والاتصال المستمر بالمركز وبالقوات الأخرى من أجل تأمين المساندة والتعاون.

ج. تطور الطرق والمواصلات في عصر نابليون زاد من قوة المناورة إلى جانب تطور وسائط النقل.. إن هذا الشرط الذي لعب دوراً هاماً في تقسيم جيش نابليون وبروز مفاهيم مثل "خطوط العمليات"، و"الخطوط الداخلية" و"الخطوط الخارجية"، قابله شرط آخر لدى الجيوش العربية الإسلامية وهو خفة أحمالها وسهولة تنقلها وتقاليدها في التنقل والترحال. ومن ثم أصبحت كل الأراضي عبارة عن طرق مواصلات ليست بحاجة لأن تعبد.

التكتيك الكبير GRAND TACTICS

قلنا إن تقسيم الجيش إلى فرق فتح إمكانات واسعة أمام نابليون لتطوير فنّ الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية. فقد أصبح بمقدوره

امتلاك زمام المبادرة في التحرك على خطوط متعددة، بحيث ينسحب من المعركة إذا شاء بينما يكون قادراً على فرض معركة على العدو منْ دون أن يترك له مجالاً للانسحاب.

كان العرب المسلمون كما قلنا قد قسّموا جيوشهم إلى فرق وطوروا فنّ الحرب من حيث العمليات الاستراتيجية والمعركة التكتيكية، فعلى سبيل المثال ركزوا قواتهم في اليرموك وجنوبي درعا عندما واجهوا تركيز البيزنطيين بين جبل حوران واليرموك والجولان - في سهل درعا... وكان ذلك الموقع الاستراتيجي يشكل مفتاح بلاد الشام كما تتركز فيه القوات العسكرية للعدو.

وهنا أمر الخليفة أبو بكر خالد بن الوليد التحرك بجيشه الذي كان يعمل مع جيش المثنى بن حارثة في جبهة العراق، لمساندة جيوش المسلمين في اليرموك.. فقام خالد بن الوليد بعملية التفاف عبقرية حول جيش العدو وضرب طريق مواصلاته مع دمشق... وتمّ له الاتصال مع القوات المركزة جنوبي درعا..

وعندما حاول هرقل التحرك بجيش كبير حشده خصيصاً لمساندة قواته في درعا. قرر تجاوز تلك المنطقة عن طريق شمالي فلسطين والتوجه لضرب قوات عمرو بن العاص أولاً في جنوب فلسطين ومن ثم يكون بمقدوره محاصرة قوات العرب في اليرموك من الجنوب.. ولكن سرعان ما قررت قوات اليرموك اللحاق به، والقيام بعملية التفاف مضادّ ودعم قوات عمرو بن العاص فشقت طريقها عبر شرقي الأردن - عمان فالكرك إلى جنوب البحر الميت ومن هناك إلى وادي عربة وبئر السبع حيث جيش عمرو بن العاص... وكانت حركتهم أسرع بكثير من حركة قوات هرقل رغم أن الطريق التي قطعوها، خاصة، جبال مؤاب الصعبة، أشدّ وعورة وأطول مسافة. ولكنهم سبقوه. وتمّ اللقاء في معركة أجنادين التي أطبقوا عليه فيها وأنزلوا الهزيمة بقواته ثم استداروا بسرعة للعودة إلى اليرموك بقواتهم المركزة.

إن الذي راجع حملة نابليون على بيدمونت وشمالي إيطاليا يلاحظ شدة الشبه بين تقسيم قواته وعملياته الاستراتيجية وبين تقسيم القوات العربية وعملياتها الاستراتيجية في برّ الشام.

كـــان نابليـــون قـــد قـــسم جيـــشه إلى ثلاث فرق بقيادة كل من ماسينا MESSENA وأوغريو AUGEREAU وسيروريو SERUIER وكان على ماسينا أن يقطـــع ممـــر كاديـــبونا CADIBONA ويتمركـــز في مونتيـــنوتي وديغـــو MONTENOTTE AND DEGO لعـــزل النمـــساويين بينما يتقدم أوغريو من الغرب وسيروريو من الجنوب وبهذا يشنّ الهجوم على سيفا CEVA التي هي مفتاح بيدمونت.

ولكـــن اكتشف نابليون أن الحركة التهديدية التي قامت بها الحكومة الفرنسية ضد جنوه لإجبارها على تقديم قرض قد تستدرج القوات النمساوية.. فأمر بتعزيز قـــوات فولتري VOLTRI مما أزعج النمساويين وجعلهم يطالبون قائد هم بوليو BEAULIEU التحرك لحماية جنوده. فوقع بالفخّ وأرسل قواته المتحركة.

وهـــنا قرر نابليون تغيير خطته فبدلاً من مهاجمة سيفا CEVA تحرك لضرب بولـــيو أولاً.. وكانـــت معـــركة مونتينوتي MONTENOTTE التي قررت مصير الحملة.. ومنها انتقل للإجهاز على القوات النمساوية.. ثم بعد أن تمّ له ذلك توجه لمحاصـــرة ســـيفا CEVA على أن يهاجم أوغريو مواجهة بينما يلتف ماسينا على الميمنة ويلتف سيروير على الميسرة.. ولكن كولي COLLI قائد البيدمونتيين تراجع قلـــيلاً ليتحـــصن في موقع قوي على نهر كورساغليا CORSAGLIA بين سان ميشيل وليزينغو LESENGO.. وأخيراً اقتحمه نابليون هناك وفتحت أمامه سهول بيدمونت.

الـــشيء الغريب الذي حدث في معركة اليرموك الأولى أن العرب حين راحوا يركزون في جنوبي درعا وقد أمر الخليفة جيش خالد بن الوليد بالتحرك من العراق لتعزيـــز القوات هناك، ظلت قوات عمرو بن العاص تعمل في جنوبي فلسطين و لم تتحرك للانضمام إلى القوات العربية الإسلامية الأخرى في اليرموك. وإذا أضفنا إلى هـــذه الواقعة عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين وإنما القيام بعمليات مناورشة، فمن المـــشروع أن نستنتج أن القيادة تركت قوات عمرو به العاص كطعم يضطر هرقل للتحـــرك باتجاهه، ما دام يهدد مواقع البيزنطيين الهامة في فلسطين، وإلاّ فما معنى إبقاء عمرو به العاص هناك بالوقت الذي يحث فيه خالد بن الوليد للتحرك بأسرع

مـــا يمكن لتعزيز قوات اليرموك؟ وما معنى عدم محاولة اقتحام دفاع البيزنطيين؟ ثم لماذا لم يطلب من عمرو بن العاص الانسحاب من فلسطين أمام تهديد زحف هرقل بـــدل أن تنـــتقل القوات المركزة في اليرموك إلى فلسطين؟ إن كل هذه التساؤلات تفـــرض علينا الاستنتاج أن خطة العمليات الاستراتيجية كانت تستهدف استدراج قوات هرقل، وضربها في فلسطين قبل اقتحام قوات هرقل المتمركزة في سهل درعا. وإذا صحّ هذا الاستنتاج فلن يكون الشبه كاملاً فحسب، وإنما أيضاً تكون العقلية الاستراتيجية العربية في تلك الحملة أرقى من الطراز النابليوني.

ولكـــن حتى لو اعتبر هذا الاستنتاج ضعيفاً بسبب عدم وجود دليل مكتوب عليه، فإن تغيير خطة التركيز من اليرموك والتحرك السريع إلى ملاقاة جيش هرقل في فلـــسطين، يعتبر عملية استراتيجية من أعلى مستوى تماماً كتغيير تركيز نابليون على ممر سيفا CEVA والتحرك إلى جنوه لضرب الجيش المتحرك.

الأمـــر المدهش هنا أن مركز الخلافة بنواته الخليفة والصحابة رضي الله عنهم شـــكلوا القـــيادة الاستراتيجية التي تقود الحرب بمجموعها فيما كان قادة الجيوش يقودون العمليات (التكتيك الكبير) والمعركة الميدانية. وقد تخطى هذا قيادة نابليون ليقارن بقيادة الجيوش في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

الجمع بين تشكيلة الرتل والمناوشة

كانـــت تـــشكيلة الفلانكس PHALANX المكدونية في القتال تأخذ شكل خطّين متوازيين وهذه تشكيلة تؤمن جبهة واسعة، ولكن ضعفها يتركز في خلوها مـــن الاحتـــياط إلى جانب ضعف مناورتها فما أن يشتبك الخطان LINES حتى يـــصبح أي تحرك غير ممكن عدا المضي في الصدام حتى النهاية. كما لها ضعف آخر وهو ارتباطها بالأرض المنبسطة إذ تنبع قوتها من تماسك كتلتها لذلك كان دخولها إلى أرض ضيقة أو متحجرة أو وعرة أو جبلية يضعف تماسكها وقوتها.

اكتشف الرومان نقاط ضعف الفلانكس اليوناني، فاستبدلوه بتشكيلة الليجون LEGION وهـــو عـــبارة عن تشكيلة خطّ الفلانكس، ولكن مع قسمة الخطّ إلى خطّين بينهما 250 قدماً وهما للصدام المباشر بينما ترك وراءهما خطّ ثالث كتعزيز

أو دعـــم أو احتـــياط، أي أن الـــرومان جعلوا تشكيلة الليجون من ثلاثة خطوط LINES وقـــد اكتـــسب الليجون من هذا التقسيم عمقاً، وبالتالي أصبحت الكتلة الكبيرة أقوى على الحركة والمناورة.

وعندما اصطدمت تشكيلة الفلانكس اليونانية بتشكيلة الليجون الرومانية في معركة بيدنا PYDNA (168 ق.م.) استغل الرومان ضعف الفلانكس فجروه إلى أرض غـــير منبسطة فانفصل جناحاه في حين اندفع الرومان على شكل رأس سهم فـــشقوا تماسكه.. وأصبح غير قادر على الحركة في حين راح الرومان يستخدمون الاحتياط. وبهذا أنـــزلوا به الهزيمة.

أفـــاد البيـــزنطيون مـــن معركة أدريانوبل ADRIANOPLE (378 ب.م.) وأصـــبح ســـلاح الفرسان يشكل قوة الصدمة الأولى التي تستطيع شقّ الليجونات بيـــنما راح الفرس يستخدمون سلاح الفيلة لعمليات اختراق الصفوف وتمزيقها، وكانت تشكيلتهم تتألف من ثلاثة خطوط كالليجون.

أدى اســـتخدام الأسلحة النارية حتى عهد نابليون إلى سيادة تشكيلة الخطوط LINES من جديد، لتأمين جبهة أمامية كثيفة في نيرانها وواسعة جداً.

وجـــاءت الـــثورة الفرنـــسية بجماهيرهـــا الغفـــيرة لتـــبدع تشكيلة الرتل (COLUMN) الذي لم يفرط باتساع الجبهة الأمامية التي تؤمنها تشكيلة الخطّ في حـــين أمن أيضاً العمق الذي برزت أهميته في معركتي ريفولي RIVOLI ومارينغو MARINGO وهـــذا تميـــز على تشكيلة الخطّ التي تخلو من العمق كما تميز عليها بسهولة قيادته وسهولة حركته وسرعته ومقدرته على التأقلم مع الأرض.

وقد أبدع نابليون باستخدام كتائب القناصة لحماية أطراف الرتل ودعم نيرانه بـــنيران المناوشـــة. إن الشيء الأساسي هنا هو الجمع المرن بين تشكيلة الرتل وبين أسلوب المناوشة في القتال الذي طورته تجربة حرب الاستقلال الأميركية.

لقـــد كـــان لتشكيلة الرتل أهمية استراتيجية إذ أتاحت إمكانات لحركة المـــناورة الواســـعة كما زادت من سرعة تحرك الجيش، إلى جانب عدم التقيد بالطـــرقات الممهـــدة في أثناء الزحف، أي امتلكت مرونة التحرك على مختلف أشكال الأرض. كما كان لتشكيلة الرتل أهمية تكتيكية إذ أعطت عمقاً للجبهة

دفاعياً كما زودت الهجوم بزخم شديد، وأكسبت الجيش مرونة وسرعة في إجراء الحركات التكتيكية.

كانت تشكيلة القتال الأساسية في حروب القبائل العربية أشبه بزمر المناوشة حيث تنظم القوات على شكل مجموعات لتمتلك المرونة في تطبيق تكتيك المناوشة الذي كان يسمى بأسلوب الكرّ والفرّ، فقد كانوا إذا رأوا ضعفاً في العدو كروا عليه ولكن إذا امتد الضعف إلى جبهتهم فروا ثم يعودون فيكرون وهكذا. إنه تكتيك مرن الحركة يمتلك المفاجأة والسرعة في حالتي الدفاع والهجوم، بلا موقع ثابت. فقد كانت حركتهم على شكل كتل وليس صفوفاً.

وعندما جاء الإسلام كرّس الرسول صلّى الله عليه وسلّم تشكيلة الصفوف التي تشبه صفوف الصلاة وهي أرقى من تشكيلة الليجونات بسبب توفيرها للعمق للدفاع والزخم في الهجوم.

ولكن عندما انتصر الإسلام وأصبحت جيوشه كتلاً ضخمة من المقاتلين كرس خالد بن الوليد تشكيلة الكراديس، وهي أقرب ما تكون لتشكيلة الرتل وقد بلغ جيش المسلمين في معركة اليرموك الأولى 36 كردوساً مقسمة إلى كراديس ميمنة وأخرى ميسرة وأخرى قلب إلى جانب مجموعات المناوشة والطليعة.

وهكذا أصبح الجيش كتلاً من الكتائب التي تجمع بين المرونة والتركيز، وبين اتساع الجبهة وتوفر العمق مع إمكانات كبيرة على المناورة التكتيكية. والأهم الاحتفاظ بالاحتياط (الفرسان) السريع الضارب.

في الواقع لا توجد تفصيلات دقيقة حول طريقة صفّ الكراديس، وكيف تنظم في الزحف وكيف تأخذ تشكيلة القتال في المعركة. ولكن يمكن الاستدلال من سرعة تحرك جيوش العرب المسلمين في أثناء الزحف على أن تشكيلاتها لا يمكن أن تكون إلاّ شبيهة بتشكيلة الرتل أو أكثر مرونة وسرعة منه. فإذا كانت تشكيلة رتل نابليون ضربت رقماً قياسياً في سرعة الزحف إذ كان معدلها 14 ميلاً في اليوم وعلى أرض صعبة، وهذه سرعة لا يمكن أن تتوفر إلاّ لتشكيلة الرتل، فإن معدل سرعة جيوش المسلمين فاقت تلك السرعة بضعفين أو ثلاثة على الأقل – مثلاً قطع خالد بن الوليد صحراء حمد بخمسة أيام والمسافة حوالي مائتي ميل – وإذا خصصنا

لمصلحة جيوش نابليون عامل ثقل معداتها وذخائرها ومدافعها، فإن نسبة سرعة جيوش العرب المسلمين ستظلّ بالمستوى نفسه أو أكثر.

ثم إذا حسبنا المسافة التي قطعها هرقل من شمالي فلسطين حتى أجنادين، ثم إذا حسبنا المسافة المقابلة من الرمثا إلى عمان فالكرك فوادي عربة ثم صعوداً إلى أجنادين، فسنجد أن سرعة جيوش العرب المسلمين كانت تفوق سرعة جيوش الرومان بما لا يقلّ عن أربعة أضعاف. ولا يمكن لجيش أن يحقق مثل هذه السرعة وعبر مناطق جبلية (سلسلة جبال مؤاب) إلاّ على أساس تشكيلة الرتل.

ثم يمكن الاستدلال من مجموعة المعارك التي حملت كتب التاريخ بعض التفصيلات عنها، بأن تشكيلة القتال التي تبناها العرب المسلمون أقرب ما تكون لتشكيلة الرتل، فمثلاً في معركة البويب ضد جيش كسرى الذي تبنى تشكيلة قريبة من تشكيلة الليجون مقسمة إلى ثلاثة صفوف وقد استخدمت الفيلة كقوة الصدمة الهجومية، وجدنا بعض أجنحة العرب أخذت تترنح بادئ ذي بدء خاصة فرقة بني عجل.

ولكن سرعان ما حثّهم المثنى على الثبات فأعادوا تنظيم تشكيلتهم بسرعة وثبتوا.. وهذه صفة لا يمكن أن تتوفر إلاّ لصفوف تشكل مربعاً كثيفاً أو رتلاً، خاصة، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تشكيلة الليجونات أو الخطوط LINES تحتاج إذا ما تخلخلت، إلى درجة عالية جداً من التدريب العسكري لجيش محترف وهي تشكيلة لا تناسب قوات شعبية، ثم إذا تابعنا تلك المعركة التي دارت سجالاً. وقد راح المثنى إلى وقت طويل يراقب المعركة، ومعه جيش من الاحتياط مؤلف من قوات نمر وتغلب المسيحية دون أن يلقي بها إلى المعركة. وظلّ كذلك حتى بدأ هجوم جيش الفرس الساسانيين يفقد زخمه. وهنا لاحت اللحظة الحاسمة لشنّ الهجوم المضادّ فشدّ بقوات الاحتياط تلك إلى وسط الجيش الكسروي فخرقه تماماً فدبّت به الفوضى وفقد تماسكه، في حين تابع المثنى وقوات الاحتياط خرق الجيش وأسرعوا لسدّ الجسر في مؤخرة الجيش المزعزع لمنعه من الانسحاب. وهكذا سُحق وتحقق نصر استراتيجي أصبح المسلمون بعده يطرقون أبواب بغداد والمدائن.

إن عملــية الهجــوم الذي شنّه المثنى وطريقة تنفيذه لا يمكن أن يتمّ إلاّ على أســاس تشكيلة الرتل فهو تركيز على نقطة يتطلب عمقاً وزخماً لا يمكن أن يتوفرا لتشكيلة الخطّ.

على أن الشبه الأكبر يكمن بين تكتيك نابليون في الجمع قتال الرتل إلى قتال المناوشــات، وبين تكتيك العرب المسلمين في الجمع بين قتال الكراديس إلى قتال الكــر والفرّ. وقد اعتبر نابليون مطوراً لأسلوب قتال المناوشات الذي بدأته الثورة الأميركية بسبب ذلك.

في الواقــع، حدث الشيء نفسه بالنسبة إلى الفتوحات العربية الأولى، إذ كان قــتال المناوشات هو الشكل السائد في القتال بين القبائل العربية قبل الإسلام، وقد وصل درجة عالية من الكمال على يد عرب العراق، خاصة، بعد أن عزل كسرى الملــك الــنعمان عــام 605 ودخل اللخميون في صراع طويل الأجل ضد الدولة الــساسانية حــيث راحوا يشنون قتالاً غوارياً ضدها.. يقوم على أساس المناوشة وتجنب معارك المواجهة المكشوفة.

وعندما تكونت الجيوش العربية بعد الإسلام وأصبحت تخوض معارك مواجهة مكــشوفة حرصــت علــى الجمع بين القتال النظامي وبين قتال المناوشات، فقد احتفظت بمجموعات مناوشة لتقوم بدور الاستطلاع إلى جانب العمل كطليعة أمام الجــيش وقوات متحركة على الأطراف تستخدم السهام في مناوشة العدو. إلى هنا يكــون دورهــا شــبيهاً بــدور كتائب المناوشة النابليونية، ولكن القيادة العربية الإسلامية استخدمتها أيضاً لإزعاج العدو وإجباره على دخول معارك تحت ظروف غير ملائمة، كما حدث في معركة القادسية حيث كان رستم قائد الجيش الفارسي قــد قرر عدم عبور النهر وانتظار العرب لعبوره لئلا تتكرر معركة البويب. وكان كــل من الطرفين يتجنب جعل النهر وراءه لأنه في حالة الهزيمة يسحق سحقاً كما حدث أيضاً للمسلمين في معركة الجسر.. وهذا جعل انتظار القوتين وبينهما النهر يمــتد عدة أشهر ولكن المسلمين راحوا يشنون عمليات مناوشة غوارية في مؤخرة الجيش وراء النهر مما أزعج الوضع الداخلي إلى حدّ جعل الفرس يضطرون إلى عبور النهر ودخول معركة مواجهة في وضع غير ملائم.

طبق العرب المسلمون أسلوب المناوشة كعمليات إنهاك تحضيرية للهجوم العام كما حدث في اليرموك في معركتيه الأولى والثانية.

وأخيراً يمكن القول حول وجه الشبه بالنسبة إلى التشكيلة القتالية وبالنسبة إلى تـــشكيلة الزحف أن كلا من جيوش العرب المسلمين لجأت إلى تقسيم الجيش إلى جـــسم رئـــيس تسبقه قوات طليعة وله احتياط في الأجنحة والمؤخرة. ويبدو من رســـالة عـــبد الحمـــيد كاتب محمد بن مروان، ومن الحوار الذي دار في صفوف إبـــراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم... أن نقاط ضعف تشكيلة الخطّ بالمقارنة مع تشكيلة الكراديس كانت واضحة جداً بالنسبة إلى القـــادة "لأن الكـــراديس أثبت في الحرب، فإذا انهزم كردوس ثبت كردوس، أما الصف فإذا انهزم بعضه تداعى سائره"[1].

الحرب المتحركة

لعـــل أبرز ما تميّزت به الحرب على يد نابليون أنها أصبحت حرباً متحركة، وتخلـــصت مـــن تلك المراسيم التقليدية في اتباع أصول جامدة في المعركة وقيادة الحرب، ولم يعد احتلال المواقع أو الدفاع عنها هو الشيء الرئيس، وإنما العمل على ســـحق الجسم الرئيسي لقوات العدو المتحركة الضاربة. فقد أصبح المبدأ القائد في استراتيجية نابليون هو القضاء على جيش العدو الذي في الميدان. وأخضع احتلال المواقع لخدمة هذا الغرض وليس العكس.

إن نظـــرة سريعة إلى تاريخ حروب نابليون تكشف تلك الحركة الدائبة التي تميّـــزت بها قواته.. فهي دائمة الانتقال من مكان إلى مكان سعياً وراء قوات العدو المتحـــركة، ولم يثبتها قطّ في مواقع جامدة بل كان يحركها من نقاط تواجدها إلى نقاط تواجد العدو ولم يكن يتردد في التخلي عن مساحات واسعة من الأرض من أجل تأمين التركيز. كانت تعليماته لقادته:

1. أبقوا القوات مركزة ولا تفرقوها إلى جيوب صغيرة.

---

(1) محمد فرج - "المدرسة العسكرية الإسلامية".

2. سيروا بأرتال على مسافات متساندة فيما بينكم.

3. لاحقوا العدو بالسيف وهو يفرّ.

وكانت مبادئ استراتيجية عملياته:

أ. تركيز القوات ضد الهدف المباشر.

ب. الاقتصاد بالقوات والاحتفاظ بقوات احتياط لمواجهة أي طارئ جديد.

ج. المرونة والمناورة والسرعة في الحركة وأخذ القرار.

د. تجري كل عمليات الحملة على أساس المحافظة على الهدف.

وإن نظـرة سـريعة أخـرى إلى تاريخ حروب الفتوحات العربية الإسلامية تكـشف تلك الحركة الدائبة التي تميّزت بها قوات المسلمين. ولا نبالغ إذا قلنا إن الحـرب أصبحت على يد العرب حرباً متحركة، لا تتبع تلك الأصول التقليدية في المعركة وقيادة الحرب، التي درجت عليها الجيوش الرومانية واليونانية والفارسية من قبلهم أو جيوش الإقطاع الأوروبي وعصر النهضة حتى نابليون من بعدهم.

كـان جـيش عمرو بن العاص في حملة سوريا قد تغلغل حتى غزة وبئر السبع وراء خطـوط البيزنطيين.. بينما تغلغلت قوات يزيد بن أبي سفيان في شرقي الأردن حـيث راحت تجوب المنطقة كلها. وكذلك فعلت شمالاً قوات شرحبيل بن حسنة، بينما كانت قوات خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة قد راحت تعمل في جبهة العراق متحدة أحياناً، وعلى جبهتين أحياناً، إذ بعد معركة قاضمة (أو قضيمة) زحف خالد إلى شـطّ العرب وقطع نهر الفرات ثم عاد إلى الصحراء بعد أن بدأ الفرس يركزون لمواجهـته.. واشـتبك مع الجيش الكسروي في معركة نهر الدم بعد أن انضمت له قـوات بـني تمـيم بقيادة القعقاع بن عمر.. ومن هناك توجه إلى الحيرة حيث فرّ حاكمهـا الفارسي من أمامه إلى المدائن، فحاصر الحيرة واستسلمت. ولكن خالد بن الولـيد تحـرك فوراً ليقطع النهر ثانية ويحتلّ مدينة الأنبار بينما تحركت قوات المثنى لإشـغال قـوات الساسانيين ومنعهم من التحرك ضد زحف جيش خالد الذي شنّ هجـوماً كاسحاً على مدينة الأنبار التي كانت الأسوار تحوطها من ثلاث جهات، بيـنما حفر خندق في الجهة الرابعة. فعلى هذه النقطة ركّز خالد هجوم الاقتحام بعد أن نحر الجمال الضعاف وألقاها في الخندق.. ومن هناك تحول إلى عين التمر.

كـــنا قد ذكرنا كيف تحرك خالد من عين التمر لنجدة قوات اليرموك وكيف انـــتقلت قوات اليرموك جنوباً إلى الكرك فوادي عربة ثم شمالاً إلى أجنادين لملاقاة جـــيش هـــرقل.. ومـــن هناك عادت القوات إلى هدفها الرئيسي لضرب القوات البيزنطية في اليرموك. وبعد اكتساحها تحول التركيز على مدينة دمشق التي سقطت بيد المسلمين فتوزعت القوات بعد ذلك لتنظيف جيوب المقاومة على جبهة واسعة جداً. فانتقل جيش خالد بن الوليد إلى حمص وحماة وانتقل جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين وتوزعت قوات أبي عبيده بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان على المنطقة الواسعة المتوسطة بين جيش خالد وبين جيش عمرو بن العاص.

ولكن عندما عاد هرقل وحشد قوات ضخمة لاستعادة ما قد فقد، زحف من شمـــالي سوريا بجيش يقال إن التاريخ لم يعرف له مثيلاً من حيث العدد على أرض سوريا، فما كان من قوات خالد وأبي عبيده ويزيد إلاّ أن تخلت عن كل سوريا بلا قتال وتراجعت لتركز جنوبي درعا من أجل المحافظة على خطوط مواصلاتها ومن أجـــل تـــأمين التركيز، ومن ثم الدخول في معركة فاصلة على أرض اليرموك التي حددت كنقطة وقف زحف هرقل. وهكذا عادت حمص وحماة ودمشق إلى هرقل بلا قتال، وأخذ مواقعه الحصينة من جديد في سهل درع لتقع معركة اليرموك الثانية التي لم تقم للبيزنطيين بعدها قائمة.

عندما سقطت دمشق بعد معركة اليرموك الأولى قرر الخليفة عمر بن الخطاب رضـــي الله عنه تعزيز جبهة العراق فجند جيشاً أقام على رأسه أبا عبيد عمرو بن مـــسعود الثقفـــي وجعـــل المثنى ينضم تحت قيادته، ولكن أبا عبيد ارتكب خطأً عسكرياً فادحاً في معركة الجسر فنـــزلت هزيمة قاسية بجيوش المسلمين إذ تخلى عن خـــطّ انـــسحابه فقطـــع النهر إلى الضفة الأخرى، وبهذا وضع القوات بلا خطّ انسحاب كما ضيق عليها أرض المناورة.. وعلى الرغم من أن المسلمين قاتلوا قتالاً باسلاً للغاية واستشهد أبو عبيد. إلاّ أن الكفة مالت ضدهم وأصبحوا بين مهلكين: بين سيوف الفرس من جهة والنهر من جهة ولولا مبادرة المثنى في إعادة تنظيم قوة شـــنّت هجـــوماً مضاداً ليكون كغطاء ينسحب تحته المسلمون عبر الجسر، لكانت الكارثة كاملة.

ولكـــن سرعان ما بدأت تعبئة جديدة ونشط المثنى في جمع قوات من القبائل وكان عمر بن الخطاب قد سمح بإعادة تجنيد الذين قاتلوا ضد المسلمين في حروب الـــردة.. فالتقـــى المثنى من جديد مع رستم في معركة البويب وأنـــزل بهم هزيمة ثأرت لمعركة الجسر، وأصبحت بيد العرب بعدها مناطق شاسعة من سواد العراق.

ولكـــن الفرس عادوا فجندوا جيشاً جراراً فما كان من المثنى إلاّ أن انسحب مـــن سواد العراق وحتى من الحيرة دون قتال. وعاد إلى الصحراء، خصوصاً، وأن جـــيش رستم الجديد يتطلب أن يواجه بقوات مركزة فطلب من عمر بن الخطاب إرسال تعزيزات، ولكن جبهة سوريا كانت في تلك الأثناء قد عادت للاشتعال بعد أن جـــنّد هـــرقل جيـــشه الكبير.. ولهذا ظلّت جبهة العراق بيد الفرس إلى أن تمّ الانتـــصار في معركة اليرموك الثانية وبدأ التحضير لحملة العراق من جديد، فتشكل جـــيش بعد ثلاثين ألفاً بقيادة سعد بن أبي وقاص، كما أرسل إلى قوات سوريا أن تـــبعث جيـــشاً لتعزيز حملة العراق. وفعلاً تحرك القعقاع على راس ذلك الجيش.. وكانت معركة القادسية الحاسمة.

إذا تابعنا حملة عمرو بن العاص إلى مصر حيث تحرك على رأس قوة تقلّ عن أربعـــة آلاف مقاتـــل وقد زحفت من غزة فالعريش إلى قناة السويس، وقد ارتطم بمدينة بابليون التي تشكل مفتاح مصر، ولكن كان ما لديه من القوات أضعف من تركيـــز قوات تيودور القائد البيزنطي والبطريق المقوقس CYRUS حاكم مصر. فطلـــب تعزيزات من المدينة المنورة، ولكنه لم يتوقف فاتجه نحو الفيوم على الجانب الآخر من النيل، وقد سجل غلوب ذلك عليه خطأ استراتيجياً لأن وصول النجدة إلى بابليون يترك جيشه منفصلاً عنها وقد قام بينهما النيل.

ولكـــن إذا أخذنا بعين الاعتبار كثرة تحرك قوات عمرو بن العاص وسرعتها ومن ثم عدم مقدرة العدو على تحديد اتجاه الحملة، يمكن أن يلغي نقد غلوب لـــه، خاصـــة، وأن تلك التحركات هي التي أنقذت جيش عمرو بن العاص قبل وصول التعزيـــز من الحجاز. فلو أنه انتظر عند بابليون إلى قدوم التعزيز لأتاح ذلك فرصة لقـــوات تيودور لتنقض عليه. في حين استطاع من خلال استمرار حملته إلى الفيوم أن يحتفظ بالمبادرة ويكشف المنطقة ويقضي على قوات متفرقة هنا وهناك، والأهم

أنـــه اســـتطاع أن يعود إلى بابليون في الوقت المناسب عند وصول الزبير بن العوام على رأس اثني عشر ألف جندي، وتركّزت القوات في هليوبوليس قبالة بابليون.

إن هذه الأمثلة تؤكد الصفة المتحركة التي أعطاها العرب للحرب، بشكل لا يقلّ عن حركة الحرب في عهد بابليون.

يلاحـــظ أن المبادئ الأساسية التي حكمت عمليات حروب العرب المسلمين كانت:

القـــضاء على جيش العدو في الميدان وليس الركض وراء احتلال المواقع، فقد أدرك قـــادة العـــرب أن احتلال دمشق أو القدس لا قيمة له ما دام هنالك جيش للبيزنطيين مقاتل في الميدان، لذلك كان تركيزهم على ضرب هذا الجيش أولاً، لأن إخـــلاء المـــيدان له يعني سقوط المواقع كلها بما في ذلك المدن الكبرى مثل دمشق والقدس.

عندما قارن الجنرال غلوب بين المناورة الاستراتيجية التي قام بها خالد بن الوليد عندما قطع صحراء حمد من بئر قرقر باتجاه سبع البيار ثم إلى تدمر فمرج راهط وراء تحصينات البيزنطيين في سهل درعا، مع المناورة التي قام بها لواء من الجـــيش الـــبريطاني مع الجيش الأردني في أيار/مايو 1941، متبعاً خطّ عمليات خالـــد بن الوليد.. حاول إظهار عملية خالد بأنها فاشلة بينما العملية الأخرى كانت ناجحة، ولكن غلوب نسي أن اتباع مناورة خالد نفسها من قبل الجيش الـــبريطاني بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً دليل على أن المناورة الاستراتيجية التي قـــام بها خالد وصلت شبه الكمال. أما لماذا سماها فاشلة.. فذلك لأن خالداً لم يهاجم دمشق وإنما تابع سيره إلى منطقة القتال وقد استدل غلوب من ذلك إن معـــركته في مرج راهط لم تكن ناجحة. إن هذا الحكم يدل على أن خالد بن الوليد كان أفهم في فنّ الحرب من غلوب بعد ثلاثة عشر قرناً وذلك للأسباب التالية:

أ. إن المحافظـــة علـــى الهدف تقضي من خالد أن يتوجه من مرج راهط إلى نقطـــة التركيز في اليرموك لأن مناورته أساساً كانت تستهدف الالتفاف على البيزنطيين في درعا وليس مهاجمة دمشق.

ب. إن مفتاح سوريا هو سحق القوات البيزنطية المركزة في درعا وليس احتلال مواقع.

ج. إن القوات التي كانت مع خالد لا تستطيع أن تكتسح دمشق فعددها لم يتجاوز التسعة آلاف على أقصى تقدير، وكانت محاصرته لتلك المدينة بمثل هذه القوات الصغيرة كما يقترح غلوب، تعني تطويقه وإبادته، خاصة، وأن دمشق استعصى احتلالها على المسلمين أكثر من شهرين بعد نجاح معركة اليرموك. ثم كيف يستطيع أن يؤكد غلوب أن البيزنطيين كانوا سيتخلون عن مواقعهم في درعا إذا هاجم خالد دمشق، وهم ولا شكّ يعرفون كم تستطيع أن تصمد دمشق في وجه مثل تلك القوة.

ثم إذا تذكرنا أن قوات المسلمين بعد معركة أجنادين لم تتوقف لتحتل القدس أو أية مدينة أخرى وإنما توجهت فوراً لمحاصرة قوات البيزنطيين في درعا، وإذا تذكرنا تخلي خالد وأبي عبيده عن كل سوريا أمام جيش هرقل دون دفاع عن المدن من أجل التركيز مرة أخرى جنوبي درعا على اليرموك، ثم إذا تذكرنا انسحاب المثنى من سواد العراق والحيرة، ندرك أن العرب فهموا الحرب كما فهمها نابليون بعد أكثر من أحد عشر قرناً، وكما نظّر لها كلاوزيفتز بعد حوالى اثني عشر قرناً، سواء أكان من ناحية أهمية سحق الجسم الرئيس من قوات العدو بوصفه العامل الحاسم لتحقيق نصر استراتيجي بما في ذلك سقوط المواقع والاستيلاء عليها، أم كان من ناحية أهمية الاقتصاد بالقوى والتركيز والملاحقة والسير بأرتال على مسافات متساندة إلى جانب المرونة والمناورة وسرعة التحرك، وإعطاء الحرب صفة ديناميكية متحركة.

- 3 -

مقارنة تطبيقية:

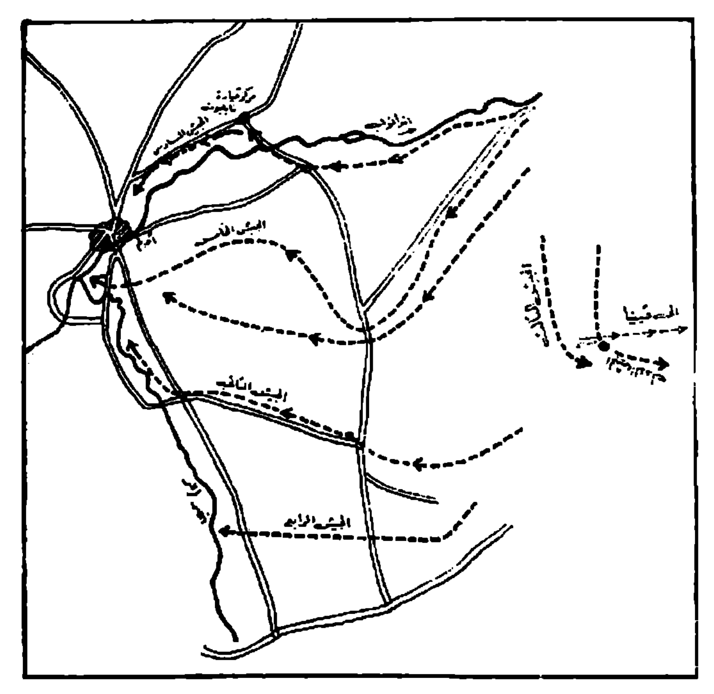
حقاً من الصعب أن تجد معركتين حربين على بعضهما البعض في كل التفاصيل والظروف. الأمر الذي يوجب على أية مقارنة أن تتناول الجوهر لا

التفصيلات الخاصة، ومن هنا فإن المقارنة بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الاسلامية الأولى تتناول الجوهر أساساً لكي نرى مدى الشبه بين منهجية العمليات والتكتيك في الحالتين. ولنأخذ معركة أولم ULM التي تعتبر إحدى روائع نابليون الاستراتيجية، وفي المقابل سنأخذ معركة اليرموك الثانية التي تعتبر إحدى روائع القيادة العربية الاسلامية في الفتوحات الأولى.

كان القائد النمساوي ماتش MACH متمركزاً على رأس خمسين ألف جندي في منطقة أولم. فوضع نابليون جيوشه بينه وبين فيينا، كما خصص الجيش الأول بقيادة برنادوت للتوجه إلى ميونيخ كاحتياط ضد نجدة الجيش الروسي لماتش ثم يلتف عليه ليحاصره من الجهات الأربع. فحرك الجيش الثاني بقيادة مارمونت MARMONT للتحرك نحو نهر اللر LER جنوبي أولم، بينما يتحرك الجيش الرابع بقيادة سولت SOULT ليطوق أولم من الجنوب أيضاً، ويقطع طرق مواصلاتها مع الجنوب. أما الجيش الخامس بقيادة لانس LANNES والجيش السادس بقيادة ني NEY فيتقدمان غرباً على أولم متبعين ضفتي الدانوب. وبهذا يكون التطويق كاملاً. وكان قد أرسل الجيش الثالث بقيادة دافوت DAVOUT لتعزيز جيش برنادوت – الجيش الأول – باتجاه ميونيخ ليمنع تقدم الجيش الروسي.

عندما أنهى نابليون هذه الخطة وتحركت قواته إلى مواقعها كتب رسالة إلى سولت قال فيها "لن تكون المسألة هي هزيمة العدو فحسب، وإنما يجب أيضاً ألاّ يفلت منه رجل واحد".

في الواقع كان سقوط أولم محتوماً أمام مثل هذا التطويق الرائع، كما كان محتوماً ألاّ يفلت رجل واحد من قوات العدو، ولكن مشكلة نابليون تركّزت بقادة جيوشه الذين لم يكونوا على مستوى القيادة الاستراتيجية. إن ميورات MURAT الذي كلف بتنفيذ خطة العمليات أصدر أمراً لني NEY أن يقطع إلى جنوب ضفة النهر. وبهذا ترك فراغاً لانسحاب العدو من ناحية شمال شرقي الحصن... مما مكن بعض القوات من الفرار على الرغم من أن الأغلبية سقطت بين قتلى وجرحى وأسرى (راجع الخريطة رقم 1).

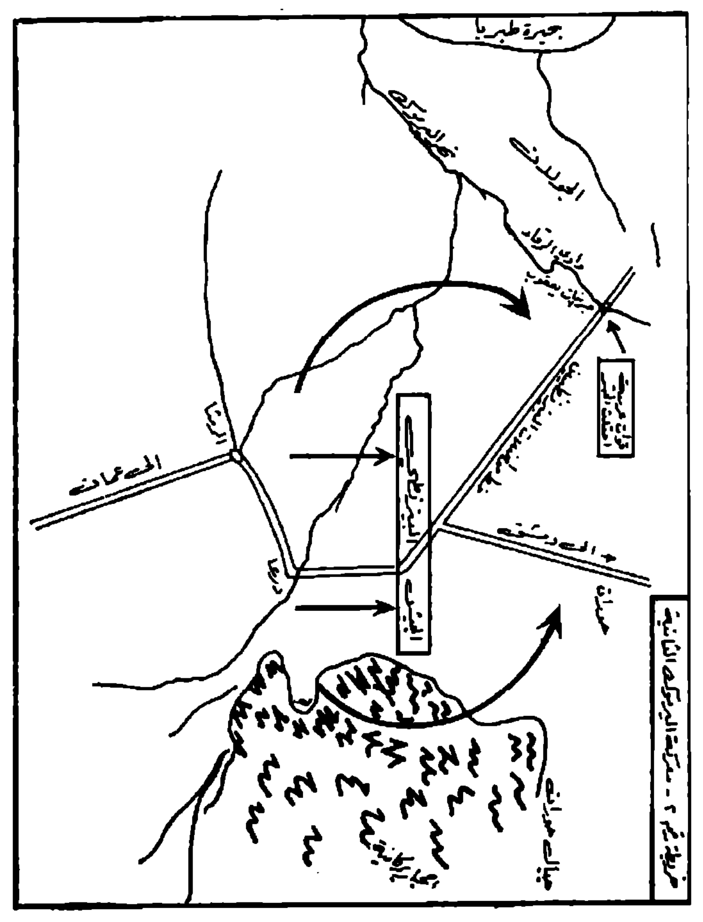


(1) نقلت هذه الخريطة عن كتاب جيمس مارشال كورنول "نابليون كقائد عسكري" - باللغة الإنكليزية ص 135.

(2) الخطوط المتقطعة مع الأسهم تدل على توزيع جيوش نابليون وحركتها.

(3) يلاحظ أن عمليات نابليون أوسع وأشد تعقيداً من الحروب الأوروبية التي سبقتها.

لقـــد مرّ كيف حند هرقل جيشاً كبيراً فاق بأعداده كل ما عرفته سوريا من جيوش بعد هزيمته في معركة اليرموك الأولى. ثم كيف انسحبت فرق المسلمين من حمص وحماة وبعلبك ودمشق وتركّزت جنوبي درعا تاركة الصحراء وراءها كخطّ انـــسحاب استراتيجي وكطريق مواصلات مع المركز في المدينة المنورة ومكة ومنعاً للالتفاف عليها ومحاصرتها.



(1) نقلت هذه الخريطة عن كتاب خلوب "الفتوحات العربية الكبرى"- باللغة الإنكليزية ص 177.

(2) الأسهم تدل على توزيع وحركة الجيوش العربية الإسلامية.

أصبحت قوات هرقل الآن بقيادة ثيوديروس تسيطر على كل سوريا وقد تركّزت في سهل درعا حيث تحصيناتها الدفاعية القديمة. بينما العرب المسلمون قبالتها جنوبا يركزون قواتهم وقد انضمت إليهم قوات عمرو بن العاص وأخذت تتوافد التعزيزات من الجزيرة العربية.

دام هذا الوضع أكثر من أربعة أشهر كان العرب خلالها يستكملون استعداداتهم دون أن يتوقفوا عن شنّ عمليات مناوشة صغيرة هنا وهناك لإنهاك العدو... وأخيراً أعدت الخطة وكانت تتألف من عمليات التفاف واسعة تتمّ من ميسرة قوات البيزنطيين ومن ميمنتهم.. على شكل نصف دائرة من كل اتجاه وبهذا يصبح البيزنطيين ضمن حلقة محكمة الحصار. هذا بالإضافة إلى تحريك قوة وراء جبهة البيزنطيين لتقطع طريق انسحابهم ومواصلاتهم الرئيسي عبر وادي الرقاد عند جسر بنات يعقوب.

لا توجد للأسف تفاصيل حول أسماء القادة الذين كانوا على رأس الفرقة التي قامت بالالتفاف الجانبي من جهة الشرق شمالاً أو أسماء قادة الفرقة التي التفت من الغرب شمالاً، أو اسم قائد القوات التي أغلقت جسر بنات يعقوب.

أما الهجوم فقد تركز من قبل فرقتين كل منهما ركّزت على نقطة محددة في الجبهة الأمامية للدفاع...

لقد اختيرت لحظة الهجوم الحاسم وتنفيذ الخطة في وقت هبّت فيه عواصف رملية شديدة. وعلى الرغم من أن أعداء العرب حاولوا التركيز على تلك العاصفة ليفسروا بها هزيمة البيزنطيين.. إلاّ أن من الواضح تماماً أن دور العواصف الرملية كان مساعداً وليس حاسماً أمام مثل ذلك الإعداد الطويل والخطة المحكمة. بل إن اختيار لحظة الهجوم مع هبوب تلك العواصف يعتبر براعة تكتيكية لا جدال فيها. وهي جزء من قاعدة التوازن بين الحركة التكتيكية والأرض والمناخ المناسب.

تبين بعد انتهاء المعركة أن الذي لعب دوراً حاسماً في القضاء على الجيش البيزنطي كله دون أن ينجو رجل واحد، ليس هجوم الصدمة الأمامية المدعومة بالعواصف الرملية، وإنما عملية الطوق الواسعة وقطع طريق الانسحاب.

ليس صعباً أن يلحظ المرء نقاط التشابه بين استراتيجية عمليات نابليون في معركة أولم وبين استراتيجية عمليات العرب[1] في معركة اليرموك الثانية... خاصة من ناحية ضرب طوق من كل الجهات يبلغ عشرات الأميال المربعة.. إلى جانب التركيز على قطع أي منفذ للانسحاب، والإصرار على أخذ قرار استراتيجي ينهي أمر العدو نهائياً – فالأغلبية الساحقة من قوات هرقل انتهت بين قتيل وجريح وأسير.

كان الجوهر في عمليات نابليون – التكتيك الكبير – وفي تكتيكه للمعركة يتلخص بضرب العدو من الأمام لتثبيت جبهته الأمامية مع عملية التفاف على أحد الجناحين أو كليهما من أجل ضعضعته نهائياً، لذلك فقد تعلم أن يتجنب معارك المواجهة الأمامية الصرف ويركز على الالتفاف على إحدى النقاط الضعيفة. ومن هنا جهد في دراسة وضع العدو ونقاط قوته وضعفه وموقعه الطوبغرافي، وراح ينظم عملياته الاستراتيجية وتكتيكه في المعركة من أجل محاصرة العدو وضربه من أضعف نقطة مع تثبيت النقاط القوية الأخرى.

إذا أخذنا معركة أوسترليتز AUSTERLIZ فسوف نجد أن قوات نابليون كانت 65 ألفاً مقابل 52 ألفاً من الجيش الروسي و30 ألفاً من الجيش النمساوي. وكان العدو متفوقاً أيضاً في موقعه المحصن. ولهذا اعتمدت خطّة نابليون على إغرائه ببدء الهجوم ضد مواقع دفاعية محصنة جيداً ثم عندما ارتكب العدو خطأ التخلي عن المرتفع في الوسط استغل نابليون ذلك فوراً فانقض بسرعة البرق لاحتلاله قاسماً العدو شطرين. وكان قد احتفظ بالرغم من قلة عدد قواته، بفرقة احتياط للتعزيز وشنّ الهجوم المضادّ والملاحقة. وانتصر في المعركة بعد أن حدد بدقة لحظة الانتقال إلى الهجوم المضاد.

لو أخذنا بالمقابل معركة بابليون لوجدنا أن تفوق البيزنطيين على قوات عمرو بن العاص والزبير بن العوام – 15 ألفاً – كانا ضعفاً على الأقل. وكانت

---

(1) كانت القيادة العامة بيد أبي عبيده بن الجراح، ولكن أغلب التقديرات أن خالد بن الوليد، كان مصمم الخطة العسكرية، أو على الأصح واضع خطوطها العريضة، دون أن ننسى تواجد عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم من القادة – ولا شك أنهم شاركوا أبا عبيدة وخالداً في التخطيط والتنفيذ.

متمركـــزة في بابلـــيون في موقع حصين جداً بينما كانت قوات عمرو والزبير في هيلـــيوبولس، وأخيراً استطاع عمرو إغراء قوات تيودور على الخروج من بابليون لـــشنّ الهجوم على القوات في هيليوبولس، وفعلاً خرج تيودور باتجاه شمال شرقي بابلـــيون بيـــنما كان عمرو بن العاص قد بعث تحت جنح الليل بلواء استخفى في مكـــان قرب قلعة القاهرة الآن وبعث بلواء آخر، في الوقت نفسه ليستخفي بمكان قرب الأزبكية الآن.

وعـــندما تقدمت قوات تيودور خرج عمرو والزبير لملاقاتها واشتبك الطرفان مواجهة دون أن يتحرك كمين الميمنة أو كمين الميسرة.. ولكن عندما حمي وطيس المعـــركة تحـــرك اللـــواء الكـــامن شرقاً والتف على مؤخرة قوات البيزنطيين التي تضعضعت وفوجئت بهذه الحركة غير المتوقعة، ولكنها عادت فتماسكت إذ شقت رأس سهم باتجاه الغرب لتفتح جبهة أمامية ضد القوتين. ولكن ما كاد يستقر حالها الجديـــد حتى فوجئت باندفاع اللواء الكامن غربا بهجوم زخم على مسيرتها.. وهنا عمت الفوضى في صفوف البيزنطيين ولم يستطع النجاة منهم غير عدد قليل هربوا إلى بابليون. أما القسم الأكبر فسقطوا في المعركة.

كـــان تكتيك العرب المسلمين، يعتمد أحياناً، على أخذ موقف دفاعي بادئ ذي بدء مصحوباً بأعمال مناوشة وإنهاك إلى أن يروا نقطة ضعف فيحملون عليها بهجـــوم زخم.. بل إن معركة القادسية تعطي صورا على تكتيك متطور جداً.. إذ كانت نقطة التركيز في اليوم الأول على مهاجمة سلاح الفيلة من خلال تعاون رماة النبل والمشاة – كانت الخيول تخاف الاقتراب من الفيلة.

أمـــا في اليوم الثاني بعد أن اختفى سلاح الفيلة من الميدان كان سعد بن أبي وقـــاص قد أخفى سلاح الجمال كاحتياط ولم يشركه في اليوم الأول وإنما في اليوم الثاني.. أما في اليوم الثالث فكانت قوات القعقاع قد بدأت تصل من برّ الشام بعد أن انـــتهت مـــن معركة اليرموك الثانية فتحققت مفاجأة أخرى عوضت عن بروز الفـــيلة للمرة الثانية. وانتهى ذلك اليوم بالقتال الضاري للقضاء على الفيلة.. فقوتل ســـلاح الفيلة في اليوم الأول عن طريق قطع مشدات الهوادج، أما في اليوم الثالث فقد هوجمت الفيلة بالذات من خلال طعنها بعيونها – ولكن في ليل ذلك اليوم قرر

المسلمون تحقيق مفاجأة حاسمة وهي شنّ الهجوم في الليل. وهنا تحطم جيش رستم نهائياً لتنتقل المعارك بعد ذلك إلى قلب بلاد فارس.

وإذا أخذنا معركة نهاوند فقد استخدم العرب تكتيكاً غاية في الجدة والدقة.. فقد كان الساسانيون[1] محصنين في موقع غرسوا حوله ما يشبه الأوتاد ورؤوس الرماح الأمر الذي جعل التقدم إليه محالاً على الخيل أو على المشاة. فكانت الخطة استدراج العدو إلى خارج الحصن فقسم الجيش إلى جسم رئيس أخفي تماماً عن العدو بينما ظهر قسم منه على أساس أنه الجيش كله. فشنّ هجوماً وهمياً وبدأ يترنح أمام الدفاع وصعوبة الأرض. فتخيل المدافعون أنه فقد تماسكه ودبّت به الفوضى فشدوا عليه لملاحقته وإفنائه فيما راح يفرّ من أمامهم إلى أن أوصلهم إلى موقع الجسم الرئيسي للجيش الذي قطع عليهم طريق العودة إلى حصنهم وأنهى أمرهم.

الاستطلاع والاستكشاف:

1 - ثمة ظاهرة تولدت وتطورت مع حروب الفتوحات العربية الإسلامية الأولى يمكن اعتبارها قطعاً كدليل على التشابه في الجوهر بين حروب نابليون وتلك الحروب، وهي تكوين مجموعات الاستطلاع والاستكشاف والتركيز على دراسة تحركات العدو ومواقعه والأرض التي يقف عليها. إذ أن هذه الظاهرة ذات دور حاسم بالنسبة إلى جيش مقسم لفرق ويعتمد على المناورات الاستراتيجية وحرب الحركة، بينما دورها ضئيل جداً يكاد لا يذكر في الحروب التقليدية التي كان يزحف فيها الجيش كله ككتلة واحدة ويلتقي مع عدوه في نقطة يتمّ اختيارها بالاتفاق في كثير من الأحيان، بل سميت تلك الحروب "المعركة بالاتفاق".

أما الحرب المتحركة التي تعتمد على قوة المناورة الاستراتيجية وتستخدم أسلوب المناوشات إلى جانب قتالها النظامي، فلا مفرّ لها من تلك الظاهرة. كاد

(1) الساساني والساسانيون أضيفت إلى الفرس حتى لا يفهم بأنها حرب بين عرب وفرس في الفتوحات العربية الإسلامية. لأنها كانت حروب إزالة العوائق الكبرى أمام تحرير الإنسان ودعوة الإسلام. فالحرب هنا مثل الحرب مع الروم سواء بسواء.

نابليـــون أن يتعـــرض في معركة مارينغو MARINGO إلى هزيمة محققة لولا أنه أنقذ الموقف بمبادرة رائعة في آخر لحظة وحوّل الهزيمة إلى نصر. ولكنه أخذ درساً قاسياً منها وهـــو ضـــرورة تنظيم جهاز استطلاع فعال كفوء، بل إنه خصص بعدها كل سلاح فرسانه الخفيفة، بصورة حثيثة للاستطلاع، تاركاً فرسانه الثقيلة للصدام. ولعل الفقرات التالية من رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص توضح الأهمية التي أعطيت لهذه الظاهرة في حروب الفتوحات، يقول عمر: "وإذا وطئت أرض العدو فـــأذك العـــيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، والغاش عين عليك وليس عيناً لك، وليكن مـــنك عـــند دنوك في أرض العدو أن تكثر الطلائع، وتبث السرايا بينك وبينهم، وتنتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل".

بـــل إن عمرو بن العاص دخل أحد الحصون في فلسطين مستخفياً على أساس أنـــه رســـول عمـــرو بـــن العاص إلى القائد البيزنطي أرطبون، بقصد استكشافه واستطلاعه بنفسه. وكان قد اشتهر عن نابليون أنه كان يمسح أرض المعركة بنفسه قـــبل خوضها. وكثيراً ما وبّخ قادته أشدّ توبيخ حين كانوا يعتمدون على الخرائط ويهملـــون الاســـتطلاع، أو لا يوافـــونه بالمعلومات الدقيقة التي "تتضمن "أتفه" التفاصيل.

مستوى القيادات

ثمـــة ظاهرة أخرى مشتركة لا يمكن أن تتولد إلاّ في ظلّ حرب متحركة ذات مـــناورات اســـتراتيجية وتكتيكية على أعلى مستوى، ولا يمكن أن توجد إلاّ في الجـــيوش الـــتي تُقسّم على أساس فرق مستقلة تتألف كل واحدة منها من مختلف صـــنوف الأســـلحة ولهـــا قيادتها، وبمقدورها أخذ خطّ عمليات مستقل، أو شبه مـــستقل، وخـــوض معـــارك مـــستقلة بنفسها. وتلك الظاهرة هي زيادة الدور الاستراتيجي والتكتيكي الذي يلعبه القادة والكوادر الأدنى من القائد العام.

كـــتب الجنرال د. باليت D.K. PALIT في كتابه "أوّليات المعرفة العسكرية" THE ESSENTIALS OF MILITARY KNOWLEDGE، تحت فصل "قيادة

العمليات" يقول إن في حروب الأمم القديمة، مثلاً، عندما كانت الفلانكسات والليجونات تلتحم في المعركة لم تترك الإجراءات المطلوب اتخاذها إلى مبادرة القيادات الأدنى، لقد كانت إجراءات مقررة سلفاً يجب اتباعها حرفياً بمجرد بدء عملية الاشتباك - حيث يأخذ كل فرد موقعه في الخطّ القتالي BATTLE LINE. ويتقدم الجميع كتلة واحدة كل باتجاه عدوه المباشر.

"ولكن هذا الوضع تغيّر مع القذائف بعيدة المدى والأسلحة الحديثة والتنظيمات الجديدة للجيوش واختلاف أنواع الأرض التي يجري عليها القتال وتنوع الحركات.. لقد أدى كل ذلك إلى ولادة مفاهيم أكثر تعقيداً حول الاستراتيجية والتكتيك، مثلاً ضرورة استخدام الاحتياط، والزحف السري، والمناورات التي تهيئ للمعركة ولهذا أخذت مسؤوليات قادة الميدان تزداد أكثر فأكثر"...

ثم ينتهي إلى القول "إن القفزة الكبرى التي أحدثتها الحروب النابليونية إلى أمام - مفهوم التنظيم إلى فرق، والأساليب الحديثة في المواصلات وكذلك حركات ومناورات كل منفصلة عن بعضها تتقدم من أجل المعركة - باختصار "التكتيك الكبير" - هي التي ولدت، وفتحت الطريق، للقيادة اللامركزية في الميدان. ولهذا أصبحت حتى مراحل التخطيط والتحرك - استراتيجياً وتكتيكياً - ضمن نطاق القيادات الأدنى، وأصبح مصير المعارك يعتمد على مبادراتهم وقراراتهم في العمليات متعددة المستويات. ولهذا نشأت الحاجة إلى وضع مجموعة من قواعد العمليات أو المبادئ لهدي قادة الميدان".

حين يراجع المرء حروب الفتوحات الإسلامية يندهش فعلاً من عظم الدور الذي كانت تلعبه القيادات الأدنى، والكوادر التي على رأس المجموعات الصغيرة، ومن قيادة العمليات على أساس الاعتماد على المبادرات الاستراتيجية والتكتيكية للقيادات الأدنى، ومن الجمع الخلاق بين المركزية واللامركزية.

ويكفي أن نراجع ذلك العدد الكبير من أسماء القادة العسكريين الذين قدموا روائع استراتيجية وتكتيكية في فترة تاريخية في حدود عشر سنوات (633 - 644 م) - خالد بن الوليد، المثنى بن حارثة، أبو عبيده بن الجراح، عمرو بن العاص، سعد بن أبي وقاص، يزيد بن أبي سفيان، شرحبيل بن حسنة، والنعمان بن مقارن،

القعقـــاع وغيرهم عشرات - ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا الجانب تطور لدى العرب بـشكل يفـــوق عمـــا تطور به في زمن نابليون، فالذي يراجع مذكرات نابليون وملحـــوظاته حول قادته وكذلك عمليات أولئك القادة بالذات، يتأكد أن نابليون لم تتوفر له قيادات أدنى على مستوى استراتيجي.

فعلـــى ســـبيل المثال إذا أخذنا الجنرال ني NEY فسنجده قد ارتكب خطأً فادحاً في حملة بولونيا. وقد وبخه نابليون أشدّ توبيخ على ذلك. بل إن كثيرين من مؤرخـــي حـــروب نابليون يؤكدون أن أحد العوامل الحاسمة في هزيمته في معركة ووتـــرلو يرجع لتركه القيادة التكتيكية في المعركة للمارشال ني NEY. وإذا كان مارشاله ألكسندر بوتير A. BERTHIER ضابطاً ممتازاً في الأركان، وتنفيذ خطة معـــدة لـــه، إلاّ أنه، على حدّ تعبير نابليون، لا يصلح كقائد مستقل يقدر الموقف ويـــبادر، ويمكـــن أن يقال الشيء نفسه عن سائر قادته الآخرين بالرغم من أنهم يعتبرون ممتازين إذا ما قورنوا بزملائهم في الجيوش الأخرى في عهده.

أما حروب الفتوحات الاسلامية الأولى فقد أثبتت أن العرب امتلكوا مجموعة مـــن القادة، في فترة زمنية واحدة، قادرين على القيادة الاستراتيجية المستقلة فضلاً عن القيادة التكتيكية المستقلة.

إن توفـــر هـــذه الظاهرة في حروب الفتوحات تؤكد، بصورة غير مباشرة، ولكن شديدة الدلالة، على أن سمات الفنّ العسكري في حروب العرب المسلمين لا تـــدخل في عائلة الحروب القديمة حتى أواخر القرن الثامن عشر، وإنما هي من عائلة الفـــنّ العسكري الذي أرسى نابليون أصوله في العصر الحديث. بل لها من المزايا، وفيها من الدروس في الفن العسكري ما يرتفع بمستوى علم الحرب وفنها.

خلاصة:

إذا كـــان العـــرب المسلمون في مرحلة الفتوحات الأولى، على هذا المستوى الراقي من الفنّ العسكري أفلا يحقّ لنا أن نستنتج أن تفوقهم على أعدائهم في الفنّ العـــسكري كـــان أحد العوامل الحاسمة في تحقيق الانتصارات الباهرة عليهم، لقد واجهـــوا في كل معاركهم الأولى أعداء متفوقين من حيث العدد والعدة والسلاح.

ولهـذا عمد أغلب المؤرخين على تفسير تلك الانتصارات من خلال إبراز جوانب الشجاعة والتفوق المعنوي لدى القوا ت العربية الإسلامية.

ولكن من السهل الإثبات أن هذه الجوانب وحدها لا يمكن أن تغطي جوانب تفـوق أولـئك الأعداء، خصوصاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن أولئك الأعداء لم يكونـوا أرانب جبناء، بل أبدوا في كثير من الأحيان ضروباً من الشجاعة والثبات والمعنويات العالية والإصرار على القتال.

فمثلاً لقد قاتل الفرس قتالاً مريراً في معركة الجسر وفي البويب وفي القادسية. فـإذا أخذنا معركة القادسية التي دامت ثلاثة أيام وليلة طاحنة نموذجاً، لوجدنا في أيامها الثلاثة الأولى أن المسلمين قدموا ألفين وخمسمائة شهيد. أما في الليلة الأخيرة التي دار فيها قتال شرس جداً فقد استشهد فيها من المسلمين ستة آلاف، هذا عدا الجرحـى، كما سقط فيها من الفرس أضعاف ذلك العدد. فهل تدل هذه الوقائع على أن الأعداء كانوا جبناء أو أن النقص المعنوي كان هو الشيء الحاسم في هزيمتهم؟ وكـذلك كـان الحـال بالنسبة إلى البيزنطيين في معارك أجنادين واليرموك (الأولى) وبابلـيون. وقد اختلف حالهم نسبياً في معركة اليرموك الثانية. ثم كيف يمكن إبراز شـجاعة العرب المسلمين وقوة معنوياتهم إذا كان أعداؤهم جبناء. إن الشجاعة لا تظهر إلاّ أمام الشجاعة، ومن يقاتل جباناً لا يحقّ له أن يتغنى بشجاعته.

ولكـن من ناحية أخرى، فقد كان الوضع العام في الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسـية قـد دخـل مرحلة الانحطاط الذي يصيب الدول في أواخر مراحلها. فالجـندي الرومي أو الفارسي الذي حارب في اليرموك والقادسية، وكذلك القائد والـضابط ومجموع الوضع كله ليسوا مثل من كانوا في المراحل الأولى من صعود الإمـبراطوريتين. فالإمـبراطوريات والـدول والأنظمة التي تنهار بعد أن تصيبها الـشيخوخة. والشيخوخة لها مظاهرة عدة تضرب في عناصر القوة، عدا في العديد والتسلح. هذا من شروط انتصار القوى الناهضة الأقل عدداً وتطوراً.

لعـل مراجعة ما قاله العرب الأوائل عن الفرس والروم تظهر إنهم لم يستهينوا بـشجاعة خصومهم أو يطعنوا بها، فقد وصف عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، الروم بأنهم "حدّ حديد وركن شديد" وكان المثنى بن حارثة في رسالته إلى سعد بن

أبي وقـــاص شديد الحذر من الفرس. أما خالد بن الوليد فقد وصف أولئك الأعداء بقوله: "إنما أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب". ويقصد كفاءة القيادة بالدرجة الأولى.

إن عـــبارة خالد بن الوليد تلك تؤكد موضوعتنا بما لا يدع مجالاً للشكّ. فخالد قائد عسكري من الطراز الأول عبر التاريخ كله، وقد دلل بتلك العبارة على التفوق في مضمار الفنّ العسكري وتخلف خصومهم في هذا المضمار. الأمر الذي فتح هوة واسعة بين الطرفين أوسع من الهوة التي كانت في هذا المضمار بين نابليون وخصومه.

بيـــنما ظلّ خصوم العرب يقاتلون بكتل جامدة ووفق أصول محددة - بالرغم مـــن أنهم كانوا حسني التدريب متفوقين بالأسلحة والعديد - راح العرب يقاتلون بفرق متحركة ومناورات استراتيجية وتكتيكية، يجمعون جمعاً خلاقاً بين المرونة في تقسيم القوات والتحرك والقيادة وبين التركيز المطلوب في المعركة. ويجمعون جمعاً خلاقـــاً بين القتال في الكراديس والصفوف وبين المناوشة والالتفاف على الأجنحة والتركيز على نقاط الضعف.

ومـــن هنا، يمكن القول إن التفوق في الفنّ العسكري قد لعب دوراً حاسماً في تحقـــيق انتـــصارات العرب المسلمين على أعدائهم في الفتوحات الأولى، كما أن الـــتفوق في الفنّ العسكري قد لعب دوراً حاسماً في تحقيق انتصارات نابليون الأولى على أعدائه حتى عام 1810.

ولكـــن هـــل يعـــني هذا أن العرب المسلمين لم يكونوا متفوقين من الناحية المعنوية؟ طبعاً إن الدور الذي لعبته الناحية المعنوية في حروب الفتوحات لا يمكن أن ينكـــر أو يقلل من قيمته، ولكن الرأي هنا يستهدف عدم رؤية المسألة من جانب واحد فقط، كما يستهدف إبراز العامل الحاسم الآخر وهو جانب التفوق في الفنّ العسكري جنباً إلى جنب مع العامل المعنوي، دون أن ننسى أهمية عوامل أخرى في الوضع المدني والسياسي والاجتماعي في كل من الجبهات المتقابلة.

وأخيراً حول هذه النقطة لا بدّ لنا من أن نكرر ما سبق وأبرزناه في مطلع هذا الفصل في ما يتعلق بأهمية الدور الذي لعبه العامل المعنوي - نتاج الثورة الاجتماعية والعقديـــة والفكرية والأخلاقية التي أحدثها الإسلام - على الفنّ العسكري نفسه من الناحيتين الاستراتيجية والتكتيكية. ولا بدّ من أن نكرر أن ذلك الفنّ العسكري

ما كان له أن يتجلى بأروع صورة لولا توفر الناحية المعنوية تلك، أو على الأصح لولا ثورة الإسلام التي وحدت أمة وألفت بينها ونهضت بها لتحمل رسالة إلى العالمين[1]. ولكن هذا كله يجب ألاّ يطمس بأي شكل من الأشكال ذلك الدور الحاسم الذي لعبه تفوق العرب في مضمار الفنّ العسكري.

في الواقع يمكن أن يقال الشيء نفسه، مع الفارق، بالنسبة إلى العلاقة بين الثورة الفرنسية والفنّ العسكري النابليوني رغم أن نابليون عاد فخان الثورة الفرنسية بالتحول إلى ديكتاتور فرد مطلق وكان ذلك عاملاً من عوامل سقوطه. فحروب نابليون حملت رسالة الثورة الفرنسية إلى أوروبا من جهة، كما كانت ذات طابع قومي من جهة أخرى.

إن الأسباب التي أدت إلى تلك القفزة النوعية التي أحدثها نابليون في الفنّ العسكري تتلخص باندلاع الثورة الفرنسية التي أطلقت القوى الاجتماعية الجديدة من عقالها وحطمت الإقطاعية والملكية، فانطلقت البرجوازية الناشئة والجماهير الواسعة لتدافع أولاً عن الثورة ضد الغزو الرجعي المضاد[2]. ثم لتدفع الثورة وهي تحمل مشروعاً للتغيير والنهضة، إلى خارج الحدود الفرنسية ثانياً. مما كرس، لأول مرة، في أوروبا التجنيد الجماهيري الواسع وأصبح لدى فرنسا جيش جماهيري كبير، وخلفه احتياط لا ينضب في مقابل جيوش أوروبا الصغيرة المحترفة عالية التدريب والنظام.

لقد أدى تشكيل الجيش الجماهيري الواسع وانطلاق القوى الاجتماعية النامية الناهضة في المجتمع للإفادة من التطور التقني والعلمي مصحوباً بحماسة ثورية عالية، إلى جانب تطور الطرق والمواصلات والأسلحة، إلى خلق الأرضية لدخول الاستراتيجية والتكتيك العسكريين في مرحلة جديدة راقية هي أرقى ما وصله الفنّ العسكري حتى ذلك الحين في أوروبا. وذلك بإعطاء الحرب صفة متحركة ذات مناورات استراتيجية ومتابعة الحرب حتى نهايتها الحاسمة.

---

(1) يجب الحذر من إدراج الفتوحات العربية الإسلامية في إطار الفتوحات الامبراطورية أو القومية. لأنها كانت ذات هدف رسالي. ويمكن التدليل على ذلك في التنظيم الذي ساوى بين المركز والبلدان المفتتحة، بما ذلك انتقال عواصم الخلافة، ودور شعوب تلك البلدان في قيادة الدولة والجيوش، كما في مجالات العلم والثقافة والفن.

(2) رجعي قياساً بالثورة الفرنسية البرجوازية من جهة وبالنظام الاقطاعي الأوروبي من جهة أخرى.

ولكـــن إذا كان الفنّ العسكري العربي الإسلامي قد أحدث مثل تلك الثورة في مجال الحرب وأعطى الحرب تلك السمات نفسها تقريباً، فكيف يمكن أن يفسر ذلك؟

إن مخـــتلف أنـــواع فـــنّ الحرب ليست من صنع العسكريين العباقرة بصورة تجـــريدية، وإنما هي نتاج ظروف مادية وتقنية وتاريخية سابقة ولحظة معنوية حيث يجـــدُ القادة العسكريون أنفسهم فيها، وتتجلى عبقريتهم في اكتشاف أنسب أنواع الفـــنّ العـــسكري في مـــا يتفق وتلك الظروف المعطاة. فلو وجد نابليون في زمن الإسكندر لكان الإسكندر و لم يكن نابليون، وكذلك لو وجد الإسكندر في مكان نابلـــيون و لم يكن الإسكندر. طبعاً ليس حرفياً وإنما في الجوهر. ومن هنا، فما هي تلك الظروف التي توفرت في الوضع العربي في فجر الإسلام وأدت إلى تطور الفنّ العسكري إلى مستوى شبيه بقرينه في زمن نابليون؟

إن ثـــورة الإسلام أطلقت القوى الاجتماعية النامية ودفعت الثورة إلى خارج حـــدود الجزيـــرة العـــربية تحمل رسالة. وكرست لأول مرة التجنيد الجماهيري التطوعي الواسع وأصبح لدى العرب جيش كبير وراءه احتياط لا ينضب، مصحوباً بحماســـة ثورية عالية. وإلى هنا تتشابه هذه الظروف مع نظيرتها في الثورة الفرنسية بالـــرغم مـــن اختلاف نوعية القوى الاجتماعية النامية والايديولوجية والأهداف. ولكـــن خلافاً للثورة الفرنسية لم يكن هنالك تطور في الأسلحة والمقذوفات، و لم يكن هنالك تطور تقني وعلمي وآخر في الطرق والمواصلات ووسائط النقل. هذه الـــتطورات التي شكلت الأرضية لولادة الفنّ العسكري النابليوني، والتي لولاها لما تحـــولت الحرب على يد نابليون إلى حرب متحركة. وهنا مصدر العقدة في تفسير سبب بروز تلك السمات نفسها تقريباً في الفنّ العسكري العربي.

الجواب يكمن في البحث في ظروف أخرى فريدة توفرت في الجزيرة العربية، ويمكن تلخيصها:

أ. إن الحـــياة القبلـــية الـــتي اعتمدت على الغزو وكثرة التنقل والترحال أعطت للمجـــتمع سمـــات متحركة، سحبت كذلك على فنه العسكري، وإن كان بدائياً في تلك المرحلة قبل الإسلام. ولكنه فنّ تميز بالسرعة والحركة، وأولوية سلاح الفرسان، وعدم التقيد بالموقع أو بأصول نظامية جامدة في القتال.

ب. عـــرفت الجزيرة العربية قبل الإسلام عدة حضارات مثل ممالك سبأ وحمير والبتـــراء والغـــساسنة واللخميين، ولا شكّ في أن هذه التجارب ولدت تراكمات من الخبرات العسكرية.

ج. كان العرب على اتصال وثيق بالروم والفرس والأحباش، وكثيراً ما قاتلت قـــبائل منهم في جيوش تلك الدول أو ضدها، وهذا بدوره جعل العرب على علم بكل التطورات العسكرية التي عرفتها تلك الدول.

د. خاض العرب اللخميون في جبهة العراق قبيل الإسلام صراعاً طويل الأجل ضـــد الامـــبراطورية الفارسية، واستطاعوا أن ينتصروا عليهم عسكرياً في معـــركة ذي قـــار، ولكـــن لما كان عرب العراق وعرب الجزيرة العربية المحـــاذون لهم قوة ضئيلة بالمقارنة بجبروت قوات الامبراطورية الساسانية، فقد اعتمدوا على أسلوب القتال الغواري ضدها - وهو شكل بدائي من الحـــرب المتحركة... وقد ثبت لهم بالتجربة نجاح هذا الشكل من القتال ضد مثل تلك القوى الكبيرة المنظمة. وكان العرب المسيحيون الغساسنة[1] قد خاضوا تجربة مماثلة ضد دولة البيزنطيين.

ولما جاء الإسلام وأطلق قوى المجتمع العربي النامية ووحّدها وألهبها بالحماسة للجهاد، وجد القادة العرب المسلمون بين أيديهم تقاليد عسكرية في القتال وثروة مـــن الـــتجارب العسكرية ضد الامبراطوريتين، فكان من المنطقي مع توفر الجيش النظامـــي أن يطوروا تلك التقاليد ويفيدوا من تلك التجارب وأن يدفعوا إلى الأمام الـــصفة المتحركة في المجتمع القبلي العربي، ويستثمروها في التعبئة العامة وفي حركة الجـــيش وعملـــياته، خصوصاً، وأن تلك الصفة يمكن تنفيذها على مستوى الجيش دون حاجة إلى نظام نقل متطور أو دعم لوجستيقي معقد. فقد كان العرب فرساناً متقشفين خفيفي الأحمال بسبب ظروف حياتهم القبلية والصحراوية.

كـــان كـــل مـــا تقدم يشكل الظروف الموضوعية لولادة وتطور فنّ الحرب المتحركة في الوضع العربي آنذاك.

---

(1) أضيفت العرب المسيحيون إلى الغساسنة هنا لمن لا يعرف من هم الغساسنة.

عـــندما اجتمع أبو بكر بقادة المسلمين (أهل الحد والعقد) ليشاورهم في أمر حملـــة الشام نصحه عبد الرحمن بن عوف قائلاً "يا خليفة رسول الله إنها لروم وبنو الأصـــفر حـــدّ حديد وركن شديد، والله ما أرى أن نقحم الخيل عليهم إقحاماً، ولكـــن تبعث الخيل فتغير من أداني أرضهم ثم تبعثها فتغير ثم ترجع إليك، ثم تبعثها فتـــرجع إليك، فإذا فعلوا ذلك مراراً أضرّ بعدوهم، وغنموا من أدنى أرضهم فقووا بـــذلك على قتالهم، ثم تبعث بأقاصي ربيعة ومضر فتجمعهم إليك جمعا، فإن شئت بعد ذلك غزوهم بنفسك، وإن شئت بعثت على غزوهم غيرك".

وبالمناسبة، إذا كان عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، وهو التاجر يمتلك هذا الفهـــم الاستراتيجي والتكتيكي في توجيه إدارة الحرب وقيادتها استراتيجيا وتكتيكياً. وهـــو ما كان ماوتسي تونغ ليذهل لو سمع به. فهذا يعني أن قادة المسلمين كانوا على قدر من المعرفة العسكرية استثنائية لا تجد لها مثيلاً حتى في الثورات الحديثة.

إن هذه الاستراتيجية شبيهة باستراتيجية المثنى بن حارثة التي تلخصت:

1. عدم مقاتلة الفرس إذا اجتمع ملؤهم وأمرهم.
2. عدم اقتحام عقر دارهم.
3. مقاتلتهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم، أو بكلمات أخرى إبقاء الصحراء العربية القاعدة الآمنة وخطّ المواصلات والانسحاب - إذا اقتضى الأمر - مع قتال مناوشة على الأطراف ووراء الخطوط.

وكان عمر بن الخطاب برسالته إلى سعد بن أبي وقاص قد شدد عليه بالإكثار مـــن الطلائع والعيون وبثّ السرايا بينه وبين العدو ثم يقول له: "فإذا عاينت العدو فاضـــمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع مكيدتك وقوتك ولا تعاجلهم بالمناجـــزة، مـــا لم يـــستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك، ومقاتله، وتعرف الأرض كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك، ثم أذك أحراسك على عـــسكرك وتيقظ من البيات جهدك".

إن هذه الأمثلة، قليل من كثير، تدل على مستوى عالٍ من التفكير العسكري الاستراتيجي والتكتيكي جاء نتيجة تجارب ماضية كثيرة ونتيجة معرفة وعلم باعتبار

الأهم والحروب، فضلاً عن طبيعة ظروف الحياة العربية. مما شكل أرضية بنت عليها ثورة الإسلام وحروب الفتوحات الأولى. وقد دفعت خطى إلى الأمام من خلال تجربة التطبيق العملي في الظروف الجديدة، حتى يكرس فنّ الحرب المتحركة على مستوى راقٍ فعلاً.

يبدو أيضاً، أن طبيعة القتال في الجزيرة العربية قبيل الإسلام، وعدم وجود الجيش المحترف جعلا الثقافة العسكرية وإدراك فنّ الحرب على مستوى تكتيكي واستراتيجي، ظاهرة عامة لا تقتصر على خالد بن الوليد وعمرو بن العاص والمثنى، وإنما معرفة مملوكة من قبل غالبية القادة والرجال البارزين. وهذا يفسر سبب ارتفاع مستوى القيادات العسكرية العليا والدنيا وكثرتها.

وأخيراً، لا بدّ من التأكيد على ضرورة أخذ هذه المقارنة بين حروب نابليون وحروب الفتوحات العربية الإسلامية بروحها وجوهرها لئلا نغفل عن أن نأخذ بعين الاعتبار اختلاف الظروف زماناً ومكاناً وطبيعة في الحالتين. ولئلا يفهم من هذا الدراسة أنها تبخس مما أحدثه نابليون من تطوير في فنّ الحرب، أو تبالغ، بصورة غير علمية، بما أحدثه العرب المسلمون من تطوير في هذا الفنّ.

ولهذا علينا أن نتذكر، مرة أخرى، أن حروب نابليون جرت ضمن إطار الأسلحة النارية وتطوير المدفعية خصوصاً، إلى جانب تطور التقنية والعلوم ووسائط النقل وتطور القوى الإنتاجية، مما دفع فنّ العمليات – التكتيك الكبير – وفنّ تكتيك المعركة على يده خطوات جبارة إلى أمام بالقياس إلى فنّ الحرب الذي ساد قبل عهده. وإن هذه الحقيقة هي التي تعطي قيمة متزايدة لما وصله العرب المسلمون من مستوى متطور في فنّ الحرب بالرغم من أن حروبهم جرت ضمن إطار السلاح الأبيض والسهام، وضمن مستوى أدنى من التطور التقني والعلمي ووسائط النقل والقوى الإنتاجية.

ولكنها كانت تقوم على أساس الحرب المتحركة بكل معنى الكلمة، ولهذا لا بدّ من أن توضع في مرتبة أرقى مما تقدمها وجاء بعدها من حروب حتى نابليون، ولا بدّ من وضعها في إطار تاريخي يجعلها سباقة على نابليون فيما أحدثه من تطوير على فنّ الحرب دون أن يقلل من قيمة ما أحدثه نابليون من تطوير ضمن إطار الأسلحة النارية والتقنية المتقدمة.

مصادر البحث

1970

1. On War. K. Clausewitz.
2. Summary of the Art of War. H. Jomini.
3. A History of the World War 1914-1918. B. Liddell Hart.
4. The Revolution in Warfare. B. Liddell Hatt.
5. The Strategy of Indirect Approach. B. Liddell Hart.
6. The Essentials of Military Knowledge. D.K. Palit.
7. Engles as Military Critic-(selected Articles). F. Engels.
8. Selected Correspondence Marx & Engels.
9. Letters to Americans Marx & Engels.
10. The Civil War in the U.S. Marx & Engels.
11. Selected Military Writings. Mao Tse-Tung.
12. Lenin on War and Peace (Three Articles). Lenin.
13. {Left-Wing} Childishness and the Petty-Bourgeois Mentality. Lenin.
14. {Left-Wing} Communism-An Infantile Disorder. Lenin.
15. The Foundations Of Leninism. J. Stalin.
16. The History of The Civil War in the USSR by Stalin & Gorki & Voroshilov & Kirov & Jhdanov.
17. The Historian and the Army. K.R. Greenfield.
18. Introduction to Strategy. A. Beaufre.
19. Military Writings. L. Trotsky.
20. The Thin Red Line. J. Selby.
21. A Study of History. A. Toynbee.
22. The Great Arab Conquests. J. B. Glubb.
23. Crusading Warfare (1097-1193). R.S. Smail.
24. Military Strategy: Soviet Doctrines of Concept. V.D. Sokolovsky.
25. Strategy in the missile age. B. Broclie.
26. Gustavous Adolphus. Dodge.

27. تـــاريخ فنّ الحرب (جزءان)، الجنرال ستروكوف، بالعربية. ترجمة العميد الركن صباح الدين الأتاسي.
28. مكافحة الدبابات. تأليف: بير بوكوف، ميلنيكوف، بالعربية، دار التقدم، موسكو.

مصادر البحث

2008 - 1971

29. A History of Military Thought (From the Enlightenment to the Cold War). By Azar Gat (Oxford University Press) 2001.

30. The Utility of Force. By Rupert Smith (The Art of War in the Modern World) Penguin Books, 2006.

31. Strategy. By B. Liddel Hart.

32. The Changing Face of War. By Martin Van Creveld (Combat From the by Marne to Iraq) Ballantine books, New York 2007-2008.

33. James Mattis and Frank Hoffman: Future Warfare: The Rise in Hybrid Wars.

34. Law Renee Freedman: "The Evolution of Nuclear Strategy". St. Martin Press, New York (1981).

35. Israeli Military Using Post-Structuralism as "Operational Theory". By Eyal Wéismax. www.Frieze.com.

36. The More Force You Use, the Les Effective You Are. By Michael Schwartz. Ms42@optonLine.net.

37. Why Iraq Will End as Vietnam. Did by Martin van Creveld. http://www.d-n-i.net/creveld/why_iraq_will_end_as_veitnam_did.htm.

38. Through A Glass, Darkly (Some Replications on the Future of War 2000 by Martin van Creveld).

http://www.d-n-i.net/creveld/through_a_glass_darkly.htm.

39. The Israel Defense Forces in the Second Lebanon War: Why the Poor Performance? (The Journal of Strategic Studies) vol. 31, no. 1, 3-40 February 2008.

40. The Lessons of the Israeli-Lebanon War. By Anthony H. Cordesman. CSIS-Center for Strategic of International Studies-Burke Chair in Strategy. March 11, 2008. www.CSIS.org.

41. D. Holloway Stalin and the Bomb: The Soviet Union and Atomic Energy, New Haven, Yale University Press 1994.

42. S.J. Cimbala "Nuclear Weapons in the New Order". Journal of Strategic Studies 1993.

43. W. Owen: "Lifting the Fog of War". New York. Farrar, Straus & Ciroux 2000.

44. T. Benbow: "The Magic Bullet? Under Tending the Revolution in Military Affairs", London, Brassey's 2004.

45. J. Kieviet: "Strategy and the Revolution in Military". Affairs: From Theory to Policy. Carlisle, Barracks, US A4 mg Strategic studies Institute 1995.

46. W. Millis: "Military History". 1961 Washington D.C (Service Center For Teachers of History).

47. Edward N. Luttwak: "The Pentagon and the art of War". New York, Simon & Schuster 1984.

48. Martin van Creveld: "The Changing Face of War Combat from Marne to Iraq". Ballantine Book New York 2007.

49. Peter Darman: "Surprise Attack" (Lightning Strikes of the World's Elite Forces). Bown Books, 1993, London, U.K.

الاستراتيجية والتكتيك في فَنْ عِلْمْ الحَرْب

من السيف والدروع إلى الصاروخ والأنفاق

منير شفيق

• كاتب ومفكر من فلسطين

دراسة الحرب وفهمها مسألة حيوية ليس بالنسبة للمختصين فحسب، وإنما أيضاً بالنسبة للمثقفين والصحفيين والسياسيين والفنيين والعلماء والمناضلين والجماهير. بل إن ظاهرة تحول الثقافة العسكرية إلى ثقافة عامة للشعب، أصبحت ظاهرة عالمية في كل البلدان. لأن الحرب ومسائلها أصبحت تعتمد اليوم أكثر من أي يوم مضى على الجهد الجماعي للأمة كلها سواء أكان في عمليات المؤخرة أم الميدان. إذ لم تعد عملية قيادة الحرب ووضع استراتيجيتها من اختصاص الجنرالات وحدهم فقد أصبحت الاستراتيجية – حتى في الدول الغربية الرأسمالية – ترسم على طاولة مستديرة يلتف حولها القادة السياسيون والجنرالات وأصحاب الاختصاصات المختلفة. أما في الصين الشعبية، فإن دراسة الحرب وقواعدها جزء أساسي من برامج التعليم في المدارس والجامعات، ومن الثقافة العامة للشعب كله. وعندما نتحدث عن الثقافة العسكرية أو دراسة قواعد فنّ الحرب لا نقصد التدريبات أو التمرينات العسكرية على فكّ السلاح وإطلاق النار والصف بالطابور فهذه تحصيل حاصل، وإنما نقصد دراسة الموضوع على أعلى مستوى الاستراتيجية والعمليات والتكتيك.

إن بلادنا العربية تواجه خطراً يتهدّدها إلى أجيال قادمة، وهذا الخطر مدجج بالسلاح ويلجأ للحرب لتحقيق أهدافه وغاياته العدوانية التوسعية والاستعمارية. إنه خطر الكيان الصهيوني والجيوش الإمبريالية. وليس لنا من سبيل إلاّ الدفاع عن بلادنا وجماهيرنا ومستقبلنا، وستكون الحرب جزءاً هاماً في هذا الدفاع، وعلينا أن ندركها ونعرف كيف نعدّ لها ونواجهها ونخوضها بنجاح. وإذا كانت الحرب عملية صدام وحشي يحمل الكوارث والدمار والويلات، إلاّ أنها مفروضة علينا وتعيش بين ظهرانينا، وعلينا أن نواجه هذه الحقيقة المرة ونحوّل مرارتها إلى حلاوة انعتاق إنساني. إن الذين يدركون قواعد علم الحرب ويعرفون كيف يعالجون مسائلها ويعرفون كيف يقودونها، هم وحدهم الذين يخففون من ويلاتها ويستطيعون إزالة أخطارها.

أما استمرار الجهل في هذا المجال، أو محاولة دفن الرؤوس في الرمال، فلن يدفعا الحرب عنا، ولن يخففا من وحشيتها وويلاتها، وسيلدان دائماً هزائم من طراز هزائمنا العسكرية عام 1948/1949، وعام 1967.

ISBN 978-9953-87-494-4



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com